

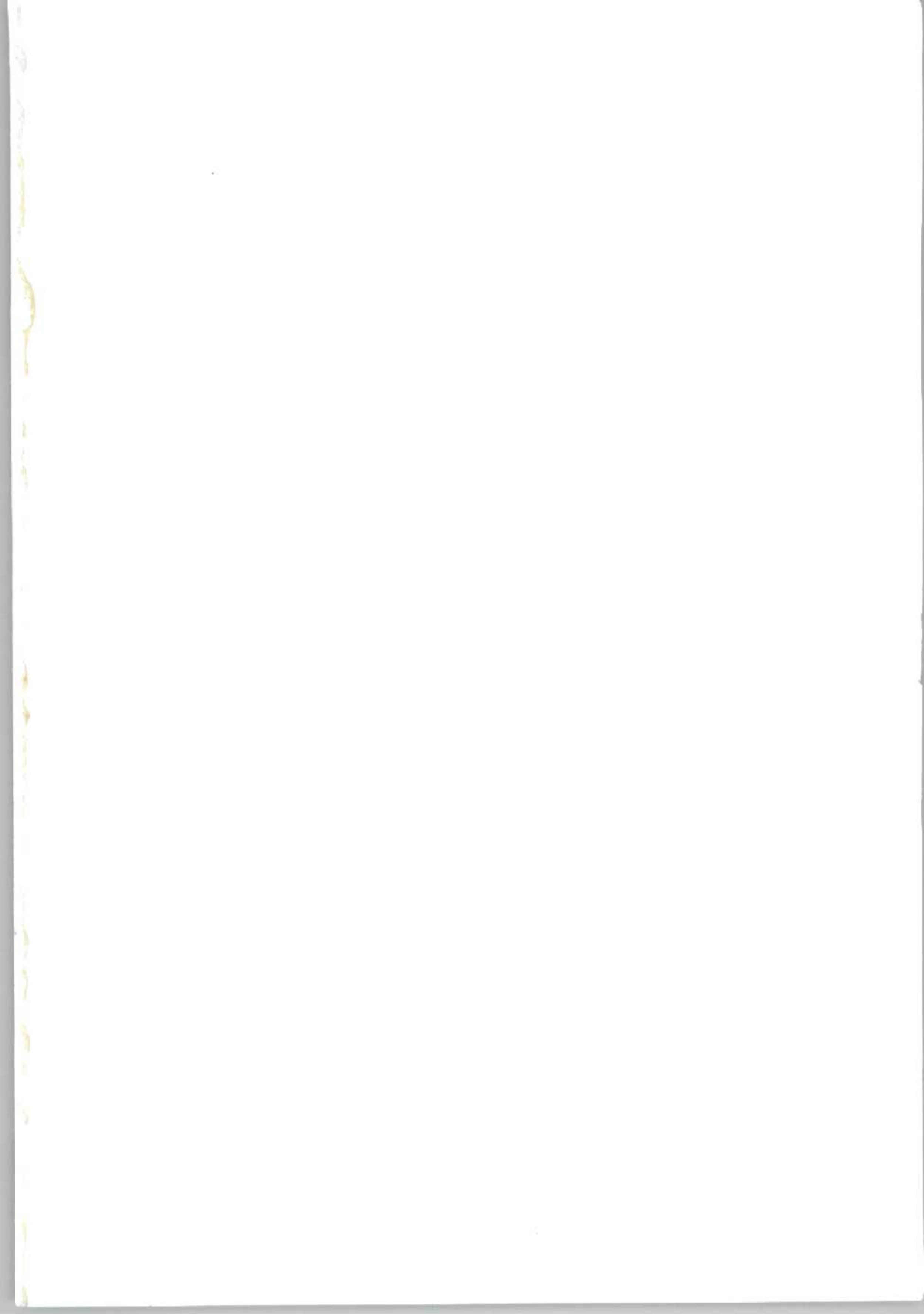




يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الثامن والثلاثون يناير ٢٠١١







المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة القاهرة

العدد الثامن والثلاثون

يناير ٢٠١١

المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم أ.د. محمد عفيفى رئيس التحرير على العنوان التالى : (قسم التاريخ) كلية الآداب - جامعة القاهرة - بريد الأورمان - الجيزة.

All correspondence to be directed to : Editor- in chief- Prof. Mohamed Afify, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

قواعد النشر

- ترحب مجلة المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش فى نهاية البحث.
- المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر في مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أياً كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

محتويات العدد

الصفحة

بحث باللغة الأجنبية

تقديم العدد

يسعدنى أن أقدم للقارئ هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ المصرى التى يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، أقدم أقسام التاريخ فى العالم العربى.

وسيلاحظ القارئ الكريم تعدد وتنوع موضوعات العدد بين فروع التاريخ المختلفة، فضلا عن تنوع لغات الأبحاث فى العدد.

وستظل المؤرخ المصرى مفتوحة لكافة الزملاء فى البلاد العربية تأكيدا على عروبة مصر ودورها الثقافى.

وندعو الجميع إلى مراسلة المجلة بأخبار الأنشطة الثقافية فى جامعاتهم وبلدانهم المختلفة، فضلا عن عروض أحدث الإصدارات العلمية، لإثراء الأعداد القادمة، وللمزيد من التواصل

والله الموفق ،،،،

أ.د. محمد عفيفى

رئيس التحرير

الأسرة الشهرزورية

دورها الدينى والسياسى فى العصر الزنكى واوائل الأيوبى

د/ محمد عبد النعيم

مدرس التاريخ فى العصور الوسطى

كلية الآداب – جامعة القاهرة

المقدمة:

تعتبر الأسرة الشهرزورية[١] من أهم الأسر التى بلغت شأناً عظيماً فى مجالات العلم والفقه والسياسة إبان العصر الزنكى.

وتنسب الأسرة الشهرزورية إلى القاسم بن الشهرزورى[٢] جد الشهرزوريين، وقد برز دور أبناء تلك الأسرة فى فترة حكم عماد الدين زنكى أتابك[٣] الموصل وابنه نور الدين محمود، واستمروا فى أداء دورهم الدينى والسياسى خلال العصر الأيوبى.

وكان بنو الشهرزورى يتمتعون بالبصيرة النافذة وبعد النظر فى مواجهة الأخطار التى تهدد الإسلام والمسلمين، فسعوا جاهدين لدى الحكام وأولى الأمر يبصرونهم بما يجب أن يكون عليه الحال، حتى يخلوا ساحتهم ويكونوا قد أدوا واجبهم نحو خالقهم ونحو أمتهم.

١- الأسرة الشهرزورية زمن عماد الدين زنكى

كان للقاضى بهاء الدين أبو الحسن على بن القاسم الشهرزورى[٤] وهو أحد أبناء هذه الأسرة دور كبير فى اختيار عماد الدين زنكى لكى يتولى أتابكية الموصل فى سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م. فعندما قتل آقسنقر البرسقى[٥] ثم مات بعده ابنه مسعود تولى بعده أخ له صغير[٦]، فتولى الوصاية عليه مملوك لأبيه يدعى جاولى[٧]. الذى أرسل إلى السلطان

محمود بن محمد بن ملكشاه، ليقره على تلك الوصاية، وكان رسولاه في هذا الأمر القاضى بهاء الدين أبو الحسن على بن القاسم الشهرزورى، والأمير صلاح الدين محمد الياغيسيانى[٨] أمير حاجب البرسقى.

فسارا حتى حضرا دركاه السلطان ليخاطباه فى ذلك "وكانا يكرهان جاولى ويخافانه، ولا يرضيان بطاعته"[٩] فاجتمعا مع نصير الدين جقر[١٠] نائب عماد الدين زنكى على الموصل، فى بغداد وقرروا أن جاولى لا يصلح لحفظ البلاد لأنه كان سيئ السيرة[١١].

عندئذ أخذ القاضى بهاء الدين الشهرزورى على عاتقه حمل الأمانة وقول الحق، فاجتمع هو وصلاح الدين الياغيسيانى بوزير السلطان السلجوقى شرف الدين أنوشروان بن خالد[١٢] وقالا له:

"قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها، وقويت شوكتهم بها، فاستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين[١٣] إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين، وقد كان البرسقى مع شجاعته وتجربته وانقياد العساكر إليه، يكف بعض عاديتهم وشرهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولابد للبلاد من رجل شهم شجاع ذى رأى وتجربة، يذب عنها ويحفظها ويحمى حوزتها"[١٤].

ويتضح من خلال حديث القاضى بهاء الدين الشهرزورى مبلغ تخوفه من سيطرة الصليبيين على أراضى الإسلام وخشيته من اتساع الرتق باستيلائهم على المزيد منها، وحاجة البلاد إلى الرجل المناسب لوقف التوسع الصليبى والتصدى له.

ومن عمق إحساسه بالمسئولية أمام الله والعباد نراه يستطرد قائلا: "وقد أنهينا الحال لئلا يجرى خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فيختص اللوم بنا، ويقال: ألا أنهيتم إلينا جلية الحال"[١٥].

وقد رفع الوزير قولهما هذا إلى السلطان "فاستحسنه وشكرهما عليه وأحضرهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكرا جماعة منهم عماد الدين زنكى"[١٦].

وهكذا لم يكتف القاضى بهاء الدين الشهرزورى والياغيسيانى

بالنصح والإرشاد، بل أنهما رشحا لولاية الموصل عماد الدين زنكى، وفى الوقت نفسه بذلا عنه تقرباً إلى خزانة السلطان مالاً جليلاً(١٧).

فاستجاب لهما السلطان محمود وقرر توليته الموصل "لما يعلمه من كفايته لما يليه، فأحضره وولاه البلاد كلها، وكتب منشوره بها"(١٨).

واعترافاً من عماد الدين زنكى بما بذله القاضى بهاء الدين الشهرزورى من أجله، وردا لجميله نحوه عينه قاضى قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، وكذلك زاده أملاكاً وإقطاعاً واحتراماً(١٩).

وكان يثق فيه وفى آرائه وعلمه، لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان عماد الدين يستشيره فى معظم الأمور الهامة فى دولته حتى صرح ابن الأثير بذلك قائلاً: "وكان لا يصدر إلا عن رأيه"(٢٠).

وهناك شخصية أخرى من أسرة الشهرزورى لعبت دوراً فى الحياة الدينية وهو المرتضى بن الشهرزورى(٢١) (والد القاضى كمال الدين) الذى ولد فى الموصل فى شعبان سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧١م، وكان أحد الفضلاء الشهرزوريين والعلماء المذكورين، اشتهر بالفضل والدين، "وكان مليح الوعظ مع الرشاقة والتجنيس"، وقد أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه، ثم عاد إلى الموصل وتولى القضاء بها وروى الحديث وكان له النظم والنثر، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م بالموصل(٢٢) (وقيل أنه توفى فى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) (٢٣).

أما أشهر أبناء هذه الأسرة فهو القاضى كمال الدين الشهرزورى(٢٤) الذى ولد سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م بالموصل وتولى القضاء بها، وبنى بها مدرسة للشافعية، ورباطاً بمدينة الرسول ﷺ، وكان يتردد فى الرسائل منها إلى بغداد عن عماد الدين زنكى.

وقد ظهر نشاط القاضى كمال الدين الشهرزورى فى الموصل سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م فى فترة النزاع الذى حدث بين الخليفة الراشد بالله العباسى(٢٥) (٥٢٩-٥٣٢هـ/ ١١٣٥-١١٣٨م)، والسلطان السلجوقى مسعود بن محمد بن ملكشاه(٢٦) (٥٢٧-٥٤٧هـ/ ١١٣٣-١١٥٢م)، بسبب

السلطان مسعود لفرض سيطرته على الخليفة الراشد العباسى، فأرسل فى سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م يطلب من الخليفة استرداد مبلغ أربعمائة ألف دينار كان قد فرضها عليه والده الخليفة المسترشد بالله[٢٧] (٥١٢-٥٢٩هـ/ ١١١٨-١١٣٥م)، ولكن الراشد رفض تسليمه هذا المبلغ وقال: "ليس بيننا وبينكم إلا السيف، فوقع بينهما الخلف"[٢٨].

ثم أمر الراشد بقطع الدعوة فى الخطبة للسلطان مسعود، وعندئذ سار السلطان مسعود إلى بغداد على رأس جيشه وحاصرها حتى ضاق الأمر على من بها، فاضطر عماد الدين زنكى الذى كان مؤيداً لجيش الخلافة إلى الانسحاب إلى الموصل ومعه الخليفة العباسى الراشد[٢٩]، مما مهد الطريق لدخول السلطان السلجوقى بغداد فى نفس السنة "فأحضر القضاة والشهود والفقهاء، وأثبتوا محضراً شهدوا فيه بوجوب خلع الخليفة الراشد"[٣٠]. ثم قاموا بتولية المقتفى لأمر الله[٣١] بدلاً منه، وبايعه السلطان والأمراء والقضاة والفقهاء.

فلما علم الخليفة الراشد وهو بالموصل عند عماد الدين زنكى، بمبايعة المقتفى بالخلافة فى بغداد، أرسل هو وعماد الدين زنكى رسولين إلى بغداد، وكان القاضى كمال الدين بن الشهرزورى مندوباً عن عماد الدين زنكى.

فلما وصل القاضى كمال الدين بن الشهرزورى إلى بغداد دخل إلى ديوان الخليفة، فطلب منه مبايعة المقتفى ولكنه رفض قائلاً: "إن أمير المؤمنين عندنا بالموصل وقد بايعناه نحن وأنتم والناس قاطبة فى شرق الأرض وغربها، وقد علمتم ما قيل فى من يبايع آخر".

وأضاف قائلاً: "إن الراشد له فى أعناقنا بيعه، ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه، وأنا فقيه لا يجوز لى فعل ما ينافى الشرع، فيثبتون ما يوجب خلعه حتى أخلعه وأبايع عنى وعن صاحبى" (يقصد عماد الدين زنكى أتابك الموصل)[٣٢].

فقام الشهود وشهدوا عند القاضى كمال الدين الشهرزورى بما يوجب خلع الراشد، "فأحضروا القضاة والأعيان والعلماء، وكتبوا محضراً فيه شهادة طائفة بما جرى من الراشد من الظلم وأخذ الأموال وسفك الدماء وشرب الخمر، واستفتوا

الفقهاء فيمن فعل ذلك: هل تصح إمامته ؟ وهل إذا ثبت فسقه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه ويستبدل خيراً منه ؟ فأفتوا بجواز خلعه"(٣٣).

وهنا أعلن القاضى كمال الدين بن الشهرزورى موافقته على ذلك، وقام الخليفة المقتفى بمنح عماد الدين زنكى بعض المواقع الهامة فى العراق من خاص الخليفة، وهذه هى المرة الأولى التى سمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون له فى العراق إقطاع(٣٤).

يتضح مما تقدم مكانة القاضى كمال الدين الشهرزورى عند عماد الدين زنكى، والثقة الكبيرة التى كان يتمتع بها عنده، فتلك المهمة التى قام بها الشهرزورى كرسول من قبل عماد الدين زنكى إلى كل من الخليفة والسلطان ببغداد تعتبر من المهام الصعبة التى تحملها بعض الفقهاء المتميزين، إلى جانب ما يتحملوه من أعباء أخرى.

لأن مثل هذه المهمة على الخصوص تقتضى فيمن يقوم بها مواصفات خاصة مثل اللباقة فى الحديث والشخصية القوية المؤثرة والحكمة وبعد النظر والحفاظ على الأسرار الهامة، وتلك الصفات كلها إجتمعت فى القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، فقد استطاع بما أوتى إليه من هذه الصفات التخلص من الموقف الحرج الذى وضع فيه ببغداد، وأن يكلل مهمته بنجاح كبير، وغنم من الموقف بإقطاع عظيم لعماد الدين زنكى.

ولاشك أن مثل هذه السفارة وغيرها من السفارات الدبلوماسية الأخرى التى كان يقوم بها بعض الفقهاء والعلماء كالقاضى الشهرزورى، إنما تعبر عن نوع جديد من جهادهم فى سبيل الله، فالوساطة بالصلح بين قطبى العالم الإسلامى أو أية قوتين إسلاميتين لابد أن يفتح الطريق أمام وحدة الصف الإسلامى وتحد إلى درجة كبيرة من أطماع الصليبيين فى استمرار وجودهم فى الأراضى المقدسة على حساب تفكك القوى الإسلامية فى المنطقة، بعكس الحال إذا ما استمر الصراع بين المتنازعين مما يترتب عليه كثرة انتصارات الصليبيين واحرازهم تقدماً كبيراً فى المنطقة.

ومن السفارات الهامة التى اضطلع بها القاضى كمال الدين الشهرزورى تلك

السفارة التى توجه فيها من قبل عماد الدين زنكى فى سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م إلى السلطان مسعود ببغداد كى يستنفره لإرسال نجدة من العسكر السلطانى إلى عماد الدين زنكى لصد الهجوم الذى قام به الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين[٣٥] (٥١٢-٥٣٨هـ/ ١١١٨-١١٤٣م) والصليبيون على حلب[٣٦].

يقول ابن الأثير: "ولما كان الفرنج على بزاعه[٣٧] أرسل زنكى القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى إلى السلطان مسعود يستنجده، ويطلب العساكر"[٣٨].

فقام القاضى كمال الدين الشهرزورى بابلاغ السلطان بخطورة الموقف، وأوضح له عاقبة الإهمال والتراخى فى هذا الأمر، وخوفه من أنه ليس بينه وبين الروم إلا أن تملك حلب وينحدروا مع الفرات إلى بغداد[٣٩].

فلما وجد القاضى كمال الدين الشهرزورى أن السلطان تباطأ فى اتخاذ اللازم بشأن تجهيز العسكر للخروج للجهاد، "ولم يجد عنده حركة" على حد تعبير ابن الأثير[٤٠]، قام بحيله تدل على ذكاء بالغ وحكمة كبيرة، فحرض أحد الفقهاء كان ينوب عنه فى القضاء[٤١]، وأمره بجمع الناس أثناء صلاة الجمعة بكل من جامع الخليفة وجامع السلطان ببغداد، وأن يصيحوا بأصوات عالية ويشقوا ثيابهم ويخلعوا عمائمهم ويصيحوا جميعاً بصوت واحد: "وآ إسلاماه وآ دين محمداه"[٤٢].

فقام الناس بذلك ومنعوا الصلاة وخرجوا جميعاً إلى دار السلطان يستغيثون ويبكون. ويصف لنا ابن الأثير هذه الحادثة فيقول:

"فلما صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم رأسه، وألقى عمامته وشق ثوبه، وأولئك معه، وصاحوا، فبكى الناس وتركوا الصلاة، ولعنوا السلطان، وساروا من الجامع يتبعون الشيخ إلى دار السلطان فوجدوا الناس فى جامع السلطان كذلك، وأحاط الناس بدار السلطان يستغيثون ويبكون"[٤٣].

وعندما علم السلطان بذلك أرسل فى طلب مقابلة القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، وطلب منه أن يهدئ الناس ويفرقهم ويبلغهم بموافقة السلطنة على تجهيز العسكر للخروج إلى الجهاد.

ويذكر لنا ابن الأثير الحوار الذى دار بين السلطان وكمال الدين الشهرزورى

حيث يقول: "فخاف السلطان، فقال: أحضروا إلى ابن الشهرزورى، فأحضر، فقال كمال الدين: لقد خفت منه مما رأيت، فلما دخلت عليه قال لى: أى فتنة أثرت ؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، أنا كنت فى بيتى، وإنما الناس يغارون للدين والإسلام، ويخافون عاقبة هذا التوانى، فقال: أخرج إلى الناس ففرقهم عنا وأحضر غداً واختر من العسكر من تريد"(٤٤).

فلما علم الناس بذلك من القاضى ابن الشهرزورى تفرقوا. وجهز السلطان العساكر بالفعل ليصحبوا القاضى كمال الدين الشهرزورى إلى بلاد الشام "وحضرت من الغد إلى الديوان، فجهزوا لى طائفة عظيمة من الجيش"(٤٥).

ولكن وصلت الأخبار من عماد الدين زنكى بأن الإمبراطور البيزنطى قد رحل ولا داعى لوصول العسكر من بغداد، فقام القاضى كمال الدين الشهرزورى بإبلاغ السلطان بذلك حتى أقنعه بعدم الخروج فى ذلك الوقت، فعاد العسكر على الرغم من رغبة السلطان الشديدة فى إنفاذ العساكر إلى الشام.

يقول ابن الشهرزورى: "فعرفت السلطان ذلك فقال: العسكر قد تجهز، ولابد من الغزاة إلى الشام، فبعد الجهد وبذل الخدمة العظيمة له ولأصحابه أعاد العسكر"(٤٦).

ويوضح القاضى كمال الدين بن الشهرزورى فى كلامه أن إصرار السلطان على ذهاب العسكر إلى الشام كان بقصد أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها(٤٧).

يقول ابن الشهرزورى: "فجهزوا لى طائفة عظيمة من الجيش، فأرسلت إلى نصير الدين(٤٨) بالموصل أعرفه ذلك، وأخوفه من العسكر إن طرقوا البلاد، فإنهم يملكونها، فأعاد الجواب يقول: البلاد لاشك مأخوذه فلأن يأخذها المسلمون خير من أن يأخذها الكافرون"(٤٩).

ويتضح لنا مما تقدم مدى بعد نظر القاضى كمال الدين الشهرزورى وحكمته وفطنته لما يدور حوله، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود. وبحسن تصرفه أنقذ عماد الدين زنكى من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذا وصلت عساكر السلطان إلى بلاد الشام فى ذلك الوقت بعد رحيل البيزنطيين والصليبيين عن حلب.

ويكفى هنا أن نوضح أهمية وجود القاضى كمال الدين الشهرزورى فى دولة عماد الدين زنكى أن نذكر تعقيب ابن الأثير على ما قام به هذا الثقيه مع السلطان مسعود، إذ يقول: "فانظر إلى هذا الرجل الذى هو خير من عشرة آلاف فارس، رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همه عالية ورغبة فى الرجال ذوى الرأى والعقل، ويرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطاء"(٥٠).

ومما يدل على مكانة القاضى كمال الدين الشهرزورى عند عماد الدين زنكى ما ذكره أيضاً ابن الأثير من أن أصحاب عماد الدين قالوا له: "إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأى تدبرون دولتى ؟ إن كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار"(٥١).

ولم يكن تقدير عماد الدين زنكى للفقهاء والعلماء الشهرزوريين قاصراً على القاضى كمال الدين الشهرزورى فحسب دون غيره من الفقهاء الآخرين، إنما كان هناك أيضاً العديد منهم قد نال حظاً وفيراً من تأييده وعطفه واحترامه، ويأتى فى مقدمتهم القاضى تاج الدين أبو طاهر يحيى بن الشهرزورى(٥٢) وهو أحد أفراد الأسرة الشهرزورية، فقد استطاع هذا العالم أن يحفظ الموصل أثناء جهاد عماد الدين زنكى ضد الصليبيين من أجل فتح البيرة(٥٣) سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م.

وعندما كانت هذه المدينة قد أوشكت على السقوط فى يد عماد الدين زنكى ورد إليه نبأ مقتل نائبه بالموصل نصير الدين جقر، فانزعج كثيراً واضطر عماد الدين إلى الرحيل عن البيرة وأرسل نائباً عنه إلى الموصل لاستطلاع حقيقة الأمر، وهو القاضى تاج الدين بن يحيى بن الشهرزورى الذى كان ملازماً لعماد الدين أثناء محاصرته للبيرة(٥٤).

فلما وصل تاج الدين بن الشهرزورى إلى الموصل علم أن الملك فرخشاه(٥٥) ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كان وراء مقتل نصير الدين جقر ليملك الموصل فى غياب عماد الدين عنها(٥٦).

ولذلك قام القاضى تاج الدين بن الشهرزورى بخدعة كى يفسد على

فرخشاه مخططه، فدخل فى الدار التى كان يحاصره فيها أصحاب جقر وأصحاب عماد الدين زنكى، وظل يخادعه بمعسول الكلام ويحسن له ما فعله مع جقر ويشجعه على الصعود إلى قلعة الموصل حتى يملكها ويكون فى مأمن، حيث يوجد بها الأموال والسلاح فيستطيع بعد ذلك تملك الموصل.

ويصف لنا ابن الأثير تفاصيل هذه الخدعة التى دبرها تاج الدين الشهرزورى فيقول: "ثم دخل إليه القاضى تاج الدين يحيى بن الشهرزورى ولم يزل به يخدعه، وكان فيما قال له حين رآه منزعجاً: يا مولانا لم تحرد من هذا الكلب ؟ هذا وأستاذه مماليكك، والحمد لله الذى أراحنا منه وَمن صاحبه على يدك، وما الذى يقعدك فى هذه الدار ؟ قم لتصعد القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند، وليس دون البلاد بعد الموصل مانع"[٥٧].

فاقتنع الملك فرخشاه وخرج فى صحبة القاضى تاج الدين الشهرزورى وصعدا معاً إلى القلعة، وهناك قبض عليه وعلى من معه من أتباعه الذين قتلوا نصير الدين جقر.

وقد استطاع القاضى تاج الدين الشهرزورى بفطنته وذكائه أن يستكمل خدعته ويتم القبض على الملك فرخشاه وأتباعه دون قتال ودون إراقة دماء، فقد "قام معه وركب القلعة، فلما قاربها أراد من بها من النقيب والأجناد القتال، فتقدم إليهم تاج الدين وقال لهم: افتحوا الباب وتسلموه، وافعلوا به ما أردتم، ففتحوا الباب ودخل الملك والقاضى إليها ومعهما من أعان على قتل نصير الدين، فسجنوا ونزل القاضى"[٥٨].

وبعد ذلك توجه القاضى تاج الدين الشهرزورى إلى عماد الدين زنكى وأبلغه بكل ما فعله، "فسكن جأشه واطمأن قلبه"[٥٩].

ومما تقدم يتضح لنا مدى ما بلغه القاضى تاج الدين بن الشهرزورى مِن الفطنة وحسن التصرف، مثل باقى أقاربه من بيت الشهرزورى الذين امتلأت بهم دولة عماد الدين زنكى.

ومما يدل على المكانة العالية التى تمتعت بها الأسرة الشهرزورية فى دولة عماد الدين زنكى ما ذكره المؤرخ ابن الأثير حيث يقول: "كان

الإنسان إذا قدم عسكره (يقصد عسكر عماد الدين زنكى) لم يكن غريباً، فإن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم، وإن كان القادم صاحب ديوان قصد منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ونظرهم فى مصالحه ما يكون كأنه فى أهله، وإن كان عالماً فيقصد خيام القضاة بنى الشهرزورى وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد فيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود أهلاً.

وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوى الهمم العلية والآراء الصائبة والأنفس الأبيه، ويوسع عليهم فى أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف"[٦٠].

ولعل أفضل ما قيل فى رجال البيت الشهرزورى فى دولة زنكى ما قاله المؤرخ ابن الأثير أيضاً فى موضع آخر: "وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال والأجلاد ذوى الرأى والتجربة"[٦١].

ولما قتل عماد الدين زنكى على قلعة جعبر[٦٢] كان كمال الدين الشهرزورى حاضراً فى العسكر هو وأخوه تاج الدين أبو طاهر يحيى والد القاضى ضياء الدين، فلما رجع العسكر إلى الموصل كانا فى صحبته[٦٣].

ويبدو أن كمال الدين الشهرزورى وأخيه تاج الدين أبو طاهر قد تعرضا لمحنة أو لوشاية اعتقلا على أثرها فى أيام سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى فعندما تولى سيف الدين غازى، فوض الأمور كلها إلى القاضى كمال الدين الشهرزورى وأخيه تاج الدين أبو طاهر بالموصل وجميع مملكته، ثم إنه قبض عليهما فى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م واعتقلهما بالموصل.

ويبدو أن أسرة آل زنكى لم تستطع الاستغناء عن خدمات أبناء الأسرة الشهرزورية لثقتهم الكبيرة بهم، فحتى عندما اعتقل كمال الدين الشهرزورى وأخيه، أحضر نجم الدين أبا على الحسن بن بهاء الدين أبى الحسن على الشهرزورى – وهو ابن عم كمال الدين – وكان قاضياً بالرحبة[٦٤] ليتولى أمر القضاء بالموصل وديار ربيعه عوضاً عن كمال الدين الشهرزورى[٦٥].

ثم إن الخليفة المقتفى سير رسولاً وشفع فى كمال الدين الشهرزورى وأخيه

"فأخرجا من الاعتقال، وقعدا فى بيوتهما وحبس بالقلعة جلال الدين أبو أحمد ولد كمال الدين، وضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن تاج الدين" الشهرزورى(٦٦).

ومما يدل على علو مكانة الأسرة الشهرزورية ومدى احترام آل زنكى لأبناء هذه الأسرة ما حدث من قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى – الذى تولى السلطنة بعد أخيه سيف الدين غازى – فعندما مات سيف الدين غازى، حضر كمال الدين الشهرزورى وأخيه تاج الدين إلى قطب الدين مودود بن زنكى.

"وكان راكباً فى ميدان الموصل، فلما قربا منه ترجلا وعليهما ثياب العزاء، فلما وصلا إليه ترجل لهما أيضاً، وعزياه عن أخيه وهنآه بالولاية، ثم ركبوا، ووقف كل واحد منهما على جانبه، ثم عادا إلى بيوتهما، وصارا يركبان فى الخدمة"(٦٧).

٢- علاقة الأسرة الشهرزورية بنور الدين محمود

وعندما تولى نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦-١١٧٣م) بعد وفاة أبيه عماد الدين زنكى، سار على نهج أبيه فى احترامه وتقديره لفقهاء وعلماء عصره فبلغت منزلتهم ومكانتهم درجة عالية القدر، فكانوا يعقدون مجلساً للشورى يحضره معهم نور الدين محمود يتشاورون فيه معه فى كل ما يخص شئون الدولة، وكان نور الدين يحترم آراءهم ولا يقدم على عمل إلا بعد استشارتهم فيه، وكان "يسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة"(٦٨).

يقول ابن الأثير عن نور الدين: "وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط يده"(٦٩).

ورغم أن نور الدين "كان مهيباً وقوراً شديد الهيبه فى قلوب الأمراء، لا يتجاسر أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه... ومع هذا كان إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته فى وقار وسكون، وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم فى بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم السنه علينا"(٧٠).

وقد انتقل القاضى كمال الدين الشهرزورى إلى خدمة نور الدين

محمود صاحب الشام واستمر في تأدية واجبه بنفس النشاط الذي كان عليه من قبل، وظلت له المنزلة والمكانة العالية كما كان أيام عماد الدين زنكي.

وقد بالغ نور الدين في إكرامه، وولاه قضاء دمشق ونظر الأوقاف، ونظر أموال السلطان وغير ذلك، ولثقته الكبيرة به لم يكن نور الدين يحاسبه على شئ من الوقوف[٧١].

وقد ذكر ابن الأثير أن كمال الدين الشهرزوري كان "قاضي دمشق وجميع الشام وإليه الوقوف بها والديوان، وكان جواداً فاضلاً رئيساً ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول"[٧٢].

كما ذكر العيني أن كمال الدين الشهرزوري "كان فاضلاً ديناً أميناً ثقة ورعاً"[٧٣]. وقد استناب القاضي كمال الدين الشهرزوري ولده وأولاد أخيه ببلاد الشام، فاستناب ولده القاضي محي الدين[٧٤] في الحكم بمدينة حلب "ولم يكن شئ من أمور الدولة يخرج عنه، حتى الولاية وشد الديوان وغير ذلك"[٧٥].

كما استناب ابن أخيه أبا القاسم حماه، وابن أخيه الآخر حمص[٧٦] وقد توجه كمال الدين رسولاً من جهة نور الدين إلى الديوان في أيام الخليفة المقتفي (٥٣٠-٥٥٥هـ/ ١١٣٦-١١٦٠م) وسيره المقتفي رسولاً للإصلاح بين نور الدين وقلج أرسلان بن مسعود صاحب الروم[٧٧].

واستمر القاضي كمال الدين الشهرزوري يؤدي ما يناط إليه من أعمال من قبل نور الدين محمود حتى بلغ درجة الوزارة سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م، وأصبحت كل أمور الدولة مرجعها إليه[٧٨].

وقد جاء في طبقات الشافعية أن كمال الدين الشهرزوري "تمكن في الأيام النورية تمكنا بالغا"[٧٩].

كما ذكر سبط بن الجوزي أن كمال الدين الشهرزوري "كان رئيس أهل بيته، وولي قضاء القضاة بدمشق وحمص وحماه وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين، وكان إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف"[٨٠].

كما فوض نور الدين إلى كمال الدين الشهرزوري "نظر الجامع ودار الضرب والأسوار وعمر له المارستان والمدارس وغير ذلك من الأمور المهمة"[٨١].

يقول ابن كثير: "وكان الجامع (بدمشق) داثراً، فولى نظره القاضى كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى الموصلى" الذى قدم به فولاه قاضى القضاة بدمشق، فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعة، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترق فى سنة إحدى وستين وأربعمائة، وأضاف إلى أوقاف الجامع المعلومة الأوقاف التى لا يعرف واقفوها، ولا يعرف شروطهم فيها، وجعلها قلماً واحداً، وسمى مال المصالح، ورتب عليه ذوى الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وما أشبه ذلك"[٨٢].

وكان القاضى كمال الدين الشهرزورى ناصحاً أميناً لنور الدين محمود، ففى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م قام نور الدين محمود بإعطاء الموصل لابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود، وأعطى سنجار[٨٣] لأخيه الأكبر عماد الدين بن مودود.

ولكن القاضى كمال الدين الشهرزورى قدم اعتراضه على ذلك التصرف خشية من تفكك وحدة البيت الزنكى وطمع الأعداء فيهم، وقال لنور الدين: "هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكى لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الأغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف وتطمع الأعداء"[٨٤].

وكان نور الدين يجلس مع القاضى كمال الدين الشهرزورى فى دار العدل لينصف المظلوم من الظالم ولو كان الظالم هو أكبر أمرائه. وقد ذكرت المصادر أن نور الدين: "هو أول من ابتنى داراً للعدل، وكان يجلس فيها فى الأسبوع مرتين، وقيل أربع مرات، وقيل خمس، ويحضر القاضى والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب ولا غيره بل يصل إليه القوى والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهمهم ويخاطبهم بنفسه، فيكشف المظالم، وينصف المظلوم من الظالم"[٨٥].

وكان سبب إنشاء نور الدين لدار العدل أن أسد الدين شيركوه[٨٦] وأمراءه عندما جاءوا إلى دمشق استولوا على أملاك الناس وظلموهم واستطالوا عليهم فكثرت الشكاوى من الناس إلى القاضى كمال الدين

الشهرزورى، يقول ابن كثير عن سبب إنشاء نور الدين لدار العدل: "وكان سبب ذلك أن أسد الدين شيركوه بن شادى كان قد عظم شأنه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه فى المملكة، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى، وكان ربما ظلم نوابه جيرانه فى الأراضى والأملاك العدل"(٨٧).

وكان جيران شيركوه فى الأراضى والأملاك يتقدمون بالشكاوى إلى القاضى كمال الدين الشهرزورى الذى عرف بعدله وإنصافه، ويوضح لنا ابن كثير موقف القاضى كمال الدين الشهرزورى تجاه هذه المشكلة فيقول: "وكان القاضى كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء إلا أسد الدين هذا فما كان يهجم عليه"(٨٨).

ويبدو أن كمال الدين الشهرزورى استثنى أسد الدين شيركوه لأنه كان يعلم عظم مكانته عند نور الدين محمود، ولذلك ارتأى ببعد نظره وحسن سياسته أن يرفع أمره إلى نور الدين فما كان من نور الدين إلا أن ابتنى داراً للعدل حتى يرضخ لأحكامها الكبير والصغير.

وقد تحقق ما أراده نور الدين وكمال الدين، فعندما أنشأت دار العدل وعلم شيركوه أن سبب إنشاءها هو ما حدث من أمرائه من جور على أملاك وأراضى الناس، أحضر شيركوه أمرائه وعنفهم وأمرهم برد المظالم إلى أهلها خوفاً من أن يراه نور الدين فى صورة الظالم فتهتز مكانته عنده، كما أن شيركوه كان يعلم أن القاضى كمال الدين الشهرزورى كان لا يخشى فى الحق لومة لائم وأنه سيقتص منه ومن أمرائه.

يقول العينى على لسان أسد الدين شيركوه: "فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه وديوانه، وقال: إن نور الدين ما بنى هذه الدار إلا بسببى وحدى، لينتقم منى، وإلا فمن هو الذى يمتنع على كمال الدين (الشهرزورى) والله لأن أحضرت إلى دار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه، فإن كان بينكم وبين أحد منازعه فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى على جميع ما فى يدى، فإن خروج أملاكى من يدى أهون من أن يرانى نور الدين بعين ظالم، ويسوى بينى وبين أحاد العوام، ففعلوا وأرضوا الخصوم"(٨٩).

فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة ولم ير أحداً يستعدى على أسد الدين أو يشكو من أمرائه، سأل القاضى كمال الدين الشهرزورى عن ذلك فأعلمه بصورة الحال وأخبره بما حدث من شيركوه تجاه أمرائه، فسجد نور الدين شكراً لله وقال: الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا(٩٠).

وكان نور الدين يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها، ويوصى كمال الدين الشهرزورى بذلك حتى لو تعلق الأمر بتطبيق أحكام الشريعة على نور الدين نفسه.

فقد ذكر ابن الأثير أن الملك نور الدين بينما هو ذات يوم يلعب بالكره إذ رأى رجلاً يحدث آخر ويومئ إلى نور الدين، فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه، فإذا هو رجل معه رسول من جهة الحاكم، وهو يزعم أن له على نور الدين حقاً يريد أن يحاكمه عند القاضى.

فلما رجع الحاجب إلى نور الدين وأعلمه بذلك ألقى الجوكان من يده، وأقبل مع خصمه ماشياً إلى القاضى الشهرزورى، وأرسل نور الدين إلى القاضى أن لا تعاملنى إلا معاملة الخصوم.

يقول ابن الأثير: "وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضى كمال الدين بن الشهرزورى يقول: قد جئت محاكماً، فأسلك معى ما تسلك مع الخصوم"(٩١).

فحين وصلا وقف نور الدين مع خصمه بين يدى القاضى الشهرزورى، حتى انفصلت الخصومه والحكومه، ولم يثبت للرجل على نور الدين حق، بل ثبت الحق للسلطان على الرجل، وكان يدعى مُلكاً فى يد نور الدين.

فلما تبين ذلك قال نور الدين للقاضى والعدول: هل ثبت له على حق ؟ قالوا: لا، قال: فاشهدوا أنى قد وهبت له هذا الملك، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندى، وإنما حضرت معه، لئلا يقال عنى إنى دُعيت إلى مجلس الشرع فأبيت(٩٢).

"وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذى أحضره، وقال: "أردتُ أن أترك له ما يدعيه، إنما خفت أن يكون الباعث لى على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه"(٩٣).

ومما يدل على العلاقة الخاصة التى ربطت نور الدين بالقاضى كمال

الدين الشهرزورى تلك الرواية التى وردت فى المصادر عن نور الدين أنه: "دخل يوماً إلى خزائنه، فرأى مالا كثيراً، فقال: من أين هذا ؟ قال خازنه: بعث به القاضى كمال الدين (الشهرزورى) من فائض الأوقاف، فقال: ردوه إليه، وقولوا له: إن رقبتى دقيقه لا تقدر على حمله غداً، وأنت رقبتك غليظة، تقدر على حمله"(٩٤).

وإن دلت هذه الرواية على شئ فإنما تدل على شدة خشية وخوف نور الدين من حساب ربه يوم القيامة، وتدل فى نفس الوقت على علاقة حميمة قد تصل إلى درجة الصداقة بينه وبين القاضى الشهرزورى مما دفعه إلى مداعبته وتوجيهه فى نفس الوقت من خلال ما ورد فى الرواية.

وما كان يصل إلى نور الدين من هدايا الملوك وغيرهم كان يبعثه إلى القاضى كمال الدين الشهرزورى، يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة، ولا يتناول منه شيئاً.

وأحياناً كان يرسل القاضى كمال الدين الشهرزورى بالهدايا إلى الخليفة العباسى، فقد ذكر العينى فى أحداث سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م أن مليح بن لادن مقدم بلاد الأرمن التجأ إلى نور الدين، وتقوى به على الروم والأرمن وتمكن بمساعدته من هزيمتهم واستولى منهم على مدينة سيواس(٩٥).

يقول العينى: "وكان كلب الروم(٩٦) يحمى سيواس ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون، فكسرهم وقتل وأسر، وساق لنور الدين من مقدمى الروم ثلاثين أسيراً.

فأرسل نور الدين القاضى كمال الدين بن الشهرزورى بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضئ بأمر الله(٩٧) (٥٦٦-٥٧٥هـ/ ١١٧٠-١١٧٩م)، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد"(٩٨).

٣- أوضاع الأسرة الشهرزورية فى عهد صلاح الدين

وعندما توفى نور الدين محمود فى عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده، وكان عمره إحدى عشرة سنة، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وأقام بها، وإطاعة الناس بالشام، وخطب له صلاح الدين بمصر، وضرب السكة باسمه وأظهر له الطاعة، وتولى

تربيته الأمير شمس الدين بن المقدم(٩٩) وصار مدبر دولته(١٠٠).

فقال له كمال الدين الشهرزورى ولمن معه من الأمراء والمقدمين: "قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين ونوابه أصحاب نور الدين، والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله، ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا، لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر"(١٠١).

ويتضح من هذه الرواية موقف كمال الدين الشهرزورى من صلاح الدين وإيمانه بقوته وقدراته، وخوفه على المصلحة العليا لدولة سيده نور الدين، وحرصه على لم شمل المسلمينَ وتوحيد جبهتى الشام ومصر.

غير أن كلام كمال الدين الشهرزورى ورأيه لم يوافق هوى بقية الأمراء، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم.

ولم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح، يعزيه ويهنئه بالملك، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له(١٠٢).

وقد صدق حدس كمال الدين الشهرزورى وحدث ما توقعه، فعندما سار سيف الدين غازى بن قطب الدين صاحب الموصل إلى الجزيرة وملك البلاد الجزرية، أرسل صلاح الدين إلى الملك الصالح يعاتبه، حيث لم يعلمه قصد سيف الدين ابن عمه بلاده قبل أخذها، ليحضر فى خدمته ويكفه عنه(١٠٣).

وكتب صلاح الدين إلى كمال الدين الشهرزورى وبقية الأمراء يقول لهم: "لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق به مثل ثقته بى لسلم إليه مصر، التى هى أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى، وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده"(١٠٤).

ويتضح من الرسالة أن صلاح الدين يوضح لهؤلاء الأمراء مدى ثقته فى نفسه ومدى ثقة سيده نور الدين فيه بدليل أنه اختاره ليوليه أمر مصر من دون هؤلاء الأمراء هى أعظم ممالكه، وأنه أحق منهم بالوصاية

على الصالح إسماعيل بن سيده نور الدين.

وفى نفس الوقت يبلغهم بأنه سيأتى إلى بلاد الشام ليرعى مصالح ابن سيده، ويهددهم بأنه سيجازيهم لأنهم تقاعسوا فى الدفاع عن ممالكهم وعن بلاد الشام التى كانت تعانى من خطر الوجود الصليبي.

ونستخلص من رسالة صلاح الدين للأمراء، أن كمال الدين الشهرزورى كان أكثر هؤلاء الأمراء معرفة بقوة شخصية صلاح الدين ومكانته عند سيده نور الدين، وقد حاول كمال الدين فى حديثه لهؤلاء الأمراء أن يوضح لهم هذا الأمر لكن الأمراء لم يستمعوا لنصيحته وأثبتت الأحداث التى جرت بعد ذلك مدى بعد نظر وفطنة كمال الدين الشهرزورى.

وقد أوضح لنا ابن كثير الأوضاع التى أمست فيها بلاد الشام بعد موت نور الدين والتى دفعت صلاح الدين إلى كتابة هذه الرسالة لأمراء الشام، وعزمه على قصد بلاد الشام ليحفظها من الصليبيين، حيث يقول: "لما مات نور الدين وتولى ابنه المذكور اختلفت الأمراء، وحادت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وانتشرت الفواحش... وطمعت الأعداء من كل جانب فى المسلمين، وعزم الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدى المسلمين، فبرز إليهم الأتابك (ابن المقدم) فواقعهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم، فهادنهم مدة ودفع إليهم أموالاً جزيلة عجلها لهم، ولولا أنه خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية لما هادنوه.

ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب إلى الأمراء، وخاصة ابن مقدم، يلومهم على ما صنعوا من المهادنة، ودفع الأموال إلى الفرنج، وهم أقل وأذل، وأخبرهم أنه على عزم قصد البلاد الشامية ليحفظها من الفرنج"[١٠٥].

وعندما كان صلاح الدين فى طريقه إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م حدث موقف يتعلق بالقاضى كمال الدين الشهرزورى، فقد "قيل: إن القاضى الفاضل[١٠٦] كان يكره القاضى كمال الدين (الشهرزورى)، فأدى القصص إلى السلطان فى كمال الدين فى أثناء الطريق، فلم يصل

السلطان إلى الكسوة إلا وقد حصل عنده من كمال الدين شئ، مع ما قيل إنه كان لا يحبه من أيام نور الدين"(١٠٧).

ويبدو أنه ترددت قصص تتعلق بزيادة دخل كمال الدين الشهرزورى وما يحصل عليه من أموال دون كثير من أمراء المملكة، وقد وصلت هذه الأخبار إلى مسامع السلطان صلاح الدين وهو فى طريقه إلى دمشق.

وقد اجتمع أصحاب كمال الدين الشهرزورى معه وأشاروا عليه بالخروج لتلقى السلطان، "فأبى، جريا على ما ألفه فى أيام نور الدين، من تردد الناس إليه، وعدم تردده إلى الناس".

ولكن أصحابه تحزبوا عليه واقنعوه بضرورة الذهاب إلى دار القاضى الفاضل لمقابلته وتحسين صورته عند السلطان وتوضيح موقفه وقالوا له: "هذا السلطان من الأصل لا يحبك، ومدبر دولته القاضى الفاضل كذلك، وأعداؤك قد تحزبوا عليك، وما كنت تعرفه من الرفعة قد زال بزوال دولة نور الدين، والسلطان بكرة غد يدخل البلد، وقد دخل القاضى الفاضل البلد الليلة، ونرى أن تمشى إليه"(١٠٨).

ووافق كمال الدين الشهرزورى على مضض بالذهاب إلى دار القاضى الفاضل "فأظهر تألماً كثيراً لذلك، فألزم، وربما حُلف عليه"(١٠٩).

وعندما مضى كمال الدين الشهرزورى إلى دار القاضى الفاضل لمقابلته ومعه اثنان أحدهما ولده، والآخر بعض من أشار عليه، "وفى ذهنه أنه من حين يُقبل على دار القاضى الفاضل يخرج لتلقيه".

ولكن القاضى الفاضل لم يخرج من داره لمقابلة كمال الدين الشهرزورى الذى "قعد على الباب زماناً طويلاً ليؤذن له. فأما الرجل الذى كان معه، وأشار عليه، فإنه هرب حياءً من القاضى كمال الدين، وصار كمال الدين وولده، فخرج الطواشى(١١٠)، وذكر أن الفاضل نائم، فقام كمال الدين وعاد إلى داره فى أسوأ حال"(١١١).

وعندما ذهب القاضى الفاضل فى أثناء الليل لاستقبال السلطان صلاح الدين عند دخوله إلى دمشق وجاراه الكلام حتى انتهى إلى ذكر كمال الدين الشهرزورى، فقال القاضى الفاضل مدافعاً عن كمال الدين

الشهرزورى:

"يا خوند[١١٢]، هذا رجل معظم فى العلم والسؤدد، وأفعال نور الدين عند الناس مُسددة، وكان منها تعظيم هذا الرجل، وغالب ما ينسب إليه كذب، وأما ما ذكر من كثرة دخله، فهو وإن كثر دون كثير من أمراء المملكة، ولعله أحق ببيت المال وأمواله من كثير منهم، فالذى أراه تعظيمه"[١١٣].

ويتضح من الرواية أن القاضى الفاضل أراد إزالة الخلافات مع كمال الدين الشهرزورى لأنه كان يعلم بفضله ومكانته فى دولة نور الدين فأراد أن يكسبه لمصلحة سيده صلاح الدين.

ولما عاد القاضى الفاضل إلى البلد مصبحاً قبل دخول صلاح الدين توجه إلى دار القاضى كمال الدين الشهرزورى لمقابلته ولإزالة ما بينهما من خلاف.

"فجلس على الباب، وطلب الإذن، فلما دخل الخادم، ليستأذن كمال الدين عليه، مضى ولم يلبث، علما منه بأن كمال الدين سيجازيه على عدم خروجه له، ولا يخرج لقوة نفس كمال الدين، فكان كذلك، دخل الخادم إلى كمال الدين فاعتل بعله، ولم يخرج، فخرج الخادم، فلم يجد الفاضل"[١١٤].

ونستشف من هذه الرواية أن القاضى الفاضل كان متردداً فى الذهاب إلى دار القاضى كمال الدين الشهرزورى خوفاً من عدم خروجه لمقابلته كما فعل هو معه، لما يعلمه من اعتزاز كمال الدين الشهرزورى بنفسه، ولذلك فقد طلب من الخادم الإذن بالمقابلة وانصرف قبل أن يسمع رد الخادم عليه، وبالفعل فقد حدث ما توقعه.

وعندما دخل السلطان صلاح الدين إلى دمشق، "وبدأ بالجامع فصلى فيه، قيل إن الفاضل أخذه من الجامع، وجاء به إلى دار كمال الدين (الشهرزورى)، وصارت له اليد البيضاء عند كمال الدين بهذه الواقعة، وتصادقا"[١١٥].

ولما قدم صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م لأجل أخذها نزل بدار العقيقى[١١٦]. "وتعسرت عليه القلعة أياماً"[١١٧].

يذكر ابن الأثير أن صلاح الدين اعتمد على كمال الدين الشهرزورى فى استلام قلعة دمشق عندما وصلها حيث يقول فى أحداث سنة ٥٧٠هـ:

"ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج كل من بها من العسكر إليه، فلقوه وخدموه، ودخل البلد، ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى.

وكانت القلعة بيد خادم إسمه ريحان، فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو قاضى البلد والحاكم فى جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك، وأرسله إلى ريحان ليسلم القلعة إليه، وقال: "أنا مملوك الملك الصالح، وما جئت إلا لأنصره وأخدمه، وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه، وكان يخطب له فى بلاده كلها.

فصعد كمال الدين إلى ريحان، ولم يزل معه حتى سلم القلعة، فصعد صلاح الدين إليها، وأخذ ما فيها من الأموال، وأخرجها واتسع بها وثبت قدمه، وقويت نفسه، وهو مع هذا يُظهر طاعة الملك الصالح، ويخاطبه بالمملوك، والخطبة والسكة باسمه"(١١٨).

وقد أحسن صلاح الدين إلى كمال الدين الشهرزورى وبالغ فى إكرامه، يقول العينى: "وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاء لتربية الملك الصالح بن نور الدين، وحفظ ماله من المصالح، وجاء إليه أعيان البلد منهم: القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، فأكرمه السلطان، وبالغ فى إكرامه، والأمراء والأجناد والأتراك والأكراد والعربان، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر"(١١٩).

وكان صلاح الدين حريصاً على تصفية خلافاته القديمة مع كمال الدين الشهرزورى، فذهب بنفسه إلى دار كمال الدين لتحقيق هذا الهدف.

يقول سبط بن الجوزى فى أحداث سنة ٥٧٠هـ: "لما دخل السلطان صلاح الدين دمشق من مجيئه من مصر إلتقاه أهل دمشق بأسرهم، ونثروا عليه الدراهم والدنانير، وأحسن صلاح الدين إلى ابن المقدم، والقاضى ابن الشهرزورى، ومشى إلى دار كمال الدين، فانزعج وخرج إلى لقائه، ودخل صلاح الدين، فجلس وباسطه وقال: يا كمال الدين لما كنت فى الشحنكية(١٢٠)، وقد كانت بيننا هنات ومشاحنات، وكان كمال الدين يكرهه، وكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه".

فقال له صلاح الدين: "ما مشيت إليك إلا لأزيل ما فى خاطرك من

الوهم، وأعرفك أن ما في قلبي لك ما تكره، فطب نفساً، وقر عيناً، فالأمر أمرك، والبلد بلدك"(١٢١).

وقد أورد لنا سبط ابن الجوزي أصل هذه القصة حيث يقول: "وكانت شحنكية دمشق إليه (يقصد كمال الدين الشهرزوري)، ولي فيها بعض غلمانه، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين، وكانت بينهما مضاغنة وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها، فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين وطيب قلبه"(١٢٢).

وقد ذكر السبكي في طبقات الشافعية أن صلاح الدين لما تعسرت عليه قلعة دمشق أياماً "مشى بنفسه إلى دار قاضي القضاة كمال الدين (الشهرزوري) زائراً، مستشيراً، فتلقاه، وجالسه، وباسطه، وقال: طب نفساً، وقر عيناً، فالأمر أمرك، والبلد بلدك، وفي هذا من الدلالة على جلالة قدر القاضي ما لا يُخفى"(١٢٣).

ويعلق السبكي قائلاً: "فإما أن يكون صلاح الدين توجه إلى بيت كمال الدين مرتين، مرة أول قدومه.. ومرة بسبب القلعة، وإما أن يكون مرة واحدة، وهو الأقرب"(١٢٤).

وأيا كان الأمر فقد أجمعت المصادر على أنه لما توفي نور الدين وملك صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، أقر كمال الدين الشهرزوري على ما كان عليه في أيام نور الدين وأكرمه واحترمه واستشاره وعظمه(١٢٥).

ولما مرض كمال الدين الشهرزوري وهو بدمشق بلغ ابن أبي عصرون(١٢٦) وهو بحلب فقدم دمشق ودخل على القاضي كمال الدين وعانقه وبكيا، فلما توفي كمال الدين تولى ابن أبي عصرون أمره، وخرج في جنازته ماشياً هو وجميع الملوك مشاه، سيف الإسلام وتقي الدين عمر وشمس الدولة وغيرهم(١٢٧).

وقد توفي القاضي كمال الدين الشهرزوري يوم الخميس سادس المحرم سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، وصلى عليه بجامع دمشق، وحمل إلى جبل قاسيون فدفن بسفحه قريباً من الجادة عند مسجد البصار(١٢٨)، ولم يكن عنده من أولاده أحد وإنما

كان عنده ابن أخيه ضياء الدين أبو الفضائل الشهرزورى[129].

وقد نعاه ابن خلكان قائلاً: "وكان فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً ظريفاً فكه المجالسة، يتكلم فى الخلاف والأصولين كلاماً حسناً، وكان شهماً جسوراً كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق[130]، وكان عظيم الرياسة خبيراً بتدبير الملك، لم يكن فى بيته مثله ولا نال أحد منهم ما ناله من المناصب مع كثرة رؤساء بيته"[131].

وكان كمال الدين الشهرزورى قد تصدق بجميع ما كان عنده وأوصى بماله، ووقف أوقافاً كثيرة على أبواب البر، وقيل إنه لم يكن له كفن فكفن فى إحرامه[132] ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة وأشهراً[133].

وقد أوصى كمال الدين أن يتولى القضاء من بعده ابن أخيه ضياء الدين مع وجود ولده، وكان لكمال الدين ولد اسمه محمد بن محمد بن عبد الله ولقبه محى الدين الشهرزورى[134].

وقد انفذ السلطان وصية كمال الدين الشهرزورى، وفوض القضاء بدمشق إلى ضياء الدين المذكور، فأقام به مدة، ثم عرف أن ميل السلطان إلى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون فسأله الإقالة فأقيل وتولى شرف الدين[135].

وقد استمر صلاح الدين يعتمد على رجال الأسرة الشهرزورية فى القضاء وغيره من شئون الدولة، فقد ورد فى أحداث سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م أنه عندما دخل صلاح الدين إلى القاهرة قادماً من بلاد الشام فى يوم السبت ١٦ ربيع الأول (ويبدو أن هذه الزيارة كانت للاحتفال بعيد الربيع والتنزه فى مصر) "تلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين إلى عند بحر القلزم، ومعه من الهدايا والتحف شئ كثير، ولاسيما المآكل المتنوعة. قال العماد: وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الأغانى، والتنزه فى الجزيرة والجيزة، والأماكن العزيزة، ومنازل العز والروضة، ودار الملك والنيل والمقياس..

قال: واقترحنا على القاضى ضياء الدين بن الشهرزورى[136] أن يفرجنا فى الأهرام، فقد كنا شغفنا بأخبارها فى الشام، فخرج بنا إليها، ودُرنا تلك البرابى

والبرارى، والرمال والصحارى، وهالنا أبو الهول، وضاق فى وصفه مجال القول، وتداولنا الحديث فى الهرم ومن بناه، فكل يأتى فى وصفها بما نقله، لا بما عقلــه، واجتهدوا فى الصعود إليه فلم يوجد من توقله"[١٣٧] وحارت العقول فــى عقــوده، وصارت الأفكار عن توهم حدوده"[١٣٨].

ويتضح من هذه الرواية استمرار أبناء أسرة الشهرزورى فى أداء دورهم فى العصر الأيوبى واعتماد صلاح الدين عليهم وثقته فيهم، وتوليهم العديد من المهــام المختلفة فى الدولة، فمن خلال الرواية السابقة نرى أن ضياء الدين الشهرزورى – وهو ابن أخو كمال الدين الشهرزورى – كان يتولى منصب القضاء فى مصر، وقد قام أيضاً فى هذه الرواية بدور يشبه دور المرشد السياحى فى العصر الحديث، فقد كان من ضمن مهامه بالإضافة إلى القضاء، الإشراف على الآثار المصرية وأماكن التنزه والمغانى، وقد اصطحب صلاح الدين والوفد المرافق له فــى هــذه النزهــة السياحية للاستمتاع برؤية الآثار المصرية وغيرها من أماكن التنزه.

كما كان صلاح الــدين يرســل ضــياء الــدين الــشهرزورى فــى مهــام سياسية إلى البلاط العباســى، ففــى عــام ٥٧٥هــــ/ ١١٧٩م أرســل صــلاح الدين القاضى ضياء الدين بــن الــشهرزورى رســولاً مــن قبلــه إلــى بغــداد لمبايعة الخليفــة الجديــد الناصــر لــدين الله وهــو أبــو العباســى أحمــد بــن المستضئ بأمر الله وتهنئته بتولى منصب الخلافة[١٣٩].

ويدل ذلك علــى مــدى ثقــة صــلاح الــدين فــى ضــياء الــدين بــن الشهرزورى واعتماده عليه فى هذه السفارة الهامة.

وعندما كان يصل أحد أفراد الأسرة الشهرزورية رسولاً إلى مصر من عند صاحب الموصل، كان صلاح الدين يحسن استقباله ويكرمه ويحترمه، ففــى عــام ٥٧٢هـــ/ ١١٧٦م وصل رسول صاحب الموصل[١٤٠] القاضى عماد الدين بن كمال الدين الشهرزورى[١٤١] بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، وأكرمــه الــسلطان واحترمه"[١٤٢].

ويدل ذلك على مدى ما تمتعت بــه الأســرة الــشهرزورية وأبنائهــا مــن مكانة ومنزلة عند صلاح الدين.

وهناك شخصية أخرى من البيــت الــشهرزورى لعبــت أيــضاً دوراً فــى

الحياة الدينية والسياسية فى العصرين الزنكى والأيوبى، وهو القاضى فخر الدين الشهرزورى[١٤٣].

وهو أصغر أخوة كمال الدين الشهرزورى، وقد ولد فخر الدين بالموصل فى سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م وقدم بغداد وتفقه بها، وسمع شيوخها، ثم خرج إلى خراسان، فأقام عند محمد بن يحيى النيسابورى[١٤٤] مدة، فكان يحترمه ويقول: هذا من بيت الرياسة والفضل.

ثم عاد فخر الدين الشهرزورى إلى الموصل، وقد برع وصار أوجه أهل بيته "وكان ثقة جليلاً نبيلاً"، وقد قدم رسولاً من الموصل إلى بغداد مراراً، وتوفى بالموصل سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م[١٤٥].

الخاتمة

وهكذا يتضح لنا أن الأسرة الشهرزورية قد بلغت شأناً عظيماً فى مجالات العلم والفقه والسياسة إبان العصرين الزنكى والأيوبى وقد برز دور أبناء تلك الأسرة فى فترة حكم عماد الدين زنكى أتابك الموصل وابنه نور الدين محمود، واستمروا فى أداء دورهم الدينى والسياسى خلال العصر الأيوبى.

وكان بنو الشهرزورى يتمتعون بالبصيرة النافذة وبعد النظر فى مواجهة الأخطار التى تهدد الإسلام والمسلمين، فسعوا جاهدين لدى الحكام وأولى الأمر يبصرونهم بما يجب أن يكون عليه الحال، حتى يخلوا ساحتهم ويكونوا قد أدوا واجبهم نحو خالقهم ونحو أمتهم.

وقد رأينا من خلال هذا البحث كيف كان لأبناء هذه الأسرة دوراً كبيراً فى اختيار عماد الدين زنكى لتولى أتابكية الموصل، لأنهم تنبهوا لحاجة البلاد إلى رجل قوى لوقف التوسع الصليبى والتصدى له، وكان عماد الدين زنكى هو أنسب رجل لأداء هذا الدور فى تلك الفترة.

وقد اعترف الزنكيين بفضل العلماء والفقهاء الشهرزوريين ولذلك فقد أوكلوا إليهم القيام بالكثير من المهام الدينية والسفارات السياسية الخطيرة إلى مختلف الجهات، لما كان يتمتع به أفراد هذه الأسرة من الشخصية القوية المؤثرة والحكمة وبعد النظر والحفاظ على الأسرار الهامة.

وقد اضطلع أبناء الأسرة الشهرزورية بدورهم على خير وجه، فبلغت منزلتهم ومكانتهم درجة عالية القدر.

وقد وصل أبناء الأسرة الشهرزورية فى العصر الزنكى إلى أعلى المناصب بالدولة ومنها منصب الوزارة، وزاد الزنكيين فى أملاكهم وإقطاعاتهم، وكانوا يثقون فى آرائهم وعلمهم.

وقد أثبت الشهرزوريين خوفهم على المصلحة العليا للدولة الإسلامية وحرصهم على لم شمل المسلمين وتوحيد جبهتى الشام ومصر بعد وفاة نور الدين محمود، ولذلك فقد أحسن صلاح الدين إليهم وبالغ فى إكرامهم.

وقد أجمعت المصادر أنه لما توفى نور الدين وملك صلاح الدين دمشق أقر كمال الدين الشهرزورى على ما كان عليه فى أيام نور الدين وأكرمه واحترمه واستشاره وعظمه لما يعلمه من مكانته وعلمه وفضله.

وقد ثبت من خلال هذا البحث استمرار أبناء الأسرة الشهرزورية فى أداء دورهم فى العصر الأيوبى ومدى اعتماد صلاح الدين عليهم وثقته فيهم وتوليهم العديد من المهام المختلفة فى الدولة الأيوبية.

الهــــوامش

(1) شهرزور: بلدة كبيرة معدودة من أعمال إربل، بناها زور بن الضحاك، وشهرزور كلمة فارسية معناها بالعربية بلدة زور، فكلمة شهر تعنى بالفارسية البلدة أو المدينة، ويقال أنه مات بها الإسكندر ذو القرنين عند عودته من بلاد المشرق، أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٢، ج٤، ص ٧٠. ويذكر ياقوت الحموى أنه: "خرج من هذه الناحية من الأجلة والكبراء والأئمة والعلماء وأعيان القضاة والفقهاء ما يفوّت الحصر عدة ويعجز عن إحصائه النفس ومده، وحسبك بالقضاة بنى الشهرزورى جلالة قدر وعظم بيت وفخامة فعل، ذكر الذين ما علمت أن فى الإسلام كله ولى من القضاة أكثر من عدتهم من بيتهم".
أنظر. ياقوت الحموى: معجم البلدان، بيروت ١٩٨٦، ج٣، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(2) هو أبو أحمد القاسم بن المظفر بن على بن القاسم الشهرزورى، والد قاضى الخافقين أبى بكر محمد، والمرتضى أبى محمد عبد الله، وأبى منصور المظفر، وهو جد بيت الشهرزورى قضاة الشام والموصل والجزيرة، وكلهم إليه ينتسبون، كان حاكماً بمدينة إربل مدة ومدينة سنجار مدة، وكان من أولاده وحفدته علماء نجباء كرماء نالوا المراتب العلية، وتقدموا عند الملوك وتحكموا وقضوا ونفقت أسواقهم، خصوصاً حفيده القاضى كمال الدين محمد ومحى الدين بن كمال الدين، توفى القاسم بالموصل سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م، أنظر، ابن خلكان: المصدر السابق، ج٤، ص ٦٨-٦٩.

(3) أتابك: كلمة تركية تتكون من لفظين هما "أتا" بمعنى أب أو عم و "بك" بمعنى الأمير أو المقدم، فالأتابك تعنى الأمير الأب أو الأمير الوالد، وهى من ألقاب الوظائف التى استعملت فى الدولة السلجوقية، وكانت مهمة الأتابك رعاية وتربية أبناء السلاطين السلاجقة حربياً، وتلقينهم أصول إدارة الأقاليم.
ولمزيد من التفاصيل حول مصطلح الأتابك وتطوره أنظر. القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨، حسن الباشا: الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٧٨، ص ١٢٢، ليلى عبد الجواد: "أتابك العساكر فى القاهرة فى عصر المماليك البحرية"، مجلة المؤرخ المصرى، العدد العاشر ١٩٩٣، ص ٤٩.

(4) هو القاضى بهاء الدين أبو الحسن على بن القاسم الشهرزورى من أهل الموصل، ولى قضاء واسط ثم قضاء الموصل والبلاد الجزيرية والشامية، وتوفى فى يوم السبت ١٦ رمضان سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م بحلب، وحمل إلى صفين ودفن بها أنظر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص ٣٢٩، السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، ج٧، ص ٢٢٨، ويقول عنه ابن الأثير أنه: "قاضى الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزله عنده – أى

عند عماد الدين زنكي"، أنظر. ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر محمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣، ص ٥٧.

(٥) هو قسيم الدولة آقسنقر البرسقي، ولاه السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م ثم عزله وأعاده للولاية على الموصل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، تعرض لمؤامرة دنيئة دبرها الباطنية فمات مطعونا وهو يصلي صلاة الجمعة في ٩ ذي القعدة سنة ٥٢١هـ/ ٢٦ نوفمبر ١١٢٦م، لمزيد من التفاصيل أنظر. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٤، ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٢٤.

(٦) أنظر. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٤٦٣، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٧، تحقيق د. سعيد عاشور، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٢١.

(٧) كان جاولي بالموصل وهو أمير كبير المنزلة، وهو مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمورها من جهة البرسقي، فطمع في البلاد وحدثته نفسه بتملكها، فأرسل إلى بغداد بهاء الدين أبا الحسن على بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين الياغيسياني لتقرير قاعدته، أنظر. ابن خلكان، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣٢٧.

(٨) صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيسياني أمير حاجب عماد الدين زنكي، كان صاحب دهاء ومكر وحيل، تمكن مع الوزير جمال الدين الأصبهاني الموصلي من توطيد الملك لأولاد عماد الدين زنكي في الموصل وحلب، وقد صاحب نور الدين محمود في جهاده ببلاد الشام، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٨، ١٢-١٤.

(٩) النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص١٢١.

(١٠) هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب نصير الدين، كان نائب عماد الدين زنكي صاحب الجزيرة الفراتية والموصل والشام، أنابه عنه بالموصل، قتل بالموصل سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م بتحريض من فروخشاه ابن السلطان محمود السلجوقي المعروف بالخفاجي، أنظر. أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٦٢، ج١، ص٤١، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٣٦٤-٣٦٥.

(١١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٣٤-٣٥، ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١، ص ٥٠٠.

(١٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٣٥، النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص ١٢٢.

(١٣) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة وقدامها ربض عظيم وفضاء واسع، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٣٩.

(١٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٦٤٤، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر،

ج٢، ص ٢٣٨.

(١٥) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٦) النويرى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٧) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٦٤٤-٦٤٥، ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٦، ص ٥٠٠.

(١٨) ابن الأثير المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٣٥.

(٢٠) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٠، ص ٦٤٥.

(٢١) هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر بن على بن القاسم الشهرزورى، المنعوت بالمرتضى، والد القاضى كمال الدين، أنظر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٩، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٣١.

(٢٢) ابن خلكان: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٩-٥٢.

(٢٣) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٢٤) هو أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله بن أبى أحمد القاسم الشهرزورى، الملقب كمال الدين، الفقيه الشافعى، كان فى خدمة نور الدين محمود بعد والده عماد الدين زنكى كان فقيها أديباً شاعراً، توفى بدمشق سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، أنظر، العماد الكاتب: الخريدة، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ٣٢٣-٣٢٧، ابن خلكان: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٤١-٢٤٤، السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، ص ١١٧-١٢٠.
ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج٤، ص ٢٤٣.

(٢٥) الراشد بالله أبو جعفر منصور بن المسترشد، ولد فى سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م وتولى الخلافة فى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م، أنظر ترجمته فى السيوطى: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٩، ص ٤٣٥.

(٢٦) هو مسعود بن محمود بن محمد بن ملكشاة السلجوقى، أنظر ترجمته فى ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٤٣ وما بعدها، وعن هذا الصراع أنظر. العظيمى: تاريخ العظيمى، ص ٤١١، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢١٠.

(٢٧) المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله، ولد فى سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩١م وتولى الخلافة فى سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م كان ذا همة عالية، وشهامة زائدة، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وباشر الحروب بنفسه، قتل بمراغة فى ذى القعدة سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م، أنظر. السيوطى: المصدر السابق، ص ٤٣١.

(٢٨) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٥٠-٢٥١
ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص ٢٥٠.

(٢٩) العظيمي: تاريخ العظيمي، ص ٤١١.

(٣٠) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٥٧-٢٥٨، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٥٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص ٦٧.

(٣١) المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ولد في سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م وبويع له بالخلافة عند خلع ابن أخيه الراشد بالله في سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م، كان محمود السيرة، جدد معالم الإمامة، ومهد رسوم الخلافة، وباشر الأمور بنفسه، وغزا غير مرة، أنظر ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج١، ص ٢٠٧-٢٠٩، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٣٧-٤٤٢.

(٣٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٥٤
، ابن واصل: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٦٨-٦٩.

(٣٣) السيوطي: المصدر السابق، ص ٤٣٥.

(٣٤) ذكر ابن الأثير أن الخليفة "أمر أن يعطى أتابك زنكي صريفين ودرب هرون وحربي مُلكاً، وهي من خاص الخليفة، ويزاد في ألقابه، وقال: هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب في خاص الخليفة"، أنظر. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص ٤٥، النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص ١٣١.

(٣٥) هو الإمبراطور البيزنطي حنا الثاني كومنين John II COMNENUS تولى الحكم عقب وفاة أبيه ألكسيوس كومنين في عام ١١١٨م واستمر يحكم الدولة البيزنطية حتى وفاته في عام ١١٤٣م، حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢١٤-٢١٧.

(٣٦) لمزيد من التفاصيل عن حملة الإمبراطور البيزنطي حنا إلى الشرق أنظر، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٧، ج٢، ص ٣٤٠-٣٤٩.

(٣٧) بزاعة: وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة، وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٤٠٩.

(٣٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص ٥٨.

(٣٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٦٢، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ٣٥، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص ٧٩.

(٤٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص ٥٨.

(٤١) أبو شامة: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤٢) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤٤) نفس المصدر والجزء، ص ٥٨-٥٩.
(٤٥) نفس المصدر والجزء، ص ٥٩.
(٤٦) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٤٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٦٥-٢٦٦، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٦٣، ابن قاضي شهبه: الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، بيروت ١٩٧١، ص ١٠٨-١٠٩.
(٤٨) يقصد نصير الدين جقر نائب عماد الدين زنكي بالموصل، أنظر. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص ١٠١، النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص ١٤٥.
(٤٩) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٥٩.
(٥٠) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٣.
(٥١) نفس المصدر والصفحة.
(٥٢) هو أخو القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، توفي بالموصل سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م، أنظر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤٥.
السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٧، ص ٣٣٣.
(٥٣) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٥٢٦.
(٥٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص ١٠١، النويري: المصدر السابق، ج٢٧، ص ١٤٥.
(٥٥) هو الملك فروخ شاه بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه المعروف بالخفاجي، وكان السلطان محمود قد عهد إلى زنكي بتربيته، فعندما تقلد عماد الدين زنكي الموصل سلم إليه السلطان محمود ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما فلهذا قيل له "أتابك" لأنه الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك".
أنظر. ابن خلكان: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٧.
(٥٦) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٠-٢٨١، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ٤٠-٤١، النويري: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٤٥-١٤٦.
(٥٧) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.
النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص ١٤٦.
(٥٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص ١٠١.
(٥٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٧٢.
(٦٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٨٣، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ٤٤-٤٥.

(٦١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج١١، ص ١٠١.

(٦٢) قلعة جعبر: على الفرات مقابل صفين، وكانت تعرف أولاً بدوسر فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٣٩٠.

(٦٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤١.

(٦٤) الرحبة: مدينة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات الغربي بناها مالك بن طوق ويطلق عليها رحبة مالك بن طوق، ينسب إليها عدد من العلماء، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٤.

(٦٥) ابن خلكان: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٦٦) نفس المصدر والجزء، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٦٧) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦٨) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ١٤.

(٦٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص ٤٠٥.

(٧٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٨١، العيني: عقد الجمان، القسم الأيوبي، ص ١٥٦.

(٧١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص ٢٨١.

(٧٢) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٤١.

(٧٣) العيني: المصدر السابق، ص ٢٥٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٧٩.

(٧٤) هو أبو حامد محمد بن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، الملقب محي الدين، ولد في سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م (وقيل ٥١٩هـ/ ١١٢٥م)، ولي قضاء دمشق نيابة عن والده، ثم انتقل إلى حلب وحكم بها نيابة عن أبيه أيضاً في شهر رمضان سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وبه عزل ابن أبي جرادة المعروف بابن العديم.

وبعد وفاة والده تمكن عند الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب غاية التمكن، وفوض إليه تدبير مملكة حلب في شعبان سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م واستمر على ذلك ثم وشي به أعداؤه وحساده إلى الصالح وجرت أسباب اقتضت أنه لزم بيته، ورأى المصلحة في مفارقة حلب والرجوع إلى الموصل، فانتقل إليها، وتولى قضاءها ودرس بمدرسة والده وبالمدرسة النظامية بالموصل، وتمكن عند صاحب الموصل عز الدين مسعود من قطب الدين مودود بن زنكي، واستولى على جميع الأمور، وتوجه من جهته رسولاً إلى بغداد مراراً.

وكان محي الدين الشهرزوري جواداً سرياً، قيل إنه أنعم في بعض رسائله إلى بغداد بعشرة آلاف دينار على الفقهاء والأدباء والشعراء والمحاويج، ويقال إنه في مدة حكمه

بالموصل لم يعتقل غريماً على دينارين فما دونهما، بل كان يوفيهما عنه ويخلي سبيله، ويحكى عنه مكارم كثيرة ورياسة ضخمة، وكان من النجباء عريقاً في النجابة، تام الرياسة، كريم الأخلاق، وقد توفى محى الدين الشهرزورى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م، أنظر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤٦-٢٤٨.

(٧٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤٢.

(٧٦) السبكى: طبقات الشافعية، ج٦، ص ١١٨.

(٧٧) ابن خلكان: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٧٨) نفس المصدر والجزء والصفحة، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٤٩-٥٠.

(٧٩) السبكى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٨٠) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨، ص ٢١٥-٢١٦.
، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٧٩.

(٨١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٩٧.

(٨٢) نفس المصدر والجزء، ص ٢٧٨، العينى: عقد الجمان، القسم الأيوبى، ص ١٦٦-١٦٧.

(٨٣) سنجار: مدينة مشهورة فى نواحى الجزيرة بينها وبين كلا من نصيبين والموصل ثلاثة أيام، وهى فى لحف جبل عالى وفى وسطها نهر جار، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٩٩، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٦٢، القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٠.

(٨٤) شاهنشاه بن أيوب: منتخبات من كتاب التاريخ (وهو ملحق على كتاب ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٣١٧هـ، ص ٢٦٣.

(٨٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٨، ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٨٠، وقد ذكر العينى أن نور الدين "كان أول من بنى دار العدل بدمشق، وسماها دار الكشف". العينى: المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٨٦) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان، الملك المنصور، أسد الدين، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولاه العاضد الفاطمى الوزارة بمصر سنة ٥٦٤هـ/ ١٠٦٩م، فأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفى فجأة فى نفس السنة، فتولى الوزارة صلاح الدين من بعده، أنظر. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٤٣-٤٤، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق١، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٨٧) ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.
العينى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٨٨) ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٨٠.

(٨٩) العينى: المصدر السابق، ص ١٥٥-١٥٦.

(٩٠) ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.
العينى: المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٩١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١١، ص ٤٠٤.
وفى رواية أخرى: "وجاء إلى مجلس القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، وتقدمه الحاجب يقول للقاضى: قد قال لك: لا تنزعج وأسلك معه ما تسلكه مع آحاد الناس". أنظر. العينى: المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٩٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٦-١٦٧، سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨، ص ١٩٣، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق١، ص ١٥.

(٩٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١١، ص ٤٠٤، الباهر، ص ١٦٦-١٦٧.
وقد ذكر ابن كثير قوله: "فلما تبين ذلك قال السلطان إنما جئت معه لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دُعى إليه، فإنما نحن معاشر الحكام أعلانا وأدنانا شحنكية لرسول الله ﷺ ولشرعه، فنحن قائمون بين يديه طوع مراسيمه، فما أمر به امتثلناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وأنا أعلم أنه لا حق للرجل عندى، ومع هذا أشهدكم أنى قد ملكته ذلك الذى ادعى به ووهبته له"، أنظر. ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٩٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٧ ، سبط بن الجوزى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، العينى: المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٩٥) سيواس: إحدى بلاد آسيا الصغرى وتقع على مسافة ٦٠ ميلاً من قيسارية، أنظر. ابن عبد الحق: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٢، ص ٧٦٨.

(٩٦) يقصد بذلك الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين الذى حكم بين سنتى ٥٣٨-٥٧٦هـ/ ١١٤٣-١١٨٠م).

(٩٧) هو الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله، ولد سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م وتولى الخلافة فى سنة ٥٦٦هـ بعد وفاة أبيه الخليفة المستنجد بالله، فنادى برفع المكوس ورد المظالم، وأظهر العدل والكرم، وفى خلافته انقضت دولة بنى عبيد، وخطب له بمصر وضربت السكة باسمه، توفى فى عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م.
أنظر. السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٤٤٤.

(٩٨) العينى: عقد الجمان، القسم الأيوبى، ص ١٠٩.

(٩٩) شمس الدين بن المقدم: هو محمد بن عبد الملك من أعيان أمراء الدولتين، وهو الذى سلم سنجار إلى نور الدين، ثم تملك بعلبك وعصى على صلاح الدين مدة، ثم صالحه وناب له بدمشق، توفى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م مقتولاً على جبل عرفات،
أنظر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٧، ص ٨٧، الذهبى: العبر فى خبر من غبر،

ج٤، ص ٢٥٠، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٥٩٤، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص ٢٧٦.

(١٠٠) يذكر سبط ابن الجوزى أسماء الأمراء الذين اجتمعوا بعد وفاة نور الدين حيث يقول: "وكان الصالح لم يبلغ الحلم، فأجلسوه مكان أبيه، وحضر القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، وشمس الدين بن المقدم، وجمال الدولة، وريحان وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمى أمين الأعمال، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة، وأن شمس الدين بن المقدم إليه تقدمة العساكر وتربية الملك الصالح"، سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج ٨، ص ٢٠٤.

(١٠١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١١، ص ٤٠٥.

(١٠٢) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، الباهر، ص ١٦٢.

، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٩٤-٥٩٥.

(١٠٣) العينى: عقد الجمان، القسم الأيوبى، ص ١٧٤.

(١٠٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١١، ص ٤٠٦، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٥٠.

(١٠٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٨٥.

(١٠٦) هو القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن اللخمى العسقلانى المولد، ولد فى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م بمدينة عسقلان وتوفى سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م بالقاهرة، وزر للسلطان صلاح الدين وبرز فى صناعة الإنشاء، وكان السلطان يشير بفضله فيقول: "لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل". وبعد وفاة صلاح الدين استمر على مكانته عند ولده الملك العزيز ثم ابنه الملك المنصور، ولم يزل كذلك حتى وفاته، وبنى فى القاهرة مدرسة درس بها وكان يلقب مجير الدين، أنظر. العماد الأصفهانى: خريدة القصر، ج١، ص ٣٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٥٨-١٦٣، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٥٦-١٥٧.

(١٠٧) السبكى: طبقات الشافعية، ج٦، ص ١١٩.

(١٠٨) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١٠٩) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١١٠) الطواشي: وجمعه طواشيه، وهم الخصيان الذين استخدموا فى الطباق المملوكية، وفى الحريم السلطانى "وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة، ويعد شيخهم من أعيان الناس"، المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٢١٩.

(١١١) السبكى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١١٩-١٢٠.

(١١٢) خوند: لقب يفيد معنى الاحترام، ويخاطب به الذكور والإناث سواء، (سيد، سيدة)

.(Dozy: Supp. Dict. Ar.)

، سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة ١٩٩٤، ص ٤٢١.

(١١٣) السبكى: طبقات الشافعية، ج٦، ص ١٢٠.

(١١٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١١٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١١٦) دار العقيقى: هى دار أبى أيوب والد صلاح الدين، وهى ظاهر دمشق إلى داخل بابى الفرج والفراديس فى دمشق، أما العقيقى فهو أحمد بن الحسين بن أحمد بن على العقيقى صاحب الحمام بباب البريد، أنظر النعيمى: الدارس فى تاريخ المدارس، ج١، ص ٣٤٩.

(١١٧) السبكى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١١٨-١١٩.

(١١٨) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١١، ص ٤١٦-٤١٧.
ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٧٣.

(١١٩) العينى: عقد الجمان، القسم الأيوبى، ص ١٩٦.

(١٢٠) الشحنكية: ويقال لها الشحنة، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة، أنظر. سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، ص ٤٢٧.
Dozy: Supp. Dict. Ar.

(١٢١) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨، ص ٢٠٦.
العينى: المصدر السابق، ص ٢٠٢، ٢٥٦.

(١٢٢) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢١٦.
ابن تغرى بردى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٧٩-٨٠.

(١٢٣) السبكى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٢٤) السبكى: طبقات الشافعية، ج٦، ص ١٢١.

(١٢٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤٢، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٥٠، السبكى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٢٦) هو أبو سعد عبد الله بن أبى السرى محمد بن هبه الله بن مظهر بن على بن أبى عصرون التميمى الموصلى، الفقيه الشافعى الملقب شرف الدين، ولد فى سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م بالموصل كان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره، تفقه على القاضى المرتضى أبى محمد عبد الله بن القاسم الشهرزورى وغيره، درس بالموصل ثم قدم دمشق لما ملكها الملك العادل نور الدين محمود فى صفر سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وتولى أوقاف المساجد، تقدم عند نور الدين صاحب الشام وبنى له المدارس بحلب وحماه وحمص وبعلبك وغيرها، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحران وغيرهم من ديار بكر، ثم

عاد إلى دمشق فى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م وتولى القضاء بها فى سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م عقيب انفصال القاضى ضياء الدين الشهرزورى، توفى ابن أبى عصرون فى رمضان سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م بمدينة دمشق ودفن فى مدرسته التى أنشأها داخل البلد، أنظر. ابن خلكان: المصدر السابق، ج٣، ص ٥٣-٥٦.

(١٢٧) العينى: المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(١٢٨) لعله مسجد البيطار إذ ذكر ابن عساكر: أن مسجد البيطار من مساجد دمشق بناه ابن البيطار، ولم تذكر المصادر التى وقعت بين أيدينا اسم مسجد "البصار". أنظر. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، م٢، ق١، ص ٥٦.
العينى: المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(١٢٩) هو القاضى ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن القاضى تاج الدين أبى طاهر يحيى بن عبد الله، ولد فى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م (وقيل ٥٣٥هـ/ ١١٤١م)، تولى القضاء بدمشق بعد عمه كمال الدين، ولما انفصل عن القضاء صار يتردد فى الرسائل إلى بغداد، ولما مات السلطان صلاح الدين سيره ولده الملك الأفضل نور الدين على صاحب دمشق رسولاً إلى بغداد بهدايا وتحف، وصار له هناك منزله ومكانة جيدة، ثم عاد إلى دمشق وتولى نظر الأوقاف بها، ثم فارق دمشق وقدم الموصل وتولى القضاء بها سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، كما تولى القضاء بمدينة حماه التى أقام بها إلى أن مات فى شهر رجب سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م ونقل إلى دمشق ودفن بها، أنظر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤٤-٢٤٥، السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص ٢٩٨.

(١٣٠) ذكر السبكى أن كمال الدين الشهرزورى "كان يهب الألف دينار فما فوقها، وهو الذى وقف الحصة من قرية الهانية على المقادسة". أنظر. السبكى: المصدر السابق، ج٦، ص ١١٨-١١٩، كما ذكر العينى أن كمال الدين الشهرزورى اشترى قرية الهامة (الهانية) بوادى بردى، (وبردى هو أعظم أنهار دمشق) ووقف نصفها على المقادسة والنصف الآخر على الأسارى، أنظر. العينى: عقد الجمان، القسم الأيوبى، ص ٢٥٦-٢٥٧، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١، ص ٥٥٦-٥٥٧.

(١٣١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(١٣٢) العينى: المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(١٣٣) أبو شامه: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص ٦٧١.

(١٣٤) راجع ما سبق، ص ٣٥، حاشية ٧٤.

(١٣٥) ابن خلكان: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٢٤٤.
ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٨٧.

(١٣٦) ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن القاضى تاج الدين أبى طاهر وهو ابن أخو كمال

الدين، راجع ما سبق ص ٤٠، حاشية ١٢٩.

(١٣٧) "وقل" أى صعد الجبل، أنظر. الفيروز آبادى: القاموس المحيط، ج٤، ص ٦٦.

(١٣٨) ابن خلكان: المصدر السابق، ج٥، ص ٧٤-٧٩.
العينى: المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(١٣٩) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨، ص ٢٢٥-٢٢٦.
العينى: المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(١٤٠) كان صاحب الموصل فى تلك الفترة هو سيف الدين غازى الثانى بن مودود، الذى حكم بين سنتى (٥٦٤-٥٧٢هـ/ ١١٦٨-١١٧٦م)، أنظر. زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ج٢، ص ٣٤١.

(١٤١) هو عماد الدين أحمد بن كمال الدين الشهرزورى، توجه رسولاً إلى بغداد عن نور الدين فى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، أنظر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤٨.

(١٤٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص ٦٩١-٦٩٢.
العينى: عقد الجمان، القسم الأيوبى، ص ٢٤٨.

(١٤٣) هو القاضى فخر الدين أبو الرضى سعيد بن عبد الله بن القاسم ابن المظفر الشهرزورى، أخو كمال الدين الشهرزورى، أنظر. ابن خلكان: المصدر السابق، ج٧، ص ٨٥، ٢١٢، ٣١٢، السبكى: طبقات الشافعية، ج٤، ص ٤١.

(١٤٤) هو أبو سعد محمد بن يحيى بن أبى منصور النيسابورى الملقب محى الدين الفقيه الشافعى، توفى فى رمضان سنة ٥٤٨هـ/ ١٠٥٦م، أنظر. ابن خلكان: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(١٤٥) العينى: المصدر السابق، ص ٢٩٦-٢٩٧.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على الجزرى (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٢٨م).
  - الكامل فى التاريخ، ١٢ جزء، بيروت ١٩٨٢م.
  - التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر محمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.
- ابن أيبك: أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م).
  - كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦ وعنوانه "الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١م.
- ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م).
  - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، القاهرة ٦٣-١٩٨٤م.
- ابن الجوزى: أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م).
  - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، ١٠ أجزاء، حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٤م).
  - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، بيروت ٧١-١٩٧٧م.
- ابن دقماق: غرس الدين إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م).
  - الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، بيروت ١٩٨٥م.
- ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).
  - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، المعروف بسيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م.
- ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م).
  - زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ٣ أجزاء، تحقيق سامى الدهان، دمشق ٤٥-١٩٥١م.

- ابن عساكر: أبو القاسم على بن محمد (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م).
  - تاريخ مدينة دمشق، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن العماد الحنبلى: أبو الفلاح عبد الحى بن على (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م).
  - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، بيروت ١٩٨٥م.
- ابن قاضى شهبة: بدر الدين محمد بن أبى بكر (ت ٧٨٤هـ/ ١٤٦٩م).
  - الكواكب الدرية فى السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، بيروت ١٩٧١م.
- ابن القلانسى: أبو يعلى حمزة بن أسد الدمشقى (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).
  - ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨م.
- ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشى (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).
  - البداية والنهاية، ١٢ جزء، بيروت ١٩٨٥م.
- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م).
  - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣م.
- ابن الوردى: زين الدين عمر بن المظفر (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).
  - تتمة المختصر فى أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردى، تحقيق أحمد رفعت البدراوى، بيروت ١٩٧٠م.
- أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).
  - كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، ج١، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٦٥م.
- أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م).
  - المختصر فى أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة ١٣٢٥هـ.
- الأصفهانى: عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م).
  - خريدة القصر وجريدة العصر، قسم الشام، تحقيق شكرى فيصل، دمشق ١٩٥٩م.
  - الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة ١٩٦٥م.

- البغدادى: صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م).
- مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٥ أجزاء، ليدن ١٨٥٤م.
- الذهبى: شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
- العبر فى خبر من غبر، ٤ أجزاء، تحقيق أبو هاجر محمد، السعيد بن بسيونى، بيروت ١٩٨٣م.
- سبط بن الجوزى: أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م).
- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ج٨، طبعة شيكاغو ١٩٠٧م.
- السبكى: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن على (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م).
- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحى وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة ٦٤-١٩٧١م.
- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٩م.
- العظيمى: محمد بن على بن محمد (ت ٥٨٨هـ/ ١١٦٣م).
- تاريخ العظيمى، نشر كلود كاهن .

C. Cahen,: Journal Asiatique, 1938, pp. 353-448.

- العينى: بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م).
- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، العصر الأيوبى، الجزء الأول، تحقيق محمود رزق محمود، القاهرة ٢٠٠٢م.
- القزوينى: زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م).
- آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م.
- القلقشندى: أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة ١٩-١٩٢٢م.
- المقريزى: تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزئين، بولاق ١٢٧٠هـ، والطبعة الأهلية فى أربعة أجزاء.
- النعيمى: أبو المفاخر عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م).

- الدارس فى تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسنى، دمشق ١٩٤٨م.

- النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م).

- نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج ٢٧، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٨٥م.

- ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

- معجم البلدان، ٥ مجلدات، بيروت ٧٩-١٩٨٦م.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

- حسن الباشا: الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٧٨م.
- حسين مؤنس: نور الدين محمود، القاهرة ١٩٥٩م.
- رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، ٣ أجزاء، ترجمة السيد الباز العرينى، بيروت ٦٧-١٩٦٨م.
- زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ترجمة زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود، القاهرة ١٩٥١.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة ١٩٩٤م.
- عبد النعيم محمد حسنين: سلاجقة إيران والعراق، القاهرة ١٩٧٠م.

الجيش الهندي في عصر الدولة الخلجية[1]

(٦٨٩ :٧٢٠هـ/١٢٩٠: ١٣٢٠م)

د/ محمد سيد كامل

مدرس التاريخ الإسلامى

كلية الآداب – جامعة المنيا

المقدمة:

كان للجيش الإسلامي في بلاد الهند في فترة حكم الدولة الخلجية ما بين سنتي ٦٨٩: ٧٢٠هـ/١٢٩٠: ١٣٢٠م، وهي فترة قصيرة نسبياً ولا تتعدى الثلاثين عاماً، أهمية كبرى في سياسة الهند، إذ وقع على كاهل قادته أعباء جمة، من أهمها التصدي للفتن والثورات الداخلية، ومساندة أفراد الأسرة الحاكمة للوصول إلى العرش[٢]، والمحافظة على كيان الدولة ضد أعدائها الخارجيين، خاصة تقدم المغول على حدودها الشمالية[٣]، وتوسع الجيش في شرق دهلي والدكن[٤]، خاصة في عهد السلطان علاء الدين الخلجي[٥]، فقد شهد عهده أكبر حركات الفتوح في الهند، التي ضمت البنجاب والبنغال[٦]، والملتان[٧]، فشملت توسعاته منطقة الدكن بأكملها، وامتدت إلى الحدود الغربية حتى مدينة سومنات[٨]، وبذلك أطلق على نفسه لقب الإسكندر الثاني فاتح العالم[٩]، ويرجع ذلك إلى اغتراره بقوته، وامتلاء خزائنه بالأموال.[١٠]

بدأت الدولة الخلجية الحكم في الهند باعتلاء السلطان جلال الدين فيروزشاه العرش [١١]، بعد أن قاد الجيش الهندي ضد خسروشاه مغتصب العرش من آخر سلاطين المماليك معز الدين كيقباد المملوكي[١٢] ، حيث انتصر عليه في معركة عنيفة على أبواب مدينة بدوان[١٣]، وبذلك حكم فيروز شاه حتى مقتله ٦٩٥هـ/ ١٢٩٧م[١٤] على يد ابن أخيه المسمى علاء الدين حاكم إمارة كره[١٥].

ثم تلاه في الحكم السلطان علاء الدين، الذي حكم قرابة العشرين عاماً،

والذي نظم الحياة السياسية والاقتصادية في البلاد، ووسع بجيشه حدود الدولة، واعتمد على عدد من القادة منهم نصرت خان والقائد ظفر خان[١٦] .

انتقل الحكم في الدولة الخلجية إلى قطب الدين مباركشاه[١٧]، الذي سار على سياسة مخالفة لسياسة أبيه علاء الدين، بأن عمل على تغيير نظام احتكار السلع وإصلاح الأحوال الاقتصادية والتشدد مع الأهالي[١٨]، ومن ثم تآمر عليه الوزير خسروخان باستمالة الجيش والتآمر ضده، وقاد الحرس الخاص الذي يقدر بنحو ألف فارس[١٩].نادى قادة الجيش والأمراء بخسروخان سلطاناً على البلاد، برغم أنه أحد الهنادكة، الذين يرجع أصلهم إلى هنود البنغال، ولقب بناصر الدين خسرو شاه، وخطب له بأمير المؤمنين[٢٠]، وبذلك زالت الدولة الخلجية من تاريخ الهند في بداية سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م.

عمل حكام الدولة الخلجية على تقوية عناصر الجيش ومده بالأسلحة والمعدات، فصارت حياة الجندية هي المسيطرة على مقاليد الحكم في البلاد مع ممارسة الفروسية والتدريبات العسكرية والاهتمام بالتوسعات في هضبة الدكن.

أولاً: دور الجيش في السياسية الداخلية واهتماماته:

لعب الجيش دوراً بارزاً في السياسة الداخلية للهند في عهد الدولة الخلجية، ووقع على كاهله مهمة حفظ الأمن والنظام، والعديد من الأعباء العسكرية التي أداها على أكمل وجه، ومن أهمها التصدي للفتن والثورات.

١- التصدي لثورات الهنود:

اهتم سلاطين الخلج بالجيش ورفع كفاءته القتالية إلى أعلى درجة ممكنة، ظهر ذلك بصورة واضحة في التصدي لثورات الهنود، والتي ظهرت في بداية حكم السلطان علاء الدين، الذي عمل على القضاء على فتنة راجات الهند، الذين عملوا على الاستقلال عن حكومة دهلي، مستغلين الاضطرابات الداخلية التي حدثت في أواخر حكم السلطان "جلال الدين فيروزشاه" ومصرعه، لذا عمل السلطان الجديد على تنظيم الجيش، وضمان طاعة القادة العسكريين وأعد جيشاً كبيراً لإخضاع "أركالي خان" أحد راجات الهند[٢١]، والذي عمل على الاستقلال بإقليم الملتان، وسار بنفسه على رأس هذا الجيش، لذا لم يستطع "أركالي خان" دفع خطرهم، بل تم القبض عليه وعلى إخوته وأقربائه، وعوقبوا أشد العقاب[٢٢]، وتم القضاء على تلك الثورة.

كذلك دفع الجيش الخلجي في عهد السلطان علاء الدين الخلجي خطر قبائل المواتي الهندية عن أهالي العاصمة دهلي، الذين عملوا على قطع الطرق وترويع الأهالي، حيث وجه إليهم بعض وحدات من جيشه بعد أن زوده بالسلاح والعتاد والمؤن[٢٣]، وبذلك نجح الجيش في القضاء على فتنتهم، واستقرت الأحوال في البلاد، بفضل قوة هذا الجيش وحسن تنظيمه وإعداده.

وفي عهد السلطان "قطب الدين مباركشاه" ثارت فتنة عليه من قبل الهنود في الكجرات[٢٤]، فجهز جيشاً كبيراً تحت قيادة قائده "عين الملك ملتاني"، الذي استطاع خلال ثلاثة أشهر تطهير الكجرات من هؤلاء الثائرين، واستولى على ذهب كثير من راجات المنطقة الهنود، وفي الوقت نفسه سار السلطان بجيش آخر إلى الدكن بعد أن ترك "غلام بجه شاهين" نائباً عنه في حكم دهلي، ولما وصل إلى ديوكير[٢٥]، تعقب حاكمها المسمى "هربال" وقبض عليه، بل أمر بسلخ جلده وعلق رأسه على باب المدينة الرئيس[٢٦].

٢- درء الأخطار والمؤامرات الداخلية والتصدي لها:

من المهام التي تصدى لها الجيش الخلجي في عهد السلطان "جلال الدين فيروز شاه الخلجي"، المؤامرة التي دبرها "تاج الدين كوش" وبعض أمراء ونبلاء الدولة المملوكية[٢٧]، حيث عملوا على عزل السلطان الخلجي واغتياله، غير أن تفاصيل تلك المؤامرة وصلت إلى مسامع السلطان، ومن ثم ركب على رأس جيشه وحاصر المتآمرين، وأجهز عليهم[٢٨].

ومن المؤامرات التي حيكت ضد السلطان "جلال الدين"، وتدخل في فضها الجيش، المؤامرة التي دبرها المعارضون للحكم الخلجي في محاولة منهم لاغتيال السلطان، وهو ذاهب إلى الصلاة في مسجد دهلي الكبير، والتي رغب فيها المتآمرون في إعلاء شأن أحد الدراويش الذي أطلق عليه اسم "سيدي موله"، وكان يتصف بين الناس بالإنفاق ببذخ وحسن السيرة[٢٩]، لدرجة أن أحد أبناء السلطان جلال الدين نفسه أصبح من أتباعه[٣٠]، وبناء على ذلك فقد دبر المتآمرون مؤامراتهم بهدف خلع السلطان وإعلان "سيدي موله" خلفا عنه، إلا أن قادة الجيش أجبرتهم على الاعتراف بتفاصيل ذلك، وطعن القائد "بحري نام قلندري"، "سيدي موله، عده طعنات، وأمر سايس الفيله بدهثه تحت أقدامها[٣١].

٣- التصدي لولاة الأقاليم:

برز دور الجيش الخلجي في التصدي لحكام الأقاليم وولاتها الذين رغبوا في الاستقلال عن حكم السلاطين الخلجيين، وتمكن قادة الجيش من إعادة النظام والأمن للبلاد، ومن أبرز تلك المحاولات محاولة والي كره "جيجو"، الذي أعلن استقلاله عن حكومة دهلي، وبالغ في الأمر بأن نادي بنفسه سلطاناً وتلقب بلقب "مغيث الدين"، وأمر بضرب العملة باسمه، وذكر اسمه في خطبة الجمعة، مع الرغبة الأكيدة في الزحف على دهلي العاصمة لامتلاكها[٣٢]، وقد انضم إليه في ذلك صاحب مدينة "أوده" الملقب "بحاتم خان"، وعندما وصلت تلك الأخبار للسلطان جلال الدين الخلجي تحرك بجيشه لدفع خطر "جيجو" وأعوانه، وترك ابنه المسمى "خان خانان" نائباً عنه في الحكم، ووضع ابنه الأوسط المسمى "أركليخان" في مقدمة جيشه، ودارت المعركة التي انتهت بإنزال الهزيمة بجيجو وأعوانه، وأسر أكثر رجالاته[٣٣]، وعلى رأسهم جيجو، الذي أمر القائد "أركليخان" بحمله على ظهر جمل مكبلاً بالأغلال إلى دهلي، حيث أسر سجيناً إلى قلعة بالملتان في ظل حراسة مشددة[٣٤]، وعلى ذلك فبفضل الجيش وقوته والخطة التي رسمها السلطان عادت ولاية كره إلى نطاق الدولة الخلجية، وأمر السلطان جلال الدين بتولية صهره وابن أخيه علاء الدين حاكماً عليها[٣٥].

- ثانياً: النظام الحربي:

تعددت نظم الجيش وخططه وتقسيماته المختلفة ، فهناك القيادة العامة للجيوش تلك القيادة التي هيمنت على مقدرات الجنود وتحركاتهم، والتي ظهرت بصورة واضحة في الدولة الخلجية بهيمنة السلطان على قيادة جنوده في أغلب تحركات الجيوش وبالتالي فقد أعد جيشاً قوياً يدين بالولاء التام والطاعة للسلطان والدولة، فقد قسم الجيش إلى فرق كل منها تمارس نشاطاً معيناً من بينها الحرس السلطاني الذي يسمى Jandars، والذي يتبع السلطان مباشرة، والفريق الثاني المشاه والفرسان وهم عصب الجيش، والقسم الثالث يقوم بتزويد الجيش بالإمدادات والمؤن والمعدات الضرورية[٣٦]، أما بالنسبة للقيادة العامة للجيوش فقد اهتم الخلجيون بتلك النقطة بالذات، وكثيراً ما قاد السلطان جيشه بنفسه، فهو يعتبر القائد الأعلى للجيش والمحرك الأول له، وعلى سبيل المثال فقد خرج السلطان "جلال

الدين فيروزشاه" على رأس جيشه للتصدي لفتنة "أركالي خان"، وأنزل به الهزيمة، وذلك في سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م(٣٧).

والشيء اللافت للنظر في شأن القيادة العامة للجيوش الخلجية أن القيادة العامة تركزت في معظم الأحيان في يد الأسرة الحاكمة أو في يد السلطان نفسه، حيث أسند السلطان "جلال الدين فيروزشاه" قيادة جيشه لابن أخيه "علاء الدين" وذلك في سنة ٦٩٣هـ/١٢٥٤م(٣٨).

وفضلا عن ذلك قام سلاطين الخلج خاصة السلطان "علاء الدين الخلجي" بإسناد قيادة جيوشه إلى عدد بارز من القواد، مثل القائد "ألغ خان" والقائد "ظفر خان"، خاصة في أثناء قتال المغول، وذلك في العام الثاني لجلوسه على عرش البلاد(٣٩).

هذا وقد قاد السلطان جلال الدين في سنة ٦٩١هـ/١٢٩٣م جيشه ضد المغول المهاجمين لشمال الهند في الهندوستان، حيث وقعت معركة حامية أجبر فيها الجيش الخلجي المغول على طلب الصلح، وتبودلت التحف والهدايا بين الطرفين(٤٠).

أما في عهد السلطان "علاء الدين الخلجي" فقد خرج السلطان على رأس عدة جيوش حربية، لتأديب وصد أعدائه، منها في سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٦م تجاه إقليم الملتان، حتى استرده إلى حوزته من جديد، وذلك عندما ثار حاكمها "أركالي خان"، في الملتان واستقل بها، فأخضع السلطان هذا الثائر، وقبض عليه وعلى أقاربه، وأمر بمصادرة أمواله، وأمتعته ونكل به أشد تنكيل(٤١). كما خرج السلطان على رأس جيشه للقضاء على فتنة حاكم "ديوكير"، الذي سيطر على تلك المنطقة ودانت له الرعية بالولاء والطاعة، ولكن لحسن قيادة السلطان وتأييد قادة الجيش والأمراء له، وقعت المدينة في يده، واستولى على نواحيها، وغنم من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة الكثير(٤٢).

ومن قواد علاء الدين البارزين في قيادة الجيش، القائد نصرت خان، الذي عمل هو والقائد ألغ خان على مهاجمة الكجرات بجيش جرار، وأجبر حاكم "نهرواله" المسمى "راي كرن" على الاستسلام، وسبوا نساؤه وخزائنه وأفياله(٤٣)، كذلك كان أكبر عون للسلطان في حروبه قائده "غازي تغلق" الذي وقف إلى جانبه

في حربه ضد المغول في سنة ٧٠٥هــ/١٣٠٤م(٤٤).

وفي نهاية عهد السلطان "علاء الدين" ظهر قائد مميز للجيش الخلجي، وهو القائد "ملك نايب كافور"، الذي امتاز بالكفاءة العالية والمقدرة على تسيير شئون الجيش، وانتصر في سنة ٧٠٩هــ/١٣٠٩م على حاكم "أرنكل"(٤٥) المسمى "رودريو"، هذا القائد الذي حقق انتصاراً كبيراً حتى أجبر هذا الحاكم على طلب الصلح، ومن ثم قرر عليه إرسال جزية سنوية وهدايا لائقة بالسلطان. وبذلك نال القائد "ملك نايب كافور"، التأييد من السلطان، وأنعم عليه بأنواع شتى من الإنعامات السلطانية(٤٦). كذلك قاد هذا القائد في سنة ٧١٠هــ/١٣١٠م الجيش الخلجي ضد حاكم لاهور المسمى "رامديو"، وقد تمكن هذا القائد من تخريب معابد الأصنام، والاستيلاء على اثني عشر فيلاً وعشرين ألف من الجياد، وعدد كبير من صناديق الجواهر واللؤلؤ(٤٧).

ونظراً لأهمية قيادة الجيوش، فإن بعض السلاطين كانوا يعهدون بها إلى أبنائهم في حالة عدم خروجه هم بأنفسهم، من ذلك أن السلطان "علاء الدين الخلجي" من ذلك أسند إلى ابنه "عين الملك شهاب القيادة العامة للجيش المتجه إلى مالوه، الذي رجع إلى دهلى محملاً بالغنائم والأسلاب(٤٨).

وعلى ذلك يتضح مدى العناية التي أولاها سلاطين الخلج لقيادة جيوشهم، ووضع قواعد وأسس للسير عليها، ومدى اهتمام هؤلاء القادة برفع رايات النصر على أعدائهم وخدمة مصالح الدولة.

وقد قسم الجيش الخلجي إلى عدة فرق على النظام التركي، فهي تشمل على قائد يرأس عشرة فرسان مجهزين بالخيول والأسلحة ويسمى Sakhil، وقائد يرأس مائة فارس ويسمى Spahalar، وأمير يرأس ألف فارس، والملك يرأس عشرة آلاف فارس، والخان وهو الذي يرأس مائة ألف من الجند. (٤٩)

الخطط العسكرية:

أما عن الخطط العسكرية في الجيش الخلجي، فقد اتبع سلاطينهم في الحروب الداخلية أو الخارجية عدة خطط، يأتي في مقدمتها إفقاد العدو أي مميزات عسكرية يعتمد عليها، فعلى سبيل المثال فإن الثوار الهنود اعتمدوا على الغابات الاستوائية للاختفاء داخلها، كما أدت خبرة الهنود بمسالكها إلى صعوبة القضاء

عليهم، لذا كان الخلجيون يأمرون قواد الجيوش بإزالة هذه الغابات تماماً(٥٠)، فقام الجند بحرق أجزاء كثيرة منها، حتى انكشفت مواقع الثوار، وسقط أغلبهم في أيدي الجيش(٥١)، وزيادة في عدم تجميع الثوار مرة أخرى، فقد وضعت نقاط حراسة مشددة على أطراف تلك الغابات. هذا ومن الخطط التي وضعها السلطان "علاء الدين الخلجي" أن يكون هناك ربط واتصالات بينه وبين جيشه عن طريق الرسائل والخطابات الدائمة، لذا كان يضع في كل عدة فراسخ على الطريق منزل به جواد يسمى "يام"، وفي كل مرحلة كان يترك رجلاً سريع العدو يسمى بلغة الهند "بايك"، وكان يعين في كل قصبة أو مدينة على الطريق "كاتباً"، لكي يرسل الوقائع يومياً- أي كتابة تقارير- إلى السلطان(٥٢).

لقد جرت العادة في بداية المعارك أن يرسل الجيش فرقاً استطلاعية لاختبار قوة العدو وحشد قواته وإحصاء أعدادها، حتى تستطيع القوات الزاحفة دراسة أحوال جيش عدوه، وكشف نقاط الضعف في صفوفهم، واستغلال هذه النقاط والاستفادة منها في صالح جيوشهم، فقد أمر السلطان "جلال الدين الخلجي" باستطلاع قوة عدوه على مدينة رنتهبور قبل بداية الاشتباك، ونتج عن معلومات القوة الاستطلاعية وأخبارها أن هجم السلطان على مدينة "غين Jhain" أولاً قبل الهدف الأساسي لمسيرة الجيش وهي فتح رنتنهبور، وذلك حتى لا يقع الجيش بين حجرى الرحي أو يهاجم من الخلف في أثناء الحصار(٥٣).

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن من خطط الجيش ووسائله في الحرب استطلاع تحركات العدو ومراكز قوته ونقاط ضعفه، من هنا اهتم الخلجيون بنظام التجسس على العدو، ونقل الأخبار عن طريقهم، وقد كان للجواسيس في الهند مكانة كبيرة في صفوف الجيش، لدرجة أن السلاطين كانوا يجزلون لهم العطايا، وعين لهم قائداً عاماً للتخطيط لهم ودراسة معلوماتهم، وفي المقابل كان يعاقب الجاسوس الذي يفشل في مهمته أو في كتابة التقارير الصادرة عنه(٥٤)، وقد ظهر دور قائد الجواسيس بصورة واضحة في التجسس على قبائل المواتي الهندية- وهي قبائل كثيرة الفتن والاضطرابات- فعرف أماكن تواجدهم داخل الغابات، مما سهل على السلطان مهمة القضاء عليهم(٥٥)، ولم يكن سلاطين الخلج أول من اهتم بالجواسيس في جيوشهم، بل سبقهم إلى ذلك سلاطين المماليك حيث أطلقوا عليهم لقب المنهبين(٥٦).

هذا وقد كان الاهتمام بالجواسيس على درجة كبيرة من الأهمية حيث استخدموا في بعض الأحيان التجسس على القواد ورجالات دولته، وذلك ليطلع على أحوالهم، مع إعطاء الاهتمام الأكبر لهم منذ شرائهم كمماليك صغار وتربيتهم، ثم إقرار القوانين التي تمنع معاقبتهم أو ضربهم من أسيادهم الجدد، ليكونوا عيوناً له ويطالعونه بأحوالهم(٥٧).

كذلك كان السلطان يخطط ويوهم عدوه بالانسحاب والتراجع للخلف، ثم ما يلبث أن يهجم في حملة خاطفة، تكلف عدوه الكثير، وكان من أهم أساليب الجيش وخططه العسكرية استخدام الأعمال الدبلوماسية بإرسال الرسائل قبل بداية المواجهة العسكرية مع العدد(٥٨)، ومن هنا نرى أن المكاتبات كانت سمة بارزة من سمات خطط السلطان الحربية(٥٩)، وخير دليل على ذلك مراسلاته مع "رودريو" حاكم أونكل في سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، عندما وجه القائد "ملك نائب كافور"، على رأس جيشه الجرار حيث أوصاه السلطان بالمكاتبة للحاكم قبل بدأ الحرب، فإن انصاع إلى ذلك، فعليه تقديم الهدايا والاتفاق على الجزية السنوية(٦٠).

استخدم الخلجيون الخطط المبتكرة في حروبهم، منها تقسيم جيوشهم إلى عدة مجموعات، على أن تقوم المجموعات كلها بالهجوم في وقت واحد، مما يؤدي إلى تشتيت انتباه قوات العدو وعدم تركيزها في جهة واحدة، وقد ظهر ذلك بوضوح في عهد السلطان "علاء الدين" في سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م أثناء محاصرة قواته لحصني رنتنهبور وجهاين، فقد قسم جيشه إلى قسمين، سار قائده "ألغ خان" على رأس قسم، وعلى رأس القسم الآخر سار السلطان نفسه، مما ترتب عليه سرعة سقوط حصن رنتنهبور في يد جيش السلطان والقبض على ابن حاكم الحصن المسمى "هميو دايوا"، كذلك استولى القائد "ألغ خان" على حصن "جهاين" وما جاورها من القلاع، مثل جبتور، التي أطلق عليها السلطان اسم "خضر أباد"- أي مدينة خضر- تيمنا باسم ابنه وولي عهده خضر خان(٦١).

هذا وقد اعتمد السلطان "جلال الدين فيروز شاه" على تقسيم جيشه إلى قسمين في حربه ضد ابن أخيه وصهره "علاء الدين" والى أقليم "كره"، حيث سار على رأس ألف فارس عن طريق البحر، وباقي الجيش تحت قيادة "أحمد جب" عن طريق البر، ولكن نتيجة لاستخدام "علاء الدين" الخديعة والحيلة فقد انتصر على

عمه في تلك المواجهة على نهر الجانج[٦٢]. هذا وقد نتج عن تقسيم الجيش إلى ميمنة وميسرة إنزال الهزيمة بالجيش الخلجي أمام فلول المغول في عهد السلطان "علاء الدين الخلجي"، وذلك في السنة الثانية لحكمه للخلجيين، فقد هاجم المغول بقيادة "قتلغ خواجة بن داود" الذين عبروا نهر السند في عدة آلاف، وبالتالي أعد السلطان جيشه وخرج من دهلي بعد أن عين عليها كوتوال المدينة للمحافظة على الخزائن وحراسة الحريم، وقد وضع السلطان على ميمنة جيشه القائد "ظفر خان"، وعلى ميسرة الجيش "ألغ خان"، ولكن بسبب العداء بين القائدين فقد تقدم "ظفر خان" وحيداً لمهاجمة المغول، مما ترتب عليه خروج كمين في الطريق وحاصروه وأصابوا جواده، وأمطروه بالسهام حتى قتلوه[٦٣].

استخدام الفيلة في الجيش:

اعتني سلاطين الخلجيين بفنون القتال الحربية والتشكيلات العسكرية، التي كانت معروفة قبل عهدهم، والتي أضافوا إليها بعض التنظيمات الجديدة، ومن أهمها استخدام الفيلة في جيوشهم، ومن الملاحظ أن السلطان نفسه كان يركب على أكبر فيل في الجيش على عادة ملوك الهند قديماً، وأن يقف الحاكم في القلب وحوله الأئمة والعلماء والرماة أمامه وخلفه، ويوضع في مقدمة الجيوش الفيلة في الصف الأول، وهذا دليل على رفع المكانة الشخصية لهم، وقد اعتبر سلاطين الهند أن امتلاك أحد من الرعية فيلاً ضرباً من المقارنة بالحكام، حيث يستوجب قتله، مثلما حدث من السلطان معز الدين بهرامشاه الذي أمر بقتل قاضيه "اختيار الدين" لذلك[٦٤]. هذا إلى جانب مجموعة من الأبراج بها منافذ لرمي النشاب، وقوارير النفط، وأمام الفيلة العبيد المشاه، حيث يسحبون حبال الفيلة من الميمنة والميسرة[٦٥].

وتمثل الفيلة في بلاد الهند عماد الجيش بجانب الجنود، وكان أكثر راكبيها بالإضافة إلى السلطان كبار القادة وأبناء السلاطين والأمراء[٦٦]. هذا وقد أدخلت بعض التعديلات على لباس الفيلة حتى يستفيد الجيش منها أعلى استفادة، فأضيفت إليها من الجانبين قطع الحديد تثبت في جلود في جوانبها، وكان الهدف منها اختراق الجيش المقابل، وقتل أكبر عدد من أفراده[٦٧].

ويعتبر السلطان محمود الغزنوي هو أول سلطان مسلم استخدم الفيلة في

فتوحاته لبلاد الهند[٦٨]. وفي عهد الدولة الخلجية كانت الفيلة والجياد[٦٩] من أهم وسائل القتال، كما كانت تمثل غنيمة كبيرة في الحروب، حيث كان سقوطها في أيدي الجيش بمثابة انتصار كبير، وقد استولى علاء الدين الخلجي من "رامديو" حاكم ديوكير على واحد وثلاثين فيلاً وعدداً من الجياد والذهب والجواهر واللؤلؤ والأقمشة والأمتعة[٧٠]. ومن أكثر المغانم التي استولى عليها جيش السلطان "علاء الدين" في سنة ٧١١هـ/١٣١١م الفيلة التي وقعت في أيديهم وقدر عددها بثلاثمائة واثني عشر فيلاً، وعشرين ألفا من الجياد وتسع وستين ألف صندوق من الذهب وصناديق جواهر ولؤلؤ، والتي نقلها قائده "ملك نائب كافور" إلى العاصمة دهلي، فسُر السلطان بهذه الغنائم، وأنعم ببعض منها على كبار الأمراء القادة[٧١].

وعلى ذلك فإن الفيلة استخدمت كسلاح في الحرب، هذا إلى جانب استخدامها في معاقبة الخارجين أو الأسرى، فقد كان السلطان يأمر بإعدام أسراه تحت أقدامها، حيث يتم إلقاء الرجال أمام الفيلة فيتم سحقهم تحت أقدامها، مثلما أمر "علاء الدين الخلجي" بإحضار أسرى الحرب المغولي الذين أنزلت بهم الهزيمة أمام بوابة "بدوان"، وأمر بإلقائهم تحت أقدام الفيلة[٧٢].

ومن اللافت للنظر أن سلاطين الهند في عهد الخلجيين كانوا حريصين على امتلاك أكبر عدد من الفيلة، لذا كان حكام الأقاليم يعملون على إرسالها في المناسبات كهدية أو كضريبة وبالتالي فهي تظهر مدى ولائهم وطاعتهم للسلطان، فعلى سبيل المثال قدم "خواجة حاجي" هدية للسلطان علاء الدين عبارة عن سبعة عشر فيلاً مع رسالة وبذلك نال الإنعام السلطاني[٧٣]، فوهبه هدية عبارة عن جتر وألف تنكه[٧٤].

ومن الجدير بالذكر فإن الغنائم في الحرب كانت من ضن الأسباب التي تؤدي إلى تأليب حكام الأقاليم التابعة لسلطنة الخلج على حكامهم، مثلما حدث عندما استولى حاكم مدينة كره على أربعين فيلاً وعدة آلاف من الجياد، وأدى ذلك إلى خروج السلطان جلال الدين فيروزشاه إليه في محاولة لاستعادة الغنائم، وبالتالي إلى إعلان الحرب، وقتله والاستيلاء على سلطنته. [٧٥]

وقد جرت العادة بين سلاطين الهند على وضع الجتر على الرأس، وهو مظلة تقي صاحبها حرارة الشمس، وقد أصبحت رسما من رسوم الدولة، وشارة من

شارات السلطان ففي معركة رنتهبور أذيع خبر أن السلطان "علاء الدين الخلجي" قتل نتيجة لإصابته بسهم قاتل على يد ابن أخيه "اكتخان" ومن معه من المغول الجديد، ولكن عندما رفع الجتر على رأسه- أسرع غالبية الجيش إليه، والتفوا حوله من جديد، حتى قيل إنه عندما ركب السلطان وأسرع إلى خيمته فإن كل فارس رآه في الطريق التحق به، وبذلك اجتمع حوله خمسمائة فارس، مما أدي إلى اضطراب صفوف "اكتخان"، وانفض رجاله من حوله، وبالتالي فر عن طريق أفغانبور. وبذلك أرسل السلطان بعض رجاله وعلى رأسهم "ملك نصير الدين نورخان" لتعقبه، فقبض عليه وقطع رأسه، فطيف بها في وسط الجيش(٧٦)، ومن هنا نرى أن المظلة السلطانية كشارة من شارات الحكم كانت سبباً في تجميع جيش "علاء الدين" مرة أخرى من حوله، وسبباً في معرفة أنه حي يرزق، وأنه لم يقتل في تلك المؤامرة التي دبرها صاحب بلاطه وابن أخيه المدعو "اكتخان".

أما عن أشهر الأسلحة والمعدات الحربية التي استعان بها سلاطين الخلج في جيوشهم، فكانت الأسلحة التقليدية المعتادة في حروب تلك الفترة، ويأتي في مقدمتها السيوف والرماح والنشاب والسهام، بالإضافة إلى الأسلحة الوقائية، مثل الخوذة والدروع، وفي حالة الحصار فإن من الضروري توفير معدات كالمنجيق والنفط وغيرها(٧٧)، فالجندي وحصانه موضع رعاية مع تزويده بالوسائل الحمائية، مثل: الدروع والخوذة وسيفين بالإضافة إلى الأسهم والأقواس وبلط المعارك(٧٨).

وقد اهتم سلاطين الخلج خاصة السلطان "علاء الدين" بتجهيز جيوشهم بالآلات الحربية، وسخر كل موارد البلاد الاقتصادية أو معظمها لتوفير آلات وتموين الغذاء للجنود، هذا إلى جانب تجديد القلاع والحصون والاهتمام بحفر الخنادق، خاصة في حربه ضد المغول، فكان ينبغي تحصين وأحكام القلاع التي تقع في مواجهتهم، مثل ديبالبور والملتان وسامانه(٧٩)، حيث استغل الخلجيون طبيعة البلاد واهتمام الأهالي منذ القدم بتشييد القلاع والحصون في الاستفادة منها في حروبهم، وذلك نظراً لكثرة تلك الحروب، وتميز هذه القلاع بالمتانة والارتفاع الشاهق، مما أعجز كثيراً من المغول المهاجمين على اقتحامها، وذلك مثل قلعة كورالبار- تقع شرق مدينة دهلي- وقد جدد السلطان "علاء الدين" قلعة "أجة" بالقرب من دهلي، والتي بنيت في عهد السلطان "شمس الدين ألتمش"(٨٠)، والتي

ظهرت أهميتها في صد غارات المغول[٨١]، كذلك جدد السلطان علاء الدين الخلجي حصنا آخر يسمى حصن "سيالكوب" بالقرب من دهلي، وهو الحصن الذي شيد في العصر المملوكي أيضاً على يد "قطب الدين أيبك"[٨٢]، حتى يحمي العاصمة من هجمات الثوار الهنود[٨٣].

ومن الوسائل المستخدمة في الجيش الخلجي دق الطبول في الحرب سواء في أثناء القتال أو في أثناء استدعاء الجنود للمسير والتنقل من مكان إلى آخر أو في أثناء توزيع الهبات والعطايا في العروض العسكرية أو في أثناء عقد الاحتفال بالانتصار على الأعداء، مثلما حدث عند عودة القائد "ألغ خان" منتصراً من بلاد الملتان[٨٤].

أسرى الحروب:

أما إذا انتقلنا إلى نقطة أخرى وهي معاملة أسرى الحرب الذين يقعون في يد الجيش الخلجي، فإننا نجد أن هناك اختلافاً في معاملتهم بين سلطان وآخر، فبينما نجد أن السلطان "جلال الدين فيروزشاه" يعامل أسراه معاملة كريمة متسامحة، وذلك بما وصف عنه من حلم وحكمة وتعقل[٨٥]، فإن غيره وخاصة السلطان "علاء الدين الخلجي" يعاملهم معاملة قاسية، ويتفنن في تعذيبهم، فإننا نرى جلال الدين في السنة الثانية من جلوسه على العرش، يطلق سراح أسراه الذين قام واليهم المسمى "جهجو ملك"- حاكم ولاية كره- بالمناداة بأحقيته بالعرش على اعتبار أنه من أسرة السلطان السابق "بلبن الملوكي"، لذا سار على السلطان "جلال الدين" الذي تصدى له بالمسير على رأس جيشه مخلفاً ابنه الأكبر "خان خانان" لضبط أمور الحكم في العاصمة دهلي، واضعاً ابنه الأوسط المسمى "أزكليخان" على مقدمة الجيش[٨٦]، وبالتالي تم إنزال الهزيمة به وأسره مع أكثر رجالات جيشه، وحملوا أسرى مكبلين بالأغلال إلى العاصمة، ولكن عندما رآهم السلطان عطف عليهم وقابلهم بالمودة، فأمر بفك أغلالهم، وألبسهم خلعة السلطانية، وعطرهم بالعطر[٨٧]، ويرجع ذلك إلى أن معظم هؤلاء الأسرى كانوا زملاء للسلطان وأقرانا له في دولة المماليك، هذا إلى جانب أن السلطان قضى الفترة الكبيرة من حياته مسالماً، لم يرق دم مسلم، وأنه تجاوز السبعين من عمره، فرغب ألا يريق دم المسلمين في آخر حياته[٨٨].

كذلك تكرر تسامح هذا السلطان مع عناصر الهندوس الذين خروجوا عليه

فعندما سار السلطان إلى قلعتي جهاين ومالوه، بعد استيلاء راجا "رنتهبور لهما، فعندما شعر السلطان بخوف هذا الأمير الهندوكي من بطشه وتحصنه بإحدى حصونه، ترك ساحة القتال ورجع إلى عاصمته، حقنا للدماء(٨٩).

أما عن معاقبة السلطان "علاء الدين الخلجي" للأسرى في عهده، خاصة الأسرى من المغول، فإن عقابه كان شديداً، فلا يتورع عن إلقاء جميع الأسرى تحت أقدام الفيلة أمام الأهالي، حدث ذلك بعد الانتصار على قائد المغول المسمى "ترتاك بيك"، حيث أمر السلطان بإلقاء جميع الأسرى وقائدهم لكي تسحقهم الفيلة بأقدامها(٩٠).

هذا ولم تقتصر معاملة الأسرى في عهد "علاء الدين" على أسرى المغول فقط، بل تعداه إلى معاقبة الثوار من الهنود من قبائل المواتي، حيث كان يحضر الأسرى إلى الميدان عامة وتعذيبهم بشتى الوسائل، مما كان يترتب عليه انتشار الفزع والخوف بينهم، وبذلك ضمن لنفسه عدم ثورتهم من جديد(٩١).

هذا وكان من أساليب "علاء الدين" مع أسراه الأمر بقتلهم وعدم إعطائهم فرصة لطلب العفو، مثلما حدث مع "حاجي مولي"، الذي كان يشرف على إدارة بعض الأراضي الملكية في دهلي، عندما اختار طفلاً صغيراً من سلالة السلطان "شمس الدين ألتمش المملوكي" وحاول إعلانه سلطاناً على البلاد بدلا من السلطان "علاء الدين"، مع عزمه بحكم البلاد وصياً على هذا الطفل، وعلى ذلك جهز السلطان "علاء الدين" قائداه "ملك حميد الدين" و"الغ خان"، اللذان تمكنا من إنزال الهزيمة "بحاجي مولى" والقبض عليه، ومن ثم أمر السلطان بقتله وعلقت رأسه على حربة، ودار بها الجنود في شوارع العاصمة، وكان جزاء أعوان "حاجي مولى" ومؤيديه القبض عليهم ومصادرة أموالهم، وقتلهم جميعاً(٩٢).

رابعاً: الاهتمام بالجنود في الجيش الخلجي:

اعتني سلاطين الخلجيين بجنودهم في ميادين القتال، وتسليحهم بشتى أنواع الأسلحة والمؤن اللازم لإظهار تفوقهم ومقدرتهم العسكرية، والاهتمام بإقامة الحصون والقلاع، وتجديد ما يحتاج إلى تجديد، هذا إلى جانب الاهتمام بقوادهم وجنودهم، فكثيراً ما كان السلاطين يقطعون الإقطاعات الكبيرة للقواد المنتصرين، مثلما أقطع السلطان "علاء الدين" قلعة رنتنهبور ونواحيها لقائد جيشه "ألغ خان"،

هبة من السلطان وحفاوة منه لما قدمه قائده من انتصارات[٩٣]. كذلك كان ينعم السلطان على قادة جيشه بالألقاب التشريفية والهدايا الفاخرة والتولية على الولايات والأقاليم، فقد أنعم "علاء الدين" على قائده "ملك نايب كافور" بعد انتصاره على حاكم "ديوكير" بلقب راي رايان، وأنعم عليه بجتر، ومائة ألف تنكه، وولاة على ديوكير حاكماً بدلاً من حاكمها المخلوع[٩٤].

هذا بالإضافة إلى توزيع الأسلحة والاهتمام بأرزاق الجنود وملابسهم، هذا على عكس تعامله مع المتآمرين ومثيري الفتن في دولته، فأنه كان ينكل بهم ويأمر بمعاقبتهم بشتى الطرق، مثلما حدث مع مؤيدي ابن أخيه "سليمان شاه"، الذي حاول اغتصاب العرش منه، فإن السلطان أمر بالقبض عليهم وسمل أعينهم، وزج بهم في السجون، ونكل بمعظم أتباعهم[٩٥].

وكثيراً ما يتدخل الجيش لرفع قدر أحد أفراد الأسرة الحاكمة على فرد آخر أو بالعكس، فإننا نرى أن السيدة ملكة جيهان زوجة السلطان جلال الدين فيروزشاه حاولت أن ترفع ابنها ركن الدين إبراهيم سلطاناً خلفاً لوالده مع بذلها الكثير من المال وجهدها في تجميع الرحال والأعوان، إلا أن قواد الجيش انضموا إلى علاء الدين وهاجموا العاصمة معه، وأجبروا ركن الدين إبراهيم وأمه على الفرار إلى الملتان وذلك سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م، ومن ثم بذل علاء الدين الأموال والعطايا للقواد، فاعترف به سلطاناً وسك العملة باسمه وخطب خطبة الجمعة له. [٩٦]

وبذلك نرى مكانة الجيش في تلك الآونة وأنه بفضل تدخل قواته يرفع من قدر سلطان ويعزل آخر.

عناصر الجيش وأجناسه:

تعددت عناصر الجيش وأجناسه في الهند في عهد الدولة الخلجية، والتي يمكن حصرها في أربعة عناصر أساسية وهم العرب والأفغان والأتراك والهنود، أما العرب فهم بقايا القبائل العربية التي فتحت أقاليم الهند، هذا وزاد عدد الأفغان في العهد الخلجي، لأن الخلجيين تأثروا بالبيئة التي عاشوا فيها في البنغال فاعتبروا أنفسهم أفغان أكثر من أي شيء آخر[٩٧]، لذا شجع الخلج الأفغان على الهجرة إلى دهلي ورفعوا من مكانتهم ومنزلتهم وضموهم إلى الجيش وأسندوا المناصب القيادية لهم، خاصة في عهد السلطان "علاء الدين الخلجي"[٩٨].

ومن الثابت تاريخياً وجود عنصر الأتراك في الجيوش الهندية، وهو العنصر الذي كان يعتمد عليه في عصر المماليك في قيادة الجيوش، وكان معظم المماليك في تلك الفترة غلمان وعبيد مشترين من أسواق النخاسة، وتربيتهم تربية عسكرية، وهم الذين امتازوا بعدة مميزات هامة من أهمها الشجاعة والفروسية والإقدام ، وعلى ذلك فإن العنصر التركي استمر في الجيش الخلجي لما اتصفوا به من حزم وقوة وضبط أمور البلاد وتنظيم الجيوش[٩٩].

- أما عنصر الهنود في الجيش الخلجي، فهو العنصر الذي يمثل الأعداد الكبيرة في المجتمع والذي ظل يحاول في كل الفترات الوصول إلى المناصب الرئيسية في دولة الهند، حتى تمكن أحد الهنود من الوصول إلى كرسي العرش في أواخر الدولة الخلجية في حدود سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م باعتلاء القائد خسروخان الحكم وإسقاط آخر سلاطين الخلج السلطان "قطب الدين مباركشاه"- ولما كان خسروخان مدينا لبني جلدته من الهنود من الكجرات، فقد خصهم بالمناصب الرفيعة في الدولة، واعتمد عليهم في شئون الحكم والإدارة والجيش[١٠٠].

وقد زاد الأمر سوءاً أن هذا السلطان الهندي سرعان ما غير سياسته في البلاد، حيث أتاح للهنود بإظهار نحلهم ومللهم، والتعبير عنها علنا، فنصبوا أصنامهم في كل مكان، واستفزوا شعور المسلمين بتمزيق المصاحف الشريفة، ومنعوهم من تأدية شعائرهم وصلاتهم، ورفعوا شعائر الديانات البوذية في القصر الملكي[١٠١].

لم يستمر الوضع في سلطنة دهلي الإسلامية طويلاً على ما هو عليه، فقد قاد حركة المعارضة ضد خسروشاه القائد "ملك تغلق"، القائد الأكبر للجيش[١٠٢]، وأنزل الهزيمة به وبالتالي أسقط الدولة الخلجية، وبدأت تظهر دولة جديدة في الهند، هي الدولة التغلقية في أواخر سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م[١٠٣].

أما عن اختلاف القوة العددية للجنود الخلجيين من معركة إلى أخرى، والتي تقدر بحسب قوة العدو والتجهيزات، والأوامر الصادرة لإعداد الجيش، فقد بلغ الجيش في الملتان أربعين ألف فارس على رأسهم القائد "ظفر خان" بينما كانت أعداد الجيوش لمهاجمة الكجرات في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، أعداد جرارة هاجموا على نهروالة وجميع بلاد الكجرات[١٠٤]، وكان جيش الخلج في عهد السلطان

"جلال الدين فيروزشاه" في أثناء القضاء على فتنة جيجو- جيهجو- عبارة عن عشرة آلاف مقاتل مقسمة إلى قسمين، القسم الأول تحت قيادة أركالي خان، والقسم الآخر تحت قيادة السلطان نفسه(١٠٥).

بينما كان عدد جيش السلطان "علاء الدين خلجي" في سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م ثمانية آلاف جندي، وهو الجيش الذي سار به جنوباً حيث إقليم "ديوكير"، حيث أخضع حاكمها المسمى "رام ديو"(١٠٦)، ولابد أن نشير هنا أن عدد جيش العدو ضد قوات "علاء الدين" لم تكن تقل عدداً عن تلك الحشود من الجنود، ففي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م أرسل السلطان قائده "ألغ خان" ضد "همير ديوا" الذي كان على رأس جيش عدده عشرة آلاف فارس ومالا يحصى من الفيلة والخيول، وبالرغم من هذا العدد فقد انتصر جيش السلطان عليهم وقضي على قوتهم(١٠٧).

ثالثاً: الجيش ودرء الأخطار الخارجية والفتوح في هضبة الدكن:

من المهام الملقاة على كاهل الجيوش بوجه عام في كل زمان ومكان الدفاع عن حدود البلاد الخارجية ضد أي أخطار أو اعتداءات على حدودها، والمتتبع لتاريخ الهند في عصرها الإسلامي يلاحظ إلى أي مدى تعرضت الممالك الإسلامية إلى غارات المغول الذين دأبوا على مهاجمة حدود الهند الشمالية(١٠٨)، وذلك في محاولة منهم للسيطرة على أراضيها، فقد تأثرت هذه المناطق بهجمات المغول، حيث كانوا يعبرون نهر السند(١٠٩). وتكثفت حملاتهم على منطقتي لاهور والملتان(١١٠)، أما في عهد الدولة الخلجية فقد كانت أولى هجماتهم في عهد السلطان جلال الدين فيروز شاه في سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م(١١١)، حيث تمكن جيش السلطان بإنزال الهزيمة بهم، وأسر أعداد كبيرة منهم تقدر ببضعة آلاف، ثم نقلهم إلى مدينة غياث بور في ضواحي دهلي، حيث أطلق عليها اسم مغولبور نسبة إليهم(١١٢)، وهؤلاء المغول هم الذين عرفوا في التاريخ باسم المسلمين الجدد، وذلك بعد اعتناقهم الدين الإسلامي(١١٣).

وفي سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م تكرر هجوم المغول على شمال الهند، في بداية عهد السلطان علاء الدين الذي جهز جيشاً، وضع عليه أفضل قواده القائد ألغ خان، والقائد ظفر خان، اللذان أنزلا الهزيمة بالمغول، فاشتد فرح السلطان والأهالي بدهلي بالنصر فدقت الطبول وأقيمت الأفراح والاحتفالات بالنصر(١١٤).

ولا بد أن نشير إلى أن خطر المغول بات يتكرر بين الحين والآخر طوال فترة حكم علاء الدين، خاصة أن بعض ساكني غياثبور المعروفين بالمسلمين الجدد ثاروا على الخلجيين وهاجموا أمراء الدولة وقتلوا الأمير ملك عز الدين شقيق الوزير الخلجي نصرت خان وقتلوه، وبالتالي أصدر السلطان أوامره بالقبض على معظم نسائهم وأولادهم وعاقبهم أمام أعين الجميع لدرجة أن نظام الدين الهروي(١١٥) أشار لهذا المعنى بقوله: "ولم يحدث من قبل في دهلي أن عوقب أولاد أتباع أحد بذنب آبائهم"، وهكذا فقد انزل الجيش العقاب الشديد بأبناء المغول على ما اقترف آبائهم من فتنة وتآمر على سلطان الخلج في تلك الفترة.

لم ييأس المغول من غزو الهند، فساروا عدة مرات في عهد السلطان "علاء الدين خلجي" لمهاجمتها وقد عمل السلطان على إقامة سلسلة متصلة من الحصون على حدود الهند الغربية وزودها بالجند والسلاح والمؤن . ومن هجمات المغول على بلاد الهند ما قام به الأمير "داود" الذي زحف من بلاد ما وراء النهر بجيش قوامه عشرة آلاف رجل، فتصدى له جيش السلطان تحت قيادة "ألغ خان" وهزمهم وأسر منهم قرابة الألفين فارس، ومن ثم عاد "داود" إلى بلاد ما وراء النهر، دون أن يحقق أي نصر يذكر على جيش الخلج(١١٦).

غزا ملك المغول "قتلق خواجه بن داود" على رأس قوة كبيرة، وعبروا نهر السند إلى الهندوستان، فتصدت لهم قوة السلطان "علاء الدين" تحت قيادة قائداه "ظفر خان" و"ألغ خان"، وتمكنا من إنزال الهزيمة بهذا الجيش الزاحف، ولابد أن نشير هنا أن المغول حققوا نصراً كبيراً بقتلهم قائد الجيش الخلجي "ظفر خان"(١١٧). ولكن في حقيقة الأمر فإن قوة "قتلق خواجة" المغولي لم تستغل هذا النصر بالتقدم في البلاد، وذلك لأنهم زحفوا مسافة بسيطة تقدر بثلاثين فرسخاً، ثم سرعان ما عادوا إلى بلادهم خوفاً من قوة جيش الخلج، وذلك في سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م(١١٨).

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى ما تمتع به جيش الخلج في عهد السلطان "علاء الدين" من قوة وتنظيم، جعلت المغول يخشون من دخول حرب طويلة المدى معهم، حتى لا تكون عواقبها وخيمة عليهم.

عمل "علاء الدين" على صد المغول في سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٤م بارسال قائده "غازي تغلق"(١١٩) بجيش كبير، أنزل الهزيمة بهم في عدة مواقع من لاهور

والملتان، وفي تلك الفترة بلغت قوة جيش السلطان حداً جعله يفكر في طرد المغول من بلاد ما وراء النهر وخراسان وغيرها من أماكن تمركزهم(١٢٠).

أما عن توسعات جيوش علاء الدين في هضبة الدكن فقد جاءت بناء على الانتصارات المتكررة للجيش الخلجي على المغول فإن السلطان "علاء الدين"، وفكر في فتح العالم كله كما فعل الإسكندر الأكبر، فأطلق على نفسه لقب الإسكندر الثاني فاتح العالم(١٢١). ولكن مستشاره أعاده إلى رشده، فقد نصحه قاضيه المسمى "علاء الدين" بأن يركز كل جهوده في فتح الهندوستان، وأن يسخر قوته وأمواله في تحصين وإحكام القلاع تجاه المغول، والاستيلاء على الأقاليم البعيدة من الهند التي لم يصل إليها الإسلام سابقاً، وبذلك استمع السلطان لتلك النصيحة، وأخذ يوجه قواته لاستكمال فتوحات الهند(١٢٢). فجاءت خطوة الجيش التالية في عهد الخلجيين هي التوسع في الهند، خاصة في منطقة الدكن، والهندوستان كلها من البنغال إلى البنجاب، ومن جبال الهملايا إلى تلال الوندهايا، واخترق أقاليم مالوه(١٢٣) والكجرات، واستمر تقدم الجيش الخلجي تحت قيادة "أولوغ خان" و"ملك نايب كافور" حتى استسلم أهالي الدكن للخلجيين، الذين صار سلطانهم يشمل كل شبه الجزيرة الهندية، وذلك في سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م(١٢٤).

ومن أولى خطوات السلطان للتوسع في مناطق الهند البعيدة هي إرسال الجيش الخلجي تحت قيادة "ألغ خان"، على رأس قوة تتجاوز العشرة آلاف فارس، والعديد من الفيلة والجياد، تجاه حصن رنتنهبور وقلعة جهاين، ثم عزز هذا الجيش بقوة أخرى قادها بنفسه، ومن ثم تمكن الخلجيون في وقت قصير من الاستيلاء على هذا الحصن، والقضاء على حاكمه المسمى "راي همير ديوا"، وبالتالي الاستيلاء على العديد من الغنائم والكنوز(١٢٥).

وفي سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م أمر السلطان قائده "عبد الملك شهاب ملتاني" بالمسير تجاه مالوه بجيش ضخم لفتحها والقضاء على حاكمها المدعو "كوكا"، الذي امتلك الكثير من الرجال قدر عددهم بأكثر من أربعين ألف فارس غير المشاة، وقد تمكن هذا القائد من القضاء على "كوكا" ورجاله، والاستيلاء على مغانم كثيرة نقلها إلى السلطان في دهلي(١٢٦).

لعب الجيش الخلجي تحت قيادة القائد "ملك نايب كافور الخصي" دوراً

بارزاً في إخضاع منطقة الدكن في جنوب شبه القارة الهندية في سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م في الاستيلاء على حصن "ديوكير"، والاستيلاء على جميع خزائنه والعديد من الفيلة. وقد أعاده السلطان إلى حكم "ديوكير" بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق للسير سيرة حسنة مع الأهالي، وإرسال الجزية سنوياً للسلطنة بدهلي(١٢٧).

ولكن لم يمض عامان إلا ونقض اتفاق المصالحة، ومنع إرسال الجزية من جديد، فزحف الجيش إليه مما يؤكد رغبة السلطان في استمرار سيطرته ونفوذه على تلك المناطق من الدكن سواء بالسلم أو الحرب، كما يؤكد أهمية تلك المناطق، لدرجة أن السلطان "قطب الدين مباركشاه" في سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م أرسل جيشه تحت قيادة "عين الملك ملتاني"، الذي استطاع خلال ثلاثة أشهر تطهير منطقة الكجرات كلها من الفاسدين، والاستيلاء على الغنائم والأموال من راجات المنطقة(١٢٨).

رابعاً: ديوان الجند:

يعتبر ديوان الجند من أهم الدواوين في البلاد فهو الذي يجمع كافة الجنود تحت سيطرته، لإتسام الدولة الخلجية بالطابع العسكري والقيادة القوية ذات الكفاءة الحربية العالية، فكانت عناية سلاطينها منصبة على الاهتمام بالجيش، وأن أول سلطان في الدولة "جلال الدين فيروزشاه" كان يعمل عارضاً للجيش في الدولة المملوكية، لذا كان اهتمامه منصباً على إقامة ديوان للجند منذ اللحظة الأولى لحكمه، وإعطاء هذا الديوان عنايته واهتمامه دون غيره من دواوين الحكومة من منطلق مسئولية الدولة في إقامة هيئة إدارية تشرف على مصالح الجيش الداخلية وتقدر مرتباته وأرزاق جنده، حتى يتفرغ الجيش إلى إقرار الأمن الداخلي والقيام بالعمليات العسكرية الخارجية، ولكي يضمن الحكام ولاء جنودهم التام لهم، والانتماء إلى دولتهم بالحصول على مستحقاتهم المالية اللازمة لمتطلبات حياتهم اليومية(١٢٩).

ومن المسلّم به أن لديوان الجند موظفاً كبيراً يرأسه يطلق عليه اسم "العارض" مهمته واختصاصه رعاية شئون الجند ونفقاتهم وتجميع فرقه وإمداداته، ومن أشهر من عمل في منصب ديوان العرض في عهد السلطان "علاء الدين

الخلجي" خواجة حاجي نائب" الموكل إليه عرض الجنود في البلدان، الذي وضع تحت يده من أموال الغنائم الشيء الكثير، وفي سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م كان صاحب ديوان العرض هو "خواجة حاجي"، ويطلق عليه اسم نائب عرض[١٣٠].

وفي حقيقة الأمر فإن لرئيس ديوان العرض أهمية كبيرة في الاهتمام بشئون الجنود في الجيش وحفظ ولائهم، وذلك بما يقدمه لهم من أرزاق وإنعامات وهبات، وخير دليل على ذلك ما قدمه رئيس ديوان العرض "جلال الدين الخلجي" في عهد معز الدين كيقباد المملوكي، وذلك بأن جمع إليه العديد من الجنود الخلج وفضلهم على غيرهم من العناصر الأخرى، وزاد من عطاياهم عن العناصر الأخرى كالجنود الأتراك، مما أدى إلى بذر الفتنة بينهم، هذا وقد عمل هذا العارض على سحب أموال الجيش وإنفاقها في صالح الجنود الخلجيين دون غيرهم، مما أدي في النهاية إلى قيام فتنة وقتال بين الطرفين، كان أهم نتائجه إسقاط السلطان معز الدين كيقباد المملوكي من الحكم وإحلاله محله في السلطنة[١٣١].

وقد كان من أهم مهام رئيس ديوان العرض صرف أرزاق الجنود ومرتباتهم حيث حددت للأمير بحوالي أربعين ألف تنكه في السنة، والأسفهسلار عشرين ألف تنكه، وللجندي العادي ألف تنكه في السنة[١٣٢].

هذا يؤكد على اختلاف مرتبات الجند حسب خدماته في الجيش، فإن هناك الجندي المحترف المدون في ديوان العرض، ويتقاضي راتبه من ديوان العرض سنوياً حسب تحديد هذا الديوان له، واعتماد السلطان لهذا التحديد، وهذا الجندي يمتلك على أقل تقدير حصاناً وتزداد مهامه ومسئولياته إذا عهد إليه بحصانين، وفي هذه الحالة يتقاضي راتباً أعلى من راتب صاحب الحصان الواحد، وراتب الجندي غير المنتظم في سلك الجيش، والذي يتطوع في الجيش وقت الحرب فقط، يختلف عن راتب الجندي المنتظم، وقد عني "علاء الدين" عناية خاصة بتحسين رواتب جنده وهيأ لهم سبل المعيشة الرغدة، حتى يضمن ولاءهم وخدماتهم له ولدولته، وبذلك كفل للجيش الحياة الكريمة، حتى يتيسر للجند تحقيق سياسته الدفاعية والهجومية. [١٣٣]

هذا ويعاون رئيس الديوان أو العارض ويساعده في عمله عدة موظفين من أهمهم الكتبة الذين أوكل إليهم مهمة تسجيل أسماء الجند في دفاتر مخصصة لذلك،

كذلك النقباء الذين يعاونون العارض في توزيع العطايا والأرزاق على الجند، ومن هنا نفهم أن مهمة ديوان الجند تنقسم إلى قسمين مهمين:

القسم الأول: يختص بأرزاق الجند ومستحقاتهم، حسب كفاءتهم ومراتبهم العسكرية.

القسم الثاني: يختص بالنظر في السجلات التي تقيد فيها أسماء وطوائف الجند.

وكان قائد الجيش أعلى الرتب العسكرية، التي تمنح للذين أثبتوا الكفاءة والمقدرة في ساحة القتال، مثل "نائب كافور" في عهد علاء الدين الخلجي وغيره(١٣٤).

وخلاصة القول فإن التنظيمات العسكرية التي أدخلها الخلجيون في الهند على جيوشهم، لخير شاهد على قيادتهم وزعامتهم القوية في البلاد، حيث قاموا بتطوير الجيش وأساليب القتال ووضع الخطط العسكرية، والاهتمام بالجنود وأرزاقهم وتجهيزاتهم بالمؤن والأسلحة، مع إنشاء ديوان هو ديوان الجند، لذا نلحظ كفاءة جيوشهم في درء الأخطار والفتن الداخلية، والتصدي للهجمات الخارجية ونجاحهم في إنزال الهزائم المتكررة بالمغول، ومحاولة توسيع رقعة بلادهم وممتلكاتهم خاصة في منطقة جنوب الهند، مما أظهر الدور الفعال لهذا الجيش الإسلامي.

الملاحق

- ملحق رقم ١:

أسماء سلاطين الدولة الخلجية وسني حكمهم:

- جلال الدين فيروز شاه	٦٨٩هـ/١٢٩٠م
- علاء الدين محمد شاه الخلجي	٦٩٥هـ/١٢٩٦م
- شهاب الدين عمر شاه (تحت وصاية كافور الحضي)	٧١٥هـ/١٣١٦م
- قطب الدين مباركشاه	٧١٦هـ/١٣١٦م
- ناصر الدين خسروشاه	٧٢٠هـ/١٣٢٠م (*)

(*) كيلفورد أ. بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص٧٣.

الهوامش

(1) يرجع أصل حكام الدولة الخلجية إلى عنصر الخلج التي تعددت آراء المؤرخين حول نسبهم، فمنهم من يشير إلى أنهم جماعة من الترك كانوا يميلون إلى الترحال والتنقل، وقام أميرهم خان ترك بتجميعهم، وولى عليهم أحد رجاله ويدعى بياغو، وأسكنهم منطقة عرفت بياغو خلج (الكرديزي: زين الأخبار، ص ٤٣٤، ٤٣٥، ترجمة عفاف السيد زيدان، طبعة القاهرة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، والبعض يشير إلى أنهم من الأفغان، وأنهم ينسبون إلى قليج خان – أحد أصهار جنكيز خان-، وقد حرف اسمه بعد ذلك فصار خلج، وعرفوا لذلك بالخلجيين (باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص ٨٨، طبعة الدكن)، وقد ظهر أفراد الخلجيين منذ عهد الدولة الغزنوية كما ساهموا في فتح بلاد الهند (فرشته: تاريخ فرشته، ص ١٨٩، بومباي ١٨٣١م). ثم تولى اختيار الدين محمد بن بختيار الخلجي نيابة عن السلطان قطب الدين أيبك التوسع في بلاد الهند (الجوزجاني: طبقات ناصري، ج١ ، ص ٤٢٤، تعليق: عبد الحي حبيبي، طبعة كابل ١٣٤٣ هـ ش). ومن ثم التحق عدد كبير منهم في خدمة هذا السلطان، منهم مردان خلجي، وملك حسام الدين عوض خلجي (العتبي: تاريخ الميمني، ج٢، ص ١٢٢، طبعة القاهرة ١٣٨٦هـ، نظام الدين الهروي: طبقات أكبري، ج١، ص ٦٣، ٦٤، ترجمة: أحمد عبد القادر الشاذلي، طبعة الدار المصرية للكتاب ١٩٩٥م). ومن ثم تمكن هذا الأمير حسام الدين من الاستقلال بإقليم البنغال في ٦٢٢هـ/ ١٢٢٣م، وأعلن نفسه حاكماً على البلاد (خواندمير: حبيب السير في أخبار أفراد البشر، ج٤، م٢، ص ٦١٧، طبعة طهران ١٣٣٣هـ ش)، وبذلك اشتد ساعد الخلجيين وشكلوا ركناً أساسياً في الجيش الهندي في العصر المملوكي، حتى وصل القائد جلال الدين فيروزشاه إلى منصب عارض الجند في عهد معز الدين كيقباد (بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص ١٤٢، بتصحيح مولوي أحمد علي صاحب، طبعة كلكتا ١٨٩٨م،
Cambridge: History of india, p. 87, volum III Turks and Afghans, (New, Delhi, 1958).

(2) نظام الدين الهروي: طبقات أكبرى، ج١، ص١٣١، ١٤٩.

(3) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق والجزء، ص١١٦، ١٢٥، عصام الدين عبد الرؤوف، بلاد الهند في العصر الإسلامي، ص٩٤، دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م،

Munshi: the struggle for Empire, P.134,(Bombay, 1963).

(4) دهلي: تعتبر دهلي من المدن المهمة في بلاد الهند، فهي ذات أرض واسعة تقع شمال الهند، قليلة الارتفاع، مستوية سطح أراضيها، اتخذها المماليك حاضرة لملكهم، ثم الخلجيون وقد نشأت بها سلطنة دهلي الإسلامية.(المباركبوري: العرب والهند في عهد الرسالة، ص٣٢، طبعة الهيئة

المصرية العالمة للكتاب سنة ١٩٧٣م)، وعندما قدم الإنجليز إلى بلاد الهند لاستعمارها ، أطلق على دهلي اسم دلهي أو نيودلهي ، وهي تبلغ من حيث الطول ١٢٨ درجة و ٥٠ دقيقة ومن حيث العرض ٢٥ درجة و ٥٠ دقيقة

A.K.Jaim: the City of Delhi, P.29 (New Delhi,1994).

الدكن : هي منطقة كبيرة تطلق على القسم الجنوبي من بلاد الهند ، وهي عبارة على هيئة مثلث قاعدته أعلى ورأسه من أسفل ، ويستوطنه العديد من الإمارات الهندية المتفرقة (جوستاف لوبون : حضارات الهند ، ص ٧٣، ترجمة عادل زعيتر ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٤٩م) .

(5) السلطان علاء الدين محمد شاه خلج من أهم وأشهر حكام الخلجيين تولى العرش سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٧م بعد تآمره على عمه السلطان جلال الدين فيروز شاه (فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٧٤)، وقد اتصف علاء الدين بأنه قائد عسكري ومحارب جسور، زوجه جلال الدين من ابنته وعينه حاكماً على ولاية كره Kara، (نظام الدين الهروي: طبقات أكبرى، ج١، ص١١٢)، وقد استمال علاء الدين قادة الجيش ورجالات الدولة ببذل الأموال والهبات وتوزيع الإقطاعات حتى يؤيده في الاستقرار على حكم دهلي، خلفاً لعمه جلال الدين (باراني: تاريخ فيروزشاه، ص٢٢٨، طبعة الدكن).

(6) إقليم البنجاب: كلمة فارسية مكونة من مقطعين، بنج بمعنى خمسة وآب بمعنى نهر أي الخمسة أنهار، ويقصد بها فروع نهر السند، وهي شلبخ- جيناب- بياس- جهلم- راوي (جوستاف لوبون: حضارات الهند، ص١٤٣)

أما البنغال: فتقع في أقصى شرق الهند، وتعتبر المعبر الرسمي إلى أرض التبت والصين، وأكبر مصدر للسكر والعقاقير الطبية الطبيعية، وهي تشكل الآن دولة بنجلاديش الإسلامية.

A.K.Jaim: the City of Delhi, P.49.

(7) الملتان Maltan: ولاية بشمال غرب الهندوستان، بالقرب من غزنة، أهلها مسلمون منذ الفتح العربي لتلك المناطق، وهي معروفة الآن بباكستان (الحسنى: الهند في العصر الإسلامي ، المعروف بجنة المشرق ومطلع النور المشرق ص١٠، طبعة حيدر أباد الدكن سنة١٩٧٢م).

(8) سومنات Somnath: مدينة تقع على الساحل الغربي للهند مواجهة لبلاد شبة الجزيرة العربية فتحها السلطان محمود الغزنوى سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م، وتعتبر من أشهر المدن الهندية من الناحية التجارية والدينية (الكرديزي: زين الأخبار، ص٣٠٨، ميرخواند: روضة الصفا في سيرة "الأنبياء والملوك والخلفاء"، ص١٥٩، ترجمة: أحمد عبد القادر الشاذلي، راجعة السباعي محمد السباعي، الطبعة الأولى، طبعة الدار المصرية للكتاب سنة ١٩٨٨م.

(9) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٩٠.

(10) Cambridge: History of inda, p.p 101,102, (New Delhi, 1958).

(11) انظر ملحق المقالة الذي يحتوي على ثبت بأسماء سلاطين الخلجيين.
(بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي دراسة في التاريخ والأنساب، ص ٧٣، ترجمة: حسين على اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
كان جلال الدين فيروز شاه قائداً للجيش في عهد الدولة المملوكية، التي حكمت ما بين سنتي ٦٠٦: ٦٨٩هـ/ ١٢٠٦: ١٢٩٠م، بايع أهالي دهلي السلطان جلال الدين فيروز شاه بالسلطنة عقب انتصاره على خسرو شاه، وعمل على تأليف قلوب الرعية والأمراء بالإنعام عليهم بالخلع والهدايا، وسعى إلى تخفيف الضرائب على العامة والخاصة.
(Munshi: The struggle for Empire, p. 190, (Bombay, 1969).
كما عمل على نشر الإسلام بين الهندوس، بإعفائهم من دفع الضرائب تشجيعاً لهم على الإقبال عليه.
(Rawlinson: Ashort Cultiual History of India, p. 234, (Oxford, 1958).
(12) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٤٢،
Sharmah: The Sultant of Delhi, P.P199-200, (New Delhi, 1988).
السلطان معز الدين كيقباد المملوكي: كان شاباً لاهياً منصرفاً عن إدارة الحكم، مما أطمع الخلج وعلى رأسهم جلال الدين في السيطرة على الجيش، وبالتالي الإطاحة بحكمه (أحمد البسيوني محمد: مقدمه عن قيام الدولة الخلجية في الهند، ص١٩، مجلة البيان، العدد الحادي والعشرون سنة ١٩٩٩م).
(13) مدينة بدوان: من أخصب أراضي الهند، تقع بالقرب من دهلي، فتحت في العصر الإسلامي على يد السلطان قطب الدين أيبك المملوكي (الحسني: الهند في العصر الإسلامي، ص٨٠).
(14) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص ١٧٤.
(15) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص ٢٢٨.
كره: ولاية على شاطئ نهر الكنج، كثيرة العمارة، لها سوق كبير، قصبة بلاد شرق الهندوستان، ضمت للدولة الإسلامية على يد السلطان قطب الدين أيبك المملوكي (الحسني: الهند في العصر الإسلامي، ص٨٨).
(16) نظام الدين الهروي: طبقات أكبري، ج١، ص١٢٦، ١٣٠، حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٥٣، الطبعة الأولى، طبعة الزهراء للإعلام العربي سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
(17) ابن بطوطه: الرحلة، ص٤٣٢، المعروف بتحفة النظار في غرائب الأمصار، طبعة دار صادر، بيروت.

(18) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص ٢٠٤،

Cambridge: History of inda, p. 121.

(19) ابن بطوطه: الرحلة، ص٤٣٤، أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبة القارة الهندية، ج١، ص١٤٦، مكتبة الآداب بالجماميز.

(20) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص٢٣٢، نظام الدين الهروي: طبقات أكبرى، ج١، ص١٥٩.

(21) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٠٢، عصام عبد الرؤوف: تاريخ الهند، ص٩٣.

(22) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص٢٣٨.

كان الهنود من أكبر العناصر الميالة للفتن والإضرابات في البلاد، وكثيراً ما جهزوا الأسلحة ونادوا بالاستقلال عن الحكومات الإسلامية، ولذا كان الخلجيون يفرضون عليهم العقوبات المشددة والتشدد في قتالهم. (نهاوندي: مآثر رحيمي، ج١، ص ٣٥١، بتصحيح محمد هدايت حسين، طبعة كلكتا ١٩٢٥م).

(23) خواندمير: حبيب السير، جلد جهارم، ص٦٢٤، طبعة طهران ١٣٣٣ هـ. ش.

(24) الكجرات: تقع على الساحل الغربي لبلاد الهند أمام شبه الجزيرة العربية، وهي الآن من ولاية بومباي.(الحسني: الهند في العصر الإسلامي، ص٧١).

(25) ديوكير: تقع إلى الغرب من حيدر أباد، فهي على بعد ٢٨ ميلاً منها، وقد ازدهرت في تاريخ الهند في العصر الإسلامي كحاضرة للسلطان محمد تغلق شاه، حيث اتخذها عاصمة لملكه بدلاً من دهلي، وأطلق عليها اسم دولت أباد، وأمر بنقل سكان دهلي إليها والهجرة إلى العاصمة الجديدة.

(Rawlinson: Ashort Cultirral History of india, P. 232).

أما عن دولت أباد: فهي تقع على مسافة أميال من مدينة أورنك- آباد الحالية- شمال هضبة الدكن، وهي تمتاز بكثرة الزرع ووفرة المعادن كالذهب والفضة (رشيد الدين: قلعة دولت أباد، مجلة ثقافة الهند، العدد الأول سنة ١٩٦٧م).

(26) نظام الدين الهروي: طبقات أكبرى، ج١، ص١٥٢، ١٥٣.

(27) الدولة المملوكية في الهند: هي من الدويلات الحاكمة في العصر الإسلامي، حكموا ما بين عامي ٦٠٦: ٦٨٩هـ/١٢٠٦: ١٢٩٠م أي قرابة الثلاثة وثمانون عاماً، تعاقب في حكمها أحد عشر سلطاناً، كان على رأسهم السلطان قطب الدين أيبك، الذي كان أصله مملوكاً جلب من تركستان، وبيع للسلطان شهاب الدين الغوري (العتبى: تاريخ اليميني، ج٢، ص١٢٢، ١٢٣، طبعة القاهرة سنة ١٣٨٦هـ). أسند السلطان الغوري لقطب الدين ولاية بعض ممتلكاته في الهند عقب انتصاره في معركة نزاين عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م، فأرتفع شأنه في تلك المناطق، (فرشته:

تاريخ فرشته، ج١، ص١٠٢)، ومن ثم بدأ في تكوين دولته في بلاد الهند حيث اتخذ من دهلي حاضرة لملكة واتصف بأنه كان جليلاً عادلاً محباً للعلم والعلماء،
(Husan Qureshi: the Administration of the Sultanate of Delhi, P.178, (Delhi,1944).
وقد بلغت الدولة المملوكية أوج عظمتها في عهد السلطان شمس الدين ألتمش، الذي حكم حتى مقتله في سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، وبذلك انتقل الحكم لأبنائه فتولى بدلاً منه أبنائه الخمسة، ومن أشهرهم السلطانة رضية (بدواني:منتخب التواريخ، ج١، ص٧٠)، ومن أبرز من تولى عرش الهند في عصر المماليك السلطان غياث الدين بلبن، الذي يعتبر رجل دولة من الطراز الأول لما تمتع به من خبرة إدارية وقيادة الجيوش، (فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٣٠)، وهو الذي استمر على عرش البلاد حتى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٨م، وأعقبه على العرش معز الدين كيقباد، ومن بعده شمس الدين كيخسرو، الذي طمع في عهده القائد جلال الدين فيروز شاه في البلاد، فتآمر عليه بالقتل، ومن ثم أسس الدولة الخلجية سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م.
(بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٤٢).
(28) نظام الدين الهروي: طبقات أكبرى، ج١، ص١٠٩.
(29) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق، والجزء، ص١١٤.
(30) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص١٨٩.
(31) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١١٦، عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الهند، ص ٨٧.
(32) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص٨٨.
(33) نظام الدين الهروي: طبقات أكبرى، ج١، ص١١٠، ١١١.
(34) عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الهند، ص٨٥.
(35) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١١٢.
(36) عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الهند، ص ٢٠٩.
(37) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص١٨٤.
وللحقيقة التاريخية فإن السلطان جلال الدين فيروز شاه قضى أغلب فترات حكمه في حروب متصلة ضد المتآمرين على عرشه، مثل سيدي مولى (فرشته: تاريخ فرشته، ص ١٩٢)، والقضاء على الحركات الاستقلالية في دولته بزعامة مدينة زتنهبور، في عام ٦٨٩هـ/١٢٩١م.
(باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص ٢١٠).
(38) فرشته: تاريخ فرشته، ص١٩٥.
(39) نظام الدين الهروي: طبقات أكبري، ج١، ص١٢٥.

(40) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق، ص١١٦.
(41) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص٢٤٠.
(42) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١١٧.
(43) نظام الدين الهروي: نفس المصدر والجزء، ص ١٢٥.
(44) أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٥.
(45) أرنكل– أورنكل: تعتبر قصبة الركن، وبها حصن منيع من أمنع حصون الهند. (الحسني: الهند في العصر الإسلامي، ص١٢٠).
(46) فرشته: تاريخ فرشته، ص٢٤٠.
(47) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٤٤.
(48) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص٢٠٣.
(49) عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الهند في العصر الإسلامي، ص ٢٠١.
(50) نظام الدين الهروي: طبقات أكبري، ج١، ص١٣٤، عصام الدين عبد الرؤوف: نفس المرجع السابق، ص٦٣.
(51) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٢٩.
(52) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٤٣، ١٤٤.
(53) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص٢٠٣.
(54)Oxford: History of india, P.241, (oxfod, 1958).

(55) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٤٥.
(56)Oxford: the History of india, P.240.
لقد استعان السلطان علاء الدين الخلجي بالجواسيس في تنظيم الحالة الاقتصادية والتعامل في الأسواق، حيث نشر رجاله وعيونه في مختلف القرى والمدن، وبلغت رقابتهم على كل صغيرة وكبيرة (فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٦١).
(57) لقد استعان الأمير عمرو بن الليث الصفار بالجواسيس في جيوشه ضد الأمير إسماعيل الساماني حكام بخارى (الكرديزي: زين الأخبار، ص ٢٢٧، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٢٥)، تلك الحملة التي انتهت بفشله وإلقاء القبض عليه وترحيله إلى بغداد (ميرخواند: روضة الصفا، ص ٦٢)، ولقد وصل الاهتمام بالجواسيس في عهده إلى درجة أنه استخدمهم على قواده ورجال دولته (الكرديزي: زين الأخبار، ص ٢٢٨، عباس إقبال: تاريخ ايران، ص ١٢٥).
(58) نظام الدين الهروي: نفسه والجزء، ص١٤٤.

(59) ميرخواند: روضة الصفا، ص٦٢.
(60) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٤٣، ١٤٤.
(61) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٤٤.
(62) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٤٣، ١٤٤.
(63) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق والجزء، ص١٢٦، ١٢٧.
(64) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص٧٥.
(65) القلقشندى: صبح الأعشي في صناعة الإنشا، ج٥، ص٩٢، ٩٣، تعليق: نبيل خالد الخطيب، طبعة بيروت، سنة١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
(66) القلقشندى: نفس المصدر السابق، ج٢، ص٩٥.
(67) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو- المعروفة بالرحلة، ج١، ص١٢٤، الطبعة الثانية، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب س١٩٩٥م.
(68) Nazim: the life and the time of Sultan Mahmoud of Gazna, P.25, (Combridge, 1931).
محمود بن سبكتكين الغزنوي: يعتبر والده سبكتكين مؤسس الدولة الغزنزية في غزنة، والذي كان من أصل تركي من الرقيق، وقد بدأ حياته قائداً بارزاً في البلاط الساماني ببخاري، (الكرديزي: زين الأخبار، ص٢٥٩، خليل الله خليلي: سلطنت غزنويان، ص٣، ٤، طبعة كابل سنة ١٣٣٣هـ، ش)، خلف محمود أباه في الحكم وارتفعت مكانته كسلطان في بلاد المشرق، وغزا الهند قرابة السبع عشرة غزوة، حطم فيها الأصنام، في محاولة صادقة لنشر الإسلام في ربوع بلاد الهند، وفتح العديد من البلدان والأماكن.
(خليل الله: سلطنت غزنويان، ص١٨، Nazim: the life and the time, P.33).
(69) الجياد من أسلحة الحروب في بلاد الهند، والتي اهتم بها سلاطينهم اهتماماً كبيراً، واستوردوها من الجزيرة العربية وبلاد العراق بأعلى الأثمان (ماركبولو:الرحلة، ج٣،ص٣١٩)، وأنواع الخيول في الهند ثلاثة أنواع، أهمها المجلوب من جزيرة العرب، والخيول التركية وهي المجلوبة من بلاد ما وراء النهر والبرازين، وهي الخيول الهندية، (القلقشندى: صبح الأعشى، ج٢، ص٩٣، ٩٥)، وقد خصص للإشراف على الخيول أحد كبار رجالات الدولة، ويسمى أمير الخيل أو أمير الإسطبل.
(Sharmah: the sultant of Delhi, P.186).
(70) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١١٩.
(71) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٤٨.
(72) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص٢١٣.

(73) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٤٢.

(74) التنكة: عمله مصنوعة من الذهب مقدارها ثلاثة مثاقيل، وتسمي التنكه الحمراء، أما المصنوعة من الفضة فتسمى التنكة البيضاء، وتسمى كل مائة ألف تنكة بلكارل ويسمى الدينار في الهند بالتنكة الصفار.(القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، ص٨٥).

(75) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص ١٢١.

(76) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق، ص١٣٠، ١٣١.

(77) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص٢٠٥.

(78) عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الهند، ص٢١٠.

(79) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٢٩.

(80) شمس الدين ألتمش: من حكام الدولة المملوكية في الهند، رفع إلى العرش بدلاً من أرمشاه بن السلطان قطب الدين أيبك، وذلك في سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م (كيلفورد أ.بوزورث: الأسرات الحاكمة، ص٢٥٥)، اهتم السلطان ألتمش بالتنظيمات الإدارية وبالجيش وتصدى لثورات الهنود، وحاول نشر الدين الإسلامي بينهم بدلاً من البوذية (خواندمير: حبيب السير، جلد جهارم، ق٢، ص٦١٨).

(81) خواندمير: نفس المصدر السابق والجزء، ص٦١٢.

(82) العتبي: تاريخ اليميني، ج٢، ص١٢٢، الجوزجاني: طبقات ناصري، ج١، ص٤١٨.

(83) Sharmah: the sultant of Delhi, P.52.

(84) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٢٤.

(85) أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٣.

(86) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص١٨٦.

(87) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١١٠، ١١١.

(88) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق والجزء، ص١١١.

(89) أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٣.

(90) نظام الدين الهروي: ج١، ص١٤١.

(91) Munshi: the struggle For Empire, P.150.

(92) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص٢٧٣، ٢٧٤.

(93) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٣٣.

(94) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق والجزء، ص١٤٢.

(95) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٥٧.

لقد تآمر سليمان شاه ابن أخي السلطان علاء الدين عليه، وحاول أن يقضي على عمه لكي يتولى البلاد خلفاً له، لذا ففي أثناء مسيرة السلطان على رأس جيشه لتأديب أهالي رانثمبهور، قام سليمان شاه بمهاجمة الجيش والسلطان بالسهام، فأصابه في عدة مواضع، ولكن معظم قادة الجيش وقفوا إلى جانب السلطان في محاولة منهم لتضميد جراحه والتمسك به سلطاناً على البلاد، لذا هجم الجيش على سليمان شاه ورجاله، حتى أجبره على الفرار إلى أفغانستان – أفغانبور – (ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص ٤٥٢).

(96) حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٥٣.

(97) أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين، ج١، ص١٣٢.

(98) Munshi: the struggle For Empire, P.157.

(99) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٣٣.

(100)عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الهند، ص١٠٦.

(101) ابن بطوطه: الرحلة، ص٤٢٠.

(102) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص٢٤٠.

(103) الدولة التغلقية في الهند نسبة إلى مؤسسها تغلق شاه (بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٢٥٥، ٢٥٦)، بدأ نجم آل تغلق في الظهور بدخول غياث الدين تغلقشاه في خدمة أولوخان أمير إقليم السند ووصوله إلى منصب أمير خيل (ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٣)، ثم ارتفع شأنه أكثر في عهد الدولة الخلجية فتولى منصباً كبيراً في الجيش ثم قائداً عاماً في عهد قطب الدين مباركشاه الخلجي، وزاد من مكانته ما قام به من ثورة على الوزير خسروشاه الذي قتل السلطان مباركشاه، ومن ثم قاد تغلق شاه الجيش ضده وحاربه عند مدينة دهلي وانتزع العرش منه. (بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص ٢٠٤)، وقد استمر تغلق شاه على العرش حتى وفاته على يد ابنه محمد في ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م. (نهاوندي: مآثر رحيمي، ج١، ص ٣٤٣).

(104) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٢٤، ١٢٥.

(105) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص١٨٤.

(106) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١١٦.

(107) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص٢٢٧.

(108) محمد إسماعيل خان: تاريخ هندو، ص١٧، ١٨، طبعة طهران سنة ١٢٧٩م.

(109) نهر السند: يعتبر نهر السند من أكبر أنهار الهند، إذ يتفرع منه خمسة أنهار، بالإضافة إلى نهر كابل، وجميع تلك الأنهار تقع في شمال هضبة الركن، يعتبر نهر الكنج من أقدس أنهار البلاد. (أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين، ج١، ص٣٠٦).

(110) تعددت هجمات المغول في عهد الدولة المملوكية في الهند على حدود الهند الشمالية، مثلما حدث في عهد السلطان معز الدين بهرامشاه سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م، حيث زحفت جحافلهم على مدينة لاهور، ولولى بسالة قائد جيش السلطان المسمى نظام الدين ما انسحب المغول من تلك المناطق (خواندمير: حبيب السير، جلد جهارم القسم٢، ص٦٢٢، فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٢، (Munsh: the Struggle for Empire, P.139

كذلك زحف المغول على الهند في سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٢م (ماركوبولو: رحلة ماركوبولو المعروفة بالرحلة، ج١، ص٧٦، وتكرر زحفهم في عهد السلطان غياث الدين بلبن، وكانت وجهتهم منطقة الملتان، فقاد القائد محمد بغراخان ابن السلطان الجيش، ووضع حداً لهجماتهم (فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٣٦، محمد إسماعيل خان: تاريخ هندو، ص٨١٨).

Oxford: History of India, P.241, (oxfod, 1958).

(111) باراني: تاريخ فيروز شاهي، ص١٨٥، محمد إسماعيل خان: تاريخ هندو، ص١٩، ٢٢.

(112) في عهد السلطان جلال الدين فيروز شاه نقل المغول الأسرى إلى غياث بور، وهم الطائفة التي عرفت بعد ذلك باسم المسلمون الجدد. (ماركوبولو: الرحلة، ج١، ص٧٧)، وبسبب انتشارهم في تلك المنطقة فقد تم التزاوج بينهم وبين الهنديات، وولدوا جنسا هجينا أطلق عليه اسم الجلاسون، حيث كان المغول شقر الشعر، بينما الهنديات سمروات البشر. (ماركوبولو: الرحلة، ج١، ص٧٧).

(113) نظام الدين الهروي: طبقات أكبرى، ج١، ص١١٦، أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين ج١، ص١٣٣، ١٣٤.

(114) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق والجزء، ص١٢٥.

(115) نفس المصدر السابق والجزء، ص١٢٦.

(116) حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٥٣.

(117) Munshi: the Struggle for Empire, P.144.

(118) نظام الدين الهروي: طبقات أكبري، ج١، ص١٢٦.

(119) غازي تغلق: أول سلاطين الدولة التغليقية في الهند، تلقب بلقب غياث الدين، حكم لمدة خمس سنوات من سنة ٧٢٠هـ إلى ٧٢٥هـ/١٣١٩: ١٣٢٥م، وقتل على يد ابنه محمد، الذي جلس على العرش مكانه، وذلك بأنه شيد قصراً من الخشب على عجلة من أمره قرب دهلي، ليستريح فيه أثناء عودته من رحلة في البنغال، وقام ابنه بإصدار الأوامر للصانعين بإضعاف إحدى جوانب البناء، وأوعز إلى سايس الفيلة أن يقتحم هذا الجانب أثناء الاستعراض، وبذلك ينهار المبني بأكمله، وترتب على ذلك مقتل السلطان وعدد من رجال دولته. (نهاوندي: مآثر رحيمي، ج١، ص٣٤٣).

(120) نهاوندي: نفس المصدر السابق، والجزء، ص٣٤٠.

(121) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٩٠.

(122)Cambridge: History of india, p.p 101,102.

(123) مالوه: تقع على بعد ٣٠٠ ميل جنوب دهلي، وتضم عدة قلاع حصينة منها قلعة بهيلسان، وبها مدينة أجين، التي كانت مركز للهنود وعباداتهم وكبرى مدنها مدينة مندو.

(A.K. Jain: the city of Delhi, P.٥٥).

(124) حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ، ص٢٥٤.

(125) نظام الدين الهروي: نفس المصدر السابق والجزء، ص١٢٩.

(126) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص٢٠٣.

(127) نظام الدين الهروي: طبقات أكبري، ج١، ص١٤٢.

(128) نظام الدين الهروي، نفس المصدر السابق والجزء، ص١٥٢، ١٥٣.

(129) بدواني: منتخب التواريخ، ج١، ص١٤٢،

Sharmah: the Sultant of Delhi, P.199.

(130) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١، ص١٤٢ ، ١٤٤.

(131) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص١٢٧.

(132) نظام الدين الهروي: طبقات، ج١،ص٨٨.

(133) عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الهند، ص٢١١.

(134) فرشته: تاريخ فرشته، ج١، ص٢٤٠.

أسماء المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

١- أحمد البسيوني محمد: مقدمة عن قيام الدولة الخلجية في الهند، مجلة البيان، العدد الحادي والعشرون سنة ١٩٩٩م.

٢- أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم"، ج١، مكتبة الآداب بالجماميز.

٣- ابن بطوطه (ت٧٩٩هـ/١٤٠٢م): محمد بن عبد الله بن محمد إبراهيم اللواتي، "تحفة النظار في غرائب الأمصار"، المعروف بالرحلة، طبعة دار صادر بيروت.

٤- الحسني (ت١٣٤١هـ/ م): عبد الحي بن فخر الدين العلي.
الهند في العصر الإسلامي المعروف بجنة المشرق ومطلع النور المشرق، طبعة حيدر أباد الدكن، بالهند سنة ١٩٧٢م.

٥- حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى الزهراء للإعلام العربي سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٦- رشيد الدين : قلعة دولت أباد ، مجلة ثقلفة الهند ، العدد الأول سنة ١٩٦٧م .

٧- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: بلاد الهند في العصر الإسلامي منذ فجر الإسلام حتى الغزو التيموري، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٨- القلقشندى (ت٨٢٠هـ/١٤١٨م): أبو العباس أحمد بن علي،
"صبح الأعشي في صناعة الإنشا"، ج٢، ج٥، تعليق خالد الخطيب طبعة بيروت، سنة ١٩٨٧م.

ثانياً: المصادر والمراجع الفارسية:

٩- باراني : ضياء الدين " تاريخ فيروزشاهي" ، طبعة الدكن .

١٠- بدواني (ت في النصف الأول من ق١١هـ/١٨م): عبد القادر ملوك شاه بداوني

"منتخب التواريخ، ج١، بتصحيح مولوي أحمد علـــي صـــاحب، طبعـــة كلكتـــا ١٨٩٨م.
١١- الجورجاني (ت٦٩٨هـ/١٣٠٠م): أبو عثمان منهاج السراج،
"طبقات ناصري"، تصحيح وتعليق عبد الحي حبيبي، طبعة كابل ١٣٤٣هـ.ش.
١٢- خواندمير (ت٩٤٢هـ/١٥٣٧م):غياث الدين بن همام الـــدين الحـــسيني، "حبيب السير في أخبار أفراد البشر" اجلد جهـــارم، طبعـــة طهـــران ســـنة ١٣٣٣هـ.ش.
١٣- خليل الله خليل: سلطنة غزنويان، طبعة كابل ١٣٣٣هـ ش.
١٤- عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية في نهايـــة الدولة القاجارية، نقله عن الفارسية محمد علاء الـــدين منـــصور، مراجعـــة السباعي محمد السباعي، طبعة دار الثقافة والنشر والتوزيع.
١٥- العتبي (ت٤٢٨هـ/١٠٣٦م): أبو نصر محمد عبد الجبار،
"تاريخ اليميني" المسمي الفتح الوهبي على تاريخ أبو نـــصر العتبـــي: جـــزءان القاهرة ١٣٨٦هـ.
١٦- فرشته (ت في القرن١١هـ/١٦م): محمد قاسم هندوشاه،
"تاريخ فرشته" (ألف في حدود سنة ١٠١١هـ/١٥٩٨م) المجلـــد الأول، طبعـــة بومباي سنة ١٨٣١م.
١٧- الكرديزي (ت٤٤٢هـ/١٠٥٠م): أبو سعيد عبد الحي الضحاك،
"زين الأخبـــار"، ترجمـــة مـــن الفارســـية، عفـــاف الـــسيد زيـــدان، القـــاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٨- محمد إسماعيل خان : تاريخ هندو ، طبعة طهران سنة ١٢٧٩م .
١٩ - ميرخوند: (ت٩٠٣هـ/سنة ١٤٩٠م): محمد بن خاونـــد شـــاه، روضـــة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء"، ترجمة عن الفارسية أحمد عبـــد القادر الشاذلي، راجعة السباعي محمد السباعي، الطبعة الأولى، طبعة الـــدار المصرية للكتاب سنة ١٩٨٨م

٢٠- نظام الدين الهروي (ت١١هـ/١٨م): أحمد بخشي: "طبقات أكبري، ج١، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي باسم المسلمون في الهند من الفتح العربي إلى الاستعمار البريطاني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥م.

٢١- نهاوندي (ت١٠٢٥هـ): ملا عبد الباقي، "مآثر رحيمي"، بتصحيح محمد هدايت حسين، طبعة كلكتا سنة ١٩٢٥م.

ثالثاً: المراجع المترجمة:

٢٢- جوستاف لوبون: حضارات الهند، ترجمة عادل زعيتر، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٤٩م .

٢٣- كليفود أ. بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، دراسة في التاريخ والأنساب الطبقة الثانية، ترجمة حسين علي اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، وعين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥م.

٢٤- ماركوبولو: الرحلة المعروفة برحلات ماركوبولو، ترجمة عن الانجليزية عبد العزيز جاويد، الطبعة الثانية طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥م.

٢٥- المباركبوري (أبو المعالي أطهر): العرب والهند في عهد الرسالة، ترجمة من اللغة الإنجليزية عبد العزيز عبد الجليل، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م.

- رابعاً: المراجع الأجنبية:

26- A.k.Jain : The City of Delhi, (New Delhi, 1994) .
27- Cambridge: History of India, volume III Tyrks and Afghans. (New Delhi, 1958).
28- Hassan Qureshi: The Administration of Sultanate of Delhi, (Delhi, 1944).
29- Munshi: The Struggle for Empire. (Bomboy, 1969).
30- Nazim M : "The Life and the Time of sultan Mahmoud of Ghazn" (Eith of arcward) by the late sir Thomes Arnold, (Cambridge, 1931).
31- Oxford: History of India, (oxford, 1958).
32- Rawlinson: A short Cultural History of India, (Allahabad, 1926)
33- Sharmah: The Sultan of Delhi, (New Delhi, 1988).

تطور الشركات التجارية في الغرب الإسلامي
من خلال كتب النوازل الفقهية

د/ جمال أحمد طه
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى
كلية الآداب – جامعة سوهاج

تتميز التجارة الإسلامية لا سيما في منطقة الغرب الإسلامي بسعتها وشمولها مختلف أرجاء المنطقة من طرابلس الغرب ومصر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن شمال الأندلس وفرنسا وايطاليا إلى نهر السنغال والنيجر جنوباً فقد ساعد التجار وتجارتهم الدولية علي حفظ الروابط في جميع عالم البحر المتوسط المسلم والمسيحي[١].

لكن اكتنفت التجارة الإسلامية صعوبات كثيرة ، كان من أهمها الحاجة الماسة إلى قواعد تحكم التعامل فيما بين التجار وتكون هذه القواعد مستمدة من الشريعة الإسلامية لكن تطبيق هذه القواعد قد يسفر عن بعض التعقيدات؛ لذا تعددت وجوه الشركات في المبادلات التجارية الإسلامية ، وقد عرفها البعض بأن الشركة تكون للربح والكسب ابتغاء الفضل وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : شركة الأموال ، وشركة الأبدان ، وشركة الوجوه أو الذمم[٢].

علي أن معطيات الشركات التجارية تبرز في كتب النوازل الفقهية بين الندرة والكثرة متفاوتة الأهمية والعدد ففي الوقت الذي تكثر فيه النوازل حول شركة الأموال، تندر فيه حول شركة الأبدان وشركة الوجوه أو الذمم.*

أولا : شركة الأبدان :

أجاز الفقهاء شركة الأبدان بشروط خمسة :

١. أن تكون الصنعة واحدة .
٢. حركتها والآلة في السرعة والإبطال واحدة .
٣. الجودة والرداءة واحدة.
٤. يتقاويان.
٥. يعملان في موضع واحد بينهما علي السواء أو قدر الأجزاء المشتركة(٣).

ثمة نوازل فقهية تتعلق بشركة الأبدان، كأن يشترك اثنان أو أكثر فيما يكتسبان بأبدانهما، كأن يشتركا في صناعة أو عمل، وما يحصلان عليه فهو بينهما إنصافا، أو علي ما اتفقا عليه . ومن شروطها أنه إذا مرض أو تغيب أحد الشريكين وكان ذلك لوقت يسير فالآخر متطوع له وما يحصل عليه فهو بينهما(٤).

وقد أجاز الفقيه ابن رشد المتوفى عام 520هـ/ ١١٢٦ م في شركة الأبدان اشتراك اثنين أو أكثر في تجارة علي أن يستقل كل واحد منهما بصنعته أو بغيرها في الوقت الذي لا يحتاج في التجارة إليه(٥).

ويظهر من خلال بعض النوازل أن هذه الشركة لم تكن موافقة دائماً لأحكام الشرع، واعتبرها الفقهاء شركة فاسدة بسبب اختصاص البعض بالعمل وبالسلف أيضا ، مثل شركة الحمالين في أجرة ما يحملونه بسب احتمال أن يكون حملهم لمسافات مختلفة(٦)، وكذلك في شركة الدلالين مع الجلابين لأن أحدهما يتصرف ويمشي الآخر يحبس ويطوي ويتعب في أعمال مختلفة(٧).

ثانيا : شركة الأموال :

تنقسم شركة الأموال بدورها إلى ثلاثة أقسام ، شركة المفاوضة وشركة العنان وشركة المضاربة، ويقصد بها القراض.

أ. شركة المفاوضة :

هي شركة يجوز فيها بيع كل واحد منهما علي صاحبه(٨)، واحتفظ ابن سهل المتوفى عام ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣ م برسم عدلي مبرم بين تاجرين من قرطبة، جاء فيه أنهما شريكان متفاوضان في جميع أموالهما وتجاراتهما وجميع أمورهما قليلها وكثيرها(٩).

ولم تخل شركة المفاوضة من عدم موافقتها لأحكام الشرع وسوء العلاقات بين الشركاء مثلما حدث في تلك النازلة التي ضمن كل واحد منها شريكه حاضر بغائب ومليا بمعدم " وحينما أراد أحدهما إجبار صاحبه علي الخروج معه، امتنع بسبب شروط الاتفاق ، وأنصفته فتوى أبى القاسم بن ورد قاضي غرناطة المتوفى عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م حينما أقضى بأن صاحبه غير ملزم بالخروج معه(١٠).

ب- شركة العنان :

حقيقة الشركة اختلاط المال(١١). وهي شركة بين شخصين أو أكثر في قدر من المال يوزع عليهم حسب أسهم معينة، ويكون الربح والخسارة بينهم بحسب أسهمهم من رؤوس الأموال ويكون الشريك ملزماً بالحصول علي موافقة وترخيص شركائه فيما يقوم به من أنشطة(١٢).

ولهذه الشركة شروط أوردها الإمام البرزلي المتوفى عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م نقلا عن أبى القاسم بن سلمون الغرناطي المتوفى عام ٧٦٦ هـ / ١٣٦٥ م وهي:

١. أن تكون في العين المشترك فيها مستوية في الصفة والعمل والربح علي قدر المالين.
٢. أنها تجوز في الطعام علي أن يكون سواء في الصفة والكيل.
٣. تجوز في العروض بشرط تقديمها قبل الشركة.
٤. تجوز في الغنم علي أن يحصل كل واحد منهما غنماً معلومة.
٥. لا تجوز في الاجباح لما فيها من العسل فيدخلها التفاضل(١٣).

ولعل النموذج المشهور عن شركة العنان في تاريخ المغرب في العصر الإسلامي هي شركة الأخوة المقري، وانعقدت في القرن السابع الهجري / الرابع عشر الميلادي بين خمسة أخوة ،، فيما ملكوه وفيما يملكونه علي السواء بينهم وعلي الاعتدال،، وقد فرقوا المهام فيما بينهم وخلقوا فروعاً عبر مراكز التجارة الصحراوية ومنافذها ، ،، فمنهم من بقى بتلمسان واستقر الآخرون بسجلماسة وأولاتين يتبادلون السلع والمعلومات فيما بينهم عن أحوال التجار وأخبار البلدان،، حتى ازدهرت تجارتهم وتضاعفت ثرواتهم(١٤).

ووردت في كتب النوازل الفقهية أمثلة أخرى عن شركة العنان فقد كان التجار الطارئون علي صقلية يجتمعون ويحجبون الأموال يشترون بها قمحاً عاقدين الشركة في أصل المال(١٥).

ولا نعدم من الإشارات عن شركة العنان وغالبها طرح علي أنظار الفقهاء بسبب العلاقات بين الشركاء وسوء الفهم الظاهر لإطارها الشرعي ولشروط الضمان حينما يتسبب الشريك العامل في ضياع السلعة أو المال(١٦). ويتضح ذلك من خلال النازلة التي سئل عنها مفتي تونس محمد بن القاسم الرصاع المتوفى عام ٧٧١ هـ/ ١٣٦٦ م عن رجل أعطى بضاعته أمانة يتجر بها في بلاد المغرب من المواضع المأذون فيها عادة، فذهب المبعوث معه بالمال إلى المغرب ثم قدم وادعى أنه أودعه ببلد من بلاد المغرب واستظهر بإشهاد في ذلك، وأن العدو - دمره الله - أخذ البلد المذكورة واستولى علي ما فيها وأنه أخذ ما وجدوه بالبلدة من المتاع وغيره، فادعي رب البضاعة أن الرجل تعدي في مسيرة إلى تلك البلدة لأنه سافر بالمتاع من بلاد فاس إليها وطريقها مخوف وتعلق الضمان بذمته فلا يسقط الضمان عنه بوصول المتاع إلى البلدة المأمونة، وأثبت أن الطريق مخوف، فأجاب الرصاع بعدم الضمان(١٧).

ومن أمثلة شركة العنان من خلال العروض تلك النازلة التي وردت في المعيار عندما سئل القاضي أبو بكر بن زرب القرطبي المتوفى عام ٣٨١ هـ / ٩٩١ م عن رجل أرسل مع آخر عروضاً إلى رجل بسجلماسة ليتجر بها، فباع الرسول العروض بسجلماسة ودفع ثمنها إلى الذي أرسلها إليه، فقال له الذي بعثه إنما آمرتك أن تدفع إليه العروض ولم آمرك بالبيع، وقال الرسول بل آمرتني ببيعها، وان أدفع إليه ثمنها، وتساءل هل يكون الرسول ضامناً؟ فأجاب أبو بكر بن زرب: إذا بعث الرسول ألم يبعثه علي الأمانة؟ فقالوا نعم، فقال لهم : فمن كان أمينا لم يضمن إلا بينه تقوم عليه بالتعدي وإلا فلا ضمان عليه(١٨).

وتبرز بعض النوازل اعتياد التجار علي العمل في إطار شركات فاسدة، يفضحها أحيانا لجوؤهم إلى القضاء بسبب قد يعرض لهم من خلافات(١٩). فقد يحصل أن يكون شريكين بمائة مثقال علي حد السوية، فبعد أعوام من شركته أراد أحدهما أن يزيد في مال الشركة خمسين ديناراً ولم يكن عند الآخر ما يزيد،

ويرغب الأول في أن يسلفه نصف الخمسين لتكون الشركة علي النـصف[٢٠]. أو مثل ظهور الشركة بعد الوفاة مثلما حدث في النازلة التي رفعت من القاضي عياض المتوفى عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م لفقيه الأندلس أبو عبد الله بن الحاج المتوفى عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م عن رجل معروف بتبضيع المال للتجارة سافر لبلاد المغرب فمات هناك، فقام جماعته يطالبون ببضائعهم واثبت بعضهم أنه يعلم شريكاً له، ولم يجد الشركة ولا عرف صورتها وأثبت بعضهم إقرار الميت بأنه وجد معه في تلك السفرة متاعاً، ولبعضهم أنه باع له متاعاً يسيراً في تلك السفرة وأثبت بعضهم ديناً قبله وله عقار بالحضرة، وقد أفتى ابن الحاج بعدم سريان الشركة المذكورة[٢١]، أو قد يحدث إلا يستحق التاجر العامل إلا إجارته، في حين أن التاجر المبضع يعطيـه قسطا من الربح كالثلث ويعتبره بذلك شريكاً وضامناً[٢٢].

ومن وجوه فساد شركات العنان أيضا اختصاص بعـض الـشركاء بالعمـل والسلف، أو يتساويان أيضا في الربح مع الاختلاف في قدر رأس المال بـسبب أن أحدهما كان يخرج بالأمتعة إلى الأسواق، في حين أن الواجب شرعاً هـو تقـسيم الربح علي قدر المساهمة، ومن له فضل عمل الآخر، رجع عليه بأجرة المثل فـي العمل[٢٣]، أو أن يعتبر نفسه متطوعاً[٢٤].

وغالب الظن أن العمل بشركات بهذه الوسائل يرجع للظروف العامة المحيطة بالتجارة البعيدة المدى بسبب أخطار القرصنة بالبحر، وانعدام الأمن بالطرق البرية، فكان التاجر العامل بسبب ذلك عملة نادرة، ولهذا فمن المحتمل أن يكون ذلك مـن جملة الأسباب التي تدفع التجار الممولين إلى العمل في إطار شركة العنان، علمـاً بأن التاجر كان يقوّم بضاعته في الغالب بالسعر الذي يراعي أرباحه[٢٥].

ويبدو من خلال هذه الأمثلة أن شركات العنان التجارية كانت تعمل في إطار الجانب الشرعي جيداً من الناحية الشرعية، وأن كل الأحكام كانـت تهـدف إلـى محاربة المعاملات الربوية فكان التشديد علي أن المساهمة بالمال أو البضائع يجب أن يكون من النوع نفسه بالكميات نفسها[٢٦]. وعلي العموم فإن التجار ابتعدوا عن الربا[٢٧]، ولكنهم لم يألوا جهدا من أجل التحايل علي الموانع من خلال الشركة مع اليهود في التجارة الصحراوية تحت غطاء السلف مع العلم بأن البضائع لم تكـن لا من النوع نفسه ولا مماثلة[٢٨]. ومن خلال إنشاء شركاء تجاريـة مـع النـصارى

والاتجار علي أرض الكفر في بضائع حرم الفقهاء والكنيسة علي السواء التعامل بها بين المسلمين والنصارى[٢٩].

ج. شركة المضاربة (القراض) [٣٠]:

كان الحل الأمثل في الغالب هو شركة المضاربة (القراض) وهو نوع من المشاركة فيه فوائد السلف دون الوقوع في الربا، ولهذا شاع العمل به بين المسلمين[٣١]، فالقراض تصرف مألوف وعادي في ديار الإسلام وبدونه لم يكن ليتم هذا الحجم من التجارة في العالم الإسلامي[٣٢]، وسنته أن يكون بالدنانير والدراهم[٣٣]، وقد كان في الجاهلية فأقره الرسول صلى الله عليه وسلم في الإسلام وعمل به صدر هذه الأمة وخيارها، ومستند الإجماع في القراض حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب حيث وصلهما أبو موسى الأشعري بعد غزوة نهاوند بمائة ألف درهم من مال بيت المال دفعها إليهما ليشتريا بها سلعة ويتبايعانها بالمدينة علي أن يردّا المال لأمير المؤمنين والربح لهما، فأخذاها واشتريا بها من أمتعة العراق فربحا عليها بالمدينة ربحا كثيراً فعملا بحكم القراض، مما يدل علي أن القراض كان معلوماً فيهم[٣٤].

والقراض مأخوذ من القرض وهو إذا أعطى ليجازى بجزء من الربح، وسمي مضاربة من الضرب في الأرض، وعرف عرفاً بأنه إجارة علي التاجر في مال يجزي من ربحه لا بلفظ الإجارة وهو منفعة متعلقة بذمة رب المال، وهو جائر بشروط عشر:

١. تقديم رأس ماله للعامل.
٢. كونه معلوماً وغير مضمون.
٣. ومما يتعامل به أهل البلد من العين مسكوكاً كان أو غيره.
٤. معرفة الجزاء الذي تقارضا عليه.
٥. كونه مشاعاً لا يقدر بعدد.
٦. لا يختص احدهما بشيء معين سواء إلا ما يضطر إليه العامل من نفقة مؤنة.
٧. اختصاص العامل بالعمل في التجارة.
٨. غير مضروب بأجل .

٩. كون المتقارضين مسلمين بالغين .

١٠. كون رأس المال مسلما إلى العامل[٣٥].

ينعقد القراض بالمال ذهباً وفضة، وتحصل الشركة بين المتقارضين بعقد قراض تستوفي به شروط الشركة[٣٦]، ولصاحب المال أن يحدد في العقد أنواع التجارة والأسواق والعامل يعتبر ضامناً " فكل قرض مضمون، ويلزم بالاشتغال أو السفر"[٣٧]، وإن ربح كان الربح بصاحب القراض، كما لا يجوز لصاحب المال أن يلزم العامل بالاشتغال لصالحه وحده، أولا يشتري إلا من شخص معين[٣٨]، وشركة المضاربة (القراض) تلزم العامل بأمور ليس له أن يعمل شيئا منها إلا بإذن رب المال " فليس له أن يشارك أو يقارض أو يبيع بالدين أو يبضع أو يسلف أو يهب أو يجابي، ولا أن يودع مال القراض إلا من عذر من خراب منزل أو إرادة سفر"[٣٩]، ولا يجوز للعامل علي القراض أن يأخذ من الربح قبل قبض رب المال رأس ماله[٤٠].

وقد حدد ربح شركة القراض بالنصف أو الثلث حسب ما يتفق عليه في عقد القراض، لكن لا يجوز في شركة المضاربة تحديد ربح شهري أو سنوي كأن يستند رب المال دينارين أو مثقالين في كل شهر ففي هذه الحالة يكون القراض فاسدا"[٤١].

وقد وقع الخلاف بين الفقهاء حول إلزام شركة القراض بالعقد من عدمه[٤٢]، وإن كان عقد شركة القراض معمولاً به في الغالب، فإن هناك بعض الحالات الاستثنائية التي لم يحصل فيها ذلك، فهناك حالات نزاع ظهرت بسبب الاختلاف في قدر رأس المال وهو ما يفيد بغياب عقد القراض[٤٣]، فبعض الشركات لم تكن في حاجة إلى عقود لأن أصحابها فضلوا بكل بساطة أن يضعوا نشاطهم تحت رعاية أحد الصالحين[٤٤].

وشركة المضاربة (القراض) غير محكومة بمدة معينة من الزمن، إلا إذا تم التنصيص في العقد، والعادة في القراض لا يحمل علي المرة الواحدة[٤٥]، وأفتى ابن الحاج بفساد شركة القراض إذا ضرب لها أجل[٤٦]، لهذا فإن شركة القراض لا تتوقف إلا بموت صاحب المال لأنه حينها يلزم الإذن من الورثة وينتهي مفعول الشراكة باقتسام الربح ورد رأس المال إلى ورثة صاحبه وباسترداد العامل لوثيقة عقد شركة القراض[٤٧].

وتوضح شركات القراض مدى مرونة أحكام الشريعة الإسلامية وفعاليتها من حيث هي وسيلة لتنظيم أنشطة المسلمين التجارية عبر مسافات طويلة وربما في بلاد غير إسلامية برغم ما يمكن أن يصادف تلك التجارة من مصاعب(٤٨).

وقد مارس التجار وأصحاب رؤوس الأموال شركات المضاربة بكثرة علي اعتبار أنها شركات جائزة في المال، حتى كان بوسع القضاة دفع أموال المحاجز إلى عمال القراض للاتجار فيها وتنميتها(٤٩)، كما كان من المعروف أن الأمراء والسلاطين كانوا يقدمون المال لبعض الفئات علي وجه القراض(٥٠).

والظاهر أن علاقات الشراكة تلك قد راعت في الغالب جانب الصدق والتحري في المعاملات لكن النوازل الفقهية التي أثيرت حول الموضوع تشير إلى بعض التجاوزات التي حدثت هنا وهناك عبر أرجاء الغرب الإسلامي، وعلي امتداد فترة طويلة وهي تجاوزات تبقى طبيعية في مجال تتغلب فيه أحيانا النوازع الذاتية علي الموانع الدينية، كما أن ليس من المستبعد أن يكون الجهل بإحكام الشرع في هذا الجانب من المعاملات قد أدى بدوره إلى ارتكاب المحظور ووجوهه هنا كثيرة(٥١).

ويمكن إبراز عديد من النوازل الفقهية التي توضح مدى تعامل التجار المسلمين من خلال شركات المضاربة (القراض) وهي دلالة علي الطريقة التي تم بها النشاط التجاري، حتى وإن كان مرتكباً للمحظور، فتكشف بعض شركات المضاربة عن معرفة التجار بالموانع الدينية من خلال محاولات التحايل التي يلجئون إليها، كما هو الأمر في تغيير المكان المتفق عليه في التجارة، والإبطاء المتعمد " فقد سئل القابسي المتوفى أواخر القرن الرابع الهجري / الحادي عشر الميلادي، عمن دفع إلى رجل قراضاً ليمضي به إلى ناحية تادمكة وهي في بلاد السودان، وبهذا اللفظ جرت الكتبة بينهما، وبذلك شهد الشهود فسافر العامل إلى تادمكة ثم مضى إلى أودغشت وتأهل هناك وولد له وأقام إحدى عشرة سنة من يوم خروجه من البلد الذي أخذ فيه المال وعلي العامل ديون باع القاضي فيها ماله ليقسمه بين الغرماء". فأجاب القابسي: ،، بأن هذا العامل قد عجل بالإبطاء في هذه المدة البعيدة التي قد سافر فيها الناس، وجاءوا كما أجاب بأن إعطاء القراض علي ذكر السفر إلى بلاد السودان غير جائز،، (٥٢).

هكذا عرضت مسألة شركة القراض عرضاً دقيقاً وأن المسئولية محــددة وأن العقد بصيغته القانونية متفق عليه ولا مجال للشك في أن الوكيل كان غائباً لمدة أحد عشر عاماً وان السؤال الجوهري هو عن إمكانية تحويل المال الذي تسلمه الوكيل وفق عقد القراض إلى دين، إذ إن هناك شكوكاً حول شركة القراض هــذه نفــسها حيث إن التجارة فيها موجهة إلى بلاد السودان وهي بلاد غيــر إســلامية ويــرى القابسي أن هذه الشركة غير مقبولة إلا أنه يرى مع ذلك أن المــال الــذي تــسلمه الوكيل وفق القراض هو دين مما يعطي لصاحب شركة القراض الحق في اقتــسام العائد من المبيعات أملاك الوكيل مع بقية الدائنين(٥٣).

وقد ذكر القاضي ابن سهل في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلاد عدداً من القضايا التي نشأت من جراء غياب الشركاء، كما ضمن الونشريسي فــي كتابه المعيار عدة أمثلة عن شركاء اندفعوا بعيداً وعادوا بمآسيهم أمام القضاة(٥٤).

ومن شركات القراض المرتكبة للمحظور الحالات التي فيهــا دفــع الــسلع والقروض إلى العامل من أجل البيع واحتسابها علي أنها رأس مال الشركة(٥٥)، وما يرتبط بمثل هذه النوازل يدخل في نطاق أجرة المثل، ويبدو أن هذا الأسلوب فــي الالتفاف علي المواضع الدينية كان معروفاً لدى الفقهاء ربما لكثرة اللجــوء إليــه وتكشف عنه كثرة تحفظاتهم وإلحاحه علي تحديد أجل البيع والقول بصراحة بعــدم الاستحسان(٥٦).

هكذا تنعقد شركة القراض أو المضاربة بالمال ذهباً وفضة وتحصل الــشركة بين المتضاربين بعقد قراض تستوفي به شروط الشركة(٥٧)، ولــصاحب المــال أن يحدد في العقد أنواع التجارة والأسواق، والعامل يعتبر ضامناً(٥٨).

يفيدنا الكتاب الذي وجده أبو عبد الله المازري المتوفى عام ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م بالمهدية بخط ابن أبى زيد القيرواني المتوفى عام ٣٨٦ هـــ / ٩٩٦ م بجــواز القراض والإجارة أو الجعل في عقد واحد كما يفيد إلى نوع من التحول في وظيفة عمال القراض وتحولهم إلى أجراء يتقاضون أجراً نظير حملهم للسلع عوض المال للاتجار بها وهو ما علق عليه البرزلي في زمنه بالقول" وعليه أكثر قراض التجار يعطيه السلعة ويبيعها في شرق الأرض أو غربها ويأخذ عن البيع أجرة معلومة فإذا حصل هذا المال قلبه قراضا"(٥٩).

وعلي الرغم من جواز السلف والبيع والشراء مع أهل الذمة إلا أن الشرع حرم دفع المال علي وجه القراض لهم وإذا ما تم يفسخ عقد القراض ويرد رأس المال للمسلم، رغم ذلك حدثت استثناءات ظاهرة عمل بها خلال القرون الأخيرة من العصر الإسلامي، وعمت أرجاء الغرب الإسلامي لتكون أكثر وضوحاً في الدلالة علي التحايل علي الشرع وربما كان ذلك نظراً للدور الذي كان يلعبه أهل الذمة لا سيما اليهود منهم في التجارة المتوسطية ولأهميتهم بالنسبة للعصبيات الحاكمة وهو ما دفع بالمشرعين إلى القول " لا ينبغي للحافظ لدينه أن يشارك إلا أهل الدين والأمانة والتوخي لأهل الخيانة والتخليط ولا يشارك يهودياً ولا نصرانياً ولا مسلماً فاجراً لا يعرف الحلال من الحرام إلا أن يكون هو الذي يلي البيع والشراء والمال ولا يلي الآخر إلا النظر والعمل"(٦٠)، أي أن الشرع الإسلامي حجر في مشاركة المسلم للذمي في أن لا يقف الذي علي بيع أو شراء ولا قضاء ولا اقتضاء إلا بحضرة المسلم وهذا التحجير يحتمل أن يكون شرطاً أو شرعاً ولا يضرب في الشركة إذا شرط أحد الشريكين أن يكون المال عقده(٦١).

ورغم أن المقارض مأمور بالحوطة علي مال القراض والتصرف فيه بمقتضى الحزم وموجب المصلحة وليس له التصرف فيه بما يناقض ما جعل له وحتى ظهر عليه تفرط أو إهمال ضمن ما هلك بسبب ذلك ووجب عليه الغرم(٦٢)، إلا أن القراض لم يخل في الأحوال العادية والجائزة من مظاهر نزاع بين الشركاء كالاختلاف فيما يعود لكل شريك من الأرباح أو ضياع رأس المال أو جزء معه وحدود ضمان العامل وشروط التفريط الموجبة للضمان وأمور التركة في حالة وفاة العامل أو صاحب المال(٦٣).

فالسقطي المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي وصف العلاقة بين التجار الدوليين ووكلائهم المحليين في مالقة في أواخر القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي واقترح الانتباه من الوكلاء فعلى الرغم من اعتبار الشراكة ضرورة لهم إلا أن الخداع أو الاحتيال أمر وارد جداً في علاقاتهم مع التجار(٦٤).

إن أغلب النزاعات في شركة القراض أو المضاربة كانت حول مقدار رأس المال أو ضياعه وفي كلا الحالتين فإن عامل القراض أمين وصدوق من حيث

المبدأ في ادعائه الضياع والتلف[٦٥]، ما عدا إذا أقر بتفريطه أو مخالفته لما اتفق عليه أو إذا تمت استشارة أهل حرفته عن أحوال السوق وقتها فأكدوا أنهم كانوا رابحين[٦٦].

وحدث في حالات أخرى خلافات حول نسب الأرباح بسبب عدم اعتناء أصحاب الأموال بكتابة عقد موثق بشروط الشراكة، يضمن لصاحب المال والعامل حقوقهما، والراجح أن الخلاف ينشب بسبب طمع أحد الطرفين في ربح أكبر، أو من وجوه ذلك اختلاف القابض والدافع في المال هل هو بضاعة أو قراض كما هو الأمر في حالة دفع الحلى والمصوغات لمن يعمل بها تجارة، هل هو قراض أم مؤاجرة علي بضاعة[٦٧]، وفي الاتجاه نفسه اعتبر في حالة عامل قراض أن الشركة محصورة في صفقة تجارية واحدة، فأبقى المال والربح في يديه يتجر بهما لحسابه علي نية ألا يسلم لصاحب المال سوى رأس المال الأصلي ونصيبه في أرباح الصفقة الأولى[٦٨]، أو أن يتعدي عامل القراض فيشارك غيره بجزء من المال طمعا في ربح إضافي بدون أذن من صاحب المال [٦٩]، أو أن يأخذ من مال المقارضين سلفاً يتاجر به لنفسه علي أن يكون ربحه صافياً[٧٠].

علي أية حال لقد أفتى الفقهاء في كل هذه الحالات المذكورة بشكل منسجم لا يظهر فيه اختلاف في التقدير بينهم، لكن إلى أي حد يمكن القول بأن حقوق جميع الأطراف في هذه الشركة كانت مضمونه ما دامت تقوم بالأساس علي أمانتهم وما دامت تتم في حالات كثيرة بدون عقود أو شهود، ويرى محمد فتحه إن هذه الشركة وإن كانت تمثل الشكل الأكثر شيوعاً في ترويج الأموال عن طريق التجارة إلا أنها تبدو هشة لاقترانها بتحولات وانحرافات ليس من السهل أي يتحقق منها صاحب المال نظراً لحصولها في غير بلده، ولارتكازها علي عنصر الثقة الذي يبدو بشهادة المعاصرين انه كان يتراجع باستمرار، فلا غرابة أذن أن يتقلص الدور الذي كان من الممكن أن تلعبه شركة القراض في دور المبادلات التجارية الإسلامية[٧١].

هكذا يستنتج أن العمل في مجال التجارة لا سيما التجارة الدولية استوجب وجود شركات تباشر هذه الأعمال حيث كانت الحاجة ماسة إلى قواعد تحكم التعامل بين التجار وتكون هذه القواعد مستمدة من الشريعة الإسلامية.

علي أن معطيات الشركات التجارية التي برزت في كتب النوازل كانت

متفاوتة الأهمية، فشركة الأبدان لم تكن دائما موافقة لأحكام الشرع، لذا اعتبرها الفقهاء شركة فاسدة، كما لم تخل شركة المفاوضة من عدم الموافقة لأحكام الشرع وسوء العلاقات بين الشركاء، لذا لم تستمر هي الأخرى بوصفها شركة ذات أهمية في التجارة الدولية، ورغم الشروط التي تحكم شركة العنان وأنها تعمل في إطار من الناحية الشرعية حيث اتجهت إلى محاربة المعاملات الربوية، إلا أن هذه الشركة أيضا لا تقدم سوى سوء العلاقات بين الشركاء وسوء فهم ظاهر للإطار الشرعي لها، لذا اعتاد التجار علي اللجوء إلى القضاء بسبب ما يعرض لهم من خلافات من خلال العمل بشركة العنان.

علي أية حال لجأ التجار إلى العمل في إطار شركة القراض أو المضاربة وكانت هذه الشركة نموذجاً لاستثمار المال في التجارة بشروط شرعية توضح مدى مرونة الأحكام الشرعية الإسلامية وفاعليتها من حيث هي وسيلة لتنظيم أنشطة المسلمين التجارية عبر مسافات طويلة، أو ربما في بلاد غير إسلامية ، ولكن رغم هذا تبقى شركة القراض هشة بسبب ارتباطها بأمانة عامل القراض ، ويبدو أن عامل الخيانة وقلة الأمانة كانا من جملة الأسباب التي أدت إلى تراجع هذا النوع من الشراكة.

ومهما كانت الأسباب فإن شركة القراض كشفت عن معرفة التجار بالموانع الدينية من خلال محاولات التحايل التي كانوا يلجئون إليها، ولم تخل شركات القراض في الأحوال العادية من مظاهر نزاع بين الشركاء خاصة حول مقدار رأس المال أو صياغته وكذلك الخلاف حول نسبة الأرباح، ولكن بقيت هذه الشركة الشكل الأكثر شيوعاً في ترويج الأموال عن طريق التجارة.

هوامش البحث :

* لم يتحصل الباحث حتى الآن على معلومات وافرة من خلال كتب النوازل الفقهية تعالج دراسة شركة الوجوه أو الذمم .

١. محمد حجي : نظريات في النوازل الفقهية ، المغرب ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، ١٩٩١، صـ ١٢٧.
٢. الفشتالي : كتاب الوثائق، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٠٨٦؛ محمد فتحة : النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي، منشورات جامعة الحسن الثاني، بعين الشق، كلية الآداب ، الدار البيضاء، ١٩٩٩، صـ ٣١٨.
٣. البرزلي : فتاوى البرزلي، تحقيق د/ محمد الحبيب الهيلة، بيروت، دار الغرب الإسلامي ، جـ٣ ، صـ ٤٣٦.
٤. الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من العلماء بإشراف د/ محمد حجي، بيروت، دار الغرب الاسلامي ،١٩٨١، جـ ٨ ، صـ ١٩١ ؛ محمد فتحة: المرجع السابق ، صـ ٣١٩.
٥. ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، تحقيق المختار بن طاهر التليلي، بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، ١٩٨٧ ، جـ٢، صـ ٩٣٤ - ٩٣٥ .
٦. الونشريسي: المصدر السابق، جـ٨ ، صـ ٨٤.
٧. البرزلي : المصدر السابق، جـ ٣ ، صـ ٤٣٥.
٨. البرزلي : المصدر السابق، جـ ٣ ، صـ ٤٣٨.
٩. الونشريسي: المعيار، جـ٨ ، صـ ١٨٤ ؛ محمد فتحه: المرجع السابق، صـ ٣١٩.وعن ترجمة ابن سهل انظر،الحميدى : بغية الملتمس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للنشر، ١٩٦٦ ، ص ٤٠٣ ،ابن بشكوال : كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥ ج٢ ص ٤٣٨.
١٠. نفس المصدر السابق، جـ٨ ، صـ ٧٦ .
١١. ابن يوسف الجويني : نهاية المطلب في دراية المذهب، تحقيق : عبد العظيم محمود الديب، السعودية ، دار المنهاج، بدون تاريخ طبع، جـ ٧ ، صـ ٢٤.
١٢. ابن يوسف الجويني : المصدر السابق، جـ٧ ، صـ ٢٤ ؛ محمد فتحة : المرجع السابق ، صـ ٣١٩ .
١٣. البرزلي : فتاوى البرزلي ، جـ ٣ ، صـ ٤٣٦. والاجباح ، مفرد جبح ، والجبح : حيث تعسل النحل إذا كان غير مصنوع، وقيل هي مواضع النحل في الجبل وفيها تعسل، وتجمع الكلمة على أجبح ، وجبوح ، وجباح. انظر ، ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ،دار صادر، ١٩٥٥ ، ج ٢ ص٤١٩ مادة جبح. وعن ترجمة أبو القاسم بن سلمون

الغرناطي،انظر ابن فرحون المالكي: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦ ، ص ٢١٢ .

١٤. ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، مصر ، مطبعة الخانجي، ١٩٧٤، جـ ٢ ، صـ ١٩١ – ١٩٣. والأخوة المقري هم أولاد عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي ين داود القرشي المقري حيث اشتهروا بالتجارة وتمهيد طرق الصحراء وتأمين التجار، فكان أبو بكر ومحمد وعبد الرحمن وهو الشقيق الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلى وهما شقيقاهم الأصغر بأولاتن، وقد عملوا في تجارة الجلد والعاج والجوز والتبر.وقد حدد الباحث القرن السابع الهجري لعقد هذه الشركة حيث أن والدهم عبد الرحمن بن أبي بكر الوارد في الترجمة كان صاحب للشيخ الصوفي أبو مدبن ، وقد ولد الشيخ أبو مدين عام ٥٢٠ هـ وتوفي عام ٥٩٩ هـ على مقرب من مدينة تلمسان. عن ترجمة الشيخ ابو مدين انظر التادلي : التشوف إلي رجال التصوف، تحقيق أحمد الطويل، الرباط، منشورات كلية الآداب، ١٩٨٤، ص ٣١٩ -٣٢٦ ،التميمي : المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب بتطوان ، ٢٠٠٢ ، ج٢ ص ٤١-٤٥ .

١٥. البرزلي : المصدر السابق، جـ ٣ ، صـ ٤٣٤.

١٦. الونشريسي: المصدر السابق، جـ ٨، صـ ١٩١ ؛ محمد فتحه: المرجع السابق،صـ٣٢٠.

١٧. الونشريسي : المصدر السابق، جـ ٩، صـ ٩٢ – ٩٥ ؛ محمد حجي : نظرات في النوازل الفقهية ، صـ ١٣١. وعن ترجمة محمد بن القاسم الرصاع انظر، أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، فاس ، المطبعة الجديدة، بدون تاريخ طبع، ج٢ ١٢٤ .

١٨. الونشريسي : المصدر السابق، جـ، صـ ١٠١ – ١٠٢ ؛ محمد حجي : المرجع السابق، صـ ١٣٠. وعن ترجمة أبو بكر بن زرب ، انظر جذوة المقتبس، ص ١٠٠ ، بغية الملتمس، ١٤٦ .

١٩. محمد فتحة : النوازل الفقهية والمجتمع، صـ ٣٢٠.

٢٠. البرزلي : المصدر السابق، جـ ٣ ، صـ ٤٢٩.

٢١. البرزلي : المصدر السابق، جـ ٣ ، صـ ٤٣٧. عن ترجمة القاضي عياض بن موسى اليحصبي انظر، ابن الأبار : المعجم في أصحاب القاضي أبي على الصفدي، القاهرة، دار الكتاب، ١٩٦٠، ص ٣٠٦-٣١٠ .

٢٢. الونشريسي : المصدر السابق، جـ ٨ ، صـ ١٨٩- ١٩٠ ، ٢٠٣،جـ ٩،صـ ٦٣.

٢٣. الونشريسي : المصدر السابق، جـ ٨ ، صـ ١٨١ – ١٨٢ ، ١٩٩.

٢٤. المازوني : فتاوي مازونة، مخطوط المكتبة الحسينية بالرباط، هـ ٩٦ ، ورقة ٤٧.

٢٥. الونشريسي: المصدر السابق، جـ ٨، صـ ؛ محمد فتحه: المرجع السابق، صـ ٣٢١.

٢٦. محمد فتحه : المرجع السابق، صــ ٣٢٠ ، ٣٢١.

٢٧. الونشريسي : المصدر السابق ، جــ ٨ ، صــ ١٩٠.

28. Brunschvig (R) : La Berberie orinentale sous les Hafsides, Paris, 1982 , Vol 2 , p. 264.

29. Dufourcq (Ch.E) : Le commerce du Maghrib avec l Europe chertenne Tunis, 1979 , p. 165.

- Lewis .(B) : The Muslim Discovery of Europe , New York , 1982 , p.61.

٣٠. محمد فتحه: المرجع السابق، صــ ٣٢١.

٣١. محمد فتحه : المرجع السابق، صــ ٣٢٢.

٣٢. ميشيل برت : فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء، ليبيا ، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، العدد الأول ، يناير ١٩٨١، صــ ٦٧ – ٦٨.

٣٣. ابن عبد الرفيع : معين الحكام علي القضايا والأحكام،تحقيق : د/ محمد بن قاسم بن عياد، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٩ ، جــ ٢ ، صــ ٥٣٥.

٣٤. ابن عبد الرفيع: المصدر السابق، جــ ٢، صــ ٥٣٦.

٣٥. ابن يوسف الجويني : المصدر السابق ، جــ ٧ ، صــ ٤٣٧ – ٤٤٠.

٣٦. البرزلي: فتاوى البرزلي ، جــ ٣ ، صــ ٤٤٠ – ٤٤١.

٣٧. الفشتالي : الوثائق ، صــ ١٤٠.

٣٨. البرزلي : المصدر السابق ، جــ ٣ ، صــ ٤٤٠.

٣٩. ابن سهل : الأعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق : يحيى مراد ، القاهرة ، دار الحديث ، ٢٠٧ ؛ الفشتالي : المصدر السابق ، صــ ١٤٠ ؛ الونشريسي : المعيار ، جــ ٨ ، صــ ٢١١.

٤٠. البرزلي : المصدر السابق ، جــ ٣ ، صــ ٤٤٢.

٤١. نفس المصدر ، جــ ٣ ، صــ ٤٥٧.

٤٢. نفس المصدر ، جــ ٣ ، صــ ٤٤٠.

٤٣. الونشريسي : المصدر السابق ، جــ ٨ ، صــ ٢٠٧.

٤٤. التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ، صــ١٩٠.

٤٥. الونشريسي : المصدر السابق ، جــ ٨ ، صــ ٢٠٣.

٤٦. ابن الحاج التجيبي : نوازل ابن الحاج، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ٥٥ ، ورقة ٨٧ ؛ البرزلي : المصدر السابق ، جــ ٣ ، صــ ٤٤٣.

٤٧. الونشريسي : المصدر السابق ، جــ ٨ ، صــ ٢٠٦.

٤٨. ميشل برت : المرجع السابق، صــ ٦٨.
٤٩. ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وأخرين، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٨٥ صــ ٨١.
٥٠. المازوني : فتاوى مازونة ، صــ ٩٠.
٥١. محمد فتحه : النوازل وأدب المجتمع ، صــ ٣٢٣.
٥٢. الونشريسي : المصدر السابق ، جــ ٩ ، صــ ١١٧ – ١١٨.
تادمكة : في بلاد السودان، وهي منيعة كبيرة بين جبال وشعاب، وأهل تادمكة بربر مسلمون، وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء، وبينها وبين غانة نحو خمسين مرحلة. انظر الحميري: الروض المعطار، صــ ١٢٨ – ١٢٩.
أودغشت : مدينة بين صحراء لمتونة والسودان، وهي مدينة عظيمة آهلة لكنها صغيرة ، وفي صحرائها ماء قليل، وتقع بين جبلين، منها إلى غانة اثنتا عشرة مرحلة. انظر الحميري : المصدر السابق، صــ ٦٣ – ٦٤ .
٥٣. ميشل برت : المرجع السابق ، صــ ٦٥.
٥٤. ابن سهل : الأحكام الكبرى ، صفحات ١٨٠، ١٨٣ ، ١٨٩ – ١٩٠ ؛ الونشريسي : المصدر السابق ، جــ ٣ ، صــ ٩٠ ، ٢٠٤ ، جــ ١٠ ، صــ ٤٤٣ ؛ اوليفيا ريمي كونستبل : التجارة والتجار في الأندلس، تعريب : د/ فيصل عبد الله ، الرياض ، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢ ، صــ ١٣٣.
٥٥. البرزلي : المصدر السابق ، جــ ٣ ، صــ ٤٥٧ ؛ الونشريسي : المصدر السابق، جــ ٩ ، صــ ١١٨.
٥٦. الونشريسي : المصدر السابق ، جــ ٩ ، صــ ١١٩ – ١٢٠ ؛ محمد فتحه : المرجع السابق ، صــ ٣٢٤.
٥٧. ابن يوسف الجويني : نهاية المطلب ، جــ ٧ ، صــ ٢٧.
٥٨. نفس المصدر ، جــ ٧ ، صــ ٣٠.
٥٩. البرزلي : المصدر السابق، جــ ٣ ، صــ ٤٥٧ – ٤٥٨.وعن ترجمة أبو عبد الله المازرى انظر الديباج، ج٢ ص ٢٥٠ ، وعن ترجمة أبو زيد القيرواني انظر الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق د / محمد الأحمدي أبو النور،ومحمد ماضور، القاهرة ، مكتبة الخانجي، ١٩٧٢ ، ج٣ ض ١٣٤-١٤٧ .
٦٠. نفس المصدر ، جــ ٣ ، صــ ٤٥٩.
٦١. نفس المصدر ، جــ ٣ ، صــ ٤٥٩.
٦٢. نفس المصدر ، جــ ٣ ، صــ ٤٤٧.
٦٣. محمد فتحه : المرجع السابق، صــ ٣٢٥.

٦٤. السقطي : كتاب الفقيه ، تحقيق : ليفي بروفنسال، باريس ، ١٩٣١ ، ضمن ثـلاث رسـائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، صـ ٨٤-٨٥.

٦٥. البرزلي : المصدر السابق ، جـ ٣ ، صـ ٤٤٦ - ٤٤٧ ؛ الونشريسي : المعيار ، جـ ٨ ، صـ ٢٠٨ ، جـ ٩ ، صـ ٤٦.

٦٦. الونشريسي : المعيار ، جـ ٩ ، صـ ٤٦٨ ، جـ ٢١٢.

٦٧. البرزلي : المصدر السابق ، جـ ٣ ، صـ ٤٦٣؛ الونشريسي: المصدر السابق، جـ ٨ ، صـ ٢٠٨.

٦٨. المازوني: المصدر السابق ، صـ ٩٠.

٦٩. الونشريسي : المصدر السابق ، جـ ٩ ، صـ ١١٨.

٧٠. نفس المصدر ، جـ ٨ ، صـ ٢٠٦.

٧١. محمد فتحه : المرجع السابق ، صـ ٣٢٦.

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر :

- ابن الآبار:(أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي) ت ٦٨٥ هـ / ١٢٦٠ م .
المعجم في أصحاب القاضي أبي على الصفدي، القاهرة، دار الكتاب، ١٩٦٠
- أحمد بابا التنبكتي :
نيل الابتهاج بتطريز الديباج، فاس ، المطبعة الجديدة، بدون تاريخ طبع
- البرزلي : (أبو القاسم بن أحمد) ت بتونس ٨٤١هـ/١٤٣٧م
جامع مسائل الأحكام أو فتاوى البرزلي، تحقيق د/ محمد الحبيب الهيلة، بيروت، دار الغرب الإسلامي ،
- ابن بشكوال : (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م .
الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق محمد عزت العطار، القاهرة، ١٩٥٥ .
- التادلي : (يوسف بن يحيى) ت ٦٢٧هـ/١٢٢٩م
التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق : احمد توفيق، الرباط ، ١٩٨٤
- التميمي : (عبد الله محمد بن عبد الكريم الفاسي) ت ٦٠٤ هـ. ١٢٠٥ م.
المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب بتطوان ، ٢٠٠٢ ، ج٢.
- ابن الحاج التجيبي : (أبو عبد الله) الشهيد بقرطبة ٥٢٩هـ/١١٣٤م
نوازل ابن الحاج، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ٥٥.
- الحميدي : (أبى عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي ت ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م)
بغية الملتمس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للنشر، ١٩٦٦.
- الحميري: (محمد بن عبد المنعم) ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : د/ إحسان عباس، بيروت، مطبعة هيدكيرغ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤.
- ابن الخطيب : (لسان الدين بن الخطيب) ت ٧٧٩هـ/١٣٧٤م
الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، طبعة دار المعارف، ١٩٧٣.

- الدباغ : (أبو زيد غبد الرحمن) ت ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م .
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق د / محمد الأحمدي أبو النور، ومحمد ماضور، القاهرة ، مكتبة الخانجي، ١٩٧٢.
- ابن رشد : (أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد) ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م
فتاوى ابن رشد ، تحقيق المختار بن طاهر التليلي، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٧
- السقطي : (محمد بن أبى محمد) من رجال القرن السادس الهجري
كتاب في أدب الحسبة ، تحقيق : ليفي بروفنسال، باريس ، ١٩٣١ ، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب.
- ابن سهل : (عيسى بن سهل بن عبد الله الجياني) ت ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م
الأحكام الكبرى، أو الأعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق : يحيى مواد ، القاهرة ، دار الحديث ، ٢٠٠٧.
- ابن عبد الرفيع : (أبى إسحاق إبراهيم بن حسن) ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م
معين الحكام علي القضايا والأحكام،تحقيق : د/ محمد بن قاسم بن عياد، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٩
- ابن عذارى المراكشي : (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م)
البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس ، قسم الموحدين ، تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ١٩٨٥,٥
- ابن فرحون المالكي : (القاضي إبراهيم بن على) ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م .
تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦ .
- الفشتالي : (محمد بن أاحمد بن عبد الملك قاضى مدينة فاس ت ٧٧٩ هـ / ١٤٧٥ م)
كتاب الوثائق، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٠٨٦.
- المازوني : (يحيي بن أبي عمران بن عيسى ، قاضي مازونة ت ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩م)
فتاوي مازونة، مخطوط المكتبة الحسينية بالرباط، هـ ٩٦.

- ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بـــن منظـــور الإفريقـــي المصري)
لسان العرب ، بيروت ، دار صادر، ١٩٥٥ .
- الونشريسي: (احمد بن يحيى) ت ٩١٤هـــ / ١٥٠٨م
المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من العلماء بإشراف د/ محمد حجـــي، بيـــروت، دار الغـــرب الإسلامي ، ١٩٨١.
- ابن يوسف الجوينى : (عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ٤١٩ - ٤٧٨ هــــ / ١٠٣٠ - ١٠٨٤ م)
نهاية المطلب في دراية المذهب، تحقيـــق : عبـــد العظـــيم محمـــود الـــديب، السعودية، دار المنهاج.بدون تاريخ طبع .

ثانيا : المراجع العربية :

- اوليفيا ريمي كونستبل : التجارة والتجار في الأندلس، تعريب : د/ فيصل عبد الله ، الرياض ، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢ ،
- محمد فتحة : النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإســـلامي، منشورات جامعة الحسن الثاني، بعين الشق، كلية الآداب ، الـــدار البيـــضاء، ١٩٩٩.
- ميشيل برت : فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجـــارة عبـــر الصحراء، ليبيا ، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، العدد الأول ، ينـــاير ١٩٨١.

ثالثا: المراجع الأجنبية :

- Brunschvig (R) : La Berberie orinentale sous les Hafsides, Paris, 1982 , Vol 2 .
- Dufourcq (Ch.E) : Le commerce du Maghrib avec l Europe chertenne Tunis, 1979 .
- Lewis .(B) : The Muslim Discovery of Europe , New York , 1982.

التنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات

في العصر العباسي الثاني

(٢٣٢-٦٥٦ هـ/٨٤٦-١٢٥٨م)

د/ كرم حلمى فرحات أحمد

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة قناة السويس

المقدمة

حثت الشريعة الإسلامية على المداواة من الأمراض وعلى الوقاية منها، وجاءت الحضارة الإسلامية حضارة واعية وشاملة بشقيها المادي والمعنوي، وقد استمدت شرعيتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حيث اهتمت بالإنسان كشخص نافع فاعل مع الحياة.

كما اهتمت الحضارة الإسلامية بأخلاق الإنسان، واهتمت بصحته وجسده، لذلك دأب المسلمون على بناء الأخلاق الحسنة والجسم السليم للإنسان، فكان عليهم أن يهتموا بصحته، فعملوا على بناء دور الشفاء في مرحلة القوة أو الضعف، واهتم بذلك المسلمون والحكام والعامة لتطوير هذا الصرح العظيم، وقد شهد لهذه الحضارة العريقة أبناء الحضارات الأخرى، واقتبسوا منها، وشعروا بأهميتها، لذلك تعد قضية الصحة العامة، وبناء البيمارستانات في العصر العباسي جانبا حضاريا مهما، وهذه المباني الحضارية الضخمة ظهرت وتطورت بشكل كبير، وأصبحت مظهرًا للتحدي في العلم والتراث، والنظافة والجمال، وقد قدم الخلفاء والعلماء جهودا جبارة لبناء وتطوير البيمارستانات واستخدام أشهر الأطباء لها.

إن الحديث عن البيمارستانات يتضمن جوانب عديدة مثل الحديث عن مبانيها

وأقسامها وأنواعها ومرافقها، ومدارسها الطبية وطلابها وأطبائها ومرضاها والعلاج المقدم لها والتنظيمات المالية والإدارية،وغير ذلك من الأمور التي تخص البيمارستانات، ولكن هذا البحث يقتصر على دراسة التنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات خلال العصر العباسي الثاني.

وقد اعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي في عرض التنظيمات الإدارية والمالية ووصفها وتحليل عناصر هذه التنظيمات وتحليل بعض الوثائق والنقوش الوقفية علي البيمارستانات والوقوف على عظمة الحضارة الإسلامية من خلال الحديث عن هذه التنظيمات.

وتظهر أهمية هذا البحث في أن الكتابة عن التنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات تمثل جانبًا مهمًا من جوانب الحضارة الإسلامية خلال العصر العباسي الثاني، كما تظهر أهميته في إظهار عظمة الحضارة الإسلامية من خلال البيمارستانات، ودورها الفعال في خدمة العامة، وبيان أن الحضارة الإسلامية والعربية لها مساهمة فعالة في المجالات الطبية والصحية، وبناء البيمارستانات وتطويرها والقيام على خدمة المريض.

أما من حيث مصادر البحث فقد تم الاعتماد علي المصادر التي تناولت الحديث عن علم الطب والصيدلة والبيمارستانات، فمن المصادر :الرازي أبوبكر محمد بن زكريا ت٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م، وكتابه الحاوي في الطب، وابن جلجل سليمان بن حسان الأندلسي ت ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م وكتابه طبقات الأطباء والحكام، وابن سينا أبوعلي الحسين بن عبدالله الملقب بالشيخ الرئيس ت ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦ م وكتابه القانون في الطب، والقفطي أبو الحسن علي بن يوسف ت٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م،وكتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء، وابن البيطار ضياء الدين عبدالله بن أحمد الأندلسي ت٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م، وكتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية.

ومن المراجع : أمين خيرالله وكتابه الطب العربي، وسعيد الديوجي وكتابه الموجز في الطب الإسلامي، وأحمد شوكت الشطي وكتابه تاريخ الطب وآدابه وأعلامه،وصلاح الدين محمد أبو الرب وكتابه الطب والصيدلة عبر العصور، وعبدالله عبدالرازق مسعود وكتابه المستشفيات الإسلامية، وعبدالحميد العلوجي وكتابه تاريخ الطب العراقي،وأحمد عيس بك وكتابه تاريخ البيمارستانات في

الإسلام، وفرج محمد الهوني وكتابه تاريخ الطب في الحضارة الإسلامية .

لقد تم جمع كل ما كتب عن التنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات الإسلامية من خلال النظر إلى المصادر الإسلامية وتجميعها في موضوع واحد مقيد، ومحاولة إظهار الوجه الإنساني والأخلاقي للحضارة الإسلامية،مع الاستعانة بوثيقتين وقفيتين إحداهما نقش علي واجهة إحدي البيمارستانات،وقد تم وقفهما من أجل الانفاق علي علاج المرضي وأجرالأطباء والعاملين وجميع مستلزمات البيمارستان،وقمت بعرض الوثيقتين والتعليق عليهما بما يخدم طبيعة البحث.

وانطلاقا من هذه المعاني جاءت خطة البحث بعنوان «التنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات في العصر العباسي الثاني(٢٣٢-٦٥٦هـ/ ٨٤٩-١٢٥٨م)» متضمنة مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة.

أما **التمهيد** فقد تناول الحديث عن البيمارستانات ونشأتها قبل العصر العباسي، و**المبحث الأول** عن اهتمام العباسيين بالبيمارستانات، وبيان مدى الجهد الذي بذله الخلفاء العباسيون في تطور تلك البيمارستانات.

والمبحث الثاني: يتناول الإشراف الإداري على البيمارستانات متمثلاً هذا الإشراف في بيان دور كل من: ناظر البيمارستان، ورئيس الأطباء، وقاضي البيمارستان.

المبحث الثالث: يتناول الوظائف الإدارية والفنية في البيمارستانات بجانب ناظر البيمارستان ورئيس الأطباء وقاضي البيمارستان، فإن هذا المبحث يذكر لنا في حديثه وظيفة الفصّاد والجراح ونجار البيمارستان ومغسل الموتى وغيرهم.

المبحث الرابع: يتناول الحديث عن الرقابة الطبية والفنية في البيمارستان والتي يقوم بها المحتسب كمسئوليته بالدرجة الأولي، وأحيانًا يراقب معه ويقوم بالتفتيش على البيمارستان الخليفة أو الأمير وناظر البيمارستان.

المبحث الخامس: يتناول الإيرادات المالية للبيمارستانات ومصادرها وذلك عن طريق الوقف، كوقف الأملاك والأعيان والأراضي والأطيان والدور والأسواق والحمامات والمزارع والحوانيت وبعض القرى.

المبحث السادس: يتناول أوجه الصرف على البيمارستانات متمثلة هذه الأوجه في إنشاء وترميم وتأثيث البيمارستان وما يصرف على تجهيز المعدات،

وأجور الأطباء والعاملين والأدوية وعلاج المرضى ومستلزماتهم، وما يصرف على الأطعمة والأشربة.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج التي تمخض عنها البحث.

لقد آثرت أن يكون هذا البحث مركزًا في عرضه سهلاً في التناول للتنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات في العصر العباسي، فإن كنت موفقًا فالحمد لله رب العالمين وهو من وراء القصد وما توفيقي إلا بالله.

التمهيد : البيمارستانات ونشأتها قبل العصر العباسي

* **تعريف البيمارستان:** البيمارستان لفظة فارسية، مركبة من كلمتين «بيمار» وتعني المريض أو العليل أو المصاب، و«ستان» وتعني مكان أو دار أو موضع، فيكون معناه إذن «موضع المرضى» أو «دار المرضى»(١)، وكانت البيمارستانات عبارة عن مستشفيات عامة، تعالج فيها كافة الأمراض والعلل، باطنية وجراحية ورمدية وعقلية وغيرها من الأمراض.

* **نشأتها قبل العصر العباسي:** أما عن بداية إنشاء البيمارستان، فإن المصادر التاريخية تؤكد عدم وجود مثل هذه البيمارستانات عند اليونانيين، كما أن الإمبراطورية الرومانية لم تعرف إلا بيوتًا لرعاية العجزة والمصابين من جنودها في العمليات الحربية، كما أن أوروبا المسيحية لم تعرف مثل تلك البيمارستانات، حيث اكتفت بإنشاء بيوت الرحمة، في الوقت الذي وجدت فيه البيمارستانات المتخصصة في مجالات الطب المختلفة عند المسلمين(٢).

أما تاريخ بدايات إنشاء البيمارستانات الإسلامية، فهو يرجع إلى عهد الرسول ﷺ، إذ تذكر المصادر أنه عندما مرض سعد بن معاذ أمر الرسول ﷺ أن تنصب له خيمة في المسجد حتى يتمكن من عيادته، وكانت الخيمة لامرأة مجاهدة يقال لها رفيدة، كانت تداوي الجرحى، وتحبس نفسها على خدمة من كان مريضًا من المسلمين، وكانت تساعدها أختها كعبة بنت سعيد الأسلمية، فقد كانت تلك الخيمة النواة الأولى للبيمارستانات، وكانت رفيدة أول ممرضة في الإسلام، أوقفت نفسها على خدمة المرضى ومعالجتهم تطوعًا وطلبًا للثواب، وقد قال معاوية بن أبي سفيان عن النساء: «ما مرّض المرضى، ولا ندب الموتى مثلهن»(٣).

سار الخلفاء على هدى الرسول ﷺ في تخفيف آلام المرضى، فأنشأوا

البيمارستانات، لذلك نؤكد على فكرة أن أول إنشاء البيمارستان كان على يد المسلمين، بالرغم من أن ابن أبي أصيبعة أشار إلى أن أبقراط- من أسرة يونانية يعود إليها أصول الطب،وقد عاش نحو خمسة وتسعين عاما - هو أول من أوجد البيمارستان، فقد خصص في بستانه موضعًا للمرضى يخدمهم، ويقوم بمداواتهم، وسمي ذلك المكان بمجمع المرضى[٤]، ولعل الأمر التبس على ابن أبي أصيبعة حيث أن هذا الموضع لا يحمل فكرة البيمارستان؛ لأنه ليس مكانًا مستقلاً لعالج المرضى، وإنما كان موضعًا فقط في بستان أبقراط يعالج فيه من يزوره من المرضى، ولكن المريض لا يقيم فيه.

أما القول بأن المسلمين ورثوا هذا النظام عن الفرس والبيزنطيين وأن أول بيمارستان كان في جنديسابور في فارس إنما هو قول مردود؛ لأن الذي وجد هناك عبارة عن مدرسة طبية لتعليم الطب فقط، ولم يكن مكانًا مخصصًا لعلاج المرضى، وقد اعترف المستشرقون بأن البيمارستانات لم تكن موجودة بشكل واضح قبل الإسلام، وأن ما حدث عبارة عن محاولات بسيطة فقط لتحديد موضع للمرضى على نطاق ضيق، ولكن البيمارستان لم يعرف الشكل المحدد له، ونظام إدارته وأقسامه إلا على يد المسلمين الذين توسعوا في إنشاء البيمارستانات كمستشفيات كاملة متطورة، أعدّت للخدمات الصحية، وتقديم العلاج للمرضى على مختلف حالاتهم، ويدرّس فيها الطب نظريًا وعمليًا، بل وتحولت إلى مستشفيات متخصصة في مجالات الطب المختلفة، مزودة بأطباء ومختصين وإداريين، ومكتبات غنية بمراجعها، ونشأ فيها ما يعرف اليوم في الاصطلاحات الطبية «التدريب على رعاية المريض في فراشه»[٥].

إن أول بيمارستان في عهد الدولة العربية الإسلامية هو الذي أنشأه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٨هـ/٧٠٦م) في الشام[٦]، واقتدى به الحجاج بن يوسف الثقفي، فبنى البيمارستان وأجرى الأرزاق على المرضى، وخصص لهم الأطباء لمعالجتهم، كما أن الوليد بن عبد الملك هو أول من أمر بحبس المجذومين، أي عزلهم، لئلا يخرجوا وينقلوا مرضهم إلى الآخرين[٧].

وكانت البيمارستانات في أول أمرها بسيطة، ثم توسعت وأدخلت عليها الإضافات الكثيرة على مر السنين، حتى أصبحت في أواخر القرن الثاني للهجرة

بحالة جيدة، تتوفر فيها التسهيلات التي يطلبها المريض، من علاج وطعام وشراب وثياب، وقد شارك في إنشائها أهل البر والإحسان، فأوقفوا لها الأوقاف الكثيرة فتوسعت وزودت بالعقاقير والأطباء البارزين، وكان عملهم فيها ابتغاء لمرضاة الله وخدمة لعباده وليس طلبًا للمال، ثم تحولت تلك البيمارستانات إلى مدارس طبية أيضًا لتعليم صناعة الطب، وتخريج الأطباء، وأمكنة للاستشفاء وتمرين الطلاب، فجمعت بذلك بين ممارسة تعليم الطب وتطبيب المريض[٨].

المبحث الأول : اهتمام العباسيين بالبيمارستانات وتطورها

لقد تبارى الخلفاء والسلاطين المسلمون في العصر العباسي في إنشاء البيمارستانات، متفانين في خدمتها وتوفير الدعم المالي الكبير من الموارد المختلفة الثابتة اللازمة لها، فأوقفوا عليها الأوقاف، من أجل الإنفاق عليها والعناية بها وبصيانتها، وتأثيثها بما يلزمها من أفضل الأثاث، وتجهيزها بأحسن الآلات، والأدوية، والأطعمة والأطباء من ذوي الكفاءات العالية في مختلف التخصصات، والموظفين المختصين للقيام بإدارتها على خير وجه، وبالقومة والخدم والفراشين على مختلف أنواع أعمالهم.وحرصًا منهم فإنهم لم يهملوا المصابين بأي داء خطير كالجذام، والمرض العقلي، فقد أعدوا مشافي لمثل هذه الأمراض، وعنوا بالمرضى وكثفوا لهم العلاج المناسب[٩].

* **اهتمام الخلفاء العباسيين بالبيمارستانات وبالعلوم الطبية:** بعد أن تولي العباسيون الخلافة ازدهرت البيمارستانات وزاد اهتمامهم بالعلوم الطبية، وتشجيعهم للأطباء وتشييدهم للمدارس الطبية[١٠] التابعة للبيمارستانات، وانتظمت بها مهنة الطب، لا يعبث بها المحتالون والسحرة وأنصاف الأطباء[١١]، لذا تبارى الخلفاء والسلاطين والأمراء والنساء وأهل اليسار على تشييدها، وأشرفتِ عليها الأوقاف[١٢] الخاصة بها دون سواها، للإنفاق من ريع تلك الأوقاف عليها، لضمان سير العمل فيها،وقد تم تنظيم العمل بها، وتقسيمها إلى أقسام خاصة وأخرى عامة ليستفيد منها كافة أفراد الشعب صغارًا وكبارًا، من مسلمين وأهل ذمة، أغنياء وفقراء[١٣].

كان عهد هارون الرشدي بداية لانتشار عشرات البيمارستانات في الدولة الإسلامية فيما بعد[١٤]، كما أنشأ الخليفة العباسي المعتصم بالله[١٥] (٢١٨-٢٢٧هـ/

٨٣٣-٨٤٢م) بيمارستانا في بغداد أشرف عليه بنفسه، وأوكل بناءه لأبي بكر الرازي ت٣١٣ هـ/٩٢٥م بعد تحديد موضعه الملائم للظروف البيئية، وكان الخليفة يخرج كل يوم عشرة دنانير شهريًا نفقات للبيمارستان والأطباء[١٦]، ويعطي الأرزاق للأطباء والكحالين، واهتم بالخدم والقدمة الذين يخدمون المغلوبين على عقولهم «المجانين» كما كان يتكفل بأثمان الأطعمة والأشربة والخبازين والبوابين، ومن يتكفل بالمؤن [١٧]، وسمى هذا البيمارستان الصاعدي أو العتيق[١٨].

وفي عهد الخليفة المقتدر[١٩] (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٧-٩٣٢م) ارتقت مهنة الطب، وازداد بناء البيمارستانات، وأصبح امتحان الأطباء داخل البيمارستانات شرطًا أساسيًا[٢٠]، لمزاولة مهنة الطب، فأمر الخليفة المحتسب بأن يمنع جميع الأطباء ممارسة المهنة حتى يقدّم امتحانًا يجيز له، وكلف سنان بن ثابت بن قرة[٢١] ت (٣٣١هـ/ ٩٤٢م) بإجراء هذا الامتحان، وفعل سنان ذلك، وأجرى الامتحان لما يقارب تسعمائة طبيب في بغداد[٢٢]، حيث كان النظام الطبي يخضع للتخصص الدقيق، فقد كان هناك الطبيب العام والجراح والفاصد، والكحال، والأسناني وطبيب النساء وطبيب المجانين[٢٣]، كما أشار سنان بن قرة عام (٣٠٦هـ/٩١٨م) على الخليفة المقتدر[٢٤]، بأن يُبْنَى بيمارستان في بغداد بمنطقة باب الشام[٢٥]، فكلفه الخليفة بذلك خدمة للمسلمين، وتخليدًا لذكراه وسماه بالبيمارستان المقتدري، وأنفق الأموال الطائلة والنفقات الكثيرة من مال الخلافة بما يقارب مائتي دينار شهريًا[٢٦]، وفي أول محرم من عام (٣٠٦هـ/٩١٨م) تم افتتاح بيمارستان في منطقة سوق يحيى[٢٧] على نهر دجلة، أنشأته السيدة شغب[٢٨] أم الخليفة المقتدر بالله العباسي، وتم افتتاح هذا البيمارستان في نفس العام، وبلغ نفقة البيمارستان ستمائة دينار في الشهر، وأكثر من سبعة آلاف دينار سنويًا، وافتتح هذا البيمارستان سنان بن ثابت بن قرة ورتب به الأطباء والخدمة والقومة بأمر من السيدة أم الخليفة وبنى هذا البيمارستان على نهر دجلة ذات موضع ملائم للمرضى[٢٩].

شهدت البيمارستانات تطورًا ملحوظًا في عهد البرامكة[٣٠] الذي تم فيه إنشاء بيمارستان في بغداد، وأسندت رئاسته للطبيب الهندي ابن دهن[٣١]، وتوالى الازدهار عليها في العصر العباسي، وأخذ الأطباء غير المسلمين يعملون بها، وتعلم على أيديهم أطباء كثر من المسلمين، وغيرهم مثل آل بختيشوع وآل ماسوية وآل

إسحاق، وبني قرة، ومنهم من كان مترجمًا للكتب الطبية والعلمية[٣٢].

كما وعمل المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله (٦٢٣-٦٤٠ هـ/١٢٢٦-١٢٤٢ م) بيمارستانًا[٣٣] في مكة بالجانب الشمالي من المسجد الحرام في عام (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) وبنى دورًا للضيافة وأماكن عامة لعلاج المرضى[٣٤]، وهي بمثابة بيمارستانات عامة. وعرف من أهم أعماله بناء بيمارستان خاص بالمدرسة المستنصرية[٣٥]، وزوده بما يلزم من شيوخ أطباء وعلاج، ويعرف بالبيمارستان المستنصري نسبة له، وأوقف عليه الوقوف وتاريخ وقفه (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)[٣٦]، كما بنى في دجلة بيمارستانًا رتب فيه مطبخًا للفقهاء ومزملة للماء البارد[٣٧]، وذكر الذهبي أن المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م) بنى عدة بيمارستانات في الحرمين، ودورًا للمرضى، وبعث إليها الأدوية[٣٨]، وهذا يدل على بنائه أكثر من بيمارستان، وزادت البيمارستانات في الدولة العباسية، وتطورت حتى توفر منها في بغداد وحدها ما يزيد عن العشرة، وفي الأقطار الإسلامية عامة ما يزيد على المائة [٣٩].

واهتم العباسيون ببناء بيمارستانات للغرباء والمطروحين من الناس، وأضافوا وظيفة الأمين في خزانة البيمارستان[٤٠].

* **تطوير البيمارستانات كمدارس للطب وتعدد التخصصات:** إن تأسيس البيمارستانات في العصر العباسي اعتبر فاتحة خير لإنشاء مدارس الطب، وبالفعل كانت البيمارستانات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب،ورغم ذلك فقد أنشئت المدرسة الطبية الدخوارية بدمشق بالبيمارستان الكبير النوري،وقد أسسها مهذب الدين عبدالرحيم المعروف بالدخوار حيث أوقف داره وجعلها مدرسة للطب سنة (٦٢٨ هـ/١٢٣م) كما أنشأ الخليفة المستنصر بالله العباسي مدرسة طبية وألحقها بالمدرسة المستنصرية سنة(٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م)، وجعل عضد الدولة الطب يدرس في البيمارستان العضدي في بغداد،حتي صار هذا البيمارستان من أكبر الكليات الطبية التي شهدتها بغداد، فكان الطلاب يتلقون فيها علومهم، ويتعلمون ما كتبه أساتذتهم الكبار، وكانوا يستمعون إلى شرح الأساتذة في حلقات خاصة تعقد في تلك البيمارستانات [٤١].

فتحولت البيمارستانات في شرق الدولة الإسلامية وغربها إلى كليات للطب

بالمعنى الصحيح، حيث يفد إليها الطلاب من كل ناحية لتعلم علوم الطب على يد الأطباء المسلمين[٤٢] لولاها لما تمكن الطب الإسلامي من الوصول إلى الإبداع والابتكار، وأن البيمارستانات أصبحت أكثر تخصصًا في فروع الطب[٤٣]، فأصبح فيها الجرائحية[٤٤]، والكحالة[٤٥]، والطبائعيون[٤٦]، والمجبرون[٤٧]، والنفسانيون[٤٨]، وغيرها من أقسامه، منها المسئولون عن أقسام للنساء وآخر للرجال[٤٩]، وبها الخدم والفراشون والممرضات والممرضون والمسئولون من رؤساء الأطباء، وذوي المراتب المختلفة، وصارت هذه المؤسسة تجذب حولها الأبنية السكنية والأسواق، والحارات الجديدة[٥٠].

* **توفير متطلبات المريض والطبيب معًا:**أخذ التطور يلحق بالبيمارستانات بحكم التقدم الحضاري، واكتشاف النواقص من المستلزمات الطبية؛ حتى أصبح المريض يعرض نفسه على الأطباء، فتشخص حالته المرضية على أكمل وجه، ثم يتم التقرير بشأنه[٥١]، وأصبح البيمارستان يوفر كل ما يحتاجه المريض والطبيب معًا، كما أصبحت البيمارستانات أكثر زخرفة، وتطلى باللون الأبيض، خصوصًا في غرف المرضى، وبعض الألوان الأخرى في الممرات[٥٢].

* **إنشاء مصانع للأدوية، وعيادات خارجية لصرف الدواء:**تطورت العمليات الجراحية في العصر العباسي على أيدي أطباء مهرة، وعرفت المواد المسكنة لعلاج المرضى[٥٣] مثل البنج[٥٤]، حيث عرفه الأطباء واستخدموه في بيمارستاناتهم الإسلامية أثناء عملياتهم الجراحية، واستخدموا معه نبات الزوان[٥٥] الذي يجعل المريض يفقد حواسه[٥٦]، فتطورت البيمارستانات وأصبح بها مصانع أدوية وعيادة خارجية لصرف الدواء، وخزانة كبيرة لحفظها وتسمى الصيدلية، وهي من أهم ما يكون في البيمارستان، حيث يوجد بها أنواع الأدوية والعقاقير التي يحتاجها المرضى في المعالجة، ويشرف عليها طبيب مختص بعلم الأدوية وطرق تركيبها، ويعمل تحت يده القومة والمشرفون والخدم، يساعدونه بما يوجههم إليه من عمل في تقديم الأدوية إلى المرضى الذين هم في البيمارستان[٥٧].

العمل على إيجاد قاعات كبيرة لتدريس الطب:أضيف قاعات كبيرة داخل البيمارستان لتدريس الطب، وكانت الخدمات مجانية، موكولة على الدولة تشمل أجور الأطباء، وخدمة المرضى، وكانت أجورهم حسب مراتبهم العلمية، وساعات

العمل، وكل له اختصاصاته، ومنهم من يذهب للعمل في الصباح الباكر، ويباشر عمله في البيمارستان [٥٨]، وكذلك اكتسب الأطباء الخبرة نتيجة فترات العمل الطويلة، فهناك من عمل طبيبًا في البيمارستان لمدة تزيد عن الخمسين عامًا[٥٩].

النهوض بالبيمارستانات من الناحية الفنية: نهضت البيمارستانات من الناحية الفنية، وظهرت بها فكرة التخصص فاجتمعوا بشكل خاص بالمجانين[٦٠]، والمجذومين وغيرهم وعالجوهم، وأحسنوا مداواتهم بالأسلوب نفسه الذي يعالجون به المرضى الآخرين بالرفق واللين[٦١]، واستعملوا لهم وسائل التلطيف بالمسكنات والرياضة الخفيفة والموسيقى الهادئة[٦٢]، بعكس ما كان يوجد في أوروبا من حرق المجذومين للتخلص منهم، كما قدمت البيمارستانات الإسلامية خدماتها للمساجين، من توفير الأطباء والعلاج، بعكس مساجين أوروبا الذين تعرضوا للتعذيب والقتل وانتشار الأوبئة والأمراض بينهم[٦٣]، ولم تقتصر هذه النهضة في البيمارستانات على المسلمين، بل وصلت إلى الرقابة من الدولة حيث أصبحت البيمارستانات خاضعة لنظام الحسبة[٦٤]، والقضاء[٦٥].

* **مراعات حال المرضى من حرارة الصيف وبرودة الشتاء:** إن مثل هذه البيمارستانات كانت تدفأ في الشتاء، وتبرد في الصيف من خلال المراوح الكبيرة التي تمتد من أول إلى آخر الغرفة[٦٦]، كما كان يؤتى بالقصاصين[٦٧] للمرضى داخل البيمارستان للترفيه عنهم[٦٨]، وعرف عن وجود ساعات كبيرة عند مدخل البيمارستانات حتى يتم معرفة الوقت للأطباء والمرضى، ووجدت مثل هذه الساعات عند باب بيمارستان الجبل[٦٩]، وكان المريض عندما يدخل هذا البيمارستان يتم معاينته وفحصه، ويقدم له الأطعمة الشهية والأشربة[٧٠].

* **تهيئة الجو النفسي وبعث الأمل في نفوس المرضى:** كان في مدينة طرابلس في لبنان وقف غريب خصص لتوظيف اثنين يمران بالبيمارستان يوميًا، فيتحدثان بجانب المريض حديثًا خافتًا ليسمعه المريض بما يوحي إليه بتحسن حاله واحمرار وجهه، وبريق عينيه، الأمر الذي يبعث الأمل في نفس المريض، ويساعد على شفائه[٧١]، كما كانوا يرفهون عن المرضى في بعض البيمارستانات بالصوت الحسن في الغناء والموسيقا، لأنهم يرون أن الصوت الحسن يسري في الجسم والعروق، فيصفو الدم وتنمو النفس وترتاح الروح، وتخف الحركات بالسماع،

فيعلل به المريض ويشغله عما به من الألم والتفكير[٧٢]. لقد وفر البيمارستان الإسلامي للمريض كل أنواع الترفيه والاحتياجات حتى المُزيِّن[٧٣] يوفر للمرضى من قبل الإدارة، يدل هذا على درجة الإنسانية والرقي التي وصلت إليها[٧٤]، والمريض يجلس في البيمارستان حسب حالته العلاجية، ولو امتدت إلى شهور عدة، فالبيمارستان ملزم به[٧٥].

* **إلحاق المكتبات بالبيمارستانات:** ألحقت المكتبات بالبيمارستانات ليصبح بكل بيمارستان مكتبة كبيرة[٧٦]، وكان يوقف بها جملة من الكتب التي تبحث في الطب والعقاقير، ومما له علاقة بهما من المعاجم وكتب اللغة، وكتب الحيوان، والنباتات كي يستعين بها الأطباء فيرجعون إليها عند تدريسهم الطب في البيمارستان، فتكون في متناولهم عند الحاجة إليها، وقد يرجعون إليها إذا ما أشكل عليهم أمر، فيستفيد منها[٧٧]، يستفيد منها الأطباء والمرضى والتلاميذ الذين يتعلمون الطب، وعمل الخلفاء والأمراء على تزويد مثل هذه المكتبات بالكتب ودعموها بالأموال، ومثل ما فعل نور الدين محمود بن زنكي من تشييده مكتبة كبيرة للبيمارستان النوري في دمشق وأوقف عليها الأموال والكتب لتكون خدمة للطلبة والمعلمين[٧٨].

* **توفير نقالات لحمل المرضى:**ومن مظاهر التطور في البيمارستانات وجود النقالات لحمل المرضى عليها، خصوصًا من بترت أطرافهم[٧٩]، وهذا يدل على اهتمامهم بنقل المرضى من بيوتهم إلى البيمارستان.

المبحث الثاني : الإشراف الإداري على البيمارستانات

اهتم الخلفاء العباسيون بإدارة البيمارستانات وبالإشراف عليها، وبأصحاب الوظائف الإدارية والفنية، وبالرقابة الطبية والفنية، وبتعيين الأطباء وامتحانهم والتدقيق في اختيارهم، والاهتمام بالشروط والصفات التي يجب أن تتوفر في الطبيب، كما اهتموا بتحديد المسئولية الطبية، مما يعكس مدى حرصهم الشديد على وجود تنظيمات إدارية ناجحة.

١- **الإشراف على البيمارستانات:**يقوم بالإشراف على البيمارساتانات وإدارة أموالها وأوقافها وأنظمتها وسير العمل فيها، والإشراف على الأمور الفنية التي تتعلق بالعلاج والدواء والأطباء، وما يتعلق بإقالة أي إنسان يعمل في البيمارستان

ثلاثة أشخاص على درجة عالية من الأهمية في إدارة البيمارستانات وهم: ناظر البيمارستان، ورئيس الأطباء، وقاضي البيمارستان.

أ- **ناظر البيمارستان:** يعتبر ناظر البيمارستان والمشرف عليه وعلى أنظمته له الرئاسة العليا على البيمارستان والمسئول أمام الحاكم في الدولة، ويتم تولية ناظر البيمارستان هذه المهمة من دار الخلافة مباشرة(٨٠)،أو الأمير الحاكم، وله مطلق التصرف فيما يتعلق بالبيمارستان من شئون فنية وعلمية وإدارية ومالية، ومع ذلك كان البيمارستان يخضع لرقابة المحتسب(٨١)، ولا يشترط أن يكون الناظر طبيبًا، واختصاصه محصور في إدارة أوقاف البيمارستان وتوفير الأموال المطلوبة لإدامته وما يحتاجه من يد مساعدة في غير الصنعة(٨٢). وكان له كثير من الأعوان يبلغ عددهم في بعض الأحيان حوالي عشرين حاجبًا(٨٣).

ويعتبر عمل الناظر في البيمارستان تشريفًا أكثر منه تكليفًا، فنجد أن السلطان أو الحاكم يقوم بها بنفسه(٨٤)، وهو الذي يشرف على الوظائف الديوانية العظيمة، والناظر في الإدارة العامة في إدارة البيمارستان المالية، والإشراف على أوقاف البيمارستان وأنظمة سير عملها وغير ذلك، ومن ضمن أعمال الناظر تقدير رواتب الأطباء وسائر الموظفين، والنظر الشامل في حاجات البيمارستان من أدوية ومعدات وأطباء وموظفين مثل الخدم والطباخين والفراشين وغيرهم، ومراقبة ترميم أبنية البيمارستان وكل ما تحتاجه من أثاث كالأسرّة والمخدّات وأطعمة ومعدات ومراوح خوص، وزيت وقود، وأدوية ولوازم لتكفين من يموت في البيمارستان(٨٥).وكان للناظر الحق في تعيين الخدم والقومة أو إصرافهم في حال إزعاجهم للمرضى، إذ منا قدم المرضى شكوى عن الممرضين والخدم في البيمارستان وعدم تأديتهم واجباتهم على أكمل وجه(٨٦).

علاوة على ذلك فالناظر له الحق في مراقبة مقبوضات ومصروفات المستشفى، وتثمير ريع أوقافه، وملاحظة أحوال من فيه، ملاحظة تذهب عنهم البأس والمحافظة على الأثاث والمؤن، والأدوية وصرفها لمن يستحقها بدون إجحاف، وله الإشراف على نظام وإدارة البيمارستان في كل أموره، كالصرف على من يقوم بمصالح المرضى من الأطباء، والصرف على صانعي الأدوية والفراشين رجالاً ونساءً، والقومة، والخزان في المخازن والمباشرين وعلى من يقوم بإطعام

المرضى،وله حق الإشراف على نظام الصرف على ما تدعو إليه حاجة المرضى [٨٧]. وكان الناظر يرأس الجميع ويشرف على إدارة البيمارستان المختلفة، حتى موت المريض حيث يتولى الناظر المتابعة بتكفين وتجهيز من وافاه الأجل، فيصرف له الناظر ما تدعو الحاجة إليه برسم عامله، وثمن تكفينه رجلاً أو امرأة وأجرة حنوطه وعاقر قبره[٨٨] ومواراته على السنة النبوية، وكذلك من مات بين أهله، وكان يعالج خارج البيمارستان صرف النظار أيضًا موته لتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى دفنه ومواراته في قبره بما يليق به بين أهله[٨٩].

لقد كانت علاقة ناظر البيمارستان بالسلطان علاقة مباشرة، فهو الذي يعينه السلطان لينوب عنه في إدارة البيمارستان، وكان له صيدلية مجهزة مع صيدلاني ومساعدين له، وكانت رتبته عالية ومقامه كبير لدى الحكام والسلاطين، وكان السلطان أو الخليفة يقوم بنفسه ليتفقد سير الأعمال في البيمارستان وإدارتها، فهاكم السلطان أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية الإسلامية في مصر وسوريا من (٨٦٨-٩٠٤م) كان يقوم بنفسه متفقدًا البيمارستان وأحوال المرضى حتى أنه كان يسأل المجانين عن أحوالهم بنفسه، ويتفقد خزائن البيمارستان، وما فيها من الأطباء وينظر إلى المرضى وسائر المعلولين، والمحبوسين من المجانين[٩٠].

و من أشهر نظار البيمارستانات في العصر العباسي: القاسم بن أبي الحسن القاضي، كان والده من أعيان الفقهاء على مذهب داود الظاهري، كان قاضيًا في بغداد سنة (٣٩١هـ/ ١٠٠٠م)، وتولى ناظرًا للبيمارستان العضدي وكان محدثًا[٩١].وعلي بن محمد بن الحسين البسطامي ت (٤٥٨ هـ/١٠٦٥م)، تولى القضاء ثم ناظر البيمارستان العضدي [٩٢].وابن البيمارستانية عبد الله بن علي ابن نصر بن حمزة فخر الدين البغدادي ت(٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) طبيب ومؤرخ تأهل ببغداد، تولى ناظرًا للبيمارستان العضدي، وقيل عنه ابن البيمارستانية؛ لأن أبويه كانا مقيمان في بيمارستان بغداد[٩٣]. والقاضي ابن فضلان محمد بن يحيى بن علي بن هبة الله ت(٦٣١ هـ/١٢٣٣ م) تولى القضاء عند الإمام الناصر، رحل إلى خراسان وناظر علماءها، تولى ناظر البيمارستان المستنصري، والتدريس بالمدرسة المستنصرية[٩٤]. وأبو تمام ابن الدقاق محمد بن علي بن الحسن بن محمد بن أبي عثمان الدقاق، تولى ناظر البيمارستان العتيق[٩٥].

ب- رئيس الأطباء: هي وظيفة داخل البيمارستان الإسلامي رفيعة المنزلة، حيث كان متوليها يحكم على طائفة الأطباء جميعًا، ويأذن لهم في ممارسة مهنة الطب، ويعقد لهم الامتحانات الدورية(٩٦)، ويعمل على إمدادهم بالمصنفات المهمة والمراجع الحكيمة المتعددة الفائدة، والتي تكون في العادة من وضعه أو تأليف غيره من أعلام عصره، أو ممن سبقه من نوابغ هذا الفن، ويقول عنه القلقشندي: «إنّ درجة رئاسة الطب في الدرجة الأولى وهي تعادل درجة مجلس الوزراء وموضعها التحدث عن الأطباء، وهي من الوظائف الصناعية العظيمة»(٩٧).

لقد كانت إدارة الأمور الفنية التي تتعلق بالمعالجة والمداواة في البيمارستان منوطة إلى رئيس الأطباء، وكان لهذا الرئيس معاونون في عمله وهم رؤساء الأقسام الطبية في البيمارستان مثل رئيس الكحالين- أطباء العيون- أو رئيس الجراحين، أو الباطنيين، أو الأسنانيين، أو المتخصصين بأمراض النساء، أو الصيادلة أو رئيس الممرضين أو الممرضات(٩٨).

فعندما أتم الخليفة عضد الدولة بناء البيمارستان العضدي، أراد أن يكون فيه من أفاضل الأطباء وأعيانهم، وأن يكون رئيسه أفضلهم، فأمر أن يحضروا له أشهر الأطباء في بغداد وأعمالها، فأحضروا إليه مائة طبيب اختار منهم خمسين طبيبًا من المهرة في صناعة الطب، فكان الرازي من بينهم، ثم اقتصر من هؤلاء على عشرة أطباء، فكان الرازي منهم أيضًا، ثم اختار من العشرة ثلاثة أطباء فكان الرازي أحدهم، ثم إنه ميّز فيما بينهم، فتبين له أن الرازي أفضلهم، فجعله رئيس البيمارستان العضدي(٩٩)، لذلك فيعتبر الرازي من أعظم الأطباء في كل العصور، وقد اشتهر في الري وبغداد، وهو من أعظم معلمي الطب، ويقف على قدم المساواة مع أبقراط باعتباره أحد واصفي الأمراض المبتدعين(١٠٠)، وكان له يد طولى في صناعة الأدوية، فأدخل المسهلات الخفية كما أدخل استعمال كثير من المركبات الكيميائية في العلاج(١٠١).

كما كانت وظيفة رئيس الأطباء الإشراف على البيمارستانات العامة(١٠٢)، والتي عدت ككليات طب في عصرنا، وهو رئيس الأطباء يطلب من الأطباء أن يكونوا حكماء نوابغ، وأن يلموا بحقائق الفلسفة الحكيمة واللغة السريانية والفارسية واليونانية والسنسكريتية، إلى جانب إدراكهم للمعلومات الطبية نظريًا وعمليًا، فقد

كان الرئيس يحرص على أن يكون أطباء البيمارستان أوعية خير لجميع التخصصات الطبية، ويوزعهم على الأنشطة المتعددة، لكي يصبح الواحد ثبتًا متمكنًا في طب الجراحة والعيون والحجامة والتوليد والأسنان والأطفال والعظام، ويجري العمليات التي تتطلبها الحالات المرضية داخل قاعات البيمارستان العامة، كما كان الرئيس يتولى مراقبة الأطباء في تشخيص الأدوية فإذا وجد نبوغًا في فرع من تلك التخصصات لدى هذا الطبيب أو ذاك عقد له الامتحان الشامل في التخصص الذي يبغي العمل فيه، ومما يذكر أن رئيس الأطباء كان يؤكد عند المعلمين والدعاة في المساجد معاني الوقاية من الأمراض قبل وقوعه، وذلك بالإرشادات الصحية من الأصحاء، وهو جانب وقائي والذي يعرف اليوم باسم علم الصحة لأن الوقاية من الأمراض من أهم من مداواة المرض وأكثر نفعًا(١٠٣)، هذا وقد كان يعين الخلفاء والأمراء رئيس الأطباء ليقوم بدوره وغالبًا ما كان رئيس الأطباء هو أحد أطباء الخليفة ومن المتقدمين في المهنة، وممن يحسن ممارستها ورئاسة الأطباء تنظيم انضباطي مهني كان معمولاً به عند اليونانيين حتى العهود البيزنطية(١٠٤).

* **أشهر من تولى وظيفة رئيس الأطباء:**- لم يعين الخليفة المعتضد صديقه الحميم والفلكي ثابت بن قرة ت ٢٨٨هـ رئيسًا لأطباء بغداد(١٠٥)، بسبب حبه له بل عينه غالبًا في هذا المنصب لأنه أقدر على ممارسة مهنة الطب(١٠٦)، وعمل في هذه الوظيفة كرئيس للأطباء في عهد الخليفة المقتدي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ/ ٩٤٠-٩٤٤م)، وعهد الخليفة المستكفي بالله (٣٣٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٤-٩٤٦م) وعهد الخليفة المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣هـ/ ٩٤٦-٩٧٤م)(١٠٧).- وتولى هذا المنصب أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي، كان حيًا سنة ٣٠٢هـ، وكان طبيب أبي الحسن علي بن عيسى في عام (٣٠٢هـ/ ٩١٤م)، وكان طبيبًا ومترجمًا، فقد نقل كتبًا كثيرة إلى العربية من كتب الطب وغيره(١٠٨).- و تولى عبد الرحيم بن المرزباني أحمد الطيب والأصبهاني أمر البيمارستان في بغداد سنة (٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م)(١٠٩).وتولى رئاسة الطب المصري الطبيب النابغة علي بن رضوان ت ٤٥٣هـ، وهو من علماء الطب والعاملين في حقله وله مؤلفات في غاية الدقة والتطبيق العملي، وهو مصري المولد من الجيزة، وكان لرئيس الطب المصري هذا

مجالس ومحاولات وطرح أسئلة(١١٠).ورشيد الدين بن الصوري(١١١)، فكان رئيسًا لأطباء مصر، وكان من أصحاب ابن أبي أصيبعة، وهو من أطباء الشام ومن أعلمهم في الأدوية المفردة، اشتغل بصناعة الطب لفترة طويلة(١١٢).وتولى في دمشق مهذب الدين الدخوار (٥٦٥-٦٢٨هـ/ ١١٦٩-١٢٣٠م) في البيمارستان النوري، وكان يصنف كتب الطب، ويُعلِّم طلابه الصنعة، وعينه الملك الأشرف لرئاسة الأطباء، وأصبح مسئولاً لإدارة المدرسة وأطبائها، ويأذن لهم في ممارسة المهنة(١١٣).

- وكذلك تولى الطبيب العالم نفيس الدين ابن الزبير الكولمي (٥٥٦-٦٣٦هـ/ ١١٦٠-١٢٣٨م) رئاسة الطب في البيمارستان الناصري في مصر (١١٤).وتولى محمد بن زكريا بن دينار مولى غلاب أبي عبد الله الغلابي رئاسة البيمارستان في عهد الخليفة المقتدر، بعد أن كان إليه رئاسة بيمارستان الرّي(١١٥).كما تولى بدر الدين البعلبكي الدمشقي المظفر بن عبد الرحمن بن إبراهيم ت ٦٤٥هـ، رئيس أطباء بيمارستان الرقة وهو مسئول عن الأطباء والجراحين، وله مقالات طبية، ومصنفات في الأدوية(١١٦).

ج- قاضي البيمارستان: يعتبر منصب القاضي من المناصب الرئيسية التي لا يستغنى عنها المجتمع، فالقضاء من أعلى مراتب الدولة، ومن يتولى هذا المنصب يتصف بصفات مميزة تتناسب مع مهنته، فالقاضي يصدر حكمه وفق الشريعة الإسلامية، وكان الولاة السياسيون الأوائل يتولون شئون القضاء(١١٧)، ومنذ تولى معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦١-٦٧٩م) صارت وظيفة القاضي إحدى الوظائف الأساسية في الأمصار، ويعينون من قبل الوالي(١١٨)(١١٩)، واستمر ذلك طوال العهد الأموي ثم أصبح تعيين القاضي من صلاحيات الخليفة في بداية العهد العباسي، وأول من مارس هذه الصلاحية أبو جعفر المنصور(١٢٠)، وظل تعيين وظيفة القاضي من صلاحيات الخليفة حتى العهد الفاطمي لهذا ارتفع شأن القاضي وازدادت هيبته فكان الولاة يذهبون إلى مجلس القاضي، بينما القاضي لا يذهب إلى مجلس السلطان(١٢١)، وكان يتولى مهام هذه المهنة كبار علماء المسلمين، وكان القضاة يجلسون للحكم في المسجد، وأحيانًا يجلسون في دورهم للحكم بين المسلمين(١٢٢)، ولم تكن صلاحيات القاضي مقصورة على الأحوال الشخصية

والمواريث وأموال اليتامى والإشراف على الأموال الموقوفة[١٢٣]، فاتسعت وزادت وأصبحت تشمل العديد من الأمور ذات الطابع الديني والمدني[١٢٤]، فأخذت البيمارستانات دورها من القضاة وهو الذي يقول في أوقافها، فتولى أمر البيمارستان والمواريث[١٢٥]، وكان القاضي يأمر بحبس بعض الناس وأصحاب الجرائم في سجن البيمارستان، وأصحاب الأمراض العقلية والمنحرفين[١٢٦]، كما كان له اليد العليا في التحقق بأموال البيمارستان، وحدث ذلك عندما تم سرقة مال البيمارستان العضدي، فقام الناظر بسجن من أخذ أموال البيمارستان[١٢٧]، وكان للقاضي سلطة لإقالة من في البيمارستان وحدث هذا عندما طلب ابن خروف علي بن محمد بن يوسف القرطبي إلى قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي يستقيله من مشارفة بيمارستان نور الدين محمود[١٢٨]، والقاضي ينظر في كل أوقاف البيمارستان، فكان عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ينظر في وقوف البيمارستان العضدي[١٢٩]، والقاضي كمال الدين الشهروزري من أشهر قضاة دولة نور الدين محمود له الإشراف على أسواق دمشق ومدارسها ومارستانها، وهو الحاكم المطلق في أحكام دمشق وسمي «رجل السلطان إلى دمشق» وتسلم النظر والقضاء في البيمارستان وأصبح الطبيب السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد بن المظهر ابن المرخم أقضى قضاة بغداد، وعُرف أن قاضي البيمارستان يكتب بخط يده يأمر به الخليفة لفعل ما ينفع الناس وأخذ قاضي البيمارستان لقب «مشيخة قاضي البيمارستان» وغالبًا ما يتولى القاضي نظر الأوقاف والجوامع والبيمارستانات، ويتولى القاضي مهمة الناظر مثل علي بن محمد اليطافي والناظر في البيمارستان العضدي[١٣٠].

وفي بعض الأوقات يقوم قاضي البيمارستان بالاستعانة بقضاة آخرين في بعض قضايا البيمارستان، كالقاضي جمال الدين الباعوني في البيمارستان النوري الذى استعان بالقاضي شهاب الدين أحمد المريني المغربي[١٣١]، وعادة يجلس القاضي في مجالس العلماء وحلقات الفتوى والوعظ، كما كان أبو بكر محمد بن عبد الباقي قاضي البيمارستان[١٣٢]، وله مسند العصر في علم القضاة[١٣٣].

ويجيز العلم للطلاب والعلماء مثل ما أجاز إلى أسعد بن أحمد بن أبي الفضل الزاكاني[١٣٤]، والذي من شدة علمه أخذ القاضي أبو بكر لقب مشيخة القاضي[١٣٥]، وهناك الكثير من الشيوخ الذين أخذوا عنه مثل عبد اللطيف بن أبي البركات

إسماعيل بن أبي السعيد البغدادي، فكان من الصوفية وروي عنه أبو بكر قاضي البيمارستان[١٣٦]، ومنهم من كتب عنه مثل أبي الفصل مسعود بن علي بن النادر[١٣٧].وقد تفقه أبو بكر محمد عبد الباقي في القضاء على يد أبي يعلى وبرع في الحساب والهندسة وشارك في علوم الإسناد في زمانه[١٣٨]، توفي وله نيف وسبعون سنة بعد أن ألف كتاب الإسناد والعوالي[١٣٩]، وروي عنه عبد الله الحسين بن أحمد الكرفي الكاتب[١٤٠]، وسمع منه نصر بن منصور النميري الشاعر الزاهد[١٤١]، وأبو البركات يحيى بن عبد الرحمن أبي جيش الفارقي قاضي البيمارستان توفي سنة (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م)[١٤٢]، كذلك كان من قضاة البيمارستان أبو عبد الأمين الحسين بن سعيد بن شنيف[١٤٣]، والقاضي أبو القسم بن السمرقندي[١٤٤]، والقاضي كمال الدين الشهرزوري محمد بن عبد الله بن القسم بن علي قاضي القضاة[١٤٥]، وعلاء الدين علي بن محمد بن القلانس قاضي المدرسة الأمينة والبيمارستان في دمشق[١٤٦]، وقاضي القضاة جمال الدين الباعوني قاضي البيمارستان النوري، فظهرت أمانته وديانته فكان السبب في ترقيته بهذا المنصب[١٤٧]، والكثير من القضاة المسلمين زادت مناصبهم بسبب أماناتهم في العمل الموكل لهم.

المبحث الثالث : الوظائف الإدارية والفنية في البيمارستانات

اهتم العباسيون بالبيمارستانات الإسلامية، اهتمامًا بالغًا، واتبع المسلمون نظامًا رائعًا ودقيقًا للعمل فيها لتحقيق الفوائد المرجوة من إنشائها من حيث فائدة المرضى والفائدة العلمية، ولقد قسمت الوظائف داخل البيمارستانات الإسلامية بداية بناظر البيمارستان انتهاء بالخدم والقومة، فكان بها التخصصات المتنوعة من الباطنيين والجرائحيين والأسنانيين والكحالين ومطببي الجفون، والمجبرين، والمختصين بعلاج النساء وصيادلة ومساعدين صحيين وأمناء وموظفي التغذية والنظافة[١٤٨]، ومدرسي الطب ورئاسة البيمارستان والمكففين والمؤذنين والوكلاء والنفسانيين والخزان والبوابين والحراس النواطير[١٤٩]، والطباخين والقومة والخدم المرافقين للمرضى النفسانيين والفراشين والقصاصين[١٥٠]، وغير ذلك من الوظائف وهي عبارة عن نظام إداري شامل ومتكامل.

سبق وأن تحدثنا عن ناظر البيمارستان، ورئيس الأطباء، وقاضي

البيمارستان باعتبار أن هذه الوظائف يقوم أصحابها بدور هام داخل البيمارستان، يهدف في كل الأحوال إلى خدمة المرضى، وتوفير العلاج والراحة، وتحقيق الأمن والعمل الدؤب، وما نحن بصدده الآن استكمال للوظائف الإدارية والفنية في البيمارستان وذلك على النحو التالي:

١- **الفصَّادون**[١٥١]: من بين الوظائف الموجودة داخل البيمارستان وظيفة الفصَّادين، أي الذين يشقون عرق المريض[١٥٢]، ومن الشروط اللازمة لممارسة هذه المهنة أن يكون الفصّاد عارفًا بتشريح أعضاء جسم الإنسان وشرايينه وأوردته وعضلاته، لئلا يقع مبضعه على عرق غير مقصود فيؤدي ذلك إلى عطب المريض أو هلاكه[١٥٣]، كذلك أجريت عمليات الفصد للمرضى أصحاب الصرع[١٥٤] داخل البيمارستان، ونجحت عملياتهم في ذلك[١٥٥]، ومن أشهر الفصّادين في بيمارستان بغداد صاعد بن بشر بن عبدوس أبا منصور «من أطباء القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي»[١٥٦]، وهو من أكابر بغداد في الطب، فكان يعالج بالأدوية الحارة والباردة وعالج عدة أمراض كالفالج[١٥٧]، واللقوة[١٥٨]، والاسترخاء[١٥٩]، وهو أشهر من عمل بالفصد والتبريد والترطيب ومنع المرضى من الغذاء، فنجح تدبيره ورفع من البيمارستان العضدي المعاجين الحارة والأدوية الحارة، بعد أن أصبح رئيس البيمارستان العضدي، وأخذ يعالج المرضى بماء الشعير ومياه البذور، وأظهر في المداواة عجائب كثيرة[١٦٠]، كذلك كان الطبيب السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم توفي بعد ٥٦٦هـ الذي صار أقضى قضاة بغداد، فكان من أشهر الأطباء الفاصدين في بيمارستان بغداد والبيمارستان المتنقل في معسكر السلطان محمود السلجوقي[١٦١].

٢- **الجرّاحون**: الجرّاحون هم من يقومون بأعمال الجراحة[١٦٢]، وكان مفروضًا عليهم أن يعرفوا تشريح أعضاء وأجزاء جسم الإنسان، وأن تكون لديهم الأدوات اللازمة[١٦٣]، وكان لديهم رئيس يسمى رئيس الجرّاحين[١٦٤]، وكانت تجرى العمليات الجراحية داخل البيمارستان النوري في دمشق، ومنها أن جاء رجل إلى البيمارستان قد فلجت يده من إحدى شقي البدن ورجله المخالفة لها من الشق الآخر فعالجها ابن مطران الجرائحي في أسرع وقت، وقد دبره بالأدوية

الموضوعية فشفى الرجل(١٦٥)، وكذلك حدثت عملية جراحية لعضو أحد المرضى في البيمارستان النوري على يد الطبيب ابن حمدان الجرائحي(١٦٦)، وعمل له العملية الجراحية على ما يجب فجرت منه ماء صفراء، وكان ابن مطران يتفقد له النبض(١٦٧)، فرأى قوته وأمر بشد رباط على المريض، وأن يستلقي وأوصى زوجته بعدم فك الرباط فخالفت كلامه، وسرى الماء الأصفر إلى جسمه فهلك المريض(١٦٨).

إن عمل الجرائحي مجاله واسع من استئصال الأورام واستخراج الحصى وتفتيتها، وجراحات الأنف والفم والأسنان(١٦٩)، واستخدم الجرّاحون أمعاء الحيوان في تقطيب الجراحة لدى المرضى(١٧٠).

ومن مهام الحكماء الجرائحية: أن يتعهد الحكماء الجرّاحين أن ينظروا في أحوال الجرحى وأصحاب العاهات والطلوعات(١٧١)، والثآليل والدماميل والقروح والبواسير والجروح والسلع(١٧٢).والنظر في أحوال الجرحى ومعالجتهم بما يصلح لهم من المراهم ولأدهان والذرورات(١٧٣)، والشق وغيره، واستعمال الطعام والشراب والحمَّام للمرضى كل حسب حاله(١٧٤).

وكان من أشهر الجرّاحين في البيمارستانات الإسلامية أبو الخير الجرائحي(١٧٥) وهو خبير قيم مشهور الصناعة ممن اختارهم عضد الدولة، هو ابن أبي الفرج عبد الله بن الطيب ت ٤٣٥هـ، وهو من المشهورين في الصنعة خدم الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م) وشاركه في علاجه من حصى المثانة(١٧٦) زميله الطبيب ابن عكاشة المتوفي سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م) وعمل في البيمارستان العضدي(١٧٧)، وكذلك عرف أبو الحسين بن تفاح الجرائحي(١٧٨)، والمشهور في علم الجراحة(١٧٩) في البيمارستان العضدي في بغداد، وكان من أشهر الجرّاحين وأمهرهم(١٨٠)، كذلك عرف الجراح الطبيب أبو بكر محمد بنّ أحمد بن يعقوب المعروف بابن البيمارستانية وهو أشهر الجرّاحين(١٨١).

نص لشهادة حصل عليها طبيب عربي مختص بالجراحة الصغيرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

«بإذن الباري العظيم، نسمح له بممارسة فن الجراحة لما يعلمه حق العلم، ويتقنه حق الإتقان حتى يبقى ناصحًا وموفقًا في عمله، وبناءً على ذلك فإن بإمكانه

معالجة الجروحات حتى تشفى، وبفتح الشرايين، واستئصال البواسير وقلع الأسنان، وتخطيط الجروح، وتطهير الأطفال، وعليه أيضًا أن يتشاور دومًا مع رؤسائه ويأخذ النصح من معلميه الموثوق بهم، وبخبرتهم»(١٨٢).

٣- **خازن الجرحى:**وهو الذي يقوم بإخراج أدوية الجراحة وما يحتاج إليه الجرحى من المراهم والأدهان الذرورات والأشياء التي يعالج بها أصل الطلوعات، ويداوي كل واحد حسب احتياجاته الخاصة(١٨٣).

٤- **الكحالون:**وهم الذين يختصون ويهتمون بطب العيون، فقد ساهموا مساهمة كبيرة في تقدمه، وكان طبيب العيون في جميع الأمصار الإسلامية يتمتع بشخصية متميزة بين مختلف طبقات الأطباء(١٨٤)، فقد كانت العيون موضع اهتمام كبير من الأطباء العرب، ولها أقسام خاصة في البيمارستانات الإسلامية(١٨٥)، وعرف عن وجود كحل عجيب داخل البيمارستانات الإسلامية لعلاج مرضى العيون(١٨٦)، كذلك كان يقوم أطباء الكحالة بإجراء تجارب عديدة للعيون مثل عملية القدح، ونجح الأطباء بذلك(١٨٧).وقد اكتسب أطباء العيون معلومات قيمة في هذا المجال بعد إقدامهم على تشريح عيون الحيوانات، والدليل على ذلك وصف حنين بن إسحاق لعضلات العين وأغشيتها وطبقاتها وصفًا دقيقًا يدل على الدقة في تشريح العين(١٨٨).وأشار الطبيب علي بن ربن الطبري ت ٢٣٧هـ في كتابه «فردوس الحكمة» إلى تركيب العين، وعلل العين وعلاماتها، وعلاج أمراض العين، وعلاج الجفن ووصف الإكحال(١٨٩).

وكان من أشهر الأطباء الكحالين في الدولة العباسية الطبيب ماسويه الخوزي، من أفضل الكحالين عند الخليفة هارون الرشيد وعمل بهذه المهنة كحالاً للعيون في البيمارستان ما يزيد عن ثلاثين عامًا، كسب خبرة ومعرفة كبيرة وشهد له الخليفة هارون الرشيد بذلك وهو طبيبه الشخصي الخاص بالعيون(١٩٠).وعلي بن عيسى ت ٤٣٠هـ(١٩١)، الملقب بشرف الدين من أطباء بغداد وأشهرهم في طب العيون، وله كتاب «تذكرة الكحالين»، وهذا الكتاب أفضل ما كتبه العرب عن العيون وأمراضها، ومارس مهنة الكحال لأمراض العيون، وله تجربة واسعة بها، وقيل عن كتابه: «أنه لازم كل طبيب عيون»(١٩٢)، وكذلك كان شهاب الدين أبو الحجاج يوسف الكحال خبيرًا بطب العيون في بيمارستان السقطيين(١٩٣)

بالقاهرة[١٩٤]،كما نبغ عمار الموصلي في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم (٣٨٦-٤١١ هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) في هذا الفرع من الطب وكان أكثر العلماء ابتكارية وأصالة[١٩٥]،

كذلك عرف القاضي نفيس الدين بن الزبير أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولم الهندي، تعلم الطب وأتقن صناعة الكحل والجراح، وأصبح أشهر الكحالين ولاه الملك العادل رئاسة الطب بالديار المصرية في البيمارستان الناصري، توفي سنة (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) وهو من أشهر المشهورين في القاهرة بصناعة الكحل، والمتميزين في عمله[١٩٦].

ويقوم هؤلاء الكحالون بالعديد من المهام الطبية منها: يتعهد كل واحد من حكماء الكحالين أن ينظروا إلى الرمدي، وأصحاب أوجاع العيون من المسيل والقروح والبياض والحمرة والشعرة والدمعة ورطوبة الأجفان وغير ذلك من أمراض العين على اختلافها.والنظر في أحوال المرضى ومعالجتهم بما يليق بهم من الاكتحال والمراهم وغير ذلك من الأشربة المسهلة والمنضجة والأغذية والحقن.ويصرف إلى مرضى العيون الأموال وما يحتاجون[١٩٧].

٥- **خازن الرمدي «الكحالون»**:وهو يعني بتقديم الدواء للمرضى ويخرج لهم الأكحال، وما يحتاج إليه ويفرقه على أصحاب أوجاع العيون كلاً حسب احتياجاته، وحسب مرضه.

٦- **الطبائعيون**:وهم يقومون بعلاج مرضى الباطنية[١٩٨]، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن الطبائعيون[١٩٩] وهم يقومون بالعديد من الأعمال منها: عيادة المرضى داخل البيمارستان ومتابعتهم وعلاجهم، سواء من الرجال أو النساء أو الإماء أو العبيد،والنظر في حالهم والتلطف بهم ومساءلة المرضى عن أوجاعهم وتشخيص ما أمكن من أمراضهم،ومعالجتهم بما يصلح لهم من الأدوية والأشربة والأغذية والشربات والحقن وغير ذلك ليلاً ونهاراً[٢٠٠].

٧- **المجبرون «أطباء العظام»**:كان لهؤلاء الجبارين أقسام خاصة في البيمارستانات الإسلامية، وكانت وظيفتهم ممارسة جبر الكسور، وخلع المفاصل والكتف والأوراك[٢٠١]، وضربات العنق، وربط الشريان المقطوع في الجسم، وإيصاله مع الجزء الآخر، ولا يجوز لأحد منهم أن يمارس ذلك إلا بعد يعرف عدد

عظام الإنسان وصورة كل عظم منها حتى يستطيع جبر كسور العظام ورد المخلوع منها إلى موضعه(٢٠٢)، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن البيمارستان العضدي كان فيه قسم للمجبرين، وعرف من الأطباء الطبائعيين أبو الصلت الطبيب(٢٠٣).

٨- **الحجامون:**وهم الذين يقومون بإخراج الدم الفاسد من بعض أجزاء جسم الإنسان، فهي امتصاص الدم الفاسد أو الزائد، وتوسعت صلاحية الحجّام لتشمل أعمال الختان(٢٠٤)،وعرف عن وجود أدوات خاصة للأطباء داخل البيمارستان في عملية الحجامة(٢٠٥).

٩- **صانع الأدوية «الكيميائي الصيدلي المختص»:**يُعتبر صانع الأدوية صاحب وظيفة في البيمارستان الإسلامي ويكون خبيرًا بطبخ الأشربة، وتركيب المعاجين والأدوات وطبخ المنتوجات والمطبوخات، ولديه معرفة بكل حوائجها ومعرفة مقدار الأدوية وتركيبها ومعرفة جميع أنواع العقاقير وعروق الجسم(٢٠٦)، وعرف من الصيادلة في البيمارستانات ابن دينار وهو يعمل في بيمارستان ميافارقين، وكان فاضلاً في صناعة الأدوية، وينسب إليه الشراب الديناري المتداول استعماله بين أطباء البيمارستانات، ومشهورًا في الدولة الإسلامية، وله من الكتب كتاب الأقرباذينات في الأدوية(٢٠٧)، كذلك عرفت مهمة دق الأدوية وتركيبها وطحنها داخل البيمارستان الإسلامي في العصر العباسي(٢٠٨).

١٠- **ساقي الأدوية في البيمارستان:**يقوم بهذا العمل بعض العمال الموجودين لهذا العمل الصحي، ووظيفتهم إعطاء الأدوية للمرضى، كما يحددها الأطباء في الوقت والموعد، وهم أشبه ما يسمون اليوم الممرضين، وعرف منهم أبو المعالي الغزال أحمد بن منصور بن المؤمل بن عبد الله، حيث عرف عنه من أهل الخير والثقة، عمل ساقيًا للأدوية في البيمارستان العضدي في بغداد(٢٠٩).

١١- **خازن الأدوية:**يعتبر خازن الأدوية صاحب وظيفة في البيمارستان فهو يحضر في الصباح والمساء إلى البيمارستان، ويفتح الخزائن، ويتولى صرف الأدوية والأشربة واللعوقات(٢١٠) والسفوفات(٢١١) والسعوطات(٢١٢) والمعاجين والمقرحات، ويعطي ذلك إلى الممرضين حسب إرشادات الأطباء، ويعطي العلاج للرجال والنساء وأصحاب الجراحات جميعًا(٢١٣)، كما كان يهتم خازن الأدوية بدقها(٢١٤)، وتجهيزها كما كان يفعل ماسويه الخوزي بدقه الأدوية وتجهيزها في

بيمارستان جنديسابور[٢١٥]، كما عرف عن وجود أدوية غريبة ونادرة داخل خزانة البيمارستان، ويحتفظ بها الخازن مثل ماء برطاع، ومن خواص هذا الدواء أنه إذا سقي منه أحد وفي داخل أحشاؤه أي تشبث من حلقة عظم أو شوك أو حديد أذابه في ساعته[٢١٦].

١٢- **وظيفة خازن الطعام في البيمارستان:**وهي وظيفة خاصة بتخزين الطعام داخل البيمارستان، وغالبًا ما يخزن الطعام لمدة طويلة من الزمن لتكفي المرضى، وعرف أن أبا بكر البغدادي عمل خازنًا للبيمارستان العضدي[٢١٧]، وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن الخطاب وعملية التخزين تشمل الطعام والدواء وغير ذلك من التمر، هذا وعندما أنشأ عضد الدولة بيمارستانه في بغداد رتب له مجموعة كبيرة من الأطباء الوكلاء والخزان[٢١٨]، وعندما بني مؤيد الدولة بيمارستان واسط رتب به عددا كبيرا من الخزان[٢١٩]، وعرف عبد الله بن محمد بن محمد الأصبهاني بالبيمارستاني الخازن لعمله خازن في البيمارستان الأصبهاني[٢٢٠]، وكثيرًا ما كانت تخزن التمور داخل البيمارستان[٢٢١]، كطعام أساسي لبعض المرضى.

١٣- **طباخ البيمارستان (خبير الأغذية)**[٢٢٢]:وهي وظيفة خاصة بالطباخين داخل البيمارستان، وهم متخصصون في صناعة الطعام للمرضى كل حسب احتياجاته، فعرف أن طعام المجانين في البيمارستان الفاطمي يختلف عن طعام المرضى الآخرين من الأمراض الأخرى[٢٢٣]، ويتم تقرير رجل طباخ يطبخ للمرضى ما يحتاجون إليه من الفراريج والطيور ولحم الضأن والأجدية المعزز بالمراق النظيفة ذات الرائحة الطيبة[٢٢٤].

١٤- **نجار البيمارستان:**وهي وظيفة ضمن وظائف الصيانة داخل البيمارستانات، فكان منهم النجار مؤيد الدين أبو الفضل أحمد بن عبد الكريم الحارثي، فكان معظم أبواب وشبابيك البيمارستان النوري في دمشق من صناعته، وهو الذي يتابع صيانتها[٢٢٥].

١٥- **حراس البيمارستان:**من بين الوظائف التي توجد في البيمارستان حراس البيمارستان، ويقفون على الباب ويرحبون بالضيوف والزوار، وهم يباشرون عملهم منذ طلوع الشمس، ويراقبون من يدخل البيمارستان[٢٢٦]، ويرحبون بهم كذلك كانت هناك وظيفة مرتبة لإحدى الخدم والقومة كاتبًا لأسرار المرضى

ووصاياهم وحرسًا عليهم(٢٢٧)، وكذلك عرف عن وجود رجال حرس وخدم في الليل والنهار للمرضى الرجال، ونساء خدم للنساء في الليل والنهار(٢٢٨)، ومهمة هؤلاء الحراس يغطون من يحتاج الغطاء من المرضى ويعطون لهم الماء ويواسونهم، ويكلمون المرضى كلامًا طيبًا، ويجب عليهم أن لا يغلظوا بالقول على أحد، وإذا شكى المرضى من هؤلاء الحراس والخدام يتم تبليغ ناظر البيمارستان فيتم تغييرهم(٢٢٩)، وعرف من حراس البيمارستان رجلاً يدعى أبو الفتح والذي كان يسكن دلخل البيمارستان النوري في دمشق(٢٣٠).

١٦- **مغسّل الموتى داخل البيمارستان:**تعتبر وظيفة مغسّل الموتى وظيفة خاصة في البيمارستان حيث عرف عن وجود مُغسّل الموتى في البيمارستان العضدي، وهو يعمل داخل غرفة المغتسل في البيمارستان، فيقوم بتغسيل الموتى ومواراتهم وتجهيزهم للدفن على أن يكون رجلاً متدينًا، لديه العلم والمعرفة بأداء غسل الموتى حسب الشريعة الإسلامية.

وعرف من أصحاب هذه الوظيفة الشيخ الحسن بن أحمد بن محبوب أو علي البغدادي القزاز وهو شيخ صالح، فكانت مهنته تغسيل موتى البيمارستان العضدي(٢٣١)، ويجب أن يغسل ويُكفن الميت بثوبين أبيضين نظيفين بالقطن والحنوط وماء الورد «العطور»، كما كانت تحضر التوابيت لموتى البيمارستان(٢٣٢)، وكل هذا كان يحدث داخل البيمارستان الإسلامي، ثم يدفن الميت بعد ذلك في القبر الذي حُضّرَ له(٢٣٣).وإن كان المتوفى امرأة فيقوم بتغسيلها امرأة مسلمة أمينة متدينة، عارفة وعالمة بأداء غسل الموتى من النساء حسب الشريعة الإسلامية.كما أن هناك من يحمل الموتى إلى القبور ويحفرون قبورهم، وتخصيص من يقرأ القرآن على الموتى(٢٣٤).

١٧- **شيخ البيمارستان:**وهو المسئول عن الصلاة على موتى البيمارستان وإعلان وفاته للعامة، ويصيح قائلاً مات فلان ابن فلان في البيمارستان، كما كان يفعل الشيخ راشد بن عبد الله التكروري(٢٣٥).والشيخ عبد الرحمن شيخ البيمارستان في مكة، مات بها في شوال سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م)(٢٣٦)، والشيخ محمد بن سالم بن محمد البلدي شيخ البيمارستان في مكة، عرف بصلاحه وهو المسئول عن فتوح البيمارستان، ومن مهام شيخ البيمارستان يقوم بشراء بعض مستلزمات البيمارستان

ويوقفها عليه[٢٣٧]، وعرف عن إبراهيم بن برهان الدين الكردي المكي مؤدب الأبناء في مكة، يعمل في مشيخة البيمارستان في مكة[٢٣٨]، وعرف من المؤذنين الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن محمد بن عمر، وهو مؤذن في البيمارستان الصغير بدمشق[٢٣٩].

١٨- **أمين البيمارستان:** وهو الذي يحفظ أموال المرضى وأماناتهم عند دخول المريض البيمارستان حتى خروجه[٢٤٠] منه، ويتصف أمين البيمارستان بالصدق والأمانة والحرص الشديد، كذلك من مهامه يشرف على حوائج البيمارستان[٢٤١]، فهذا صواب درابيه الطوائفي أحد درسة وحفظة القرآن الكريم، كان أمينًا على البيمارستان النوري في أيام نور الدين محمود بن زنكي، ينفق على الفقراء، فكان أهلاً للكرم والخير[٢٤٢]، كما ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم الداني من أشهر أمناء البيمارستان المراكشي[٢٤٣]، وهو من بجاية الأصل، وله فضل كبير وعناية خاصة في صناعة الطب في البيمارستان المراكشي في عهد دولة المستنصر بن الناصر المراكشي الموحدي[٢٤٤]، كما وتولى أحمد العكبري المصري أمين بيمارستان الإخشيد في مصر، ويتصف بأنه محدث وخطيب ورجل أمين ثقة[٢٤٥]، كما عرف أن هناك بيمارستانات إسلامية بها عدة أمناء، امتدت وظيفتهم حتى بعد العصر العباسي[٢٤٦].

١٩- **كتّاب البيمارستان «المشرف الإداري»:** عُرف عن وجود كتّاب داخل البيمارستان الإسلامي، مثل عبد الرحمن بن محمود بن أحمد بن يوسف بن أوحد الدين السيرحمي الأبي الحافظ للقرآن، المتميز بعلم الفرائض بأنه كان كاتبًا داخل البيمارستان النوري، وكان يكتب بخط جيد[٢٤٧]، كذلك كان هناك مكاتب لتعليم الصبية داخل المكتب في البيمارستان[٢٤٨]، وعرف عن الأوحد الفقيه شمس الدين عبد الله بن محمد بن عبد الله القرشي الزبيري أنه كان كاتبًا في ديوان البيمارستان النوري[٢٤٩]، وكذلك عرف عبد السيد بن علي بن الطيب أبو جعفر بمشارفته على مكاتب البيمارستان[٢٥٠]، وعرف إسماعيل بن أحمد بن أبي الوقار أبو الطاهر التنوخي (المولود في سنة ٥٧٩ هـ) بتوليته مشارفة البيمارستان في مصر[٢٥١].

٢٠- **صاحب ديوان البيمارستان ومتولي أمره:** موضعه التحدث في كل ما يتحدث فيه ناظر البيمارستان، وهو متولي أمره بعد الناظر[٢٥٢]، وأطلق عليهم اسم

مباشرو الإدارة في البيمارستان، حيث يعملون على متابعة صندوق البيمارستان والأوقاف الخاصة فيه، وتحرير جهاتها[٢٥٣]، وعرف منهم الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار بن إبراهيم، تولى بيمارستان الموصل وتصرف في وقفه[٢٥٤] عبد الجليل بن عمر بن محمد بن بكر المقدسي الحنيفي الطبيب، قدم إلى دمشق وتولى البيمارستان في دمشق[٢٥٥].وصاحب البيمارستان يعود إليه أمر تدبير البيمارستان، ومن أشهر من دبر أمر البيمارستانات محمد بن زكريا الرازي[٢٥٦]، صاحب التصانيف، وقام بتدبير بيمارستان الري ثم بيمارستان بغداد في عهد الخليفة المكتفي بالله[٢٥٧][٢٥٨].

كذلك يعتبر أبو بكر الدينوري أهم من تولى أمر الإشراف على ديوان البيمارستان، وكان مثالاً للعطاء، قرأ الفقه على أبي الخطاب الكلوذاني، حتى برع في المذهب، توفي سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)[٢٥٩].

٢١- الخدم والقومة في البيمارستان الإسلامي ومهامهم[٢٦٠]:كان الخلفاء والأمراء وأهل الصلاح عندما يشيدون بيمارستانًا يصرفون له الخدم والقومة، ومن يساعد المرضى، وحدث ذلك في كل البيمارستانات الإسلامية، فامتلأت بالخدم والقومة الذين يسهرون على راحة المرضى[٢٦١]، يتفقدون أحوالهم بكرة وعشية، ويعطون الأشربة والأغذية للمرضى بما يليق بهم[٢٦٢]، ويسمى خادم البيمارستان حرملة[٢٦٣]، وكان من أشهر الخدم في البيمارستان عثمان بن الحسين بن محمد بن الحكيم أبو عمر بن أبي عبد الله من أهل الحريم الظاهري، كان شيخًا صالحًا يخدم المرضى في البيمارستان العضدي[٢٦٤]، كما كان أبو المعالي الغزال يخدم المرضى في البيمارستان العضدي ويسقيهم الأدوية، وهي من أهم مهامه كخادم للمرضى في البيمارستان[٢٦٥]، وعرف كذلك بوجود الحلاقين أو المُزيِّنون، وهم الذين يقصون الشعر لدى المرضى ويرتبون مناظرهم[٢٦٦]،ومن ضمن القومة والخدمة مهمة الكيال، وهي تختص بالمؤن والطعام في داخل المطبخ في البيمارستان[٢٦٧]، كذلك عرف عن علي بن نصر بن حمزة بن علي البغدادي والمشهور بالبيمارستاني كان يعمل مع القومة داخل البيمارستان في بغداد[٢٦٨].

ومن الذين خدموا داخل البيمارستان في دمشق رضي الدين الرحبي حين عمل قادمًا للمرضى في البيمارستان النوري الكبير[٢٦٩]، وكما عرف أن أحمد بن

الصلف، كان يعمل فراشًا في إحدى بيمارستانات مصر[٢٧٠]، وعبد الله بن علي الثغري الشافعي يعمل خادمًا في البيمارستان، وكان يحفظ القرآن والمنهاج[٢٧١].

ومن مهام القومة والخدم: أنهم يقومون بكنس البيمارستان وغسله، وينظفون تحت المرضى وحولهم ويفرشون لهم الفرش، ويضعون لهم المخاد ويغطونهم باللحف، ويتعهدون بالمرضى ليل نهار، يحضرون لهم الشراب والطعام أول النهار وآخره، ويتفقدون مضالحهم، كما إذا أتعب المريض فرّاش بشيء يكرهه أبدله فرّاشًا غيره[٢٧٢].ويتم تعيين خدم لغسيل فراش المريض والجرحى والمجانين والرمدي وفق تنظيم جيد، وتغيير ثيابهم وغسل ما أصاب بدن المريض، أو أي عضو من أعضائه من النجاسات العينية مثل الدم والغائض والقيح والبول بالماء الساخن، وغسل أيديهم ووجوههم وأرجلهم بالماء الساخن وتنشيفها بالمناديل النظيفة المبخرة ورشهم بالعطور وماء الورود على وجوههم وأيديهم والتلطف بهم والشفقة عليهم والإحسان إليهم ومساءلتهم في كل وقت عن حالهم وما يحتاجون إليه[٢٧٣].كما توجد نساء لغسل قماش النساء داخل البيمارستان المذكور من المريضات، وهن يخدمن النساء ذات العاهات والجريحات والرمدات صاحبات أوجاع العيون وتنظيفها وأن يفعلن معهن ما هو مشروط عليهن من واجب.كذلك يتم تعيين رجل خياط يصنع اللحف والطراريح والمخاد بالقطن المندوف، بحيث يبقى الفراش واللحف دائمًا نظيفة مجددة العمل رفحة القطن، كما تم تعيين قومة عملهم فقط متابعة وقود المصابيح، للرجال رجال، وللنساء نساء، حيث يقومون بطفئها وغسلها وتعميرها، وعمل فتائلها وسائر ما تحتاج إليه[٢٧٤].

النساء الخدم: مهام نسوة قائمات يقمن بمصالح النساء المريضات، يفعلن معهن ما هو مشروط على القومة من الرجال من خصائص للنساء، كما الرجال للرجال[٢٧٥].

– **لوازم البيمارستان الإسلامي للمرضى**:يلزم البيمارستان العديد من الأمور منها :– زيت لإنارة المصابيح والقناديل.وآلات النحاس للطبخ والزبادي[٢٧٦]، النحاس والقيشاني[٢٧٧] والطاسات والمكانس والمجاريد الحديد للبلاط.وأدوية وأشربة ومعاجين وسعوطات ومسفوفات وأقراص وسكر وفراريج وأدهان ومياه ومقلوبات ونضوجات وشمع وزيت وحطب وبراني[٢٧٨]، وعلب وأحقاق رصاص.وفرش

ولحاف ومخاد وحصر وبسط وبرودات[٢٧٩] ومراهم ودرورات وأكحال[٢٨٠]، وأشيافات[٢٨١].

المبحث الرابع : الرقابة الطبية والفنية في البيمارستانات

عندما ازداد عدد الأطباء الصيادلة والممارسين لصناعة الطب في البلاد العربية والإسلامية، خصوصًا في العصر العباسي، كان من الضروري إنشاء نظام يتولى مراقبة سلامة هذه المهنة، وخاصة بعد انتشار المتعلم الماهر والدجال الجاهل، وهذا النظام سمي حينئذ بنظام الحسبة، وقد ألفت العديد من الكتب التي تبحث في هذا النظام وتطبيقاته.

فالحسبة وظيفة جليلة رفيعة الشأن وموضوعها التحدث في الأمر والنهي والتحدث على المعايش والصنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته، والمحتسب هو من أرباب الوظائف الدينية ويده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة[٢٨٢].وكان رئيس الأطباء وقتئذ يتعهد أمام المحتسب أن لا يتساهل في شئون مراقبة أعمال الأطباء، وأن يأخذ عهدا علي الأطباء بأن لا يعطوا دواء فتاكًا، وأن لا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال دواء يقطع النسل، وأن يغضوا من أبصارهم عن المحارم عند دخولهم بيت المرضى، وأن لا يفشوا أسرار ما يرونه فيها[٢٨٣].

كان الأطباء يخضعون لامتحان قبل السماح لهم بمزاولة المهنة، فكان الكحالون[٢٨٤] مثلاً يمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن إسحاق[٢٨٥]، فمن وجده فيما امتحنه به عارفًا بتشريح العين وعدد طبقاتها السبع، وعدد رطوباتها الثلاث، وعدد أمراضها الثلاثة، وكان خبيرًا بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير أذن له المحتسب بالتصدي لمداواة أعين الناس، وأن لا ينبغي أن يفرط في شيء من آلات صنعته مثل سنانير السبل[٢٨٦] والظفرة[٢٨٧] ومحك الجرب ومباضع الفصد ودرج المكاحل وغير ذلك[٢٨٨].

لقد كان الطبيب العربي سنان بن ثابت يمتحن الأطباء والجرائحيين والكحالين والصيادلة، وقد ذكر الطبيب عبد الرحمن بن نصر الشيرزي في كتابه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» كثيرًا من مشاهداته فيما يتعلق بأنواع الغش، وسوء ممارسة الطب وأخطاء الأطباء، وقد جاء في نهاية كتابه: «إن كحالي الطرقات لا

يوثق بأكثرهم، ولا ينبغي لأحد أن يركن إليهم في معالجة عينه ولا يثق بأكحالهم وشيافاتهم»، وعند الكلام عن الجراحين يقول: «أما الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقطاجنس في الجراحات والمراهم»[٢٨٩].

فالمحتسب يراقب الأطباء والصيادلة والموظفين والممرضين والخدممراقبة شديدة ودقيقة، وكذلك يراقب أحوال المرضى وما يشتكون منه، وما يحتاجون إليه من طعام وأدوية وغير ذلك من الخدمات، ومعه أعوانه يساعدونه لمراقبة المصالح العامة كي تسير الأمور على ما يرام في طريقها الصحيح طبقًا لحدود وتعليمات الشريعة الإسلامية[٢٩٠].لذلك يعد نظام المراقبة من أهم مآثر العرب في هذا الميدان، وقد انتقل هذا النظام إلى أوروبا ولا تزال كلمة «محتسب» تستعمل في اللغة الأسبانية بنطقها العربي[٢٩١].

عرف فقهاء النظم الإسلامية الحسبة بأنها: «الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله»[٢٩٢]، آخذًا من قوله تعالى: "**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** "[٢٩٣]، فكل مسلم مأمور أن يكون محتسبًا، فإذا رأى أن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر قد يجر إلى منكر أكبر، وجب عليه الكف عن ذلك[٢٩٤]،فقد نشأت وظيفة المحتسب للضرب على أيدي العابثين الذين لا يراعون أصول الشريعة في سلوكهم وعملهم، وبعد اتساع الدولة الإسلامية وكثرة مشاكلها وشغل الحكام بمشاكل كثيرة عملت الدولة على بناء جهاز إداري يتبعه كثير من الموظفين لمعاونة المحتسب لهذه المهمة الجليلة[٢٩٥]، وتطورت الحسبة بدوافع اجتماعية حتى أصبحت تهتم بأمور الدنيا مثل أمور الدين[٢٩٦].

مهام وظيفة المحتسب:حدد ابن خلدون مهام وظيفة المحتسب، فإنها تكون خادمة للقضاء[٢٩٧]، ولكي يطلع الحكام على أعمال الأطباء ومعاملاتهم للمرضى نصب الحكام العباسيون محتسبًا على الأطباء ويبدو أن هذه الوظيفة كانت تخص الجانب الإنساني والديني في البيمارستانات[٢٩٨]، لذلك كان يتم التفتيش على البيمارستان بواسطة صاحب الحسبة الذي يحق له وبسلطته الحاكمة أن يدخل البيمارستان للوقوف على جميع أحواله وعلى حال المرضى[٢٩٩]، ويعلم الخليفة بكل أمر، ويذكر أن الخليفة المقتدر عرف بأن أحد أطباء البيمارستان أخطأ في تشخيص أحد مرضاه، ووصف

العلاج له ومات على أثر ذلك، فأمر الخليفة المحتسب بأن يمنع جميع الأطباء من ممارسة الطب حتى يقدم امتحانًا يجيز له ذلك فكلف سنان بن ثابت بن قرة بإجراء هذا الامتحان، فأجرى لما يقرب من تسعمائة طبيب في بغداد(٣٠٠)، وكذلك أمر المأمون بإجراء امتحان للصيادلة(٣٠١).

-كان المحتسب يأخذ على الفاصد عهدًا ألا يفصد(٣٠٢) عرق الوصواف(٣٠٣)؛ لأن ذلك يسبب قطع النسل، وهو حرام في الشريعة الإسلامية(٣٠٤).ففي العصر العباسي لا يوجد فصل بين الطبيب والصيدلي ونظرًا لخطورة العمل في الدواء والعلاج ومن يقوم بوصفه وصناعته فإن أهميته أكبر من غيره، فالغش فيها أضر على الخلق من غيرها، لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة، والتداوي على قدر أمزجتها فمنها ما يصلح لمرض ومزاج فإذا أضيف إليها غيرها أخرجها عن مزاجها فأضرت بالمريض لا محالة، فالواجب عليهم أن يراقبوا الله عز وجل في ذلك، فينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم وينذرهم بالعقوبة والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل أسبوع(٣٠٥).

- يفتش المحتسب على أدوات المريض، فيكون لديه جميع آلات الطب ومتوفرة في البيمارستان(٣٠٦)، وأن يتأكد الممتحن باقتناء جميع آلات الفحص والعلاج وهي كليات الأضراس، وكلبات العلق(٣٠٧)، ومكاوي(٣٠٨) الطحال، وزراقات الذكر، وملزم البواسير، ومخرط المناخير، وقالب التشمير(٣٠٩)، ورصاص التتفيل، ومفتاح الرحم، ومكمدة الحشا، ألا يتعدى حدود اختصاصه العلمي المحدد له(٣١٠).ويفتش المحتسب على الطبيب العامل بالبيمارستان ومدى معرفته بتشريح الأعضاء وعروق الجسم وشرايينه، ويتأكد أن لديه من آلات الفصد(٣١١) والوتر لشد الذراع وما يلزم لهذه العملية(٣١٢).

- يراقب المحتسب الصيادلة بمساعدة الأطباء والمختصين في معرفة الأدوية والعقاقير وإرشادهم، وتفقد العقاقير التي يبيعونها خشية أن تكون مغشوشة ولمن يبيعونها وأسعارها(٣١٣).ويقوم المحتسب بمراقبة الفصادين والحجامين ويتفقد آلاتهم التي يستعملونها من حيث النظافة ودقة الآلة، وطريقة استعمالها، وما على الفصاد والحجام أن يعلمه من الأعضاء الدقيقة فلا يؤذيها.ويقوم المحتسب بتفقد الأطباء والكحالين والمجبرين والجراحين، ويدقق على الآلات التي يستعملونها، ودرجة

إتقانهم لأعمالهم في الفحص، وتشخيص المرضى، وإجراء العمليات الجراحية في التجبير.

- كما يتفقد المحتسب وأعوانه نظافة البيمارستان وجودة الطعام، وحسن المطبخ، وتحضير الأدوية، وحسن مداواة المرضى، وقيام كل من في البيمارستان بواجبه بدقة وأمانة،و يوجد مَنْ يقوم بالمراقبة والتفتيش أيضًا مع المحتسب لصالح المرضى والصالح العام مثل أصحاب الوقف والولاة فكان أحمد بن طولون يركب بنفسه في كل يوم جمعة يتفقد خزائن البيمارستان وما فيها والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر المعلولين والمحبوسين من المجانين وغير ذلك، وكذلك الخلفاء كانوا يعنون بمراقبة من يزاول مهنة الطب والصيدلة والوقوف على درجة علمهم ويمنعون من لا خيرة له من مزاولة العمل(٣١٤).

-كذلك كان المحتسب يأخذ على أطباء البيمارستانات عهد أبقراط(٣١٥)،وهو قسم للأطباء نصه: «إني أقسم بالله .... على أني أفي بهذا اليمين وهذا الشرط، وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي،............. وأقصى في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى، وأما الأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها .....ولا أن أدني من النسوة فرزجة تسقط الجنين(٣١٦)، وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة، ولا أشق أيضًا عمن في مثانته حجارة لكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل وكل المنازل التي أدخلها إنما لمنفعة المرضى وأنا بحالة خارجة عن كل جور وظلم وفساد .... على أفضل الأحوال وأجملها وأن يحمد جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائمًا ومن تجاز ذلك كان بضده»(٣١٧).

- ومن متطلبات عمل المحتسب في الدولة الإسلامية أنه يأخذ القسم علِى أطباء البيمارستان؛ لأن عمله يتطلب مراقبة هذه البيمارستانات، ونص المحتسب الآتي: «برئت من قابض أنفس الحكماء، ورافع أوج السماء، فاطر الحركات العلوية، أن خبأت نصحًا، وبدأت ضرًا، أو قدمت ما يقل عمله، إذا عرفت ما يعظم نفعه، وعليك بحسن الخلق، حيث تسمع الناس، واستفرغ لمن ألقى إليك زمامه ما في وسعك، فإن ضيعته فأنت الضائع، والله الشاهد عليَّ وعليك، والسامع لما تقول، فمن نكث عهده فقد استهدف لقضائه، إلا أن يخرج من أرضه»(٣١٨).

أشهر المحتسبين في البيمارستان الإسلامي: أبو إبراهيم بن محمد بن أبي بطيحة المحتسب الذي أمر بمنع المتطببين من التصرف بالمهنة إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة، وكان هذا المحتسب في عهد الخليفة المقتدر بالله سنة (٣١٩هـ/ ٩٣١م)[٣١٩].ومحمد بن عبد الله بن القاسم أبو الفضل كمال الدين الشهرزوري قاضي دمشق، ولد سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م)، كان يعمل محتسبًا للبيمارستان النوري في أيام نور الدين محمود بن زنكي[٣٢٠].وبدر الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن يوسف الأمدي الحنبلي، يتصف بالذكاء والنباهة، تولى نظر البيمارستان والحسبة في دمشق[٣٢١].

ونلاحظ مما سبق أن المسئولية الطبية الكاملة في البيمارستانات كما عرفها ومارسها المسلمون، تمثل أرقى ما وصلت إليه الإنسانية بخصوص هذا الأمر، فالمحتسب في إشرافه على عمل الطبيب، إنما يحاسبه على أعماله بميزان الشرع[٣٢٢].

- **من شروط العمل في البيمارستانات الإسلامية:**يشترط للعاملين في إعداد الطعام للمرضى داخل البيمارستان ألا يسمح لعاجني الخبز أن يعجنوا بمرافقهم أو بأيديهم مباشرة، حتى لا يقطر العرق ويختلط بالعجين، فلا يعجن إلا وهو يلبس الأكمام «القفازات».وأن يكونوا ملثمين عند تحضير الطعام، خوفًا من أن يعطسوا أو يكون عند كلامهم ينزل شيء من أفواههم أو نَفَسُهُم يختلط بالطعام.ويكون عندهم طرادون للذباب حتى تستوفي الشروط الصحية الكاملة لما يحتاج إليه من رعاية المرضى وتوفير النظافة وغير ذلك[٣٢٣].

- **صفات الطبيب المسلم وشروط عمله في البيمارستان الإسلامي:** أن يعمل الطبيب بخفة وسرعة، حريصًا على التعلم والمبالغة في منافع الناس.وأن يعمل بغير ارتعاش ولا ذهول عن الواجب في كل عمل، حَسَن الذكاء، جيد الرؤية، عاقلاً خيّر الطبع[٣٢٤].وأن يكون مساعدا للأطباء، بحيث يوفر لهم مناولة ما يؤمر به عن تمام لفظ الأمر، حَسَن العشرة، متميزًا في الطب[٣٢٥].وينبغي أن يكون جميع ما يحتاج إليه العلاج من الآلات والأدوات ونحوها حاضرة[٣٢٦].ويشترط في كل من يعمل في البيمارستان أن يكون عالمًا بصناعة الطب، حسن الدراية بأمور العلاج، خبيرًا في معرفة أنواع الأدوية، مطلعًا على أحدث الأبحاث الطبية[٣٢٧].ويجب أن يكون

صاحب سمعة طيبة، كتومًا على أسرار مرضاه، وقريبًا منهم ولا يصف دواء قاتلاً، ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنّة، وأن يعالج عدوه بنية صادقة، كما يعالج حبيبه[٣٢٨]،وأن يكون حليمًا مالكًا لنفسه عند الغضب، بشوشًا في وجه المرضى، باعثًا في نفوسهم الأمل بالشفاء[٣٢٩].وأن يكون الطبيب على معرفة بالأحوال الاجتماعية لمرضاه، ونظام حياته، وما أصاب مرضاه من أمراض حتى يستطيع تشخيص علاجهم وأمراضهم[٣٣٠].ويجب أن يكون ناصحًا لمرضاه يعمل على جلب ما ينفعهم من الأدوية والأطعمة، وينهى عن إدخال أي أدوية أو أطعمة قد تؤدي إلى تدهور حالة المريض الصحية[٣٣١]. وأن تكون رغبة الطبيب إبراء المرضى، أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من علاج الأغنياء[٣٣٢].ومن شروط العمل بالبيمارستان الإسلامي إجازة التطبيب للأطباء، إجازة تخولهم هذا الحق في علاج الناس[٣٣٣]. ويجب على الطبيب أن يوهم المريض إبداء الصحة،، وإن كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس[٣٣٤].

المبحث الخامس : الإيرادات المالية للبيمارستانات ومصادرها

لقد تبارى الخلفاء والسلاطين المسلمون، وأصحاب الثراء في إنشاء المستشفيات، متفانين في خدمتها وتوفير الدعم المالي الكبير من الموارد المختلفة الثابتة اللازمة لها، كالأطيان، والأراضي، والعقارات والمنشآت المختلفة، فأوقفوا عليها الأوقاف الطائلة الخاصة بها دون سواها، ضمن الحدود الشرعية الإسلامية، للإنفاق من ريع تلك الأوقاف عليها لضمان سير الأعمال فيها على ما يرام في مختلف الأزمان، والعناية بها وصيانتها وتأثيثها بما يلزمها من أفضل الأثاث، وتجهيزها بأحسن المعدات والآلات والأدوية والأطعمة، والأطباء من ذوي الكفاءات العالية في مختلف الحقول، والموظفين المختصين الممتازين للقيام بإدارتها على خير وجه، وبالقومة والخدم والفراشين على مختلف أنواع أعمالهم من نظافة وإعداد طعام[٣٣٥].وبما أن الوقف هو مصدر الإيرادات المالية التي تنفق على البيمارستانات فلا بد من بيان معناه ومقاصده ومدى انتشاره في العصر العباسي.

* **التعريف بالوقف: الوقف في اللغة:** الحبس والمنع[٣٣٦]، ومنه وقفت الدابة إذا حبستها على مكانها، ووقفت الدار إذا حبستها[٣٣٧]، ولذلك نجد كلمة حبس تنوب

عن كلمة «وقف» في بعض كتب الفقه[٣٣٨].

أما **الوقف في الاصطلاح الشرعي** فتعريفاته كثيرة تتسع أحيانًا وتضيق أحيانًا أخرى، نظرًا لتصور الفقهاء، فقد عرفه الإمام النووي: «حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته، وتصرف منافعه إلى البر تقربًا إلى الله تعالى»[٣٣٩].

مقاصد الوقف: جاء مصلحة لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة، كما يهدف إلى الإحسان والكرم والبر، فقدم الوقف لبناء المساجد والبيمارستانات وغير ذلك[٣٤٠]، وقد تركزت خدمات الوقف في مجالين مهمين، تقديم الطعام من الخبز واللحم أحيانًا، والعلاج الصحي المجاني في المجال الآخر، فيما عرف بالبيمارستانات التي عُدّت من مظاهر الحضارة الإسلامية[٣٤١]،لذلك بين الفقهاء أن الوقف هو التصرف في ريع العين وما تدره من مال مع بقاء ذاتها وجعل منفعتها لجهات البر، وهي بهذا تخرج من ملك صاحبها وسبل منفعتها بجعلها مبذولة على وجه القرب لله تعالى[٣٤٢].وظلت الأوقاف تتزايد في عصر الراشدين رضوان الله عليهم، وتابعوا إدارتها وتوزيعها متابعة مباشرة[٣٤٣]،وفي العصر الأموي كثرت الأوقاف، الأمر الذي دعى إلى تنظيم الوقف فأنشئ ديوان مستقل للوقف، وذلك في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٤-٧٠٥م)، وتم تسجيل الأحباس الموقوفة في سجل خاص لحمايتها[٣٤٤].وتوسع نظام الوقف في العصر العباسي وأصبحت البيمارستانات تحتل جزءا من إيرادات الوقف وغيرها من جوانب الخدمات الإنسانية النافعة لعموم المسلمين [٣٤٥].

*** الأوقاف ودورها في ازدهار وعمل البيمارستان في العصر العباسي الثاني:**كانت البيمارستانات تحصل على إيراداتها من الأوقاف التي تؤمن لها اكتفاءها المالي، والتي تعد هبات مالية أو عينية موروثة، يقدمها مالكوها المقتدرون والأغنياء، والأملاك تسلم من الولاة، لذا تعد البيمارستانات من الظواهر البارزة في تاريخ الحضارة الإسلامية في القرون الماضية، وأن أساس نشأتها الأوقاف بداية وتطويرا وتعليمًا وللعاملين فيها، وتقدم هذه البيمارستانات العناية للمرضى[٣٤٦].ومما يدل على أن للوقف أثرًا رئيسًا في ازدهار البيمارستانات السبق الذي أحرزه في تقديم الرعاية الصحية ومساعدة المرضى من الفقراء والمحتاجين، وتوفير كل

وتوفير كل أسباب الرفاهية من أسرّة وفرش ناعمة وحمامات واسعة، وغرف كبيرة وأقسام متعددة،وأطباء وموظفين وعمال [٣٤٧].

إن دعم الوقف للبيمارستانات الإسلامية ودوره في ازدهارها أمر جلي لا ينكره أحد، فعلى سبيل المثال:

كثرت الأوقاف في عهد أحمد بن طولون حيث بنى البيمارستان، وأنفق عليه ستين ألف دينار[٣٤٨]، وحبس عليه سوق الرقيق وغيره من الأوقاف[٣٤٩]، كما حبس عليه دار الديوان ودوره التي في منطقة الأساكفة[٣٥٠] والقيسارية، وسوق الرقيق، بل وعمل ابن طولون حمامين للبيمارستان أحدهما للرجال وآخر للنساء وجعلهما وقفًا على البيمارستان[٣٥١]، وأوقف عليه أيضًا منطقة جبل تنور[٣٥٢] فرعون وأوصى بأن كل إيرادات أوقاف الجبل هي وقف للجامع والبيمارستان، وأوقف ابن طولون على البيمارستان مكتبة ضخمة وهي وقف للبيمارستان[٣٥٣].

وكانت نفقات البيمارستان الصاعدي، والذي أنشأ الخليفة المعتضد بالله (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) مما يقارب أربعمائة وخمسين دينارًا شهريًا، كما يرى المؤرخ آدم ميتز[٣٥٤] اعترافًا منه بدور الأوقاف وأهميتها في الحضارة الإسلامية، أما البيمارستان البدر المعتضدي كانت جميع نفقاته من واردات الوقف الذي كان للسيدة شجاع أم الخليفة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م)[٣٥٥]. كما أنشأ الإخشيد سنة (٣٣٠هـ/ ٩٤١م) قيسارية[٣٥٦]، لبيع المنسوجات في سوق الحمام[٣٥٧]، وأنشئ قيساريات وحوانيت ودور، كلها وقف للبيمارستان الذي بناه[٣٥٨]، كما وكانوا يوقفون القرى كاملة على البيمارستانات.[٣٥٩].

لقد أوقف الأمير شباشي التركي أبو الطاهر مولى شرف الدولة على البيمارستان العضدي قرية دباها، كما وأوقف عضد الدولة على البيمارستان أموالاً عظيمة جدًا[٣٦٠]، وعند بنائه جمع عضد الدولة جماعة كبيرة من الأطباء والمهندسين ومنهم الطبيب أبو يعقوب الأهوازي[٣٦١]، وهو طبيب ومهندس لبناء البيمارستان وأعطاهم عضد الدولة أموالاً كثيرة لإنجاز هذا العمل[٣٦٢]، وفي حالة اختلال الميزانية المالية للبيمارستان يهرع المسئولون لدعم ميزانيته المالية مثلما حدث في ميزانية البيمارستان المعتضدي التي كان يديرها أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة حيث هرع المسئولون لدعم ميزانية البيمارستان المالية[٣٦٣].

كما اهتم الفاطميون بالبيمارستان الفاطمي في القاهرة، فهذا القائد جوهر الصقلي سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) كان يزور مرضى البيمارستان ويتفقدهم، وأوقف على البيمارستان أوقافًا كثيرة[٣٦٤]،واهتم الأمير سيف الدين أبو الحسين القميري بأوقاف بيمارستانه، وكان يتابعها بنفسه[٣٦٥]، واهتم مشرف الدولة ببناء بيمارستان واسط، وأوقف عليه وقوفًا كثيرة لا تعد ولا تحصى من كثرتها[٣٦٦].

وكان بيمارستان ابن الفرات يحصل على وارداته من أموال الأوقاف، وبلغت نفقاته مائتي دينار شهريًا[٣٦٧]، وبيمارستان معز الدين البويهي (٥١١-٥٢٢هـ/ ١١١٧-١١٢٨م) ما قام إلا على نفقات الأوقاف التي أوقفها عليها الأمير معز الدولة البويهي فأوقف عليه ضياعًا وأوقافًا كثيرة، وأمر أن يكون دخل الضياع الموقوفة عليه في كل سنة خمسة آلاف دينار[٣٦٨]، كما وساهم علي بن عيسى الجراح في متابعة الوقف الخاص بالبيمارستانات فكتب إلى متولي الوقف الخاص قائلاً: «يجب أن يدفأ المرضى والممرودين «المجانين»، بالأغطية والكسوة والفحم ويقام له القوت ويصل إليهم العلاج»[٣٦٩]، ومن الأطباء من يوقف أمواله وما يخص به لوقف البيمارستان، فالطبيب مهذب الدين الدخوار أوصى بعد موته بوقف داره وأملاكه إلى مدرسة الأطباء والبيمارستان النوري[٣٧٠].

كما انتشرت الأوقاف في العهد الزنكي وبنيت البيمارستانات بشكل كبير، وكان مدخلاتها عن طريق الوقف بشكل أساسي، خصوصًا في عهد محمود بن زنكي، وعماد الدين زنكي[٣٧١]، فقد كان ينفق على البيمارستان النوري في الشام خمسة عشر دينارًا في الشهر، وقد أوقفت عليه قرية معراتا ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان وخمسة أفدنة من مزرعة كفر تابا، ثلث مزرعة الخميرة من المطبخ، وأثنى عشر فدانًا من مزرعة الغرزل من المعرّة وثلث قرية راعيل من العزبيات وعشرة دكاكين بسوق الهواء وهو الآن معروف بسوق الجمرك[٣٧٢].

وأوقف نور الدين محمود بن زنكي الأراضي والأموال على البيمارستان النوري، ولم يجعله وقفًا على الفقراء بل على كافة المسلمين من غني وفقير، وأوقف عليه جملة كبيرة من الكتب الطبية[٣٧٣]، وجاء نور الدين محمود بن زنكي بالأموال لبناء البيمارستان فدية من أحد أمراء الفرنج، حيث أطلق سراحه[٣٧٤]، كما وأوقفت ست الشام الخاتون أخت الملك العادل بنت أيوب على البيمارستان النوري

أوقافا كثيرة[٣٧٥]، وأوقف نور الدين محمود على البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية[٣٧٦].

هذا وقد كثرت الأوقاف على البيمارستانات في العهد الأيوبي[٣٧٧]، وراجت أسواق الأوقاف على السلطان صلاح الدين (٥٦٩-٥٨٩هـ/ ١١٧٣-١١٩٣م)، وتبعه في ذلك كثير من أهل بيته وأولاده وحاشيته، حيث أكثروا من أعمال الخير اقتداء به، وعملوا على بناء البيمارستانات[٣٧٨]، فقد كان ينفق على مارستان صلاح الدين الأيوبي مائتي دينار في الشهر[٣٧٩].كما وأنفق صلاح الدين على بيمارستانه في القدس وقوفًا عظيمة[٣٨٠]، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الألوان والأنواع[٣٨١].

كما كان للبيمارستان القيمري وقف كبير أوقفه وحبسه عليه الأمير سيف الدين القيمري رحمه الله تعالى على البيمارستان فحدد ذلك بقوله: «من المرج نصف قرية البحدلية، وكذلك قرية المسعودية بكاملها، وأيضًا قرية المعاضدية وأيضًا من قرية بالا تسعة قراريط ونصف الحصص من الضياع الحولانية، دير أيوب عليه السلام بكاملها ودير الهرير وطواحينها بكاملها، ودير السوج[٣٨٢] بطواحينها والحصة والنصف والربع منها ومن قرية عترة الربع ومن قرية فادا النصف والثمن سرية ثلاثة قراريط ونصف من المستف حصة بزامخشي بقيسارية قيراطان وحانون بالفقار مضمونة برستم الشوي وصفة نوح سبع عشرة حانوتًا الحصة من الزط[٣٨٣] أربع قراريط»[٣٨٤]، وكانت منطقة سفح قاسيون كلها وقف للبيمارستان القميري[٣٨٥]، وأوقفت هذه الأملاك على البيمارستانات ليضمن استمراريته.أما البيمارستان المقتدري فقد كانت نفقته ٦٠٠ دينار تعطى ليد يوسف بن يحيى المدجم، وكان وقف الخليفة المقتدر على البيمارستان كل شهر مائتي دينار[٣٨٦]، وكان مبلغ النفقة عليه من الخليفة المقتدر سبعة آلاف دينار سنويًا[٣٨٧]. كما وأنفق نظام الملك على بيمارستانه خمسين ألف دينار من أمواله وأموال الوقف ليكون خدمة للعامة[٣٨٨].أما بيمارستان السيدة أم المقتدر، كان مبلغ النفقة عليه في العام سبعة آلاف دينار[٣٨٩]، وكانت النفقة عليه كل شهر ستمائة دينار ومسئول عن هذه النفقات ثابت بن سنان[٣٩٠].

* **الشاهد بوقف البيمارستان:** عرف عن وجود شُهود للوقف في البيمارستان

الإسلامي حتى يبقى الحفاظ على استمرارية البيمارستانات وعملها، وعرف من أهم الشُهود بوقف البيمارستان النوري الشيخ عبد العزيز بن محمد بن موسى بن إبراهيم العز بدر بن البرهان كان شاهد بوقف البيمارستان(٣٩١).كما وعرف محمد بن عبد العزيز الشمس الجوجري القاصري الشافعي، كان شاهد العمائر في وقف بيمارستان القاهرة(٣٩٢)، وعرف محمد بن عبد الرزاق بن عبد الكريم الغني بن التاج بن الكريم بأنه كان أحد شهود الإدارة بالبيمارستان في مصر ومسئولاً عن أوقاف البيمارستان(٣٩٣).

المبحث السادس :أوجه الصرف على البيمارستانات

إن الإيرادات المالية التي ترد إلى البيمارستانات هي دعم مالي من موارد مختلفة ومتعددة كالأطيان والأراضي والعقارات والمنشآت المختلفة وغيرها، والتي أوقفوا عليها الأوقاف الطائلة الخاصة بها للإنفاق من ريع تلك الأوقاف لضمان سير الأعمال بالبيمارستانات، فإنها تنفق في أوجه متعددة بالبيمارستانات منها ما يصرف على إنشاء وتأثيث البيمارستان، ومنها ما يصرف على الأطباء كأجور وحقوق لهم، ومنها ما يصرف على أدوية المرضى وما يحتاجونه، ومنها ما يصرف كأجور على الموظفين العاملين بالبيمارستان كالكتاب والخزنة والمشرفين على الأعمال والطباخين والخدم والفراشين وغيرهم، ومنها ما يصرف على الطعام والشراب بالبيمارستان،وذلك علي النحو التالي:

١- **أبنية ومنشآت البيمارستان:**من أوجه الصرف على البيمارستان العناية بتأثيثها وما يلزمها من أفضل الأثاث وتجهيزها بأحسن المعدات والآلات وما تحتاجه من أثاث كأسرة وملاحف ومخدات، ومراوح خوص ولوازم لتكفين الموتى طبقًا للشريعة الإسلامية، كما يصرف عليها كل ما يستلزم من إصلاحات للبيمارستان وترميم للأبنية والمنشآت بها(٣٩٤).

٢- **حقوق الأطباء وأجورهم:**مارس الأطباء العرب مهنتهم داخل البيمارستانات الإسلامية بأجر من الدولة، وتختلف أجورهم باختلاف الظروف والعهود، وسخاء الخلفاء والمرضى وكان من المألوف جدًا أن لا يدفع المريض الأجر للطبيب بطريقة مكشوفة، بل كان يلف ما يجود به بقرطاس أو بصرة «بخرقة» فلا يعرف الطبيب ولا غيره ممن يتواجدون مع المريض(٣٩٥)، كما هي

الأعطية ولا صنفها التي كانت من الفضة أو من الذهب إلا بعد أن يغادر المريض، كما كان كثيرًا من الأطباء العرب يتبارون في معالجة الفقراء بلا أجر، هذا بالإضافة إلى الخدمات الطبية التي كانت تقدمها البيمارستانات للمرضى مجانًا، علمًا بأن هناك من كان يساوم مريضه على أجور أتعابه، خصوصًا إن كان العلاج بالطرق الجراحية، وقد روي أن أحمد بن وصيف الصابي في القرن الرابع الهجري كان يتقاضى بهذه الطريقة ثمانين درهمًا «ما يقابل الدينارين» لإجراء عملية القدح للعين[٣٩٦]، والواقع أن رواتب الأطباء والمساعدين والممرضين وصانعي الأسرّة والخدم كانت تُدفع من الريع المخصص للبيمارستان، وكان القيّمون عليهم يسجلون كل شيء في سجلات خاصة تقيد فيها المصروفات جميعًا في ترتيب بديع. وأما بالنسبة لأجورهم داخل البيمارستانات فتختلف باختلاف العهود والمراتب العلمية للأطباء، وهي تتراوح بين خمس عشرة دينار ومائتين وخمسين دينار في الشهر، هذا عدا عن مخصصات السكن وعلف الدابة[٣٩٧]، وتسمى رواتب الأطباء عند المسلمين في البيمارستان الجامكية[٣٩٨].

وكان الحكام العرب أسخياء جدًا على الأطباء، فقيل أن جبرائيل بن بختيشوع (٢١٥هـ/ ٨٣٠م) كان يحصل من مكرمة هارون الرشيد ما يقارب الأربعة ملايين درهمًا في السنة، وقبلها في يوم عيد الفطر ومثلها في مدخل عيد صرم النصارى، ولقد خدم جبرائيل بن بختيشوع سيده الخليفة هارون الرشيد ما يزيد عن ثلاث عشر سنة، فيكون قد جمع أموالاً ضخمة وهي ما تزيد عن ثمانية وثمانين مليون من الدراهم[٣٩٩]، وكانت من مخصصات أبي يوحنا ما سويه من الفضل بين الربيع وزير هارون الرشيد ستمائة درهم في الشهر، بالإضافة إلى علوف[٤٠٠] دابتين له، وأعطيات خمسة غلمان له[٤٠١].هذا وإن كان الأمر مبالغًا فيه، ولكن يؤكد على وجه العموم مدى اهتمام الخلفاء والملوك والأمراء بالإحسان الكبير للأطباء، وإعطائهم الصلات والأموال[٤٠٢].

و هناك داخل البيمارستان ما يسمى أطباء الخواص[٤٠٣] «أي: المنقطعون أو أطباء السلطان» وكان مرتب اثنين لكل منهما في الشهر خمسون دينار، ولمن دونهما من الأطباء وهم ثلاثة أو أربعة، والمقيمين بالقصر لكل واحد منهم عشرة دنانير[٤٠٤]، ولكن أطباء البيمارستان لهم ما يقوم بكفايتهم، فكان للأطباء في

البيمارستان على العموم جامكية خمسة عشرة دينار، وكان لبعضهم رزقان[٤٠٥] أي ثلاثون دينار في كل شهر، لعمليتين مختلفتين مثل رضي الدين الرحبي، فقد أطلق له صلاح الدين يوسف بن أيوب كل شهر ثلاثين دينارا، ويكون ملازمًا للقلعة والبيمارستان وبعد وفاة صلاح الدين أطلق له المعظم عيسى[٤٠٦] بن الملك العادل خمسة عشرة دينارا، ويكون مترددًا إلى البيمارستان[٤٠٧]، وكان من أطباء الأمير سيف الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين[٤٠٨]، ومنهم يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم، وكان من جملتهم عيسى الرقي النفيس الطبيب، فكان يأخذ ثلاثة أرزاق رزقًا للنقل من السرياني إلى العربي، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين[٤٠٩].

وقد بلغ بعض الأطباء من حسن الحال ورغد العيش إلى درجة عظيمة فقد بلغ بختيشوع في زمان الخليفة المتوكل في الجلالة والرفق وعظمة المنزلة، وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراة الخليفة في اللباس والزي والطيب والفرش[٤١٠] والضيافات والتفسح في النفقات مبلغًا يفوق حد الوصف، سواء ذلك بعد عمله داخل البيمارستان أو خارجه[٤١١].

كما أناط الخلفاء بالأطباء وظائف عالية ومرموقة، فهذا الخليفة المعتصم العباسي اعتمد على طبيبه سلمويه، وهو نصراني أن يكتب رسائله ويختمها بختم الخلافة[٤١٢]، وكان يحترمه احترام الابن لأبيه يناديه يا أبي، ويقول عنه: «أن سلمويه[٤١٣] عندي أكبر من قاضي القضاة»[٤١٤]، وكذلك كان ثابت بن قرة مع الخليفة المعتضد العباسي[٤١٥]، وابن التلميذ الطبيب المشهور[٤١٦] عند الخليفة المقتفي (٥٣٠-٥٥٥هـ/ ١١٣٥-١١٦٠م)[٤١٧]، كما كان الطبيب يأخذ ترقية حسب الكفاءة التي يمتلكها، فهذا جمال الدين الباعوني عمل في البيمارستان النوري فظهرت كفاءته وأمانته وديانته فكان السبب في ترقيته[٤١٨].

إذا كان فريق من الأطباء ينتظرون الأجر من الدولة، أو من خلال المرضى الأغنياء، فهناك من الأطباء من كان يوقف نفسه في معالجة أفراد المجتمع، في تخفيف آلامهم، والترفع عن المادة، فنجد بعضهم كان يتطوع في معالجة الفقراء، يزورهم في منازلهم، ويدقق فحصهم، ثم يقدم لهم العلاج من عنده،مثل الطبيب محمد بن زكريا الرازي ت ٣١١هـ كان بارًّا بالناس، حسن الرأفة بالفقراء

والأعلاء، يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم[٤١٩].والطبيب يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي ت ٤٧٣هـ كان يطب لأهل محلته وسائر معارفيه بلا أجرة ولا جعالة، بل احتسابًا ومروءة، ويحمل إليهم الأدوية بغير عوض، وبعد وفاته أوقف كتبه في مشهد الإمام أبي حنيفة[٤٢٠].والطبيب أسعد بن المطران ت ٥٨٧هـ كان نصرانيًا وأسلم، كان غزير المروءة حسن الأخلاق، يعود المرضى من الفقراء، ويحمل إليهم الأشربة والأدوية من عنده، حتى أجرة الحمام[٤٢١].والطبيب كمال الدين الحمصي أبو منصور المظفر بن علي بن ناصر القرشي ت ٦١٢هـ كان يتردد إلى البيمارستان النوري الكبير، ويعالج المرضى احتسابًا[٤٢٢].

٣- **أجور وحقوق العاملين بالبيمارستان:** تعد أجور العاملين من أوجه الصرف على البيمارستان، حيث يتم توفير هذه الأجور وهذه الحقوق من خلال الدعم المادي الكبير الذي يرد من جهات مختلفة فتصرف للموظفين المختصين الممتازين القائمين على إدارة البيمارستان، والموظفين القائمين على خدمة المرضى والنظافة وإعداد الطعام، والخدم والفراشين والقومة، وعلى من يقوم بمصالح المرضى من الكحالين والجرائحيين وطباخي الشراب، والمزاود والطعوم وصانعي المعاجين والأكحال، وصانعي الأدوية والمسهلات المفردة والمركبة، وعلى الخازنين والأمناء والمباشرين، وعلى من يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة والأكحال والشيافات والمعاجين والمراهم والأدهان والأدوية[٤٢٣].

٤- **أدوية وعلاج ومستلزمات المرضى:** يُعد توفير الأدوية والعلاجات التي يحتاج إليها المرضى وجهًا من وجوه الصرف على البيمارستان، حيث يقوم المسئولون عن البيمارستان بتوفير الأدوية اللازمة للمرضى، والصرف على ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم، وزبادي وأقداح زجاج وأباريق فخار خاصة لكل مريض وتوفير مراوح خوص لاستعمالها في أوقات الحر الشديد، ومكيات خوص لتغطية غذاء كل مريض عند صرفها إليها.كما يصرف في هذا الوجه ثمن معاجين وثمن ما يحتاج إليه لأجل المريض من الفواكه والخمائر، وأصناف الأدوية والمعاجين والعقاقير والمراهم والأكحال والشيافات والذرورات والأدهان والسفوفات والترياقات والأقراص، والأكحال والأعشاب والمشيفات وغير ذلك[٤٢٤].

٥- **الأطعمة والأشربة**: تقديم الطعام بأنواعه للمرضى من أوجه الصرف على البيمارستان حيث يتم التنافس في تقديم أجود الطعام والشراب للمرضى كما يكتبه الطبيب المعالج لكل مريض مما يوافق صحته ويخفف مرضه، ويتم الاعتناء بطعام المرضى من حيث جودة نوعه وحسن طبخه ونظافته، ويتم تقديم الفواكه والحلوى والمشهيات والشراب وغير ذلك، وهذا الطعام يطبخ في مطبخ البيمارستان ويشرف عليه المشرفون الذين يتقنون صناعة الطبخ ونظافته(٤٢٥).

١- نموذج أول لوقفية كيكاوس بن كيخسرو السلجوقي على بيمارستانه بسيواس

عندما نجد وثيقة أو حجة وقفية تخص بيمارستانًا معينًا للإنفاق عليه وعلى من فيه فإنها مرآة تعكس العلاقات الاجتماعية والسياسية في المجتمع في مرحلة انتشار الوقف، ولعل تحليل ودراسة أي وثيقة وقفية يرسم صورة واضحة المعالم لدور القطاع الأهلي في الحياة الاجتماعية ونشر مبدأ التكافل الاجتماعي. فقد احتفظ لنا كتاب «الأخية الفتيان» تأليف م. جودت، طبعة استنبول سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م بوقفية محفوظة بدار الأوقاف باستنبول، أوقفها كيكاوس بن كيخسرو السجلوقي بن قليج أرسلان سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وقد نقل خلاصتها أحمد عيسى بك في كتابه «تاريخ البيمارستانات في الإسلام»(٤٢٦) نقلاً من كتاب «الأخية الفتيان التركية» بأغلاطها اللغوية على النحو التالي:

«وقف الواقف المذكور المبرور سقاه الله تعالى شآبيب الرحمة والرضوان، وكساه جلابيب العفو والغفران الضياع الخمس والحوانيت المائة والثمانية، والأشقاص(٤٢٧) السبعة، والمبقلة(٤٢٨)، والرحى(٤٢٩)، والهرى(٤٣٠)، والإسطبل، المذكورة المحدودة الموصوفة في هذا الذكر بجميع حدودها وحقوقها ومرافقها وتخومها ومصالحها ورسومها كلها أرضها وبنائها ونقضها وسمائها وعلوها وسفلها وبيوتاتها ومنازلها ومعالفها وأصايلها وأواخيرها، ومنابرها ومراعيها ومساكنها وأشجارها وكرومها وأفراخها وبساتينها ومستأجرها ومروجها ومقاصتها ومحاسنها ومحاطبها ومبقالها وأنهارها وسواقيها وآبارها ورياضها وغياضها وعذرانها وصياصها وعيونها ووهادها وتلالها وقيعانها وجبالها وحق شربها المعلوم، وملقى ذيلها المرسوم وعامرها وغامرها، وكل حق هو لها داخل فيها وخارج عنها ومتصل بها ومنفصل عنها، ومعروف بها ومعلوم لها، ومغري إليها ومعدود منها،

بأسرها وحذافيرها على «دار الشفاء» ومأوى المرضى والأعلاء، التي رسم بإنشائها وأمر ببنائها الكائن موضعها ظاهر كورة سيواس(٤٣١) حماها الله تعالى، وحرسها على فوّهة حادة بوقات حيث عن الآفات المشكلة عليها حدود أربعة: أولاً... (صرفنا النظر عن ذكره اجتنابًا للتطويل)، وثانيًا: ....، وثالثًا: ....، ورابعًا: ....، وقفًا مؤبدًا صحيحًا شرعيًا وتصدقًا سرمدًا صريحًا سميعًا ونجيًا، مخلدًا جائزًا قطعيًا بتًا بتلاً جامعًا لشرائط الصحة، لا تباع هذه الأوقاف المذكورة، ولا توهب ولا ترهن ولا تورث ولا تملك ولا تتلف، ولا تهلك ولا تخلف لوجه من الوجوه وسبب من الأسباب بل يجري على أصلها المؤيد وتقام على شرائطها المؤكد [كذا] لا ينقصها مرور الأيام ولا ينقضها كرور الشهور والأعوام ... وجعل الأمير الأجل الكبير المبجل الأمير العاقل العالم العادل الكافي الكامل المظفر المؤيد المنصور المشيد جمال الدين، جلال الإسلام والمسلمين عمدة الملوك والسلاطين في الممالك، أستاذ الدار فرَّخ بن عبد الله الخازن الخاص دام توفيقه متوليًا الأوقاف المذكورة في الوثيقة ... وناظرًا فيها، يتولى بنفسه ويستتيب من ينوبه [كذا] ويوكل إلى من يشاء ويفوض إلى من آثر واختار، ويوكل فيها من أراد ويعزل عن الوكالة أنى أحب ومتى شاء، لا اعتراض لأحد من الناس كائنًا من كان فيها عليه، فهو المعول عليه في تقدير واردات الأطباء الحاذقين والمرتفقين الفائقين المجربين المهذبين غير المتخذلقين، والكحالين الفاضلين، والجراحين المصلحين الشفيقين الرفيقين القاضين بها، وترتيب غير التعبير لتحصيل الأدوية والعقاقير وتمشية أحوال المستخدمين من الملازمين على تباين درجاتهم وتفاوت طبقاتهم، فما أفاد الله تعالى من فوائد ريع مستغليها يصرف في عمارة الأوقاف المذكورة وبناء ما انهدم وإصلاح مرماتها واستزادة غلاتها، فما فضل عنها يصرف إلى نفسه منها كل سنة من القراطيس البيض بالفضة السلطانية الرائجة ببلاد الروم في معاملات أهلها، أربعة آلاف درهم قرطاس فضي من النقد المذكور، النصف منها كلها تأكيدًا لها، ألفا قرطاس فضة من الغلة النقية، ألف مد(بن مراتي) النصف من ذلك خمسمائة مد حسب المحرر، ويختزن الفاضل في خزانة دار الشفاء المذكورة إذا اتفق شراء أعلى من العقارات ونفائس المستغلات حصلها بالمبايعة وأضافها إلى الأوقاف المذكورة ردما لازيادها .وشرط الواقف المذكورعلي المتولي المذكور والناظر في

أوقافه المذكورة وكل متولي بعده أن لا يؤجر شيئًا منها عند مسيس الحاجة في الإجارة أكثر من ثلاث سنين متواليات، ثم لا يعقد عليه عقد إجارة أخرى حتى تنقضي هذه الإجارة المعقود عليها الأولى، ولا يؤجر من ظالم أو طامع ولا متغلب ولا متعد ولا من يخشى غائلته، فإن انطمست دار الشفاء المذكورة عياذًا بالله واستحال استجراؤها،وتعذر السكون إليها وعدم الانتفاع بها صارت الفوائد الحاصلة من الأوقاف المذكورة إلى فقراء المسلمين ومحاويج الموحدين ومساكين المسلمين ... إلخ». انتهي نص الوقفية .

بالنظر في هذا الجزء الموجود من الوقفية نلاحظ أنها اشتملت على العديد من العناصر الأساسية التي يجب أن تتوفر في الوثيقة الوقفية حيث بدأت بلفظ «وقف الواقف» فجاء اللفظ صريحًا بصيغة تحدد الممتلكات الموقوفة، ثم نوهت إلى اسم الواقف والدعاء له، ثم تناولت الوقفية الحديث عن ذكر الممتلكات الموقوفة سواء الحوانيت أو الأشقاص وغيرها بما فيها وجميع حدودها وحقولها ومرافقها وتخومها ومصالحها، ثم تمّ التصريح باسم الموقوف عليه وهو دار الشفاء أو المدرسة الشفائية بسيواس التي بناها كيكاوس بن كيخسرو السجلوقي، ثم تحدثت عن مكان هذه الدار أو المدرسة، وتناولت أيضًا مجموعة من الشروط اشترطها الواقف بأن هذا الشيء الموقوف لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولا يملك ولا يتلف ولا يهلك ولا يخلف لوجه من الوجوه وسبب من الأسباب، ثم حددت الوثيقة الوقفية من يكون أستاذ هذه البيمارستان وخازنها وناظرها فصرحت باسمه وهو فرُّخ بن عبد الله، ثم حددت الوثيقة بعد ذلك أن الناظر له كافة الصلاحيات في الإدارة وغيرها، وذكرت الوثيقة بأن الريع الخاص من هذا الوقف يصرف على عمارة الأوقاف وبناء ما انهدم وإصلاح ما يحتاج الإصلاح واستزادة الغلات ثم ذكرت شيئًا من الأنصبة وغيرها.

كما ذكرت لنا الوثيقة أن الواقف اشترط على المتولي المذكور والناظر ألا يؤجر منها شيئًا عند مسيس الحاجة في الإجارة أكثر من ثلاث سنين متواليات، ثم لا يعقد عليه عقد إجارة أخرى حتى تنقضي هذه الإجارة المعقودة عليها الأولى، ولا يؤجر من ظالم أو طامع ولا متغلب ولا متعد ولا من يخشى غائلته. ونلاحظ أن من نقل لنا هذه الخلاصة لم يكملها إلى النهاية حتى نحصل على الخاتمة للوثيقة، بل

اكتفى بهذا القدر درءا للإطالة، ورغم ذلك فقد احتوت في طياتها اسم الواقف والأشياء الموقوفة، والشيء الموقوف عليه، وخازن وناظر البيمارستان ومصادر الوقف، والعديد من الشروط على ناظر الوقف موجهة من الواقف.

٢- نموذج ثان لوقفية ونقش أبي الحسن بن أبـي الفـوارس القيمـري علـى بيمارستانه بدمشق

احتفظ بها محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»[٤٣٢] ونصها:

«هذا وقف أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري[٤٣٣] على بيمارستانه في الصالحية[٤٣٤] على معالجة المرضى والمعاجين والأشربة وأجرة الطبيب، يصرف إلى الطبيب في كل شهر: لواحد سبعون درهمًا ونصف غرارة[٤٣٥] من قمح، والأدنى ستون درهمًا ونصف غرارة قمح، وللمشارف في كل شهر أربعون درهمًا، ونصف غرارة قمح، وللحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وربع غرارة قمح، إلى ثلاثة رجال يقدم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح، ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح، وإلى الشراب وبائعه لعمل الأشربة والمعاجين في كل شهر ستة وعشرون درهمًا وثلث غرارة قمح، ولأمين المشارفين والمتولين في الوقف كل واحد في كل شهر ستون درهمًا وغرارة قمح وغرارة شعير، وللإمام في كل شهر أربعون درهمًا وثلث غرارة قمح، وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح، ويكون بوابًا، وللحوائج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة، وللناظر العشر عن المغل وريع الوقف، ويصرف إلى رجلين اثنين بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرش ولحف ومخدة وفي كل شهر إلى قيمه، والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهمًا، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار، وبعد ذلك عاد وقفًا على الفقراء».

يقول محمد كرد علي: وتاريخ الوقفية سنة ٦٥٢هـ، ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي وقفها على بيمارستانه.

وقد نقل لنا أحمد عيسى بك في كتابه «تاريخ البيمارستانات في الإسلام» نقش مكون من خمسة سطور بأسماء القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي وقفها الأمير سيف الدين القيمري وهذا النقش منحوت على وجه البيمارستان

القيمري في الصالحية بدمشق في عدة سطور:

السطر الأول: «هذا ما أوقفه وحبسه وأبده الأمير سيف الدين القيمري رحمه الله تعالى على هذا البيمارستان: فمن المرج نصف قرية (الجدلية)، وكذلك قرية (المسعودية) بكاملها، وأيضًا قرية (المعضادية)، وأيضًا من قرية (بالا) تسعة قراريط، ونصف الحصص من الأصقاع الحولانية، ودير أيوب عليه السلام بكاملها».

السطر الثاني: «ودير الهرير وطواحينها بكمالها، ودير السوج بطواحينها ... والربع منها، ومن قرية (عنزا) الربع، ومن قرية (فادا) النصف والثمن،(ومن تل)سرية ثلاث قراريط ونصف، من المسقف من حصة ابن مخشي بقيسارية قيراطين وحانوت بالفسقار مضمون برسم الشوى، وفي صفة نوح سبعة عشر حانوت ... والحصة من الدار ربع قيراط».

وتحت هذين السطرين مكتوب ثلاثة أسطر منحوتة على وجه البيمارستان مكتوب فيها:

السطر الأول: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر ببناء هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير الراجي رحمة ربه الكريم الأمير الأجل الكبير والغازي المجاهد المؤيد المظفر المنصور سيف الدين ملك الأمراء نصرة الغزاة والمجاهدين عند الملوك والسلاطين نصير أمير المؤمنين أبو الحسن الإمام عز الدين يوسف بن المظفر ضياء الدين أبي الفوارس القيمري».

السطر الثاني: «طلب ثواب الله تعالى وابتغاء مرضاته يوم يجزي الله المصدقين ولا يضيع الله أجر المحسنين في أيام مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدين ابن مولانا السلطان الملك العزيز خلد الله ملكه وسلطانه من نعمة مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد قدس الله روحهما وجعل النظر .....»

السطر الثالث: «جميع الأماكن الموقوفة علي هذا المكان المبارك إلى الأمير الكبير ناصر الدين ملك الأمراء والمقدمين مشد دار الملوك والسلاطين ظهير أمير المؤمنين لينظر فيه ناظرًا وحاكمًا بموجب الشرع العزيز ومقتضاه على ما هو مذكور في كتاب الوقف عفا الله عن منشئه وأناب الناظر فيه، وبعد ذلك جعل له

النظر على المدرسة وأناب" **فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**". انتهي نص النقش المذكور.

لقد رأينا كلمات هذا النقش المتضمن لوقفية منحوتة على واجهة البيمارستان ونقلها إلينا أحمد عيسى بك، ومن قبلهاصورة الوقفية التي نقلها لنا محمد كرد علي، فبالنظر والفحص في وقفية محمد كرد علي نجد أن العديد من العناصر التي يجب أن تتوفر في الوثيقة الوقفية موجودة وقد بدأت باسم صاحب الوقفية أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري، ثم حدد الأمر الموقوف عليه وهو البيمارستان القيمري، ثم حدد مكان هذا البيمارستان فقال: أنه في منطقة الصالحية، ثم بعد ذلك بدأ يعدد لنا مصارف هذا الوقف على أن يوجّه إلى معالجة المرضى وما يلزمهم من معاجين وأدوية، ثم إلى باقي المنتفعين من هذا الوقف مثل الأطباء والمشرفين وللكحال والمحتاجين وممرضات النساء والمجانين، وإلى بائع الشراب ولأمين المشارفين والمتولين في الوقف، وللإمام وللناظر إلى الخدمة ومؤذن المسجد المجاور للبيمارستان وإلى فك الأسرى من أيدي الكفار، والفقراء.

ثم ذكر لنا تاريخ الوقفية أنها كانت في سنة ٦٥٢هـ مما يجعلنا نؤمن بتوثيق هذه الوقفية، لأن من أهم عناصر الوثيقة الوقفية أن تكون موثقة وتوثيقها يكون في ذكر اسم الواقف وتاريخ الوقفية.

وبالنظر في سطور النقش المنحوت على واجهة البيمارستان نجده يصرح بوقف هذا البيمارستان ابتغاء وجه الله وتم ذكر اسم الواقف لهذا البيمارستان سيف الدين القيمري ونص السطر الأول على بعض الممتلكات الموقوفة على هذا البيمارستان وعدّد أسماء القرى الموقوفة وعدد القراريط وأسماء أماكن أخرى، ثم في السطر الثاني ما زال يعدد لنا أسماء الأديرة الموقوفة على البيمارستان وبعض الحوانيت أيضًا.

وفي السطور الأخرى تم تسجيل ونحت الهدف من هذا الوقف وهو طلب الثواب من الله وأنه ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، ثم في ختام هذه السطور حدد الواقف من ينظر في هذا الوقف ويحكم فيه، فجعله إلى الأمير ناصر الدين لينظر فيه ناظرًا وحاكمًا بموجب الشرع العزيز ومقتضاه، ثم ختم كلامه بآية من كتاب الله عز وجل: **فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**

[البقرة: ١٨١].لقد لاحظنا توثيق هذا الكلام سواء في الوقفية أو في النقش الموجود على واجهة البيمارستان حيث تم إثبات اسم الواقف وتاريخ الوقفية، ولاحظنا صيغة الوقف، فهي الصيغة التي تحدد الممتلكات الموقوفة وتعينها فجاء اللفظ صريحًا: «هذا وقف أبي الحسن بن أبي الفوارس» وعلى واجهة البيمارستان جاء نصه: «هذا ما أوقفه وحبسه وأبده الأمير سيف الدين القيمري». ثم لاحظنا ذكر الممتلكات الموقوفة في صيغة الوقف كالقرى والأديرة والقراريط والحوانيت.كما نلاحظ التفصيلات التي احتوت عليها الوقفية عند توزيع الوقف على مصارفه وتحديد المنتفعين منه والأنصبة التي نصبت عليها لهؤلاء المنتفعين.كما نلاحظ وضوح عرض هذه الوقفية الذي قُصد به مرضاة الله عز وجل.

وفي الخاتمة نلاحظ أن الواقف أوضح وصرح بما يدل على أنه لا يحل لأحد أن يغيّر في هذا الوقف أو يبدل أو يسعى في إبطال شيء من منافعه، **فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** [البقرة: الآية ١٨١].

الخاتمة

من خلال عرض موضوع التنظيمات الإدارية والمالية للبيمارستانات في العصر العباسي الثاني يتبين لنا أنها شهدت تقدمًا عظيمًا على يد الخلفاء العباسيين والأطباء المسلمين وغيرهم تقدمًا لم تشهده البيمارستانات من قبل، حيث استطاع الأطباء بوعي وإدراك واستيعاب كل تجارب الحضارات القديمة في هذا الميدان، واستطاعوا تكوين حصيلة علمية كبيرة أفادتهم في دراسة فروع الطب، وتمكنوا بالفحص والدرس من اكتشاف الأخطاء التي وقع فيها الأطباء المتقدمون.كما نلاحظ مدى اهتمام الخلفاء العباسيين والمسئولين عن إدارة البيمارستان بالإشراف على البيمارستان والعناية بمنشئاتها وترميمها وتعدد أوجه الإشراف عليها سواء من جهة الخلفاء أو ناظر البيمارستان أو رئيس الأطباء.ونلاحظ مدى الاهتمام الحادث خلال العصر العباسي الثاني من جهة المراقبة على شئون البيمارستان الطبية والإدارية والمالية من خلال المحتسب، ومدى الاهتمام بمصادر الإيرادات المالية للبيمارستانات عن طريق الوقف عليها كوقف الأملاك والأعيان والأراضي والدور والأسواق والحمامات والمزارع وغيرها، وبيان أوجه صرف هذه الإيرادات على الأجهزة الطبية والعاملين وعلاج المرضى والأطعمة والأشربة.

نستطيع استخلاص عدد من النتائج التي تمخض عنها هذا البحث منها:

١. كان لتشجيع الخلفاء العباسيين الأثر الكبير في بناء البيمارستانات وتبنوا الإنفاق عليها.

٢. الدور العلاجي الكبير للبيمارستانات ومدى اهتمامهم بالفقراء قبل الأغنياء.

٣. قيام البيمارستانات العباسية بدور مهم في تقديم العلاج والغذاء والكساء للمرضى والراحة التامة.

٤. مدى العناية بالبيمارستانات حتى أصبحت متكاملة تحتوى على أقسام متعددة لعلاج المرضى كل حسب مرضه أو ظروفه الصحية.

٥. وجود التسلسل الإداري داخل البيمارستانات وتوزيع الأعمال بطريقة منظمة ومرتبة بين العاملين بالبيمارستانات.

٦. نلاحظ مدى الاهتمام بالمراقبة والتفتيش على كل شيء داخل البيمارستان من خلال الخليفة أو ناظر البيمارستان أو المحتسب.

٧. بيان مدى العلاقة الحميمة بين الأطباء والمرضى والعمل على توفير جميع وسائل العلاج والراحة.

٨. وجود أطباء يوقفون عملهم دون مقابل أو أي أجر حسبة لله عز وجل في معالجة المرضى.

٩. التأكد من وجود نظام إداري و مالي كلاهما أدي إلي تقدم وازدهار البيمارستانات الإسلامية في العصر العباسي الثاني.

١٠. البذل والعطاء من الكثيرين في وقف الممتلكات علي البيمارستانات ومن فيها .

هوامش البحث

(1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري ت٧١١هـ: لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٩٢م ٢١٧/٦، وبطرس البستاني، قاموس قطر المحيد، طبعة بيروت، ١٨٦٩م، ١٦٢/١، وإبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، طبعة مطبعة دار النسر، دار الدعوة – القاهرة (د. ت)، ١٦٦/١، وابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن قاسم بن خليفة ت ٦٨٨هـ: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، طبعة مكتبة الحياة – بيروت، (د. ت)، ص٤٧، والزبيدي، محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ: تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة المطبعة الخيرية – مصر، ١٨٨٨م، ٤١٣٤/١، وأحمد عيسى بك؛ تاريخ البيمارستانات في الإسلام، طبعة مطبعة جمعية التمدن الإسلامي، دمشق، ١٩٣٩م، ص٤.

(2) H. Schipperges, Arabische Medizin imlatainischen Mittelalter in Sitzwngsberichte der Heidelberger Akademie der Wissnschaflen Mathematisch - nateerwrsenschafllichi klasse, Jahrgang 1976, 2-Abhandlung, P. 62.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد، طبعة القاهرة، ١٩٣٥م، ٢٣٥/٣.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء،طبعة دار الثقافة ، بيروت، ط ٤ لعام١٩٨٧م، ٤١/١، ٤٥.

(5) H. Schipperges, Op. C. P. 69.

(6) ذكر اليعقوبي، أحمد بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٨٢هـ: «وكان الوليد بن عبد الملك أول من عمل البيمارستان للمرضى، ودار للضيافة، وأول من أجرى على العميان والمساكين والمجذومين الأرزاق». تاريخ اليعقوبي، طبعة دار صادر – بيروت، ١٩٦٠م، وطبعة النجف – إيران، ١٣٥٨هـ، ٢٩٠/٢.

(7) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ، الخطط المقريزية، طبعة القاهرة، ١٣٢٦هـ، ٢٥٨/٤.

(8) أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، منشورات دار الثقافة – دمشق، ١٩٧٠م، ص٣٢٢.

(9) Lich Tnthreler, Chales: Histoire de la Medecine Faggard, Paris, 1978, P. 212.

(10) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ: أخبار الحكماء، تحقيق فون

بوليوس ليبرت، طبعة ليبزج، ألمانيا ١٩٠٣م، ص١٦٤، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٨٣.

(11) حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، طبعة بيروت، ١٩٨٨م، ص٢١٦.

(12) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي ٨٧٤هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة المصرية - القاهرة، (د. ت)، ٥٥/٦.

(13) ابن الأثير، أبو الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ت٦٣٠هـ: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طلبمات، طبعة القاهرة، ١٩٦٣م، ص١٧١، والصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٢٠٠٠م، ٨٦/٥.

(14) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٤٥، ويوسف محمود، الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، طبعة الشركة المتحدة للتوزيع، دار البشير، لبنان - بيروت، (د. ت)، ص١٠٦.

(15) المعتصم بالله هو أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن الرشيد، ولد في سنة ١٨٧هـ، وكان ذا شجاعة وقوة وهمة، ونشأ نشأة عسكرية، توفي سنة ٢٢٧هـ. انظر: السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ص٣٠٩، ٣١١.

(16) الصابئ، هلال بن محسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ الحراني ت ٤٤٨هـ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، طبعة مصر (د. ت) ٧/١، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦، وعز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة (د. ت)، ص١٣٥.

(17) الصابئ، تحفة الوزراء ٧/١.

(18) ياقوت الحموي ت٦٢٦هـ، معجم البلدان، طبعة دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٦م، ٣١٢/١.

(19)هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد، ولد عام ٢٨٢هـ، وكان صاحب عقل جيد، وفهم وافر، وكان كثير الصدقة والإحسان، توفي عام ٣٢٠هـ. انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠.

(20) القفطي، أخبار الحكماء، ص٨٦، ١٠٢، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢.

(21) سنان بن ثابت بن قرّة الحراني، عالم وطبيب، ظهر خلال العصر العباسي، وخدم عند الخليفة المقتدر بالله في مجال الطب، وكان رئيسًا للأطباء، وخدم أيضًا عند الخليفة القاهر به

والراضي، وتوفي في بغداد عام ٣٣١هـ، انظر: ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق بن يعقوب ت ٣٨٥هـ، الفهرست، ضبط وشرح وتعليق/ يوسف علي طويل، طبعة دار المعرفة العلمية - بيروت، ١٩٧٨م، ص٤٧٣، والقفطي، تاريخ الحكماء، ص٤٧، ٥٠، وابن أبي أصيبعة، دار المعرفة العلمية، عيون الأنباء، ص٢٠٠، ٣٠٢.

(22) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٣٠، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢.

(23) ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ت ٣٧٧هـ، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، طبعة القاهرة، ١٩٥٥م، ص١٨٦.

(24) ابن الأثير، أبو الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ت٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الندا عبد الله القاضي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٨، ٥٠٢/٦، ٣٦/٧، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢.

(25) باب الشام، محله بالجانب الغربي من بغداد، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣٠٨/١.

(26) القفطي،أخبار الحكماء، ص٨٦، والنويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، ٢٨/٢٣.

(27) كان سوق يحيى بالجانب الغربي من بغداد، وينسب إلى خالد بن يحيى البرمكي، وهذا السوق أقطعه له الخليفة هارون الرشيد، ثم صار هذا السوق بعد ذلك لأم جعفر، ثم أقطعها المأمون الطاهربن الحسين أحد قواده. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ١٩٤/٣.

(28) السيدة شغب، كانت من جواري الخليفة المعتضد بالله أعتقها وتزوجها وأنجبت المقتدر بالله، وقد آلت الخلافة إلى ابنها المقتدر وعمره ثلاث عشرة عام، واستولت على أمور الخلافة، وتُعرف بأنها امرأة صالحة ودينة ومتصدقة للأموال، وتزود الحجاج بالطعام والدواء وتسهل لهم الطرقات. انظر: ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، طبعة مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م، ١٧٦/١١، والزركلي خير الدين الزركلي، الأعلام، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨٠م، ١٦٨/٣.

(29) ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد ت ٥٩٥هـ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمود مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ١٤٦/٦، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢.

(30) البرامكة: أسرة فارسية عريقة، وهناك من يرى أن أصولها يرجع إلى قبيلة الأزد العربية، وهؤلاء يرجعون إلى جدهم برمك، الذي عاش في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥هـ/٨٦م) وقد اعتنقت هذه الأسرة الإسلام زمن الدولة الأموية وأصبح لها شأن

كبير في الخلافة العباسية. البلخي، المطهر بن طاهر المقدسي ت ٣٥٥هـ، البدء والتاريخ، طبعة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت)، ١٠٤/٦، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢٩٨/١، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٩/١٠.

(31) هو ابن دهن الهندي ،نقل إلي العلربية من اللسان الهندي،وكان إليه بيمارستان البرامكة وله العديد من كتب الطب.ابن النديم، الفهرست، ص٣٤٢،٤٢١ ،ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٧٥، الخطيب، الطب عند العرب، ص٢٠٤.

(32)ابن النديم، الفهرست، ص٤١١، كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب، طبعة دائرة الشئون الثقافية والنشر - العراق، ١٩٨٤م، ٣٣٣/١.

(33) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد عثمان ت ٧٤٨هـ، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقوس، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٩٢م، ١٥٦/٢٢، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٦٠.

(34) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد ت ٩٠٢هـ، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريف، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٣م، ٣٧/١.

(35) أبو المعالي محمد بن رافع السلامي ت ٧٧٤هـ، الوفيات، تحقيق صالح مهدي عباس، وبشار عواد، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ، ٥٣٣/٢.

(36) كمال السمرائي، مختصر تاريخ الطب، ٦١٣/١.

(37) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٦١.

(38) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٥٦/٢٣.

(39) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، طبعة دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٨٧م، ٦٧/٤، والحميري محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق إحسان عباس، طبعة مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، ١٩٧/١.

(40) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي ت ٧٠٣هـ، رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر الكتاني، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م، ٨٣/١، والمقري التلمساني أحمد بن محمد ت ١٠٤١هـ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر - بيروت، ١٩٦٨م، ٣٨٣/٧،والذهبي،سير أعلام النبلاء ٣١٥/٢١.

(41) زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، وكمال دسوقي، تحقيق مارون الخوري، طبعة دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٢٣٠-٢٣١.محمود الحاج

قاسم ،الطب عند العرب والمسلمين ،ص٣٢٦ -٣٢٨ .وعبد الحميد العلوجي،الطب العراقي،ص٢٨٧ .

(42) فرج محمد الهوني، تاريخ الطب في الحضارة الإسلامية، طبعة الدار الجماهيرية - ليبيا، ١٩٨٦م، ص١٩٨-١٩٩.

(43) قدري حافظ طوقان، العلوم عند العرب، طبعة القاهرة، ١٩٦١م، ص٢٦.

(44) الجرائحية: هم من يقومون بالعمليات الجراحية، انظر: الرازي أبو بكر محمد بن زكريا ت ٣١٣هـ، الحاوي في الطب، تحقيق هيثم طعيمي، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٢٠٠٢م، ٣٩٧/١، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(45) الكحالة: هم من يقومون بعلاج أمراض العيون، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(46) الطبائعيون: المختصون بالأمراض الباطنية والداخلية، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(47) المجبرون: المختصون بالكسور وتجبيرها. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(48) النفسانيون: المختصون بالأمراض النفسية والعقلية. الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي ت ٤٦٣هـ، تاريخ بغداد، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، ١٨٥/٣.

(49) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١هـ، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين بن أبي سعد العمري، طبعة دار الفكر والتراث العربي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٩٥م، ١٣٣/٦٧، وابن جبير محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ت ٦١٤هـ، رحلة ابن جبير، تحقيق محمد مصطفى زيادة، طبعة دار الكتب، بيروت، (د. ت)، ص٥٣.

(50) العليمي، مجير الدين الحنبلي ت ٨٦٠هـ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان أبو نباتة ومحمود الكعانبة، طبعة مكتبة دندس، عمان، ١٩٩٩م، ٥٣/٢.

(51) الرازي أبو بكر محمد بن زكريا ت ٣١٣هـ، الفصول أو المرشد، تحقيق ألبير اسكندر، طبعة جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٧٣-٧٤، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦٥.

(52) النويري، نهاية الأرب، ١٥٢/٣٣.

(53) القفطي، أخبارالحكماء، ص١٦٢، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٢٣.

(54) البنج: عشب يستعمل للراحة والاسترخاء والتخدير. ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي ت ٦٤٦هـ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، طبعة المطبعة المنيرية - القاهرة، (د. ت) ١١٧/١.

(55) الزوان: عشبة تنمو مع الحنطة، وتسمى أيضًا الدمثة والشليم، وهي نبات مسكر، ومسكن للآلام. انظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٢/١٧٤.

(56) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، طبعة الحلبي – القاهرة، (د. ت)، ص٥١٨.

(57) سعيد الديوجي، الموجز في الطب الإسلامي، طبعة الكويت، ١٩٨٩م، ص٦٤.

(58) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٢٨، المزيني، إبراهيم محمد، الحياة العلمية في العهد الزنكي، طبعة المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٣م، ص٤١٤. ابن جبير، الرحلة ،ص٥٣، ١٩٨، القفطي، أخبارالحكماء، ص١٤٨. هونكة، شمس العرب، ص٢٢٩.

(59) الجاحظ عمرو بن بحر، ت ٢٥٥هـ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٤٨م، ١/٢٨٥.

(60) ابن الفوطي، أبو الفضل عبدالرازق بن أحمد الشيباني ت ٧٢٣هـ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تعليق مصطفى جواد، طبعة المكتبة العربية، بغداد، ١٩٣٢م، ١/١.

(61) البغدادي، تاريخ بغداد ٣/١٨٥.

(62) الصفدي، الوافي بالوفيات، ص٢٨٢، والسامرائي، مختصر تاريخ الطب، ٢/٣٨٢، توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، طبعة دار الوفاء، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٤٣٣، وخلقي خفر، تاريخ الحضارة الإسلامية، طبعة مطبعة الاعتصام، الخليل ١٩٩٢م، ص٢٤٣.

(63) هونكة، شمس العرب، ص٥٣٠، طوقان، العلوم عند العرب، ص٣٤.

(64) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي، ت ٤٥٠هـ، الأحكام السلطانية، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٢٧، ابن الإخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩هـ، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق زوين ليوي، طبعة كمردج، ١٩٣٧م، ص٧، الصفدي، الوافي بالوفيات ٧/٦٩، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص٥٢.

(65) المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٤٥هـ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ١/٢٤٧.

(66) المراكشي، المعجب ١/٢٧٠، الواعي، الحضارة الإسلامية، ص٢٤٧.

(67) القصاصون: هم رواة الأخبار والأحاديث والحكايات. الرازي، مختار الصحاح(ق.ص.ص).

(68) فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة، ص١٣٢، سيد رضوان، العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية، طبعة دار المريخ، الرياض، السعودية،، ١٩٨٧م، ص٧٠.

(69) الذهبي، تاريخ الإسلام ٥١/٢٦٠.

(70) الحميري، محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، طبعة مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ١/٥٤١.

(71) الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، طبعة دار الجيل، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٤.

(72) سعيد الديوه جي، الموجز في الطب الإسلامي، ص٦٨.

(73) المزيّن: أي قصاص الشعر، والحجام كان مزين. ابن منظور، لسان العرب (ز. ي. ن).

(74) أبو المعالي، الوفيات ١/١٤، ٢٣٤، وول ديورانت، قصة الحضارة ١٤/٥١.

(75) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق بشار عواد معروف، وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م، ٢/٦٩٧.

(76) أبو المحاسن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١/٤٢١.

(77) سعيد الديوجي، الموجز في الطب الإسلامي، ص٦٧.

(78) أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٦٥هـ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزبق، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ١/١١، والنعيمي عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي ت ٩٧٨هـ، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٠م، ١/١٣٧-١٣٨، وماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، طبعة بيروت، ١٩٧٧م، ص١٤٥.

(79) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٠/١٢.

(80) ابن الجوزي، المنتظم ٨/٢٤٨.

(81) فرج محمد الهوني، تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٠٢-٢٠٣.

(82) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٥٤/٦٩، السامرائي، مختصر تاريخ الطب ٢/٤٣١.

(83) عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، طبعة دار الضياء، الأردن - عمان، ١٩٨٧م، ص١٦١-١٦٢.

(84) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستان، ص٦٨، وصلاح الدين محمد، الطب والصيدلة عبر العصور، طبعة الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩١م، ص١٢٤.

(85) القلقشندي، صبح الأعشى ٣٦٣/١١، يوسف محمود، الإنجازات العلمية، ص١١٠، ١١١.

(86) الأسيوطي، شمس الدين محمد بن أحمد المنهاجي ت ٨٨٠هـ، جواهر العقود، طبعة بيروت، ١٩٩٦م، ٢٧٩/١.

(87) عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، ص١٦١.

(88) عاقر قبره: من يحفر القبر، ويخرج الرمل منه. ابن منظور، لسان العرب(ع.ق.ر).

(89) القلقشندي، صبح الأعشى ٣٦٣/١١، الأسيوطي، جواهر العقود، ص٢٨١، محمود عبد الفتاح شرف الدين، الأوراق الندية في تاريخ مصر الإسلامية، طبعة مكتبة الآداب، القاهرة، (د. ت)، ص١٨١، مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، طبعة دار السلام، القاهرة، (د. ت)، ص١٥٤.

(90) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص٧٠.

(91) الصفدي، الوافي بالوفيات ١٥٧/٢١.

(92) ابن النجار البغدادي ت٦٤٣هـ. ذيل تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت) ٤٩/٤، الصفدي، الوافي بالوفيات ٨٥/٢٢.

(93) ابن سينا، القانون ٢٩٥/٦، القفطي، تاريخ الحكماء، ص١٠٠، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٠٧، ابن حجر، لسان الميزان ١٠٤/٤، المقدسي، برهان الدين إبراهيم المقدسي ت ٨٨٤هـ، المقصد الأرشد، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، طبعة مكتبة الرشد – الرياض، ١٩٩٠م، ٧٢/٢، الزركلي، الأعلام ١٩٥/٤، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستان، ص٢٠٠.

(94) الصفدي، الوافي بالوفيات ١٣٢/٥.

(95) المصدر نفسه ١٠٤/٤.

(96) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٢٤، ٣٠٢.

(97) القلقشندي، أبو العباس أحمد ت ٨٢١هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف الطويل، طبعة دار الفكر – دمشق، ١٩٨٧م، ٢٢٧/٤، ٤٧/١١.

(98) عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، ص١٧١.

(99) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، طبعة دار الثقافة، بيروت (د. ت) ٣٤٤/٢، وفرج محمد

الهوني، تاريخ الطب، ص٢٠٤-٢٠٥.

(100) D. Campbell: Arabian Medicine. Vol I, P. 66.

(101) L. Sedillot: Histoire Generale des Arabes, Vol II, P. 76.

(102) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٨٨.

(103) شرف الدين محمود عبد الفتاح، الأوراق الندية في تاريخ مصر الإسلامية، ص١٩٦.

(104) لبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٨٨.

(105) ابن الجوزي، المنتظم ١٣٩/٦، السامرائي، مختصر تاريخ الطب ٣٧٦/١.

(106) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢٦/١١.

(107) المطيع بالله: هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر جعفر بن المنصور ابن المعتضد أحمد الموفق العباسي. ابن كثير، البداية والنهاية ٢١٠/١١، الذهبي، سير أعلام النبلاء ١١٨/١٥، ابن العماد، شذرات الذهب ١٤٣/٢.

(108) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م، ٢٣٤/٤.

(109) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٣٦/٨، والقفطي، أخبار الحكماء، ص١٠٠، وأحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص١٩٩.

(110) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦١-٥٦٧، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢٩١/٣.

(111) ابن سينا، القانون في الطب، طبعة مكتبة المثنى، العراق، (د. ت) ٣٤٧/٦.

(112) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٧٠٠، والزركلي، الأعلام ٤٩/٧، وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ١٦١/٤.

(113) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٧٣١، ٧٣٨.

(114) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٨٦.

(115) المقريزي، السلوك ٢١٩/٣.

(116) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٧٥١، ٧٥٥، وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ٢٩٩/١٢.

(117) خليفة بن خياط العصفوري ت ٢٤٠هـ، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط. دار القلم، ومؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ص١٥٤-١٥٥.

(118) الوالي: من (و. ل. ي) أي غنم، وقد ولي الشيء أي أصبح مسئولا عنه، والوالي المسئول عن الرعية، وهو ولي الأمر عند المسلمين. انظر: ابن منظور، لسان العرب ٤١٥/١٥.

(119) البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م، ١٨٨/٤، والكندي أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري ت ٣٤٥هـ، كتاب الولاة والقضاة، تصحيح رفعت تست طبعة دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د. ت)، ص٣١١.

(120) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٣٨٩/٢، والكندي، الولاة، ص٣٦٨، والمسعودي أبو الحسن علي بن الحسين ت ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة كتاب التحرير، بيروت، ١٩٦٦م، ٣٧٨/٨.

(121) القلقشندي، صبح الأعشى ٤٢٤/١، ٤٣٤.

(122) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤٢٥/٥، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢٩٨/٨.

(123) الكندي، الولاة، ص٣٤٦، والأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ، كتاب الأغاني، شرحه وكتب هوامشه عبد مهنا وسمير جابر، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٢م، ١٣٩/١٠.

(124) المقريزي، الخطط ٢١٢/٥.

(125) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٦١/٢٣.

(126) محمد بن محمد الغزي ت ١٠٦١هـ، الكواكب السائرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٩٤٥م، ٣٦٩/١، والمحبي محمد أمين ابن فضل الله الحموي الدمشقي ت ١١١١هـ، خلاصة الأثر، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م، ٢٣٠/٣.

(127) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ٣٤٣/١.

(128) الكتبي، محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ، فوات الوفيات، تحقيق علي محمد يعوض الله، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م، ٨٥/٣، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٧٣٥.

(129) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق أحمد راتب حموش وآخرون، طبعة دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م، ٤٩/٧.

(130) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد ت ٦٦٠هـ، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م، ٢٩١٩/٦، عبد القادر أحمد أبو صيني، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، طبعة معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بيروت، (د. ت)، ص١٧٦. العليمي، الأنس الجليل ٣٩١/١.ابن خلكان، وفيات الأعيان

١٢٤/٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٤٥/١٩. السخاوي، التحفة اللطيفة ١٦٣/٣. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ١٤٣/١، ١٤٩. ابن النجار البغدادي، ذيل تاريخ بغداد ٤٩/٤.

(131) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ١٨/٣.

(132) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ٦٨/٥٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣٦٧/١، ابن العديم، بغية الطلب ٤٥٨٣/١٠، الذهبي، معرفة القراء الكبار ٤٣٤/١.

(133) الذهبي، شمس الدين بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ، المعين في طبقات المحدثين، تحقيق همّام عبد الرحيم سعيد، طبعة دار الفرقان – عمان، ١٩٨٣م، ١٥٧/١.

(134) المراكشي، نفح الطيب ١١٧/٢.

(135) خليفة، كشف الظنون ١٦٩٧/٢.

(136) الصفدي، الوافي بالوفيات ٢٣٢/١، ابن العماد، شذرات الذهب ٣٢٧/٤.

(137) ابن العماد، شذرات الذهب ٢٨٧/٤.

(138) ابن العماد، شذرات الذهب ١٠٨/٤، حاجي خليفة ت ١٠٦٧هـ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ١٦٩٧/٣.

(139) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٣١٨/٩.

(140) ابن العماد، شذرات الذهب ١٤/٥.

(141) أبو شامة، الروضتين ٣٥٥/٤.

(142) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣١٨/١.

(143) ابن العماد، شذرات الذهب ٤٢/٥.

(144) المصدر نفسه، ٩/٥.

(145) الصفدي، الوافي بالوفيات ٢٦٦/٣.

(146) الذهبي، العبر في خبر من غبر ٢٩٥/١.

(147) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس ١٨/٢.

(148) ابن جبير ١٩٨/١، صلاح أبو الرب، الطب والصيدلة عبر العصور، طبعة الأهلية للنشر والتوزيع – عمان، ١٩٩١م، ص١٢٥.

(149) النواطير: مفرد ناطور، وهو الحارس أو الحافظ، وهي من كلام أهل السواد، تعني حافظ الزرع والتمر والكرم وغيره. الرازي، مختار الصحاح ٢٧٧/١، ابن منظور، لسان العرب

٢١٥/٥.

(150) الأسيوطي، جواهر العقود، ص٢٧٨-٢٨١، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص٨٠.

(151) الرازي، الحاوي ٩٦/٢، ٣٧٧/٤.

(152) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦.

(153) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣١٣، كمال حمود، تاريخ العلوم عند العرب، ص٥٦.

(154) الصرع: علة يمنع الأعضاء النفسانية عن أفعالها منعًا غير تام، بسبب سدة في بعض بطون الدماغ، وفي مجاري الأعصاب المحركة من خلط غليظ أو لزج كثير، فتمتنع الروح عن السلوك فيها سلوكًا طبيعيًا، فتتشنج الأعضاء. الرازي، مختار الصحاح ١٥١/١، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٦، ابن منظور، لسان العرب (ص. ر. ع).

(155) الرازي، الحاوي في الطب ٥٢٣/٤.

(156) ابن سينا، القانون ٢٨٤/٦.

(157) الفالج عند أهل اللغة: هو استرخاء أحد شقي البدن طولاً، أي جزء في الجسم لا يعني كله، والفلج يعني القسم «شلل نصفي». المناوي، التعاريف ٥٤٧/١، السامرائي، مختصر ٣٤٩/١.

(158) اللقوة: أن يتوجع وجه الإنسان، فلا يقدر على تغميض إحدى عينيه، وتلفظ بضم اللام الثانية. السامرائي، مختصر تاريخ الطب ٣٤٦/١، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣١٣.

(159)الاسترخاء: أمراض قديمة انتشرت في الدولة الإسلامية، وكانت تعالج بالأدوية الحارة. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣١٣.

(160) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣١٣، الصفدي، الوافي بالوفيات ١٣٧/١٦.

(161) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٢٤/٣.

(162) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(163) كمال حمود، تاريخ العلوم عند العرب، طبعة دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م، ص٥٧.

(164) القلقشندي، صبح الأعشى ٢٢٨/٤.

(165) ابن مطران: هو موفق الدين أسعد بن إياس بن مطران، توفي في ٥٨٧هـ في دمشق.

ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٥٦.

(166) كان من جملة أطباء البيمارستان الكبير النوري ومعاصرًا لموفق الدين بن مطران في القرن السادس الهجري.

(167) النبض: هو اضطراب العرق والعروق بحالة دائمة. ابن منظور، لسان العرب، (ن. ب. ض).

(168) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٥٦.

(169) مَحمد عبد المنعم الجمل، الحضارة الإسلامية، طبعة دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص١٢١.

(170) ديورانت، قصة الحضارة ٥١/١٤.

(171) الطلوعات: وهي الحبوب التي تخرج على الجسم للإنسان وترافقها القروح. الكتبي، فوات الوفيات ٣٤٦/١، الصفدي، الوافي بالوفيات ١٥٤/١٢.

(172) البواسير: هي علة ومرض تحدث في المقعدة. الرازي، مختار الصحاح، (ب. س. ر)، وانظر: ابن سينا، القانون ٤٧٩/٢، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٧٥، ٥٨٣.

(173) الذرورات: هي عبارة عن أدهان وأدوية تمرخ بأعضاء الطفل عند الولادة، وتستخدم لشد وتجفيف الرحم عن الأم وتداوي المرأة النفساء. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٥٠، ابن خلدون، المقدمة ٤١٣/١.

(174) الأسيوطي، جواهر العقود ٢٧٩/١.

(175) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦، وأحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص١٩٤-١٩٥.

(176) المثانة: حوصلة هي مستقر البول في الإنسان والحيوان. ابن منظور، لسان العرب ٤٠٠/١٣، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٧، الرزاي، مختار الصحاح ٢٥٧/١.

(177) القفطي، أخبار الحكماء، ص٢٦٥، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٠٣.

(178) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٧٢.

(179) علم الجراحة: وهو علم يبحث في أحوال الجراحات العارضة لبدن الإنسان، وكيفية برئها ومعرفة أنواعها، وكيفية القطع إن احتاج إليها وكيفية وضع المراهم والضمادات وأنواعها. حاجي خليفة، كشف الظنون، ٥٨١/١، القنوجي، صديق حسن خان، ت ١٣٠٧هـ، أبجد العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ١١٥/٢.

(180) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٧٢، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٣، ٤١٦.

(181) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ٤٨٣/٥.

(182) هونكة، شمس العرب، ص٢٣٨.

(183) الأسيوطي، جواهر العقود ٢٧٩/١.

(184) سيد حسين نصر، العلوم في الإسلام، طبعة الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، ١٩٧٨م، ص١٤٠.

(185) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦، كمال حمود، تاريخ العلوم عند العرب، ص٤٥.

(186) الرازي، الحاوي ٢٨٢/١.

(187) المصدر نفسه، ص٢٩٨.

(188) أمين أسعد، الطب العربي، طبعة بيروت، ١٩٤٦م، ص١٧٨.

(189) علي بن ربن الطبري ت٢٣٧هـ، فردوس الحكمة، طبعة برلين، ١٩٢٨، ص١٥٩-١٧٩.

(190) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٤٣.

(191) القفطي، تاريخ الحكماء، ص٢٤٧، الصفدي، الوافي بالوفيات ٢٥٠/٢١.

(192) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢، ٣٣٣، والسامرائي، مختصر تاريخ الطب ٥٨٤/١.

(193) بيمارستان السقطيين: كان هذا البيمارستان في سوق السقطيين في القاهرة، وكان يعمل في هذا البيمارستان الطبيب الكحال شهاب الدين أبو الحجاج يوسف، وسمي بيمارستان السقطيين لأنه يقع في منطقة السقطيين أسفل القاهرة، ولم يعرف تاريخ تأسيس البيمارستان ومن بناه. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٧٣٦.

(194) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٩٦.

(195) M. Meyerhof: ch. On Science and Medicine [in the legacy of islam] P. 332.

(196) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٨٦.

(197) الأسيوطي، جواهر العقود ٢٧٩/١.

(198) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦، محمد الجمل، الحضارة الإسلامية، ص١٢١.

(199) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(200) الأسيوطي، جواهر العقود ٢٧٨/١.

(201) الرازي، الحاوي في الطب ٢٠٣/٤، ٢٢٨.

(202) كمال حمود، تاريخ العلوم عند العرب، ص٥٦.

(203) إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(204) الختان: هو قطع قلفة الصبي، ويرجع تاريخ هذه العملية إلى أقدم العصور، ويمارسونه على البنات، كما يمارسونه على الأولاد. ابن منظور، لسان العرب ٣١٣/٦، ٣٢٠، ١٣٨/١٣، أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م، ٢١٧/٢.

(205) الرازي، الفصول، ص٩٩، ابن سينا، القانون ٢٠٤/١، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦، ابن الإخوة، معالم القربة، ص١٥٩-١٦٤، محمود شرف الدين، الأوراق الندية، ص١٩١.

(206) الأسيوطي، جواهر العقود ٢٧٨/١.

(207) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٢٩.

(208) ابن سينا، القانون ٢٧٢/٦.

(209) ابن الجوزي، المنتظم ٨٧/١، الذهبي، تاريخ الإسلام ٣٤٤/٣٦.

(210) اللعوقات: وهي الأدوية التي تلعق بالفم عن طريق الملعقة. الرازي، مختار الصحاح (ل. ع. ق)، ابن منظور، لسان العرب، (ل. ع. ق).

(211) السفوفات: أنواع من الأدوية تنسب إلى الطبيب جواد النصراني. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٨٥.

(212) السعوطات: مفرد سعود، وهي أحد أنواع الأدوية يضع في الأنف ويستنشق استنشاق. الرازي، مختار الصحاح (س. ع. ط)، ابن منظور، لسان العرب، (س. ع. ط).

(213) الأسيوطي، جواهر العقود ٢٨١/١.

(214) ابن سينا، القانون ٢٧٢/٦.

(215) القفطي، تاريخ الحكماء، ص١٤١.

(216) ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد ت ٦٤٦هـ، الجامع لمفردات الأدوية، طبعة المطبعة المنيرية، القاهرة (د. ت) ١٧٠/٢.

(217) الذهبي، تاريخ الإسلام ٩٥/٤٤.

(218) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ١٤١/٤.

(219) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٣٨/٨، ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيباني ت ٧٢٣هـ، الحوادث الجامعة، تصحيح وتعليق مصطفى جواد، طبعة المكتبة العربية، بغداد، ١٩٣٢م، ١/١.

(220) الذهبي، تاريخ الإسلام ٢٧٣٢/١.

(221) السخاوي، التحفة اللطيفة ٢٧٩/١.

(222) ابن جبير، الرحلة ١٦٢/١.

(223) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ، إتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفا، تحقيق عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ١٤١/١.

(224) الأسيوطي، جواهر العقود ٢٨٠/١.

(225) عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير الشاويش، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ١٨٨/١٠.

(226) المقدسي، التوابون ٢٩٤/١.

(227) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، طبعة دار الكتب المصرية (د. ت) ٥٧/١.

(228) ابن جبير، الرحلة ٥٢/١، الأسيوطي، جواهر العقود ٢٧٩/١.

(229) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق ١١١/٥، الأسيوطي، جواهر العقود ٢٧٩/١.

(230) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق ١١١/٥.

(231) الذهبي، تاريخ الإسلام ٣٩١/٣٧، الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٤٥/٢٠، المقريزي، السلوك ٣١٩/٢، الأسيوطي، جواهر العقود، ص٢٨١، مجلة البحوث الإسلامية ١١٥٥/٨٠، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، إعداد الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء (د. ت).

(232) المقريزي، السلوك ٣٣٦/٣.

(233) الأسيوطي، جواهر العقود ٢٨١/١.

(234) الأسيوطي، جواهر العقود ١/٢٨١.

(235) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ، إبناء الغمر بأنباء العمر، تحقيق محمد عيد خان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ١/١٨٢.

(236) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ، الضوء اللامع، ضبطه وصححه عبد اللطيف عبد الرحمن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ١/١٦٤، ٤/١٦٤.

(237) المصدر نفسه ٧/٢٤٨.

(238) المصدر نفسه ١/١٧٠.

(239) أبو المعالي، الوفيات ٢/٢١٤.

(240) السخاوي، التحفة اللطيفة ١/٤٦١، محمود شرف الدين، الأوراق الندية، ص١٨٣.

(241) ابن الجوزي، المنتظم ١٠/٢٤٥.

(242) السخاوي، التحفة اللطيفة ١/٥٣٤، ٤٦١.

(243) ابن سينا، القانون ٦/٣٢٠.

(244) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٣٤.

(245) ابن حجر، لسان الميزان، تحقيق عادل عبد الموجود، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ٥/٩٣.

(246) النويري، نهاية الأرب ٣١/٧٢.

(247) السخاوي، الضوء اللامع ٤/١٢١.

(248) المصدر نفسه ١٠/٢٠٦.

(249) الذهبي، العبر في خبر من غبر ٥/٣٢٠، ابن العماد، شذرات الذهب ٥/٣٦١.

(250) الذهبي، تاريخ الإسلام ١/٣٧٦٤.

(251) المصدر نفسه، ١/٤٨٥٨.

(252) القلقشندي، صبح الأعشى ٤/٣٥.

(253) النويري، نهاية الأرب ٣١/٧٢.

(254) ابن العديم، بغية الطب في تاريخ حلب ٥/٢٣٥١.

(255) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ٤/٤١٣.

(256) القفطي، تاريخ الحكماء، ص١١٤، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(257) المكتفي بالله: هو أبو محمد علي المكتفي بالله بن المعتضد بن الموفق بالله بن المتوكل على الله ابن المعتصم ابن الرشيد. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٣٩٥/٦، ابن كثير، البداية والنهاية ٧٨/١١.

(258) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٥٤/١٤.

(259) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣١، الصفدي، الوافي بالوفيات ٢١١/٧.

(260) ابن جبير، الرحلة ٤٦/١، ٥٢، ابن النجار البغدادي، ذيل تاريخ بغداد ١٤٠/٢، الأسيوطي، جواهر العقود ٢٨٠/١.

(261) ابن جبير، الرحلة ٥٢/١، المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ٢٨٧/١، ابن كثير، البداية والنهاية ١٣٤/١١، الأسيوطي، جواهر العقود، ص٢٧٩.

(262) ابن جبير، الرحلة ٤٦/١، ٥٢.

(263) ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي ت ٦٥٨هـ، المعجم في أصحاب القاضي الصفدي، طبعة دار صادر – بيروت، ١٨٨٥م، ٥١/١، ١٢٠.

(264) ابن النجار البغدادي، ذيل تاريخ بغداد ١٤٠/٢.

(265) ابن الجوزي، المنتظم ٨٧/١٠.

(266) أبو المعالي، الوفيات ٢٣٤/١، ديورانت، قصة الحضارة ٥١/١٤.

(267) أبو المعالي، الوفيات ١٥٧/٢.

(268) المقدسي، برهان الدين إبراهيم بن مفلح المقدسي ت ٨٨٤هـ، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، طبعة الرشد، الرياض، ١٩٩٠م، ٧٢/٢.

(269) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٧٢.

(270) السخاوي، الضوء اللامع ٢٦٠/٢.

(271) المصدر نفسه ٣٧/٥.

(272) الأسيوطي، جواهر العقود، ص٢٧٩.

(273) المصدر نفسه، ص٢٨٠.

(274) المصدر نفسه، ص٢٨١.

(275) السخاوي، الضوء اللامع ٢/٢٦٠، السيوطي، جواهر العقود، ص٢٧٩.

(276) الزبادي: وهي الصحون الكبيرة، يوضح فيها الطعام، منها يصنع من النحاس. الذهبي، سير أعلام النبلاء ٥/٢٩، الصفدي، الوافي بالوفيات ١٠/١٢٤.

(277) القيشاني: هو الاسم التجاري للبلاط المزخرف المستخدم بطريقة توحي بوجود خلفية لونية مع نقش بلون آخر ميامين. المحبي، خلاصة الأثر ٤/٣٤٩.

(278) البراني: من برنية، وهي شبه فخارية ضخمة خضراء ومنها إناء كبير من خزف واسعة الأفواه. ابن منظور، لسان العرب، (ب. ر. ن).

(279) برودات: وهي الضعف والأمراض، وتظهر في شيخوخة الإنسان. الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٨٦، السبكي، طبقات الشافعية ٨/٣٦٢.

(280) الأكحال والذرورات والبرودات والمراهم: أدوية تستعمل لعلاج العين. السامرائي، مختصر تاريخ الطب ١/٣٤٨.

(281) أشيافات: ما يحتمل من الأدوية في الدبر، أو في قبل المرأة. السامرائي، مختصر تاريخ الطب ١/٣٤٨، والأسيوطي، جواهر العقود، ص٢٨٢.

(282) القلقشندي، صبح الأعشى ٤/٣٧٠، ٥/٤٥٢.

(283) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ص٤٢١-٤٢٢.

(284) الكحال هو طبيب العيون، وكان كل دواء يوضع على العين يسمى كحلاً.

(285) وهو كتاب: العشر مقالات في العين.

(286) السبل: كان يعرف وقتئذ بأنه مرض عيني يتصف بامتلاء عروق العين من دم غليظ.الرازي ،مختار الصحاح (س.ب.ل).

(287) الظفرة: وتُعرف بزيادة عصبية تمتد من أحد المأقين أو منهما على الملتحمة.الرازي،مختار الصحاح (ظ.ف.ر).

(288) أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص٥٣.

(289) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، مطبعة طربين، دمشق، ١٩٨٦، ص١٦٦-١٦٧.

(290) عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، ص١٦٧-١٦٩.

(291) L. Leclerc: Historie de la Medecine Arabe, Vol. I, P. 578.

(292) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ت ٤٥٠هـ، الأحكام السلطانية، طبعة

الحلبي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م، ص٢٤٠.

(293) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

(294) عبد الشافي محمد عبد اللطيف، العالم الإسلامي، طبعة جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٥٧٥، شوكت محمد عليان، دراسات في الحضارة الإسلامية، طبع دار الشواف، مصر، (د. ت)، ص٧٣.

(295) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٧، السامرائي، مختصر تاريخ الطب ٤٣٥/٢، زياد بن سعيد آل حمدان الغامدي، فقه الإنكاد باليد، طبعة الرياض، ١٩٨٢م، ٥/١.

(296) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ، إحياء علوم الدين، طبعة دار المعرفة، بيروت، (د. ت) ٣٤٢/١.

(297) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار القلم، ١٩٨٤م، ٦٣٦/٢.

(298) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٧، السامرائي، مختصر تاريخ الطب ٣٧٦/١.

(299) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٦٧، صلاح أبو الرب، الطب والصيدلة، ص١٢٥.

(300) القلقشندي، صبح الأعشى ٣٧٠/٤، ٤٥٢/٥.

(301) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٩١، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢، ٣٠٧.

(302) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(303) الفصد: هو شق العرق وإخراج الدم الفاسد منه، ويعني قطع العروق. ابن منظور، لسان العرب، (ف. ص. د).

(304) الوصواف: هما عرقان خلف الأذنين يفصدان لقطع النسل، ويحلف المحتسب الفصَّادين أن يفصدوا أحدًا فيهما؛ لأن ذلك يقطع النسل، وهذا حرام شرعًا. ابن الإخوة، معالم القرية ٢٠٨/١، ١٦٢.

(305) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص٥٧-٥٨.

(306) ابن بسام، نهاية الرتبة، ص٩٧، يوسف محمود، الإنجازات العلمية، ص١٠٢، شرف الدين، الأوراق الندية، ص١٨٤.

(307) كلبات العلق: أداة لاستخرام الدم الجامد والغليظ. الرازي، مختار الصحاح، (ع. ل. ق)، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١٤٦/٤.

(308) مكاوي: وهو من الكيّ، وهي أداة تُحمى بالنار لعلاج المريض. ابن عساكر، تاريخ دمشق ١٧٣/٧.

(309) ابن بسام، نهاية الرتبة ٩٤/١.

(310) ابن الإخوة، معالم القربة، ص١٦٩.

(311) الفصد: شق العرق وإخراج الدم الفاسد منه. الرازي، مختار الصحاح، (ف. ص. د)، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦، ابن منظور، لسان العرب، (ف. ص. د).

(312) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٦٨، السامرائي، مختصر تاريخ الطب ٤٣٨/٢.

(313) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٢٤، ابن بسام، نهاية الرتبة، ص٤٢، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص٧٧.

(314) سعيد الديوجي، الموجز في الطب الإسلامي، ص٩٧-٩٨.

(315) أبقراط: طبيب يوناني قديم، يطلق عليه أبو الطب، وقد ولد حوالي سنة ٤٦٠ق. م، وتعلم صناعة الطب من أبيه وجده، ومارستها في أثينا وغيرها من بلاد اليونان، وعلم الطب ولديه وتلميذًا له وبعض الغرباء، ووضع لهم عهدًا ووصية عن الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتعلم صناعة الطب. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٣-٤٤، ٤٧.

(316) فرزجة: شيء يتداوى به النساء. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٥.

(317) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٥.

(318) مجلة الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود، نشر السعودية، لعام ٢٠٠٣م، ١٣٨/٥.

(319) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢.

(320) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ٧٩/٦.

(321) ابن كثير، البداية والنهاية ١١٥/١٤.

(322) ابن بسام، نهاية الرتبة، ص٤٢، يوسف محمود، الإنجازات العلمية، ص١٠٣، وعبد الله العمري، تاريخ العلوم عند العرب، طبعة دار المجدلاوي للنشر، الأردن - عمان، ١٩٩٠، ص١٠٤.

(323) موسوعة الخطب والدروس، علي بن نايف الشحود، السعودية - الرياض، لعام ٢٠٠٠م، ٧/١.

(324) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦٥.

(325) المصدر نفسه، ص٥٨٣.

(326) المصدر نفسه، ص٥٨٣، محمد السعيد طنطاوي، أضواء على تاريخ الطب، طبعة

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، العدد ١٨٣، لعام ١٩٧٦م، ص١٣٤.

(327) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦٥.

(328) المصدر نفسه، ص٦٥٦، هونكة، شمس العرب، ص٢٢٤.

(329) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٨٣، الصفدي، الوافي بالوفيات ١٥/١٦٧، ٣٤٣.

(330) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦٥، طنطاوي، أضواء على تاريخ الطب، ص٨.

(331) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦٥، محمد بن الطاهر عاشور، التحرير والتنوير، طبعة دار سحنون للنشر، تونس، ١٩٩٧م، ١/٣٣٦١.

(332) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٦٥.

(333) القفطي، تاريخ الحكماء، ص١٩١، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢.

(334) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤٢٠.

(335) عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، ص١٥٧.

(336) الجرجاني، التعريفات، ص١٧٤، يحيى جنيد الساعاتي، الوقف مفهومه ومقاصده، طبعة الرياض، ١٩٩٥م، ص٤.

(337) محي الدين بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ، تحرير ألفاظ التنبيه، تحقيق وتعليق عبد الغني الدقر، طبعة دار القلم – دمشق، ١٤٠٨هـ، ص٢٣٧.

(338) الساعاتي، الوقف مفهومه ومقاصده، ص٢٤.

(339) محي الدين بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، طبعة دار النفائس – بيروت، (د. ت)، ٤/١٩٤.

(340) الوقف، مفهومه ومقاصده، ص٢٠.

(341) ابن جبير، الرحلة، ص٤٦، مجلة الحضارة الإسلامية بين الأصالة والماضي ٨/١٢٥.

(342) عبد العزيز الداود، الوقف وشروطه، طبعة كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٧٩م، ص١٠٧.

(343) راشد القحطاني، أوقاف السلطان، الأشرف شعبان، طبعة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٤م، ص٢٣-٢٥.

(344) محمد عبيد الكبيسي، أحكام الوقف، طبعة مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٧م، ص٣٨.

(345) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ١/١٦٩، القحطاني، أوقاف السلطان، ص٢٥، هونكة، شمس

العرب، ص٢٣١.

(346) مجلة الحضارة الإسلامية بين الأصالة والماضي ١٢٥/٨.

(347) ابن جبير، الرحلة ٥٢/١، هونكة، شمس العرب، ص٢٢٩.

(348) ابن كثير، البداية والنهاية ٤٦/١١، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ، تاريخ ابن خلدون، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ٣٩٦/٤، القلقشندي، صبح الأعشى ٣٩٢/٣، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ١٢/٣.

(349) ابن العديم، بغية الطالب ٨٣١/٢، ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ت ٨٠٩هـ، الانتصار، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت (د. ت)، ٩٩/١.

(350) الأساكفة: هي منطقة غرب باب البريد في دمشق. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ١٧/١، ١٤٦/٦، بدران، منادمة الأطلال ١٩٧/١.

(351) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص١٢٠.

(352) جبل تنور: بفتح التاء وتشديد النون، جبل قرب المصصية، يجري نهر سيمان تحته. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥٠/٢.

(353) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ١٠١/٤، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص١٢٠.

(354) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية ٢٠٦/٢.

(355) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠١.

(356) القيسارية: بمعنى السوق. انظر: سيدة كاشف، مصر في عهد الإخشيديين، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م، ص٢٩٢.

(357) سوق الحمام: هو سوق يقع غرب الجامع في مصر بالقاهرة، وبجانبه حصن كبير، وهذا السوق قديم جدًا. المقريزي، المواعظ ٣٦٤/١، والكندي، الولاة والقضاة، ص٥٦٢، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ٣/١.

(358) ابن دقماق إبراهيم بن محمد ت ٨٠٩هـ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د. ت) ٩٩/١.

(359) ابن العماد،شذرات الذهب ٧٨/٣.

(360) اليافعي، مرآة الجنان ٣٩٨/٢.

(361) أبو يعقوب الأهوازي: من الأطباء المشكورين والمشهورين في الطب، جميل الطريقة، وكان من جملة أطباء عضد الدولة في البيمارستان، وله من الكتب السكنجيبين البزوري أحر

من الترياق. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٢٢، وانب سينا، القانون ٦/٢٨٦.

(362) القفطي،أخبار الحكماء ١/١٨٧، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٢٢، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص١٩٩.

(363) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠١-٣٠٢.

(364) القلقشندي، صبح الأعشى ٣/٣٩٥، ٢/٣٩٧.

(365) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/١٩٥، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ٧/٣٩، عبد القادر بدران ت ١٣٤٦هـ، منادمة الأطلال، تحقيق زهير الشاويش، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٣٤.

(366) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي ت ٧٣٢هـ، المختصر في أخبار البشر، علق عليه محمود ديوب، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ١/٢٥٤، الصفدي، الوافي بالوفيات ١٠/٤٩، ابن كثير، البداية والنهاية ١١/١٤٦.

(367) المصدر نفسه، ص٣٠٤، ٣٠٥، النويري، نهاية الأرب ٢٣/١٧.

(368) ابن الجوزي، المنتظم ٧/٣٣.

(369) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢، فراج، فضل علماء المسلمين، ص١١٦.

(370) أبو الفضل الهمداني، محمد بن عبد الملك ت ٥٢١هـ، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق ألبرت يوسف كنعان، طبعة المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م، ٢/١٧٦، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٧٣١، ٧٣٨، السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ت ٧٧١هـ، طبقات الشافعية، تحقيق محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، طبعة هجر للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، ٥/١٢٥، النعيمي، الدارس في أخبار المدارس ٢/١٧٦، الزركلي، الأعلام ٣/٣٤٧.

(371) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ٥٧/١٢١، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص١٧١، النعيمي، الدارس في أخبار المدارس ٢/٣١٥.

(372) القفطي، أخبار العلماء، ص١٣٣، وعبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، ص١٧٣.

(373) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٢٨، بدران، منادمة الأطلال ١/٢٥٩.

(374) ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/٢٨٠، بدران، منادمة الأطلال ١/٢٢٠.

(375) بدران، منادمة الأطلال ١/١٠٨.

(376) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٢٨، بدران، منادمة الأطلال ٢٥٩/١، علي محمد الصلابي، عصر الدولة الزنكية، طبعة مكتبة الإيمان، المنصورة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٤٨.

(377) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٨٤/١٠، ٢١٨.

(378) الذهبي، العبر في خبر من غبر ٨٣/٣، ابن كثير، البداية والنهاية ٣١٧/١٢، النعيمي، الدارس في أخبار المدارس ٣٨٨/١، علي محمد كرد، خطط الشام ٩٨/٥-١٠٠، طبعة مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.

(379) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص٧٧.

(380) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٨٤/١٠، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ٤٩/٦.

(381) أبو شامة، الروضتين ٣٣٢/٤.

(382) السوج: هي مدينة بأقصى ما وراء النهر في العراق، يوجد بها المعادن مثل الزئبق. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢٧٧/٣.

(383) الزط: قرية بين واسط والبصرة. ياقوت الحموي، معجم البلدان ١٧٨/٤.

(384) بدران، منادمة الأطلال ٢٦٠/١.

(385) ابن كثير، البداية والنهاية ١٩٥/١٣.

(386) القفطي، أخبار الحكماء ٨٦/١، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢، ابن كثير، البداية والنهاية ١٤٦/١١.

(387) السيوطي، تاريخ الخلفاء ٣٨١/١، الأعلام، الزركلي ١٦٨/٣.

(388) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٩٦/١٩.

(389) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤٩/١٥، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ١٩٣/٣، الزركلي، الأعلام ١٦٨/٣.

(390) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٢، ابن كثير، البداية والنهاية ١٢٨/١١.

(391) السخاوي، الضوء اللامع ٢٣٣/٤.

(392) المصدر نفسه ٦٤/٨.

(393) المصدر نفسه ٥٤/٨.

(394) عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، ص١٥٧-١٦١.

(395) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٨٠.

(396) المصدر نفسه، ص٣١١.

(397) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٢٠٣/١، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٤٣.

(398) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٠٧، بدران، منادمة الأطلال ٢٥٣/١، ٢٦٨.

(399) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٤٢-١٤٣، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٩٨-١٩٩.

(400) علوف: من علف والجمع علاف وهو علف الدابة وطعامها. ابن منظور، لسان العرب، (ع. ل. ف).

(401) السامرائي، مختصر تاريخ الطب ٤٢١/٢.

(402) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص٩٦.

(403) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(404) المصدر نفسه، ص٤١٦، القلقشندي، صبح الأعشى ٥٢٥/٣.

(405) كان لبعضهم رزقان أو ثلاثة وهذا يعني له راتب شهري مضاعف، وهذا نتيجة سعة علم الطبيب، ويدل على كثرة الهبات من الدولة والمؤسسة الصحية التي يعمل بها. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٤١٦.

(406) المعظم عيسى: صاحب دمشق، وسلطان الشام، حفظ القرآن وبرع في الفقه والشعر، وله شعر كثير، كان فيه خير وشر كثير، توفي سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م. للمزيد انظر: ابن العديم، زبدة حلب، ٤٦٧، الذهبي، العبر ١٩٤/٣.

(407) القفطي، أخبار الحكماء، ص١٤٨، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٧٢، ٦٧٥، الصفدي، الوافي بالوفيات ٨٣/٢٩.

(408) المقصود بعلمين أو ثلاث علوم للطبيب، هذا يدل على مدى سعة علم الطبيب ومعرفته بغير علم الطب، فكان منهم طبيب جرائحي وصيدلي وكيميائي في آن واحد. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦١٠.

(409) القفطي،أخبار الحكماء، ص٢٥٠، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦١٠.

(410) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٠١.

(411) القفطي،أخبار الحكماء، ص١٠٢.

(412) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٣٤.

(413) سلمويه: وهو الطبيب الخالص للخليفة العباسي محمد المعتصم بالله.انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧٨، الصفدي، الوافي بالوفيات ١٩٢/١٥.

(414) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٣٤.

(415) المصدر نفسه، ص٢٩٦.

(416) ابن سينا، القانون ٢٩٢/٦.

(417) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٥٠-٣٦٠.

(418) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس ٢٨/٣.

(419) ابن النديم، الفهرست، ص١٤٦، القفطي، أخبار العلماء، ص١٧٩.

(420) القفطي، أخبار العلماء، ص٢٣٩-٢٤٠.

(421) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢٨٨/٤.

(422) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ٢٠١/٢.

(423) عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، ص١٥٧-١٥٨، ١٦١.

(424) عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، ص١٧٢-١٧٣.

(425) سعيد الديوه جي، الموجز في الطب الإسلامي، ص٦٦-٦٧.

(426) أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص٢٧١-٢٧٤.

(427) الأشقاص: واحدها الشقص: وهو القطعة من الأرض. الرازي، مختار الصحاح (ش. ق. ص).

(428) المبقلة: موضع البقل وقيل كل نبات اخضرت له الأرض. الرازي، مختار الصحاح (ب. ق. ل).

(429) الرحى: وهي معروفة ذات الشقين وتستخدم لطحن الحبوب. الرازي، مختار الصحاح (ر. ح. ى).

(430) الهرى: هو البيت الكبير الذي يجمع فيه طعام السلطان. ابن منظور، لسان العرب، (هـ. ر. ى).

(431) سيواس: مكان أو موضع، وقيل مدينة بأرض الروم مشهورة كثيرة الأهل والخيرات أهلها مسلمون ونصارى، القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد ،ص٥٣٧.

(432) محمد كرد علي، خطط الشام، طبعة مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م،

.١٥٨/٦

(433) هو الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس القيمري، أكبر أمراء القيامرة، ومن أكبر حسناته وقفه البيمارستان الذي بسفح قاسيون بالصالحية بدمشق، وكانت وفاته سنة ٦٥٣هـ. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢٣٦/٥.

(434) الصالحية: قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣٩٠/٣.

(435) غرارة: أصله وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه. انظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، طبعة مؤسسة الرسالة، ببيروت، ١٩٩٦م، ص٣٣٠.

قائمة المصادر والمراجع

- المصادر العربية :

١. القرآن الكريم.

٢. ابن الأثير، أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، ت ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، ١١ جزء، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة، طبعة القاهرة، ١٩٦٣م.

٣. ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي، ت ٧٢٩هـ، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: زورين ليوي، طبعة كمبرج، ١٩٣٧م.

٤. ابن الأزرق، أبو عبد الله الأزرق القاضي، ت ٨٩٦هـ، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق عبد الهادي التازي،ط القاهرة د.ت).

٥. الأسيوطي، محمد بن أحمد المنهاجي، ت ٨٨٠هـ، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، جزءان، بيروت، ١٩٩٦م.

٦. الإصطخري، ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي، ت ٣٥٠هـ،المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحسيني، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦١م.

٧. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين ب ، ت ٣٥٦هـ، الأغاني، ٢٧ جزء، شرحه وكتب هوامشه عبد مهنا، سمير جابر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٢م.

٨. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن قاسم بن خليفة، ت ٦٨٨هـ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: د. نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، (د. ت).

٩. الأيوبي، محمد بن تقي الدين، ت ٦١٧هـ، مضمار الحقائق وسر الخلائق، جزء واحد، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، (د. ت).

١٠. ابن بسام، المحتسب محمد بن أحمد، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، بغداد، ١٩٦٨م.

١١. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي، ت ٧٠٣هـ، تحفة النظار

في غرائب الأمصار وعجائب الأنصار، جزءان، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.

١٢. البغدادي، ابن النجار، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن النجار ت ٦٤٣هـ ، ذيل تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت).

١٣. البغدادي، الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب، ت ٤٦٣هـ، تاريخ بغداد، ١٤ جزء، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت).

١٤. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، ت ٢٧٩هـ، أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله،القاهرة دار المعارف، ١٩٥٩م.

١٥. البلخي، المطهر بن طاهر المقدسي أحمد بن سهل، ت ٣٥٥هـ، البدء والتاريخ، جزءان، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت).

١٦. ابن البيطار، عبد الله بن أحمد الأندلسي، ت ٦٤٦هـ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، القاهرة، المطبعة المنيرية، (د. ت).

١٧. الجاحظ، عمرو بن بحر، ت ٢٥٥هـ، البيان والتبيان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٤٨م.

١٨. ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي ت ٦١٤هـ، رحلة ابن جبير، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، بيروت، دار الكتاب، (د. ت).

١٩. الجرجاني، علي بن محمد الشريف، ت ٨١٦هـ، كتاب التعريفات، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٥م.

٢٠. ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي، ت ٣٧٧هـ، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٥٥م.

٢١. ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، ت ٥٩٥هـ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٣ جزء، تحقيق: محمود مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.

٢٢. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، ت ٤٠٠هـ، الصحاح، تحقيق: شهاب الدين أبو عمر، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م.

٢٣. ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ، –

لسان الميزان، ٧ أجزاء، تحقيق: عادل عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.
- إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ، ١٩ جزء، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.

٢٤. الحميري، محمد بن عبد المنعم، ت ٩٠٠هـ، الروض المعطار في خبر الأقطار، جزء واحد، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ط٢، ١٩٨٠م.

٢٥. الحنفي، أحمد رافع بن محمد الحسيني القاسمي ،ت ١٣٥٥هـ، التنبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ، مطبعة القدس، (د. ت).

٢٦. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ت ٨٠٨هـ- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.
- المقدمة لابن خلدون، جزء واحد، دار القلم، ١٩٨٤م.

٢٧. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨م.

٢٨. خليفة، حاجي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، ت ١٠٦٧هـ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ٦ أجزاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.

٢٩. ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري، ت ٢٤٠هـ، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء االعمري، دمشق، دار القلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٦م.

٣٠. ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت ٨٠٩هـ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، بيروت، لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة.

٣١. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨هـ،- العبر في خبر من غبر، ٥ أجزاء، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت، دار النشر، ط٢، ١٩٨٤م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٤١ مجلد، تحقيق: عمر عبد

السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م.
- سير أعلام النبلاء، ٢٣ جزء، تحقيق: شعيب الأرناءوط، محمد نعيم العرقوس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٩٩٢م.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار، جزءان، تحقيق: بشار عواد معروف، وشعيب الأرناءوط، صالح مهدي عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٣م.

٣٢. الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا، ت ٣١٣هـ،- الحاوي في الطب، تحقيق: هيثم طعيمي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢م.
- الفصول أو المرشد، تحقيق: ألبير اسكندر، مصر، القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٧٨م.

٣٣. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الشافعي، ت ٦٠٦هـ، مختار الصحاح، جزء واحد، تحقيق: محمد خاطر، بيروت، مكتبة ناشرون، ١٩٩٥م.

٣٤. الزبيدي، محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى، ت ١٢٠٥هـ ،تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٠ جزء، مصر، المطبعة الخيرية، ١٨٨٨م.

٣٥. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ت ٧٧١هـ ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح الحلو، هجر للنشر، ط٢، ١٩٩٢م.

٣٦. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد، ت ٩٠٢هـ،- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، جزءان، بيروت، دار الكتب العلمية، ، ١٩٩٣م.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٦ جزء، ضبطه ،عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، ، ٢٠٠٣م.

٣٧. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، ت ٢٣٠هـ، الطبقات الكبرى، أعد فهرستها رياض عبد الهادي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٩٦م.

٣٨. ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله الملقب بالشيخ الرئيس، ت ٤٢٨هـ، القانون في الطب، أوفست المثنى، بيروت (د. ت).

٣٩. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ، تاريخ الخلفاء،

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، دار النشر، مطبعة السعادة، ، ١٩٥٢م.

٤٠. أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، ت ٦٦٥هـ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٥ أجزاء، تحقيق: إبراهيم الزبق، بيروت، دار النشر مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م.

٤١. الصابئ، هلال بن محسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ الحراني، ت ٤٤٨هـ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء،طبعة القاهرة (د. ت).

٤٢. الصفدي، صلاح الدين خليل بك أيبك، ت ٧٦٤هـ،- الوافي بالوفيات، ٢٩ جزء، تحقيق: أحمد الأرناءوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي ٢٠٠٠م.- أعيان العصر وأعوان النصر،طبعة بيروت (د.ت).

٤٣. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠هـ، تاريخ الأمم والملوك، ٦ أجزاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ، ٢٠٠١م.

٤٤. العاصمي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي المكي، ت ١١١١هـ،سمط النجوم العوالي، ٤ أجزاء، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

٤٥. ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهارون الملطي، (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ، ١٩٩٧م.

٤٦. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، (ت ٦٦٠هـ- بغية الطلب في تاريخ حلب، ١٢ مجلد، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م.
- زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهاب، طبعة دمشق، ١٩٥٤م.

٤٧. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، ت ٥٧١هـ.
- تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأوائل، ٧٠ مجلد، تحقيق: محب الدين بن أبي سعد العمري، بيروت، دار الفكر والتراث العربي، ط٣، ١٩٩٥م.

- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه ورتبه عبد القادر بدران، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٨٧م.

٤٨. العليمي، مجير الدين الحنبلي، ت ٨٦٠هـ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، الجزء الأول تحقيق: عدنان أبو نباتة، الجزء الثاني تحقيق: محمود الكعانبة، عمان، مكتبة دندس، ١٩٩٩م.

٤٩. ابن العماد، شهاب الدين عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ،- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠ أجزاء، تحقيق: عبد القادر الأرناءوط، محمد الأرناءوط، دمشق، دار ابن كثير، ، ١٩٨٥م.

٥٠. الغزي، محمد بن محمد، ت ١٠٦١هـ،- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ٣ مجلدات، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، بيروت، دار الفكر، ١٩٤٥م.

٥١. أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ت ٧٣٢هـ ـ المختصر في أخبار البشر، جزءان، علق عليه: محمود ديوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٥٢. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد الشيباني، ت ٧٢٣هـ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تصحيح وتعليق: مصطفى جواد، بغداد، المكتبة العربية، ١٩٣٢م.

٥٣. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد المقدسي، ت ٦٨٣هـ، المغني، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، محمد عبد الفتاح الحلو، القاهرة، هجر للطباعة والنشر، (د.ت)

٥٤. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، ت ٦٨٢هـ، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠م.

٥٥. القزويني، عبد الكريم بن محمد الرافعي، ت ٦٢٣هـ، التدوين في ذكر أهل العلم بقزوين، ٤ أجزاء، تحقيق: عزيز الله العطاري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.

٥٦. القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت ٤٥٤هـ، التكملة لكتاب الصلة، ٤ أجزاء، تحقيق: عبد السلام المراس، لبنان، دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م.

٥٧. القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف، ت ٦٤٦هـ، أخبار الحكماء، تحقيق: فون بوليوس ليبرت، ألمانيا لايبتزغ، ١٩٠٣م.

٥٨. القلقشندي، أبو العباس أحمد، ت ٨٢١هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف الطويل، ١٤ جزء، دمشق، دار الفكر، ، ١٩٨٧م.

٥٩. القنوجي، صديق بن حسن، ت ١٣٠٧هـ، أبجد العلوم الرشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، ٣ أجزاء، تحقيق: عبد الجبار زكار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.

٦٠. الكتبي، محمد بن عساكر، ت ٧٦٤هـ، فوات الوفيات والذيل عليها، جزءان، تحقيق: علي محمد يعوض الله، بيروت، ط/ دار الكتب العلمية، ١٩٨٠م.

٦١. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ،ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، ١٤ جزء، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٦٦م.

٦٢. الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري، ت ٣٥٠هـ، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تهذيب وتصحيح: رفعت تست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.(د.ت)

٦٣. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي، ت ٤٥٠هـ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، مطبعة الحلبي، ط٣، ١٩٧٣م.

٦٤. أبو المحاسن، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي، ت ٨٧٤هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، وزارة الثقافة المصرية، (د. ت).

٦٥. المحبي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن أحمد الحموي الدمشقي، ت ١١١١هـ، خلاصة الأثر في أعيان الحادي عشر، ٤ أجزاء، بيروت، دار صادر، ١٩٩٤م.

٦٦. المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي محيي الدين، ت ٦٤٧هـ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، جزء واحد، تحقيق: محمد سعيد العريان، محمد العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٨م.

٦٧. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، ت ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، كتاب التحرير، ١٩٦٦م.

٦٨. أبو المعالي، محمد بن رافع السلامي، ت ٧٧٤هـ، الوفيات، جزءان، تحقيق:

صالح عباس و بشار معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.

٦٩. المقدسي، برهان الدين إبراهيم المقدسي بن محمد بن مفلح، ت ٨٨٤هـ، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، ٣ أجزاء، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الرياض، مكتبة الرشد ١٩٩٠م.

٧٠. المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر البناء البشاري، ت ٣٨٠هـ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، جزء واحد، تحقيق: غازي طليمان، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٠م.

٧١. المقدسي، شهاب الدين أبو محمود بن تميم، ت ٧٦٥هـ، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق: أحمد الخطيمي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٤م.

٧٢. المقري، التلمساني، الشيخ أحمد بن محمد، ت ١٠٤١هـ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، ٨ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.

٧٣. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم، ت ٨٤٥هـ.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٧م.
- اتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ٨ أجزاء، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٧٤. ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، ت ٧١١هـ
- لسان العرب، ١٥ جزء، بيروت، دار صادر١٩٩٢م.
- مختصر تاريخ دمشق، تحقيق: أحمد راتب حموش وآخرون، دمشق، دار الفكر١٩٨٥م.

٧٥. ابن النديم، أبو الفرج محمد إسحاق بن يعقوب، ت ٣٨٥هـ، الفهرست، ضبطه وشرحه وعلق عليه: يوسف علي الطويل، بيروت، دار المعرفة العلمية١٩٧٨م.

٧٦. النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، ت ٩٧٨هـ، - الدارس في

تاريخ المدارس، جزءان، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية١٩٩٠م.

٧٧. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ،- نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٣ جزء، تحقيق: مفيد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م.

٧٨. الهمذاني، أبو الفضل محمد بن عبد الملك بن إبراهيم، ت ٥٢١هـ، تكملة تاريخ الطبري، جزء واحد، تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، بيروت، المطبعة الكاثوليكية١٩٥٨م.

٧٩. ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوب بن عبد الله الحموي، ت ٦٢٦هـ.
- معجم الأدباء، المعروف بإرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، ٢٠ جزء، بيروت، دار الكتب العلمية١٩٩١م.
- معجم البلدان، ٨ أجزاء، بيروت، دار إحياء التراث، ١٩٩٦م.

٨٠. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح ، ت ٢٨٢هـ،- تاريخ اليعقوبي، جزءان، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠م.

- المراجع العربية :

٨١. إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، طبعة مطبعة دار النشر، دار الدعوة، القاهرة، (د. ت).

٨٢. أحمد، عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الآداب، دار الفكر العربي، ١٩٩١م.

٨٣. أيوب، إبراهيم رزق الله، التاريخ الفاطمي الاجتماعي، لبنان، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٧م.

٨٤. بدران، عبد القادر، ت ١٣٤٦هـ،- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، جزء واحد، تحقيق: زهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي١٩٨٥م.

٨٥. البستاني، بطرس، قاموس قطر المجيد، طبعة بيروت، ١٨٦٩م.

٨٦. الجمل، محمد عبد المنعم، الحضارة الإسلامية، مصر، دار المعرفة الجامعية، كلية الآداب، ٢٠٠٤م.

٨٧. جنيد، يحيى بن محمود، الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية١٩٩٦م.

٨٨. حمادة، ماهر، المكتبات في الإسلام، بيروت، ١٩٧٧م.

٨٩. حمارنة، سامي، عبقرية الحضارة العربية، تحقيق: عبد الكريم محفوظ، ليبيا، بنغازي، دار الجماهيرية، ١٩٩٠م.

٩٠. حمود، كمال، تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٩م.

٩١. الخطيب، حنيفة، الطب عند العرب، بيروت، ١٩٨٨م.

٩٢. الخطيب،مصطفي عبدالكريم،معجم المصطلحات والألقاب التاريخية،طبعة بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٩٦ م.

٩٣. خفر، خلقي، تاريخ الحضارة الإسلامية، الخليل، مطبعة الاعتصام، ١٩٩٢م.

٩٤. خير الله، أمين سعد، الطب العربي، تحقيق: أبي عز الدين، لبنان، ١٩٤١م.

٩٥. الداود، عبد العزيز بن محمد، الوقف وشروطه وخصائصه أضواء الشريعة، الرياض، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١١، ١٩٧٩م.

٩٦. الديوجي، سعيد، الموجز في الطب الإسلامي، طبعة الكويت، ١٩٨٩م.

٩٧. رضوان، سيد، العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية، الرياض، دار المريخ، ١٩٨٧م.

٩٨. الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين، بيروت، دار العلم للملايين، ط٨، ١٩٨٠م.

٩٩. الساعاتي، يحيى جنيد، الوقف مفهومه ومقاصده، الرياض، ١٩٩٥م.

١٠٠. السامرائي، كمال، مختصر تاريخ الطب، جزءان، العراق، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، ١٩٨٤م.

١٠١. السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، دار السلام للطباعة والنشر، ودار الوراق، (د. ت).

١٠٢. السيد، أماني محمد، مكتبات المستشفيات، القاهرة، أبيبس للنشر، كلية الآداب، ٢٠٠١م.

١٠٣. شرف الدين، محمود عبد الفتاح، الأوراق الندية في تاريخ مصر الإسلامية من قبل الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة الأيوبية، مصر، مكتبة الآداب، (د. ت).

١٠٤. الشطي، أحمد شوكت، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، سوريا، مطبعة جامعة حلب، ١٩٩٠م.

١٠٥. الصلابي، علي محمد، عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي، جزء واحد، القاهرة، المنصورة، مكتبة الإيمان، ٢٠٠٦م.

١٠٦. الصنطاوي، محمد السعيد، أضواء على تاريخ الطب، القاهرة، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ١٨٣، ١٩٧٦م.

١٠٧. طوقان، قدري حافظ، العلوم عند العرب، مصر، القاهرة، ١٩٦١م.

١٠٨. الطحاوي، حاتم عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العصور الوسطى، القاهرة ،دار عين ٢٠٠٣م.

١٠٩. أبو الرب، صلاح الدين محمد، الطب والصيدلة عبر العصور، عمان الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩١م.

١١٠. أبو صيني، عبد القادر أحمد، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، (د. ت).

١١١. عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية، مقال بكتاب دراسات في الحضارة الإسلامية العربية، مصر، الإسكندرية، دار المعارف الجامعية، ١٩٩٩م.

١١٢. عاشور، محمد بن الطاهر، التحرير والتنوير، ٣٠ جزء، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

١١٣. عبد اللطيف، عبد الشافي محمد، العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصر، دراسة سياسية، جامعة الأزهر، ١٩٨٤م.

١١٤. عبد الله عبد الرازق مسعود، المستشفيات الإسلامية، طبعة دار الضياء، الأردن، عمان، ١٩٨٧م.

١١٥. العش، يوسف، تاريخ عصر الخلافة العباسية، بيروت، دار الفكر المعاصر ١٩٨٢م.
١١٦. عطية الله، أحمد، القاموس الإسلامي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣م.
١١٧. العلوجي، عبد الحميد، تاريخ الطب العراقي، العراق، بغداد، ١٩٦٧م.
١١٨. علي، محمد كرد، خطط الشام، دمشق، مكتبة النوري، ط٣، ١٩٨٣م.
١١٩. عليان، شوكت محمد، دراسات في الحضارة الإسلامية، مصر، دار الشواف، (د. ت).
١٢٠. العمري، عبد الله، تاريخ العلوم عند العرب، الأردن، عمان، دار المجدلاوي للنشر ١٩٩٠م.
١٢١. عيسى بك، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق، مطبعة جمعية التمدن الإسلامي، ١٩٣٩م.
١٢٢. فراج، عز الدين، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، القاهرة، دار الفكر العربي، (د. ت).
١٢٣. فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، لبنان، بيروت، ١٩٧٠م.
١٢٤. القحطاني، راشد، أوقاف السلطان الأشرف شعبان، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٤م.
١٢٥. كاشف، سيدة إسماعيل، مصر في عصد الإخشيديين، مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.
١٢٦. الكبيسي، محمد عبيد، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧م.
١٢٧. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، اعتنى به وجمعه: مكتب التراث، بيروت، مؤسسة الرسالة١٩٩٣م.
١٢٨. ماجدة عبد المنعم، تاريخ الحضارة في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٨٦م.
١٢٩. محمود، يوسف، الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية، الشركة المتحدة للتوزيع، دار البشير، (د. ت).

١٣٠. المزيني، إبراهيم محمد، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ط .السعودية، ٢٠٠٣م.

١٣١. مصطفى، إبراهيم، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، جزءان، تحقيق: مجمع اللغة العربية، مطبعة دار النشر، دار الدعوة، (د. ت).

١٣٢. الهوني، فرج محمد، تاريخ الطب في الحضارة الإسلامية، طبعة الدار الجماهيرية، ليبيا، ١٩٨٦م.

١٣٣. الواعي، توفيق يوسف، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، القاهرةدار الوفاء ، ١٩٨٨م.

- **المراجع الأجنبية المترجمة:**

١٣٤. آدم، ميتز، الحضارة الإسلامية، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٧م.

١٣٥. غوستاف، لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (د. ت).

١٣٦. هونكة، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، دار صادر، ط١٠، ٢٠٠٢م.

١٣٧. ول، ديورانت، قصة الحضارة، مصر، مطبعة جامعة الدول العربية، ط٨، ١٩٩٢م.

- **المجلات والموسوعات:**

١٣٨. مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، تأليف: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، (د. ت).

١٣٩. مجلة الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود، ٢٠٠٣م.

١٤٠. موسوعة الخطب والدروس، علي بن نايف الشحود، السعودية، الرياض، ٢٠٠٠م.

١٤١. الموسوعة العربية الميسرة، إشراف: محمد شفيق غربال، القاهرة، دار الجيل، ١٩٩٥.

- المراجع الأجنبية:

142. Carl Brockelman, Geschichte der arabischen, Litterature, Vol. 1, Leiden, 1943, edition.
143. C, Elgood, Amedical History of Persia, combridge, 1951.
144. D. Campbell: Arabian Medicine. Vol I.
145. H. Schipperges, Arabische Medizin imlatainischen Mittelalter in Sitzwngsberichte der Heidelberger Akademie der Wissnschaflen Mathematisch - nateerwrsenschafllichi klasse, Jahrgang 1976, 2- Abhandlung.
146. Lich Tnthreler, Chales: Histoire de la Medecine Faggard, Paris, 1978.
147. L. Leclerc: Historie de la Medecine Arabe, Vol. I.
148. L. Sedillot: Histoire Generale des Arabes, Vol II.
149. M. Meyerhof: ch. On Science and Medicine [in the legacy of islam].

النشاط التجاري في مدينة الديبل في عصر الدولة الهبّارية

(٢٤٠-٤١٦هـ/٨٥٥-١٠٢٥م)

د/ فيصل سيد طه حافظ

مدرس التاريخ الإسلامى

كلية الآداب- جامعة بنى سويف

المقدمة

تهتم الدراسة التي نحن بصددها بالنشاط التجاري لمدينة الديبل إبان عصر الدولة الهبّارية (٢٤٠-٤١٦هـ/٨٥٥-١٠٢٥م)، ولدراسة هذه المدينة - في تلك الفترة - خصوصية لاعتبارين :

أولهما : أن مدينة الديبل تعد من أقدم مدن إقليم السند وأشهرها، وذلك منذ قبل الإسلام وحتى أواخر العصر العباسي، لكنه لم يحظ بالقدر الكافي من الدراسات التاريخية من قبل الباحثين والمتخصصين في هذا المجال، مع أهمية إقليم السند ومدنه سياسيا وحضاريا.

ثانيهما: أن البحث يختص بالنشاط التجاري لمدينة الديبل التي كانت تعد الميناء الأول لإقليم السند في العصر الإسلامي، والبحث يعالج ذلك في عصر الدولة الهبّارية(٢٤٠-٤١٦هـ/٨٥٥-١٠٢٥م) وهي فترة مهمة من فترات تاريخ إقليم السند خاصة والتاريخ الإسلامى بشكل عام.

وعلى الرغم من عدم تركيز المصادر الإسلامية كثيرًا علي هذه الفترة، إلاّ أن هناك أخبار متناثرة هنا وهناك في بطون هذه المصادر؛ والسبب في ذلك راجع إلى أن المؤرخين أخذوا يركزون على الأحداث الأكثر إثارة في التاريخ الإسلامي.

ومما هو جدير بالذكر أن بعض الرحالة والجغرافيين العرب أمثال المقدسي

ذكروا أن الرحلة إلى السند كانت في غاية الصعوبة؛وذلك نظرًا للمخاطر التي تحيط بمن يذهب إليه؛ ولبعده، ولوجود أقوام تشكل خطرًا على من يصل إليه كالزط، والميد، وغيرهم، ولقد ذكر المقدسي: "ولا تصل إليه إلا بعد أخطار البر، وأهوال البحر، وضيق الصدر"، "ولولا خشية أن يختل هذا الأصل ويبقى من الإسلام صدر لأعرضنا عن الكلام فيه "؛ الأمر الذي يفسر إقلاع المؤرخين عن تتبع أحداث تاريخ السند بشكل واسع ؛ وهذا يوضح حاجة المكتبة التاريخية لمثل هذه الدراسة التتبعية التحليلية للنشاط التجاري لمدينة الديبل في عصر الدولة الهبّارية، والكتابة في مثل هذا الموضوع تحتاج إلى نوع من الجهد والصبر، والبحث في ثنايا المصادر وأمهات الكتب؛ حتى يتمكن الباحث من رسم صورة واضحة لموضوع الدراسة، **وتدور محاور هذا البحث حول النقاط التالية :**

١- التعريف بمدينة الديبل.

٢- لمحة عن التطور السياسي للديبل في عصر الدولة الهبّارية.

٣- عوامل ازدهار التجارة في الديبل.

٤- التجارة الداخلية.

٥- التجارة الخارجية.

٦- وسائل المعاملات التجارية والمالية في الديبل في عصر الدولة الهبّارية.

أولاً : التعريف بمدينة الديبل[١] :

تعد مدينة الديبل من أقدم مدن بلاد السند في التاريخ وأشهرها، ذلك من قبل الإسلام حتى أواخر العصر العباسي. وتقع مدينة الديبل على نهر السند عند مصبه في بحر الهند، وكانت أيضاً من أهم الموانئ التجارية في المحيط الهندي.

كانت تسمى ديبل أو ذيبل[٢]، وهي على بعد ستة أميال من مصب نهر مهران(السند) على الضفة الغربية منه[٣]، وهي مدينة حصينة على الساحل، ويقول المقدسي:" وديبل بحرية، قد أحاط بها نحو مائة قرية، والبحر يسطع جدارات المدينة [٤]". وذكر الإصطخري:" الديبل هي غربيّ مهران على البحر، وهي متجر كبير، وفرضه لهذه البلاد وغيرها، وزرعهم مباخس، وليس لهم كثير من الشجر والنخيل، وهو بلد قشف، وإنما مقامهم للتجارة"[٥].

وقال ابن حوقل في نفس المعنى أيضًا :" تقع مدينة الديبل على نهر السند وعلى البحر، وهي مدينة تجارية معروفة، تكثر بها أنواع البضائع، وتعتبر أعظم الموانئ لبلاد السند، وتقل بها المزروعات والغلات، ويعتمد أهلها على التجارة الداخلية والخارجية في حياتهم الاقتصادية"(٦).

وذكر الإدريسي "أن أراضيها جدبة ليس بها شجر ولا نخل، وجبالها جرد، وسهولها قشفة، عديمة النبات"(٧).

كانت المدينة قديماً مقرًا للحاكم أو نائبه، أي إنها كانت العاصمة الثانية، وبها سجن ضخم ومعبد ضخم للإله سيوا، يخدم فيه أكثر من ٧٠٠ فتاة، وقلعة المدينة عبارة عن سور وأبراج، يبلغ طولها ٢٠٠٠ قدم، وعرضها ١٠٠٠ قدم(٨).

وتنقسم السند جغرافياً إلى خمسة أقاليم، ولكل إقليم مدنه وقراه، والأقاليم هي: سيوستان، والملتان، اسكلنده ارور(وهي العاصمة)، وبرهمن أباد(وهي المنصورة وحيدر أباد حالياً)، ومدينة الديبل تقع في إقليم برهمن أباد ".

وبمرور الأيام وصروف الدهور، انقرضت هذه المدينة التجارية المهمة، وقد حاول الباحثون معرفة موضع مدينة الديبل، وسبب اختفائها، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك نجاحاً كاملاً، فالبيانات الواردة في كتب القدماء من الجغرافيين العرب ومؤرخيهم وكذلك الفرس والهنود بشأن الديبل غير واضحة، وأحيانا متناقضة مما صعب الوصول إلى الحقيقة، ثم أن الأبحاث والتحقيقات التي قام بها علماء الآثار ساعدت على تحديد مكان الديبل، ولكن في مواضع عديدة قريبة من بعضها. فهم لم يتفقوا على رأي واحد في تحديد موقع هذه المدينة، وخصوصا أنهم اكتشفوا كثيرا من المواقع ينطبق عليها وصف الديبل، مما أثار صعوبة في تحديد موقعها بالضبط.

ولقد ذكر كي لسترنج :"أن البلدانيين العرب أنفسهم لم يعنوا بوصف هذه البلاد وصفاً شاملاً، فهم لم يعرفوا من الموانئ الهندية مما يلي الطرف الشرقي لخليج فارس أكثر من معرفتهم فرضة الديبل،فقد كانت حينذاك ميناء حسنا عند أكبر فم لنهر الأندس(مهران، السند)"(٩)، واكتفى بهذا التعليق دون أن يحاول تحديد مدينة الديبل تحديدًا صحيحًا(١٠).

وذكر أطهر المباركبوري :"الديبل يقال لها اليوم بهمبور، في جنوبي كراتشي

الحالية، على ثلاثة وعشرين ميلا، ظهرت آثارهما بعد عملية الحفر"[١١].

واستعرض الطرازي نتائج الأبحاث الحديثة حول تعيين موقع الديبل، وخلص إلى أن موقع هذه المدينة يقع في مدينة بهمبور الحالية القريبة من مدينة كراتشي فذكر :"أن مدينة بهمبور مدينة كما كانت الديبل مدينة، واسم بهمبور لم يكن معروفاً حتى انتهاء عهد العرب أي القرن الخامس الهجري، ولكن يبدو أن اسم بهمبور قد اشتهر بعد أن انهدمت مدينة الديبل نفسها، وربما كانت بهمبور ضاحية منها، وقد أطلق على مدينة (برهمناباد) بعد زوالها اسم(همبرا)، وبالمثل بعد انقراض الديبل ربما أطلق عليها اسم (بهمبور)، وفي تاريخ السند بعد عهد العرب-يأتي ذكر موانئ أخرى مثل لاهري الذي اعتبره البرتغاليون (ديول السند)، ولكن تلك الموانئ كلها قد تمت بها حفريات، وثبت أنه لم يكن أي ميناء منها ميناء السند"[١٢].

ولقد توصلت دائرة آثار الحكومة الباكستانية إلى أن :"أطلال مدينة الديبل اليوم في داخل البلاد الباكستانية على نحو ٢٠كم جنوبي غرب ثتا Thatta، وعلى ٤٥ كم جنوب شرق كراتشي الحالية[١٣]، وهذا التحديد يعد هو الأقرب إلى مكان الديبل الحقيقي، خاصة أن الجغرافيين العرب أمثال البلاذري، وابن خرداذبة، والإصطخري والمقدسي، والمسعودي، قد ذكروا أن ميناء الديبل منذ أواخر القرن الأول الهجري إلى أواخر القرن الرابع الهجري، في عهد العرب كان يقع على الشاطئ الغربي لنهر السند[١٤]، وقريبا من مصب النهر بعد مسافة بسيطة من بحر العرب[١٥]، وذكر المسعودي المسافة بين الديبل ومصب نهر السند في البحر مسافة يومين[١٦]، وحددها البيروني بمسافة ١٢ فرسخا[١٧]. وهذا يتوافق بشكل كبير مع ما ذكرته دائرة آثار الحكومة الباكستانية – سابق الذكر.

كان سكان الديبل منذ أقدم العصور شبيهين بالزنوج، وذلك مثل غيرهم من سكان بلاد السند بشكل عام، ثم أتت موجات توارانية، من أواسط آسيا فتوالدت مع الأهلين، فظهر الدراوديون، وهم السكان الأصليون لمنطقة السند، وجدوا فيها منذ أربعة آلاف سنة ق.م، ثم توالت عليهم أقوام آرية قدموا من الشمال الغربي للسند منذ ٣٥٠٠ سنة ق.م، ومعهم لغتهم السنسكريتية، وقدمت إلى البلاد موجة آرية منذ عام ٦٠٠ ق.م[١٨].

وكانت أشهر القبائل الموجودة عند قدوم المسلمين لبلاد السند هم الزط والميد[١٩]. وكان أغلب سكان الديبل من الميد(Meds) ؛ وذلك لأن أفراد هذه الطبقة كانوا منتشرين على سواحل السند وصحرائها، الممتدة من الملتان إلى البحر، وضفتي نهر مهران حتى مكران، وهم كذلك كانوا قراصنة، وأصحاب خبرة في الحروب البحرية[٢٠].

عرف العرب بلاد السند منذ آلاف السنين ونقلوا إليها تجارتهم، وحملوا منتجاتها إلى أوروبا وغيرها، كما نقلوا منتجات هذه البلاد إليها عن طريق مصر وبلاد الشام، وكان طبيعيا لهذا أن يكون للتجار والبحّارة العرب صلة متينة بأهل السند والهند، وأن تكون لهم معرفة بالمدن الساحلية لهذه البلاد، وخاصة ميناء الديبل.

عرفت الديبل الإسلام منذ عهد الخلفاء الراشدين، وكان أول الفتوحات الإسلامية لتلك المنطقة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب(١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٣م)، حيث أن واليه على البحرين وعمان (عثمان بن أبي العاص) أبقى أخاه الحكم بن العاص في البحرين، وتوجه هو إلى عمان، ومن ثم أرسل جيشا في غارة جريئة على مدينة(بمبني) وانتصر وغنم ثم عاد[٢١]، وفي السنة نفسها وجه أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى الديبل فلقي العدو وظفر به سنة (١٥هـ/٦٣٦م)[٢٢].

وتتابعت الحملات الإسلامية على السند في عهود الخلفاء عثمان بن عفان وعلي بن أبى طالب ومعاوية بن ابي سفيان.

وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان(٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) تولى الحجاج بن يوسف الثقفي إمارة العراق والمشرق الإسلامي، وكانت مكران تحت إمرة المسلمين، فكانت المنازعات مستمرة بين المسلمين هناك وبين ملك السند على حدود مكران، ففتح المسلمون بعض المناطق، واستشهد بعض القادة، إلى أن ولي الحجاج الأمير محمد بن هارون بن ذراع النمري واليًا على مكران[٢٣].

وذكرت بعض المصادر التاريخية أن بعض الخوارج قد فروا إلى بلاد السند وتحالفوا مع ملكها ضد الحجاج، ومنهم من بقي في مناطق الحدود السندية المكرانية، وأخذوا ينازعون المسلمين؛ فاخذ الحجاج يتتبع آثارهم، وأرسل الجيش

من العراق للقضاء عليهم ولتأديب ملك السند الذي كان يحرض هؤلاء الخارجين على الخلافة لمحاربة أمير مكران[٢٤].

وكان الحجاج قد ولي سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي أميراً على مكران(٧٥-٨٠هـ/٦٩٤-٦٩٩م) فنظم الأمور لمحاربة الخوارج، الذين استطاعوا هزيمة سعيد بن اسلم وقتله واستولوا على مكران من سنة(٨٠-٨٥هـ/٦٩٩-٧٠٤م)، وذلك بتأييد من ملك السند([٢٥])، أرسل الحجاج بعد ذلك جيشاً قوياً بقيادة مجاعة بن سعر التميمي (٨٥-٨٦هـ/٧٠٤-٧٠٥م) للقضاء على الخوارج الذين فروا من مكران قبل وصول جيش مجاعة والتجئوا إلى ملك السند[٢٦]، وبعد وفاة مجاعة أرسل الحجاج محمد بن هارون بن زراع النمري أميراً على المنطقة من(٨٦-٩٢هـ/٧٠٥-٧١٠م) حتى قدوم محمد بن القاسم[٢٧].

وساقت بعض المصادر التاريخية روايات حول الأسباب المباشرة لفتح بلاد السند؛ وهو أنه في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان(٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) أرسل ملك سرنديب سفينة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق،محملة بالتحف والهدايا من الدر والياقوت والجواهر الثمينة والعبيد، مع نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن، وكانوا تجارا فأراد التقرب بهن إلى الحجاج والخليفة الأموي[٢٨]، حيث أرسل إلى دار الخلافة بدمشق بالإضافة إلى ما سبق تحفا وطرائف لا مثيل لها.كما كان هدف النساء المسلمات زيارة الكعبة[٢٩]، وهبت رياح عاتية قذفت بالسفينة إلى سواحل الديبل، حيث كان يقطنها مجموعة من القراصنة، وقتلوا بعض رجالها، واخذوا الباقين من النساء والرجال والأطفال، كما سلبوا جميع التحف والأموال، فصاحت امرأة من بين الأسرى:يا حجاج يا حجاج أغثني[٣٠]، وفر بعض الناس والتجار من الذين كانوا على متن السفينة، وجاء بعضهم إلى الحجاج وذكروا له ما حدث مع استغاثة تلك المرأة به فقال :لبيك لبيك[٣١].

فكتب الحجاج إلى داهر بن صصه ملك السند بإرجاع النساء إلى دار الخلافة، فرد عليه داهر:أن هذه الطائفة مجموعة من اللصوص والخارجين عن سلطتنا، وهم أشرار أقوياء، لا يستطيع احد ملاحقتهم والتغلب عليهم[٣٢].

فكتب الحجاج رسالة إلى الخليفة يطلب فيها الإذن بغزو السند والهند، وكرر

الحجاج طلبه حتى أذن له الخليفة. فأرسل الحجاج عبد الله بن نبهان السلمي لفتح الديبل فاستشهد، ثم أرسل بديل بن طهفة البجلي بثلاثة آلاف، فحزن الحجاج حتى قال لمؤذنه :يا مؤذن اذكر اسم بديل كلما أقمت الآذان، لا تذكره وأخذ بثأره[٣٣].

استأذن الحجاج الخليفة في إرسال جيش كبير ومنظم لغزو السند فوافق، فعين الحجاج محمد بن القاسم الثقفي وطلب من الخليفة ستة آلاف مقاتل من أشراف الشام وأبنائهم، فجاءه العدد الذي طلبه[٣٤]، ووصى الحجاج محمد بن القاسم قائلاً:"اخرج عن طريق شيراز، وأطوى المنازل واحدة تلو الأخرى، حتى يأخذ منك الغضب مأخذاً شديداً[٣٥]"، وجهز الحجاج الجيش بكل ما احتاج إليه، وسير محمد بن القاسم، وأمره أن يقيم بمدينة شيراز من أرض فارس، حتى يلحق به جند الشام والعراق، فتحرك ولما وصل شيراز عسكر بها[٣٦].

أقام محمد بن القاسم بشيراز ستة أشهر ليجمع قواه، ومن هناك قسم قواته إلى بحرية وبرية،وتوجه ابن القاسم بالبر إلى مكران، وكان ذلك في سنة(٩٢هـ/٧١٠م)، وأقام بها شهرا ومعه من القوة ستة آلاف من الجند، ومن مكران رافقه أميرها محمد بن هارون ومن معه حتى ارمائيل ووافته المنية هناك[٣٧].

وكانت القوة البحرية قد أرسلت عن طريق البحر ومعها المؤن والأسلحة الثقيلة مثل المنجنيق وغيرها[٣٨]، وكان على قيادة الجيش البحري خريم بن عمرو المري، وكان من القادة البارزين في هذا الجيش أيضا عبد الرحمن بن سليم الكلبي، وسفيان بن الأمبرد المشهور بالجلد، وقطن بن ملاك الكلابي[٣٩]. ومن ترتيبات القدر أن يلتقي الجيش البري بالجيش البحري في يوم واحد وكأنهما على موعد.

نزل ابن القاسم بعد ذلك في سواد الديبل وحفر الخنادق ورفع الرايات والأعلام، ونصب المنجنيق،ونصب منجنيقا كان يعرف بالعروس، كان يعمل لتشغيله خمسمائة رجل، وكان في وسط الديبل معبد كبير للأصنام تتوسط فيه قبة عالية ترفرف عليها راية خضراء[٤٠]، وأثناء الحصار خرج رجل برهمي من النساك، وطلب الأمان من ابن القاسم فأمنه، ثم اخبر المسلمين أنه طالما العلم يرفرف على المعبد، يصعب عليهم فتح المدينة، لما كان الهنود يعتقدون في

ذلك،فأشار عليهم بإسقاط العلم، وعندئذ هم ابن القاسم جعوبة بضرب العلم، فبدأ ورمى بالمنجنيق واسقط العلم، كما أسقط جزءًا من قاعدته وساريته فكبر المسلمون، ثم أصاب قبة المعبد، فانهدمت تماماً دون أن تصيب مبنى المعبد بضرر، وتطير أهل ديبل وتشاءموا فخرجوا إلى المسلمين مندفعين للقتال المستميت، فقاتلهم المسلمون بالسهام كالمطر، وقاتل الطرفان قتالا شديدا حتى هزم أهل الديبل، وارتدوا إلى داخل الحصن[٤١]، وثلم المنجنيق سور الديبل فوصل المسلمون إلى أعلى السور وأبراجه.

وكان أول المتسلقين صعدى بن خزيمة المرادي الكوفي، وتلاه عجل بن عبد الملك بن قيس البصري، وفتحت الأبواب، فكبر المسلمون ودخلوا، ولكن أهل الديبل قاتلوا قتالا شديدا، واستمر القتال داخل الحصن ثلاثة أيام، حتى انتصر المسلمون الذين توجه بعضهم إلى المعبد، وقتلوا حراسه، واخرجوا منه سبعمائة جارية موقوفة لخدمة المعبد، ثم أخرجوا المساجين رجالاً ونساءاً، وأمر ابن القاسم بقتل كل محارب من أهل الديبل جزاء ما لقي المسلمون منهم من قبل، كما أمره الحجاج بإعطاء الأمان لبقية مدن السند إلا إذا تمرد أهلها.

وبعد سيطرة المسلمين على المدينة، هرب حاكمها من قبل الملك السندي داهر- المسمى جاهين بر بن برسايد روات، وبدا ابن القاسم ينظم أمور المدينة وخططها. فبنى مسجدا كبيرا، ووسع القلعة، وبنى بالجانب الشرقي للقلعة منازل يسكنها المسلمين، وتضم تقريبا أربعة آلاف من الأسر العربية والجند، وعين محمد بن وداع حاكما على الديبل، وكان ذلك سنة(٩٣هـ/٧١١م)[٤٢].

وقام ابن القاسم بتقسيم الغنائم على الجنود، وأرسل بالخمس إلى دار الخلافة، ثم توجه إلى داخل بلاد السند، وكلما مر على مدينة صالحه أهلها، حتى استطاع في النهاية من قتل داهر ملك السند ودخل عاصمته"ارور" سنة(٩٣هـ/٧١٢م)[٤٣].

ثانيًا التطور السياسي للديبل في عصر الدولة الهبارية :

بعد إتمام فتح بلاد السند على يد محمد بن القاسم اتخذ معظم الولاة – من قبل الدولة الأموية[٤٤]– مدينة المنصورة مقرا لهم بعد بنائها عام(١٢١هـ/٧٣٨م). وكان آخرهم منصور بن جمهور الكلبي[٤٥]. وفى العصر العباسي الأول(١٣٢–

٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٦م) شهدت البلاد تغيير الولاة بشكل سريع حتى بلغوا أكثر من ثلاثين والياً وكان آخرهم قبل بداية العصر الهبارى هارون بن أبى خالد المروزى[٤٦] ؛ الذي قتل عام(٢٤٠هـ/٨٥٤م)، وخلفه عمر بن عبد العزيز الهبارى[٤٧]. الذي استطاع أن يسيطر على الأمور في مدينة المنصورة عاصمة الإقليم ؛ وأرسل للخليفة المتوكل يطلب منه الموافقة على تعينه واليا على بلاد السند، ويتعهد بضبط الأمور لدولة الخلافة، ولقد كانت الفرصة سانحة له ؛ وذلك لأن دولة الخلافة كانت تمر بمشاكل عديدة ؛ فما كان من الخليفة إلا الموافقة على ذلك.

وبمجرد أن صار عمر بن عبد العزيز الهبارى والياً على بلاد السند، بدا يسلك سياسة ترمى إلى تأسيس حكم ذاتي مستقل عن الخلافة العباسية، وبالفعل نجح في ذلك، وأسس دولة توارثها أبناؤه من بعده، واستمرت من(٢٤٠هـ/٨٥٤م) حتى(٤١٦هـ/١٠٧٥م) مع المحافظة على التبعية الاسمية والمذهبية للدولة العباسية. وهكذا ظهرت حكومة عربية جديدة في بلاد السند[٤٨].

حكم عمر بن عبد العزيز الهبارى من (٢٤٠-٢٧٠هـ/٨٥٤-٨٨٣م)، وكانت بلاد السند خلالها تابعة للخلافة العباسية اسميا، وكانت العلاقات الثقافية والتجارية بين الطرفين قائمة بشكل كبير، وكانت الخطب في المساجد ببلاد السند حتى القرن الخامس الهجري باسم الخليفة العباسي، توفي عمر بن عبد العزيز الهبّاري(٢٧٠هـ/٨٨٣م)، وتولى بعده ابنه عبد الله، وهذا يعني أن الحكم في السند بدا ينتقل من فرد إلى فرد وراثيا في الأسرة الهبّارية والدولة العباسية كانت توافق على ذلك اضطراريا.وانقطعت بذلك سنة مجيء الولاة من العراق إلى بلاد السند، وظل عبد الله الهبّاري يحكم بلاد السند حتى توفى سنة(٣٠١هـ/٩١٣م)[٤٩]، وتولى بعده ابنه عمر الثاني الذي اتخذ وزير له يسمى رياحًا، وذكر المسعودي الذي زار السند سنة(٣٠٣هـ/٩١٥م)، أن ذلك يعد ظهور لمنصب الوزير لأول مرة في تاريخ السند في العصر الإسلامي، وذكر أن الحاكم في المنصورة اتخذ لقب سلطان ؛ وهذا يدل على مدى ما وصلت إليه الدولة الهبّارية في السند من استقلال[٥٠].

وبعد وفاة عمر الثاني بن عبد الله سنة (٣٣٠هـ/٩٤١م) تولى الحكم ابنه الأكبر محمد وبعده أخوه الأصغر علي، وتولى بعده ابنه الأكبر. ولقد زار المقدسي

المنصورة وذلك في سنة(٣٧٥هـ/٩٨٥م) ويستدل من كلامه أن المنصورة كانت تحت سيطرة الأسرة الهبّارية.وذكر أن مذهب بلاد السند مذهب أهل السنّة، ويتبعون مذهب أبي حنيفة، كما كان المذهب الظاهري الداودي قد بدأ ينتشر بين بعض العلماء في السند [٥١].

والواضح أن الفترة الأخيرة في حكم الأسرة الهبارية يشوبه الكثير من الغموض، ولم تسعفنا المصادر التاريخية عن كيف انتهى أمر هذه الأسرة.

فمن المعروف أن عمر الثاني كان له ابنان هما محمد وعلي، إلا أنه لم يذكر هل حكماً فعلاً أم لا؟ ومادامت المصادر لم تذكر ذلك، يبقى الحكم عليه من باب التخمين.

وفى مطلع القرن الرابع الهجري ظهر المذهب الإسماعيلي في السند، يدعو لعبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الأول في بلاد المغرب مما جعل الخليفة العباسي يأمر القاضي ابن أبى الشوارب أن يذهب إلى المنصورة ليقف أمام الشيعة[٥٢] فيقوم بحملة فكرية مضادة في مواجهة المد الشيعي في البلاد.

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة(٤١٦هـ/١٠٢٥م) أن سكان مدينة المنصورة اعتنقوا المذهب الشيعي منذ سنوات قليلة[٥٣]. وغير معروف بالضبط السنة التي سيطر فيها الشيعة.

مما يجدر ذكره أن المنصورة لم تقع تحت حكم الملتان التي كانت تحت حكم الشيعة منذ سنة(٣٧٥هـ/٩٨٥م)، ومن المؤكد أن الشيعة لم يسيطروا على الحكم في المنصورة ما بين عامين(٣٧٥هـ/٩٨٥م) وحتى عام(٤٠١هـ/١٠١٠م)، وذلك في السنة الأخيرة التي زارفيها المقدسي السند؛ وهى تلك السنة التي قضى فيها السلطان محمود الغزنوي على سلطة الشيعة في الملتان[٥٤]. ولو كان للشيعة نشاطاً سياسياً في المنصورة في هذه السنة أي(٤٠١هـ/١٠١٠م)؛ لكان السلطان محمود الغزنوى قد أرسل جيشاً للقضاء على سلطة الشيعة فيها مثلما قضى عليهم في المناطق الأخرى المحيطة بالملتان [٥٥]. ولذلك يغلب الظن أن الشيعة قد سيطروا على المنصورة بعد سنة(٤٠١هـ/١٠١٠م)، و قد ضعفت الدولة الهبّارية بسبب ظهور تيارات سياسية عديدة في بلاد السند [٥٦]، وفى الغالب كانت سيطرة الشيعة في المنصورة من(٤٠٢هـ/١٠١١م) حتى(٤١٦هـ/١٠٢٥م). وهى السنة التي قام فيها السلطان

محمود الغزنوى بحملة على المنصورة، يقصد منها القضاء على سلطة الشيعة فيهـــا، عند عودته من بلاد الهند، بعد أن تم فتح بعض المناطق هناك في طريقه إلى غزنة، بحيث سار إلى الملتان، ومنها إلى المنصورة(٥٧). وبذلك سقطت دولة الشيعة في السند وأنتقل الحكم فيها منذ (٤١٦هـ/١٠٢٥م) إلى أيدي الحكام السنيين التـــابعين للدولـــة الغزنوية.

ثالثًا :عوامل ازدهار تجارة الديبل في عصر الدولة الهبارية:

احتلت تجارة الديبل مكاناً متقدماً في التجارة العالمية، ونشطت نشاطاً كبيراً في عصر الدولة الهبّارية، وكان تجار الديبل في خلال رحلاتهم يجوبون الأقطار براً وبحراً، وينقلون التجارة من بلد إلى بلد، وذهبت إلى العراق والحجاز والشام ومصر والحبشة فضلا عن الهند والصين، وكانت تجارة الديبل مظهرا من مظاهر تقدم الحضارة الإسلامية التي كانت محط أنظار جميع التجار من جميع البلاد.

وما هو جديرا بالذكر أن الديبل اعتمدت في اقتصادها على التجارة بشكل كبير ؛ذلك لأن الزراعة فيها كانت ضئيلة ؛ونظرا لأن أرضها كانت مجدبة قليلة الخصب مقارنة بباقي مدن إقليم السند الذي يعتبر بلد الخيرات والزروع والثمار لوجود نهر مهران، أما أهل الديبل فكان الاعتماد الرئيسي لهم من دخل التجارة، وتعتبر الديبل هي ميناء السند الرئيسي منذ القدم وطيلة العصر الإسلامي(٥٨).

- **ساعد على رواج التجارة وازدهارها في الديبل عدة عوامل منها ما يلي :**

أ- موقع الديبل :

كانت الديبل منذ العصور القديمة ؛لاسيما في عصر الدولة الهبّارية، من أهم المراكز التجارية، وذلك بسبب موقعها الجغرافي المتميز، الذي ساعد على اتصالها ببلدان وسط آسيا، ولذلك كانت الديبل من اجل المراكز التجارية آنذاك، ولها باع طويل في ذلك، وتجمعت بأسواقها التجارية بضائع الشرق والغرب، فكانت الأسواق هي قلب الديبل النابض، وراجت بها حركة التجارة بشكل واسع النطاق.

فتقع مدينة الديبل على ساحل المحيط الهندي في الجزء المسمى منه ببحر الهند، كما أنها تقع على نهر السند عند مصبه في المحيط الهندي. فموقع مدينة الديبل على نهر السند من ناحية ربطها بالمدن الداخلية ببلاد السند والبنجاب وكشمير الأخرى، حيث أن نهر السند ينبع من جبل كيلاس ببلاد التبت، ويبلغ

طوله نحو ١٨٠٠ ميلا، بحيث يجري الثلث منه داخل بلاد السند أي نحو ٥٨٠ميلا تقريبا[٥٩]. ويمر النهر ببلاد كشمير ثم إقليم البنجاب، وفي البنجاب تتلقى عدة أنهار أخرى بنهر السند، ليتحول إلى نهر كبير، ويجري من البنجاب إلى الملتان، أي إلى داخل بلاد السند، ثم يتفرع إلى فروع كثيرة في أراضي واسعة وتتكون منها احد عشر مصباً، وبعضها قابل للملاحة حيث تدخلها السفن التجارية، ثم يصب النهر في النهاية في المحيط الهندي[٦٠]، ولقد أسهم نهر السند في ربط الديبل بجميع المدن التي يمر فيها سواء في كشمير أو البنجاب أو السند، مما ساعد على قيام نشاط تجاري مزدهر بين تلك البلاد ومدينة الديبل.

ووقوع الديبل على ساحل المحيط الهندي في الجزء المسمى منه ببحر الهند (بحر العرب)، جعل المدينة تقع على الطرق البحرية التجارية العالمية آنذاك.فذلك ساعدت على اتصال الديبل بالعراق والحجاز والشام والحبشة، وإقامة علاقات تجارية متميزة مع كل المدن والموانئ التجارية الواقعة على ساحل الخليج العربي والبحر الأحمر، كما ساعد هذا الموقع مدينة الديبل على الاتصال ببلاد السند سواء كان برياً أو بحرياً، كما ساعد هذا الموقع على إقامة علاقات تجارية مع بلاد إيران.

ب- الفتح الإسلامي للديبل :

يعتبر الفتح الإسلامي للديبل بشكل خاص وبلاد السند بشكل عام، من أهم العوامل التي ساعدت على رواج التجارة وازدهارها، ولو قارنا بين حالة التجارة ببلاد السند وميناءها الديبل قبل الإسلامي لها مع تجارة الهند مثلاً، فأننا نجد أن بلاد السند كانت من الناحية التجارية في حالة ركود وشبه انعزال عن العالم الخارجي، وخاصة عن البلاد العربية، التي كانت علاقتها التجارية منصبة على بلاد الهند، وقلما كانت السفن العربية تتجه صوب الموانئ السندية مثل الديبل وميناء تيز، وذلك تجنبا عن عبث القراصنة من الزط والميد الذين كانوا يسيطرون على هذه الموانئ السندية، وكانوا كثيرا ما يهاجمون السفن التجارية المارة بها، وينهبون ما بها من البضائع والأموال، بل كانوا يؤذون ركابها من الرجال والنساء، وكان ذلك سببًا لوقوع خلافات سياسية بين حكام العرب وحكام السند، ولعل أن حادثة من تلك الحوادث كانت سببا مباشرا لتفكير العرب في فتح بلاد السند.

وبعد الفتح الإسلامي للسند أصبحت هذه الطرق آمنة، وصارت بلاد السند أكثر أهمية عند تجار العرب من بلاد الهند من الناحية التجارية رغم قلة المنتجات الزراعية، والصناعية، ورغم ركود التجارة ببلاد السند في بداية الحكم الإسلامي لها.فلقد اهتم المسلمون بالزراعة والصناعة ببلاد السند، وعملوا على تقدمها، وبالتالي اهتموا بالتجارة في هذه البلاد، فحولوا مجرى سير سفنهم التجارية القادمة من جهات مختلفة، نحو بلاد السند، والوقوف عندها حتى تقوم بنقل المنتجات والبضائع الزراعية والصناعية السندية إلى البلاد العربية وغيرها، وكذلك تنقل البضائع العربية والفارسية وغيرها إلى بلاد السند، مما أدى إلى تنشيط حركة التجارة بعد زمن قصير بشكل سريع في بلاد السند التي أخذت تشتهر بمراكزها التجارية العظيمة -خاصة ميناء الديبل – بين البلاد الشرقية.

ففي العهد الإسلامي كان التجار المسلمون من العرب والفرس وغيرهم يأتون بأنواع البضائع من البلاد المختلفة ويملئون بها الأسواق في موانئ السند وخاصة الديبل. ويتاجرون فيها، بالإضافة إلى ذلك اشتراك تجار السند أنفسهم في تنشيط هذه الحركة التجارية،لتقدم التجارة وانتشار الرخاء والرفاهية ببلادهم، ولقد ذكر أحد مؤرخي السند(٦١)هذه الحقيقة حيث قال بأن حركة التجارة تقدمت كثيرا ببلاد السند ودخلت ميدان المنافسة والتصدير في العصر الإسلامي، وذلك بعد تقدم الزراعة والصناعة وبعناية المسلمين، بحيث أصبحت التجارة التي كانت للعرب في المناطق الهندية مثل الكجرات ومدراس ومالابار، أصبحت غير ناجحة في مقابل نجاح تجارة السند بشكل كبير ؛وذلك بسبب أن التجارة العربية في تلك المناطق الهندية المذكورة كانت محدودة، بخلاف ما كانت عليه ببلاد السند التي كانت مفتوحة في أيدي العرب، وكانت الحكومات العربية بها قائمة ؛ ولذلك كان من السهل على التجار أن يتنقلوا بحرية تامة واطمئنان كبير في جميع بلاد السند وخاصة الديبل ميناء السند الرئيسي، ومن خلال الديبل استطاع التجار أن يتنقلوا من مدينة إلى مدينة، ومن منطقة إلى أخرى، وعملوا على فتح أسواق جديدة في داخل بلاد السند، ومن خلال الديبل أيضا تم نقل بضائع السند إلى الخارج، وبالتالي كانوا يجنون من وراء ذلك أرباحا كثيرة بقدر ما كانوا يفيدون أيضا أهل السند. ومما لاشك فيه أن دخول بلاد السند في مضمار التجارة، قد شجع الزراع

والصناع على العمل على زيادة الإنتاج، وهكذا كانت الزراعة والصناعة والتجارة كلها كانت تسير جنبا إلى جنب في تقدم مستمر ببلاد السند في العهد الإسلامي.

وأضحت مدينة الديبل في العصر الإسلامي واحدة من أهم المراكز التجارية ليس في بلاد السند فحسب، بل في العالم الإسلامي قاطبة بعدما أصبحت مركزًا تجاريًا بريًا وبحريًا، تصل إليها القوافل العربية والفارسية حاملة أنواع البضائع الخارجية، وتحمل منها المنتجات الصناعية والزراعية في الوقت ذاته إلى الخارج(٦٢).

ج- اهتمام العباسيين بالمشرق :

اتجهت سياسة العباسيين منذ البداية نحو الاهتمام بالشرق إزاء انتقال ملكهم إلى العراق واختيارهم لبغداد حاضرة لدولتهم التي هيأت لهم القيام بهذا الدور؛ فهي بعيدة عن أعدائهم الروم الذين اتخذوا من البحر المتوسط مسرحا لتجارتهم(٦٣)قريبة من أصدقائهم الفرس الذين ساهموا في عملية وصولهم إلى السلطة، تطل على الخليج العربي والمحيط الهندي، حيث تمتد بلاد فارس والهند وسرنديب والصين، هذه البلاد الغنية بالمنتجات المتعددة وبخاصة المواد الإنشائية والسلع الكمالية، والتي يحتاجها المجتمع الإسلامي الجديد، ولقد أدرك العباسيون أن القوة السياسية والحضارية التي أرادوها للعراق مركز دولتهم، لابد أن يستند على أسس اقتصادية ثابتة، تشكل التجارة أهم مرافقه، ولهذا حرصوا على تحويل طرق التجارة العالمية من سواحل سوريا إلى العراق، ونشطت تجارة الخليج العربي والمحيط الهندي، وازدهرت موانئ الآيلة والبصرة وسيراف والديبل(٦٤) كموانئ إبحار واستيراد وتصدير، تعج أرصفتها وأسواقها بأنفس بضائع الشرق، وتوسعت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حتى صارت مظهرا من مظاهر أبهة الإسلام(٦٥).

د- جهود المسلمين في تأمين الخليج العربي والمحيط الهندي من خطر القراصنة:

كانت شواطئ نهر السند في المنطقة الممتدة من نهر مهران السند عبر مدينة الملتان والمنصورة والديبل وحتى سواحل السند، يسكنها قراصنة الهنود المعروفون باسم "قراصنة الميد أو الميذ" الذين اشتهروا بقطع الطريق على السفن

الإسلامية، باستخدام البوارج- وهي السفن الكبيرة - وممن تحدث عن مناطق القراصنة الميد على شواطئ نهر السند : الجغرافي الشهير ابن خرداذابه حيث ذكر هذه المواقع ونبه إلى خطورة القراصنة فيها، ووصفهم بأنهم عتاة مردة لصوص(٦٦)، كما تحدث المسعودي عن أماكن تجمع القراصنة الميد وقال :"نهر مهران السند، ومخرجه من الإقليم الخامس من عيون أعالي السند وجبالها من أرض قنوج من مملكة بودرة، وارض كشمير والقندهار والطاقن، حتى ينتهي إلى الملتان، وهناك يسمي مهران، ثم ينتهي إلى المنصورة، ويصب في البحر على نحو فرسخين من مدينة الديبل من ساحل السند وبين المنصورة وبين البحر نحو من سبعة أيام". واستمر في وصف المنطقة حتى قال :"فيه جنس من السند يقال لهم الميد وهم خلق عظيم، حزب لأهل المنصورة، ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة إلى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشوافي في بحر الروم(٦٧)".

وتعد الحملات البحرية التي أرسلها عثمان بن أبي العاص الثقفي أثناء ولايته على البحرين وعمان إلى سواحل الهند والسند في سنة (١٥هـ/٦٣٦م)، هي أولى الحملات البحرية للمسلمين في المحيط الهندي. وتبع ذلك عدة حملات متكررة حتى تم فتح الديبل والسند سنة (٩٢هـ/٧١٠م).

وفي الواقع أن هذه الحملات المبكرة الأولى التي كانت منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى بلاد السند والهند، قد أرسلت لمحاربة القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن والمدن والسواحل الإسلامية(٦٨).وحفل النصف الثاني من القرن الأول الهجري بأحداث عظيمة، كان من أهمها فتح المسلمين للسند وأجزاء من الهند، ولعل السبب الرئيسي الذي فتح المسلمون من أجله السند؛ هو اعتداءات القراصنة الهنود المتكررة على السفن الإسلامية في المحيط الهندي(٦٩)كما سبق ذكره.

ولقد ترتب على فتح السند تأديب القراصنة الهنود وتأمين الطريق التجاري البحري الذي يربط الخليج والبحر الأحمر بالهند والصين، وتمكن المسلمون من تطهيره من اللصوص الذين يقطعون سفنهم في البحر. كما اهتم الخلفاء الأمويون بالنشاط التجاري مع المشرق فأولوه عناية كبيرة فازدهرت العلاقات التجارية بين

الدولة الإسلامية والهند وجزيرة سيلان، وارتفع ميزان التبادل التجاري بينهم وتزايد نشاط المدن والموانئ الساحلية الهندية والسندية، وأصبحت الديبل من أهم المحطات التجارية التي تتوقف فيها السفن الإسلامية والتجار المسلمون أثناء رحلاتهم إلى الشرق(٧٠).

وذكرت المصادر التاريخية أن القراصنة الميد قاموا بقتل الحكم بن عوانه والي السند من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وذلك سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م(٧١).

ثم تلاحقت الأحداث بعد ذلك في الدولة العربية الإسلامية، وانتقلت السلطة السياسية من الأمويين إلى العباسيين، وإزاء هذه الظروف مرت الدولة العباسية في بداية تأسيسها بفترة من الثورات، والاضطراب السياسي، غير أنها لم تغفل عن تأمين الملاحة التجارية مع الشرق ومراقبة القراصنة الذين حاولوا استغلال هذه الظروف والعودة لمهاجمة السفن الإسلامية المسافرة إلى الشرق.

ومن مظاهر اهتمام العباسيين بالجهاد البحري(٧٢)ومحاربة القراصنة وتأمين الملاحة في الخليج العربي والمحيط الهندي أن أحدثوا وظيفة والي البحر، وكانت من مهام هذا الوالي تجهيز الحملات البحرية ومحاربة اللصوص والقراصنة، وحماية السفن الإسلامية أثناء رحلاتها إلى الشرق(٧٣).

ولقد بلغت بالقراصنة الجرأة في العصر العباسي أن توغلوا في مياه المحيط الهندي، وتوجهوا إلى منطقة الخليج العربي، وأخذوا هناك يتعرضون لسفن المسلمين، كما اعتدوا على جزيرة قيس في عصر أبي جعفر المنصور ودمروها، ويصف خليفة بن خياط هذه الحادثة فيقول:"سنة(١٤١هـ/٧٥٨م) ولى أبو جعفر المنصور محمد بن أبي عُيينة البحر، فنزل جزيرة قيس(جزيرة في البحر)، فاتته مراكب الميد، فلم يخرج إليهم، وخرج ابنه فقتل جماعة من المسلمين، وخلّى ابن عُيينهُ المدينة فخربها العدو فهي خراب إلى اليوم".

ويبدو أن إخفاق العباسيين في هزيمة القراصنة الميد وردعهم كان ولا ريب دافعا لهم لمضاعفة أعدادهم وتوسيع نشاطهم في الخليج العربي والمحيط الهندي، فساروا إلى البصرة سنة(١٤٦هـ/٧٦٣م)، ووصلوا إلى نهر دجلة. وهاجموا البصرة مرة أخرى سنة (١٥١هـ/٧٦٨م). فأرسل أبو جعفر المنصور جيشا بقيادة

أبي عبيدة السعدي ولتأديبهم[٧٤].

ولقد استهدفت هجمات القراصنة الميد للبصرة في هذه الفترة تحقيق أمور عدة منها : السيطرة على المنافذ البحرية والجزر ومراقبة حركة السفن وقطع الطريق على التجار المسافرين من بغداد عبر نهر دجلة إلى البصرة وسيراف والبحرين وعمان، لذلك نجدهم يعاودون هجماتهم على البصرة سنة (١٥٣هـ/٧٧٠م)، فيغيرون عليها ويصلون ببوارجهم إلى نهر الأمير المتفرع من نهر دجلة، حيث عاثوا في هذه المنطقة فسادًا فقتلوا وسبوا خلقًا من المسلمين. وعن هذه الهجمات يقول خليفة بن خياط:"وفيها سنة(١٥٣هـ/٧٧٠م) دخل الميد نهر الأمير بدجلة فقتلوا وسبوا. حدثني نضلة :أنه شهدهم يوم نهر الأمير وقاتلهم وجماعة معه حتى صاروا إلى بوارجهم واستنقذوا ما في أيديهم"[٧٥].

وعندما انتقل نشاط القراصنة الميد إلى البحر الأحمر وأغاروا على مدينة جدة سنة(١٥٣هـ/٧٧٠م)، أرسل المنصور جيشا كبيرا تمكن من مطاردتهم والقضاء على نشاطهم في البحر الأحمر. وفي سنة(١٥٩هـ/٧٧٥م)، أرسل الخليفة المهدي حملة بحرية ضخمة إلى بلاد الهند، اشترك فيها عددًا كبيرًا من الجنود، ومن المجاهدين المتطوعين يقودهم عبد الملك ابن شهاب المسمعي، وخرجت هذه الحملة إلى مدينة باربر، حيث نجحت في فتح المدينة ومطاردة القراصنة الهنود وتأديبهم[٧٦].

وفي سنة(١٧٠هـ/٧٨٦م)أراد هارون الرشيد أن يؤكد السيادة العباسية على الخليج والمحيط الهندي، وأن يظهر للقراصنة رغبته في وضع حد لنشاطهم في الخليج، فأرسل مباشرة بعد تولية الخلافة حملة بحرية مكونة من ثلاثة عشر مركبا، خرجت من البصرة ووصلت إلى حدود عمان؛ وقد أدت هذه الحملة إلى فزع القراصنة من أسطول المسلمين، وهروبهم إلى المحيط الهندي.

استمرت مطاردة المسلمين للقراصنة الميد طوال فترة خلافة هارون الرشيد؛ إذ يشير خليفة بن الخياط في أحداث سنة(١٧٧هـ/٧٩٣م) إلى قيام حملة بحرية إلى بحر البصرة، حيث تمكن المسلمون من أسر بارجة من بوارج الميد،واستمر المسلمون في خلافة الرشيد يرسلون الحملات البحرية، حيث تمكنوا من تطهير منطقة الخليج واسر المزيد من البوارج[٧٧].

ولقد نجحت جهود العباسيون في تطهير منطقة الخليج من القراصنة الهنود، وغيرهم من لصوص البحر، وزال الخطر والتهديد عن الطرق التجارية البحرية في المنطقة، وأصبحت خاضعة لسيطرة المسلمين وتحت حمايتهم.

وعندما فقد القراصنة مراكزهم في منطقة الخليج العربي، لجئوا إلى المحيط الهندي، واستخدموه لمهاجمة السفن الإسلامية المتجهة إلى الهند، ولغزو السواحل الإسلامية المطلة على بحر العرب.وكان من نتيجة ذلك أن تعرضت السواحل العمانية لهجمات البوارج الهندية التي استخدمت طريقة الكر على البلاد لنهبها وسلبها ثم الهروب إلى المناطق البعيدة، ولما تولى غسان بن عبد الله المحمدي الإمامة في عمان سنة(١٩٢هـ/٨٠٧م) أمر بإنشاء سفن تسمى الشذاه، صنعت خصيصا لردع القراصنة الميد وملاحقتهم، ولقد أفلحت جهود العمانيين في مواجهة القراصنة وإبعادهم عن السواحل العمانية.

ولقد حرص الخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعد الرشيد على تأمين الملاح في الخليج العربي والمحيط الهندي وتطهيرها من القراصنة واللصوص ؛فواصلوا إرسال الحملات البحرية إلى الهند.

ففي عهد الخليفة المأمون خرجت حملة بحرية كبيرة من مدينة سندان الواقعة على الحدود بين السند والهند لمحاربة الميد، وكان يقودها حاكم المدينة محمد بن الفضل بن ماهان وكانت تتكون من سبعين بارجة. كما تحدثت المصادر الإسلامية عن الحملة البحرية التي جهزها الخليفة المتوكل، وتولى قيادتها إبراهيم بن هاشم، وعبرت هذه الحملة المحيط الهندي في اتجاه مدينة سرشب، حيث نجحت في الوصول إلى المدينة، وفي تأمين الطريق البحري إلى الهند[٧٨].

هـ- تشجيع ملوك الهند للتجار من عرب السند :

كان من عوامل ازدهار تجارة الديبل في العهد الإسلامي تشجيع ملوك الهند للتجار المسلمين، ولذلك اختلفت النظرة للعرب المقيمين في جنوب الهند عن العرب في السند، ومن أهم حكام الهنود الذين رحبوا بالعرب "الراشتراكوتا" حكام الدكن – الذين أشار إليهم العرب باسم "بلهرا"– وقد أفرط الرحالة العرب في مدحهم لمحافظتهم على أرواحهم وأموالهم وسماحهم لهم بممارسة طقوسهم الدينية في حرية تامة[٧٩]، وكان لترحيبهم بالتجار العرب أسباب عديدة، منها حروبهم

المستمرة مع "الغورجارا برايتهارا" حكام الشمال الذين كانوا في عداء مع عرب السند أيضا، فقصد حكام الدكن كسب تأييد عرب السند لهم[٨٠] وكذلك لأنهم كانوا يجنون الأرباح الطائلة من وراء هذه التجارة.

ويذكر المسعودي إكرام ملك البلهرا للمسلمين :"وليس في ملوك السند والهند من يعز المسلمين في ملكه إلا البلهرا، فالإسلام في ملكه عزيز مصون، ولهم مساجد مبنية، وجوامع عامرة بالصلوات للمسلمين"[٨١]. وتحدث ابن حوقل عن إكرام ملك البلهرا للمسلمين، وتقع مملكة البلهرا من كنباية إلى صيمور، وهي من بلاد الهند الملاصقة للسند قرب الديبل، والغالب عليها الهندوس وبها مسلمون، إلا أنه من قوة مركز التجار المسلمين وإعزاز ملك البلهرا لهم لا يلي عليهم إلا مسلم، وكذلك الحال في سائر بلاد الهند كالخزر والسرير واللان، وغانه وكوغة وغيرها، ويتولى القضاء بينهم قاضي مسلم، وإن قل عددهم في بعض الممالك يقبلون القضاء من ذوي العفة من أهل الممالك، فإن جرحه الخصم وزكاه المسلم أمضيت شهادته، وتنتشر ببلاد البلهرا المساجد الجامعة"[٨٢] ومن الملوك الهنود المكرمين للتجار المسلمين ملك الطافي، وهو موادع لمن حوله من الملوك، ومملكتهم لا بحر لها، عكس مملكة البلهرا التي لا بر لها ولا بحر[٨٣].

و- الدور الذي قامت به الدولة الهبّارية من اجل تشجيع التجارة :

كان للدولة الهبّارية دور مهم فيما وصلت إليه التجارة في الديبل من ازدهار، فلقد بذلت مجهودات كبيرة للحفاظ على الأمن، والقضاء على الفتن، وقدمت خدمات تتصل بإصلاح الطرق وحفر الآبار وإنشاء الأسواق والسيطرة عليها[٨٤].

ولقد ضبط الهبّاريون الديبل وأعمالها، وعملوا على استتاب الأمن والنظام، واتبعوا سياسة مالية ناجحة، فلم يرهقوا الأهالي بالضرائب الفادحة، مما جعل سكان الديبل بشكل خاص والسند بشكل عام يشعرون بالارتياح العام، وجعلوهم يمارسون التجارة بحرّية تامة.

وهذه السياسات المعتدلة التي اتخذها الهبّاريون في بلاد السند ساعدت على رواج الزراعة والصناعة، مما ساعد على رواج التجارة بالديبل[٨٥].

فلقد كانت الديبل تمثل شريان السند الحيوي في اتصالاتها بالخارج أيام الهبّاريين، وعلى الأخص بحريا، ومادام للتجارة أثر في اقتصاد الدولة الهبّارية

وشهرتها، فقد حرصت الدولة على تأمين طرق التجارة سواء البرية منها أو البحرية، وذلك ليسود الأمن وتطمئن القوافل التجارية البرية والبحرية، لتؤدي مهمتها بيسر وطمأنينة.

وقامت الدولة الهبّارية في سبيل ذلك بتأمين الطرق من خطر القراصنة في البر والبحر؛ فلقد تصدى جيش الهّباريين لكل من الموجودين في بطائح مهران على مسافة نحو ثلاثمائة فرسخ، وهم خلق عظيم، وكان لهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة أراضي الهند والصين وجدة والقلزم، وغيرها كالشوافي في بحر الروم.والبدهة بين حدود طوران ومكران والملتان والمنصورة، إلا أن خطرهم أقل من خطر الميد، ويصدرون نوعا من الجمال الفالح(ذو السنامين)، يطلبه أهل خراسان وفارس لإنتاج الإبل البخاتي المشهور في العالم الإسلامي، أما الزط الذين لا يقل خطرهم عن الميد فكانوا ما بين المنصورة ومكران في بطائح مهران، وقد عمل الهبّاريون على محاربتهم، وتأمين التجارة من خطرهم[٨٦].

رابعًا : التجارة الداخلية :

اعتمدت الديبل في اقتصادها على التجارة ؛وذلك لأن الزراعة فيها كانت ضئيلة نظرًا لأرضها المجدبة قليلة الخصب، مقارنة بباقي مدن إقليم السند، الذي يعتبر بلد الخيرات والزروع والثمار لوجود نهر مهران. أما أهل الديبل فكان الاعتماد الرئيسي لهم من دخل التجارة، وقد افادت الديبل من موقعها في ذلك الأمر، حيث كانت الميناء الرئيسي للسند منذ القدم حتى العهد الإسلامي.

ولقد وصفها الإصطخري قائلا :"هي غربي مهران على البحر، وهي متجر كبير، وفرضة لهذه البلاد وغيرها.....وهو بلد قشف وإنما مقامهم التجارة"[٨٧]. كما وصفها المقدسي قائلا:"تجار كلامهم سندي وعربي، وهي فرضة الكور، كثيرة الدخل"[٨٨]، مما يدل على كثرة التجار العرب بها. وقد أدى ذلك إلى انتشار الإسلام واللغة العربية بها، وترجع أهميته التجارية إلى أنه أول ميناء بشمال الهند تقابله الرحلات التجارية القادمة من الخليج العربي، وكذلك سيطرته على مصب نهر السند، وما يحمل عن طريقه من بلاد البنجاب وكشمير، والديبل بذلك هي الميناء الرئيسي لمدينتي المنصورة والملتان الواقعتين على نهر السند[٨٩].وقد وصف

المقدسي التجارة في المنصورة والملتان بالازدهار وسعة العيش والأسعار رخيصة[٩٠] وترجع أهمية الملتان كمركز للتجارة الداخلية لوجود صنم الملتان الكبير بها الذي يقصده الحجاج الهنود من جميع أنحاء الهند لتعظيمه[٩١].

وكان مركز التجارة الداخلية في الديبل الأسواق، والتي اعتبرت بدورها مركزا للأنشطة التجارية من مختلف المجالات الزراعية والصناعية، ولقد أسهم النشاط التجاري في العصر الإسلامي في تغيير أحوال الديبل، حيث غلب الطابع التجاري على نشاطها.

ويعتبر السوق مركزا مهما لاستقطاب التجارة، ومجالا حيويا للنشاط المالي، ويعتبر أساسيًّا في رخاء المدينة، وازدهار حياتها الاقتصادية، ورفاهيتها الاجتماعية، ومن هنا كان الاهتمام بالسوق أمرًا ضروريًّا، لإظهاره بشكل يليق ومكانة المدينة من النواحي الجمالية والتنظيمية[٩٢]، وفي الحقيقة لا توجد معلومات دقيقة عن كيفية إجراء التصليحات والترميمات أو أعمال البناء التي يقتضيها السوق في الديبل، فهل كانت هناك إدارة خاصة للسوق مسئولة عن أعمال الصيانة هذه، وتخصيص المبالغ اللازمة لذلك. ولكن مما لاشك فيه أن أسواق الديبل كانت تخضع لإشراف المحتسب، فبلاد السند عرفت الحسبة منذ دخولها الإسلام، حيث كان يشرف على الآداب العامة والموازين والمكاييل[٩٣].

كانت الديبل تستورد عبر ما يحيط بها ويتبعها من قرى ومدن كثيرة.وكانت هذه السلع الضرورية تزخر بها أسواق الديبل، والتي كانت في وسط المدينة، كما كانت الأسواق منتشرة على طول خط ساحل المدينة على بحر العرب، حيث كانت تمارس عمليات البيع والشراء، ولقد مدح المقدسي بلاد السند عندما زارها قائلا : "إن الإقليم كثير التجارات المفيدة التي تدر الأرباح بكثرة، وأنه رخيص الأسعار، وبشكل لافت للنظر"[٩٤] وما ذلك إلا لكثرة العرض في الأسواق[٩٥]، مما يدل على ازدهار حركة التجارة ببلاد السند، وخاصة مدينة الديبل ميناء السند الأول.

كانت الأسواق تفتح أبوابها صباح كل يوم فتكون مليئة بالحركة الزاخرة بمعروضاتها، زاهية بألوانها حتى المساء، حيث تهجر ليلا، ولا يبقى سوى الحراس الذين يحاولون دون حدوث عمليات السطو، وكان ذلك يجري على مدار السنة، إلا أن هناك أسواقًا لها أيام معلومة تباع فيها البضاعة وتروج منها

التجارة.وتكاد تكون هذه الأسواق الموسمية مختصة بأنواع معينة من البضائع التي تنتجها مدن إقليم السند وقراه.

ولقد ذكر ابن حوقل عن الديبل أنه :"ميناء كبير للتجارة، ونجد في هذا الميناء أنواعًا مختلفة من التجارة"(٩٦).ولقد ساعد نهر السند في ربط الديبل بغيرها من مدن إقليم السند الأخرى التي تقع على النهر، كما ارتبطت مع بعض المدن الأخرى بعدة طرق برية.

وكان من أشهر مدن السند التي ارتبطت بطرق برية بالديبل، مدينة المنصورة عاصمة الهبّاريين، وكان بينها وبين الديبل ست مراحل، ومدينة قنبلى، ومنها إلى الديبل أربعة مراحل، ومدينة بيرون ومنها إلى الديبل أربعة مراحل(٩٧).

خامسًا : التجارة الخارجية :

نشطت تجارة الديبل الخارجية في عصر الدولة الهبّارية نشاطًا كبيرًا، وأخذت القوافل التجارية وسفنها تجوب كثير من البلاد؛ وقد ساعد على ذلك ارتباط الديبل بمجموعة من الطرق التجارية برية وبحرية، سهّل اتصالها بالعالم الخارجي.

أ- الطرق التجارية :

١- الطرق البرية :

اتصلت الديبل بمجموعة من الطرق البرية مع أنحاء السند والهند، وغيرهما من بلاد الإسلام، ومن أهم هذه الطرق ما يلي :

- الطريق البري الذي يبدأ من كرمان إلى مكران، ثم يصل إلى مدينة تيز، ومنها إلى كيز، ومنهما إلى كلوان ومدينة راهوق، ثم إلى أرمائيل، ومنها إلى الديبل، ومن الديبل يتجه الطريق إلى النيرون، ومدينة سيوستان(٩٨).
- طريق من قصرقند في مكران إلى راسك وذرك ثم إلى فنزبور ثم إلى قندابيل، ومنها إلى سيوستان فالمنصورة، ومنها إلى الملتان والديبل(٩٩).
- الطريق البري من العراق إلى الهند:حيث كانت تتحرك القوافل التجارية عبر ميناء الديبل إلى المنصورة ثم إلى برهمناباد، ومنها إلى باتيه، ثم كامهل، ثم سندان، حتى تصل إلى مدينة كهمبايت، ثم تعود القوافل بنفس الطريق إلى المنصورة، وتعود عبر مكران إلى كرمان، ثم إلى العراق وتعود في نفس

الطريق[١٠٠].

- الطريق مع خراسان وسجستان: تصل القوافل من الديبل في السند إلى سجستان من زرنج إلى حروري على نهر خواش، ثم إلى بست، ومنها إلى أعالي هلمند، ثم إلى بنجوان ثم إلى استجاى، ثم إلى سيبى، ثم إلى قندابيل، ومنها إلى المنصورة ثم الديبل[١٠١].

وهناك طريق آخر قادم من خراسان، يصل إلى بلخ عبر الجبال إلى الباميان، ثم يتجه إلى غزنة، ومنها إلى قصدار، ثم إلى مدن السند المختلفة[١٠٢].

- الطريق التجاري الذي يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند(ميناء الديبل) متجها إلى داخل بلاد فارس، ومارا بولاية سجستان، وإلى الشمال من هذا الطريق كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان وتواصلها إلى كابل وغزنة، ومن هذا كانت القوافل تسير نحو نيسابور وبخارى شمالا[١٠٣].

- ذكر سليمان الندوي:"أن العرب كانوا يسيرون من مدن مصر والشام على ساحل البحر الأحمر برا إلى الحجاز، ثم إلى اليمن، وبعد ذلك يبدعون رحلتهم بالبواخر الشراعية إلى ميناء تيز وديبل بالسند"[١٠٤].

ولقد أشار جوستاف لوبون أن القوافل التجارية كانت تصل من بلاد العرب إلى أعظم مراكز الشرق التجارية مثل سمرقند وكشمير ومدن السند المختلفة مثل المنصورة والديبل[١٠٥].

٢- الطرق البحرية :

اتصلت الديبل بالموانئ التجارية المعروفة آنذاك، عبر مجموعة من الطرق البحرية كما يلي:

- وفقا للجغرافيين العرب، فإن بعض طرق التجارة كانت تربط بلاد العرب ببلاد السند عبر ميناء الديبل، وبعضها يطول حتى يصل إلى الهند، وبعضها يواصل امتداده حتى يصل إلى الموانئ الصينية، ويمكن القول بأن السفن التجارية ابتداءً من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، كانت تتحرك من ميناء البصرة، وتمر بميناء عمان، حيث تتزود بحاجتها من الماء العذب والوقود والتموين، فتصل إلى ميناء تيز والديبل بالسند، حيث تدفع رسوم عبور تتراوح ما بين

دينار واحد وعشرة دنانير، ومن هذا الميناء تواصل السفن إبحارها إلى ميناء كولمبى بالهند، ومنه إلى موانئ الصين(١٠٦).

- وهناك طريق آخر استخدمته السفن التجارية، وكان يبدأ من عمان، ويصل إلى ميناء تيز أو الديبل ببلاد السند، لإفراغ شحنات البضائع، ثم تستمر السفن في مسيرتها من ميناء كولمبى بالهند، حيث تشحن بضائع الهند، وتتزود بالماء والتموين من ميناء سيراف، وتواصل السير إلى ميناء عدن، ومنه إلى جدة، وهناك تكون السفن المصرية مستعدة لحمل الشحنات المتجهة إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط، نظراً لخبرة المصريين بحركة التجارة في هذه الموانئ(١٠٧) وهذا يجعل ميناء جدة مكانا تنشط فيه حركة التجارة، ولهذا فقد وجدت فيه كل ألوان البضائع والمنتجات السندية، والهندية، والصينية، والزنجبارية، والحبشية، والفارسية(١٠٨).
- وهناك طريق ثالث تسلكه السفن التجارية يبدأ من البصرة، ويمر بالموانئ الفارسية، ثم الديبل، حتى موانئ الصين، حيث يتم تفريغ حمولة السفن، ثم تشحن بضائع صينية، ثم هندية، وسندية، وتصل أخيرا إلى ميناء البصرة،وتحمل كل منتجات هذه البلاد(١٠٩).
- الطريق البحري من الغرب إلى الشرق مارًّا بمصر عن طريق ميناء الفرما ثم مدينة القلزم: حيث كان مسلكا لتجار اليهود الرزانية الذين يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ويسميهم العرب تجار البحر(١١٠)، وكان هؤلاء التجار يتقنون العربية والفارسية بجانب الفرنسية والصقلبية، وكانوا يجلبون من الغرب الجواري والغلمان والديباج وجلود الأرانب، والسيوف.ويبدأ هؤلاء التجار رحلاتهم التجارية من بروفانس من فرنسا وترسو سفنهم عند الفرما، ثم يحملون تجارتهم على الدواب إلى مدينة القلزم، ومنها ينتقلون عبر بحر القلزم(الأحمر) مارين بموانئه المهمة مثل الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من تلك البلاد المسك، والعود والكافور، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي، ثم يعودون من حيث أتوا، مارين بمدينة القلزم بمصر، ومنها يتجهون إلى الفرما أو الإسكندرية حيث يركبون البحر إلى بروفانس(١١١).

وكان من الطبيعي في مدينة تجارية مهمة مثل الديبل، أن يؤسسوا فيها منازل

عديدة للقوافل وكمخزن للتجارة، ومنزل للصادر والوارد في المدينة.

ب- الصادرات والواردات :

كانت حركة التجارة نشطة بين الديبل ومناطق العالم الإسلامي والصين والهند، وكانت القوافل كثيرا ما تروح وتجئ بين هذه البلاد وبلاد خراسان عن طريق كابل وباميان، كما كانت لها اتصالاتها بزابوليستان Zabulistan وسجستان عن طريق غزنة وقندهار، وكان للسنديين الذين يعملون بالتجارة نصيب كبير من هذه الرحلات التجارية عبر ميناء الديبل.

ولقد تاجرت الديبل بسلعها الخاصة وبسلع السند، بمعنى أنها قامت بدور الوسيط التجاري، تستورد وتعيد التصدير مرة أخرى، مما جلب لها الرخاء الاقتصادي والربح الوفير(١١٢).

وتحدث ابن رسته عن ميناء الديبل بقوله:"كان ميناءًا كبيرًا يمكنه استقبال السفن الضخمة الوافدة بتجارتها من البلاد المختلفة، بينما لم يكن في إمكان بقية موانئ السند الأخرى استقبال إلا المراكب الصغيرة المحملة بالبضائع من السفن الكبيرة"(١١٣).

١- الصادرات :

كانت هناك بضائع عديدة يتم تصديرها من بلاد السند مباشرة أو من بعض مدن الهند الأخرى عن طريق ميناء الديبل، ويتم تصدير هذه المنتجات إلى البلاد العربية وبلاد فارس وخراسان وبلاد افريقية، وبعض من هذه البضائع كانت صناعية وبعضها الآخر زراعية.

جاء على رأس السلع التي خرجت من بلاد السند عبر ميناء الديبل إلى البلدان العربية خشب الساج، الذي كان ضروريا لبناء السفن، وذلك لافتقار بلدان الخليج العربي إلى الأخشاب وعدم ملاءمة مناخها لنمو شجر الساج، مما أدى إلى دفع التجار إلى جلب مقادير كبيرة من هذا النوع من خشب الساج، واتصفت هذه الشجرة بطولها وضخامتها في الوقت نفسه، وهو الأمر الذي أتاح لرجال البحر في الخليج الحصول على ألواح جيدة لبناء سفنهم. وخرجت من بعض مدن السند الأخرى عن طريق الديبل أيضا أنواع من شجر النارجيل(جوز الهند) الصالح

لتزويد السفن بالأخشاب المطلوبة أيضا، واستخدمت مدن العراق خشب الساج والنارجيل أيضا في بناء المنازل، وبخاصة منازل كبار التجار وأصحاب الثراء من رجال الدولة[١١٤].

وصدرت الديبل أيضا قصب السكر[١١٥] والعسل والفانيد(سكر النبات)والأرز والمانجو والليمون والموز والرمان والعنب والتين والتوت والأترج والقثاء والخروب والتفاح[١١٦] والخيزران والأبنوس والصندل والقرنفل والعنبر الهندي والكافور والعود الهندي[١١٧] والزعفران والمسك على شكل عطور، وبعض أنواع الخضاب والفلفل[١١٨].

أما المنتجات الصناعية، فخرج من الديبل الأحذية والمصنوعات الجلدية، وجلود الإبل والمواشي وجلود الأفاعي والسجاجيد والبسط[١١٩]والأقمشة بألونها المختلفة[١٢٠] والأواني المصنوعة من الفخار والذهب والفضة[١٢١] كما كانت تصدر المجوهرات والأحجار الكريمة والمعادن[١٢٢] وبعض المصنوعات الخشبية، وبعض أنواع الملح، وبعض الأسلحة السندية التي استخدمها العرب، وشهدوا لها بالجودة، مثل السيوف والخناجر والرماح[١٢٣].

ولقد ذاعت صناعة العاج في بلاد السند نظرا لكثرة الفيلة بتلك المناطق التي عرفت صناعة أشياء كثيرة من العاج، وكان في وسط المدينة سوق كبير للمنتجات والصناعات العاجية، كالعلب والصناديق ومقابض الأسلحة والسكاكين وحلي الزينة للنساء.هذا بالإضافة إلى أشكال مختلفة من الطيور كالغزال والفيل[١٢٤].

ويعد الورق وأدوات الكتابة من أشهر المنتجات التي خرجت من الديبل، حيث اشتهر في هذه البلاد نوع من الورق عرف باسم"الكاذي" كما عرفت أقلاما متخذة من القصب وخشب الفلفل ببلاد السند، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من الأحبار. وقد وجدت صناديق من الأقلام المبرية وغير المبرية في خزينة الخليفة المستنصر بالله العباسي عند وفاته سنة (٤٦١هـ / ١٠٦٨م)، وكانت قد أرسلت إليه من بلاد السند[١٢٥].

كما اشتهرت الديبل بصناعة الأسّرة والكراسي مما يتخذ من أنواع الخشب المختلفة وقاموا بتصديرها إلى البلاد العربية. ويذكر أن موسى بن عمر الهبّاري حاكم السند أهدى للخليفة المعتمد عام(٢٧١هـ/٨٨٤م) هدية سندية قيّمة، من بينها

سرير مصنوع من خشب العود([١٢٦]).

كما عرفت الديبل بصناعة الحلي منذ زمن بعيد، فكان عند أهل الديبل نوع من الزمرد يعرف بالحلي البحري، وهناك نوع أخر يعرف باسم الزمرد"المكي" لأنه كان يحمل إلى عمان، وغيرها من سواحل اليمن، ثم ينقل إلى مكة، وقد اشتهر باسمه لكثرة التجارة فيه بتلك المدينة المقدسة([١٢٧]).

ومن المنتجات التي راجت خارج الديبل، الأدوية والعقاقير الطبيّة المستخلصة من النباتات المنتشرة بكثرة في تلك البلاد، وخاصة بعد ترجمة العديد من الكتب في هذا المجال من اللغة السنسكريتية إلى العربية.ويذكر المقدسي أن صناعة الأدوية عرفت في الديبل، وأنها كانت تصدره إلى البلاد العربية الأخرى([١٢٨]) ويذكر الإدريسي أن أهل السند كانوا يحسنون تركيب اختلاط الأدوية([١٢٩]). وكانت جميع أسواق العالم الإسلامي آنذاك مفتوحة أمام تجارة الديبل، وكان من أبرزها ميناء آيلة في العراق، حيث كان هذا الميناء معروفا عند أهل الفرس والهند والسند منذ قبل الإسلام.

كما كانت نجد وظفار والحجاز من الأماكن التي لها أهمية خاصة للبضائع القادمة من الديبل؛حيث كان التجار اليمنيون أهم العناصر التجارية في المنطقة، فعلى أيديهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار، وواردات الهند والسند إلى الشام ومصر([١٣٠]).

ولقد ذكر المؤرخ الهندي أطهر المباركبوري :"إلى أن مكة كانت سوقًا كبيرًا في ذلك الوقت للبضائع الهندية والسندية"([١٣١]).

ويمكن القول بأن حركة التجارة في الديبل كانت نشطة، وأن تجارة الديبل كان لها أسواق في البصرة وبغداد وعدن وعمان واليمن وجدة وبلاد فارس وخراسان وسيراف، وكانت عدن من أعظم المراكز التجارية لتجميع البضائع السندية والهندية وتوزيعها للجهات الأخرى، كما كان ميناء جدة يستقبل السفن العمانية، ويوجه ما فيها من بضائع إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط.

٢- واردات الديبل :

استوردت الديبل كل ما ينقصها من منتجات زراعية أو صناعية من الأقطار الخارجية على النحو التالي :

- **من العراق**:استوردت الديبل من العراق بعض أنواع الفواكه، وخاصة التمر العراقي فكان يأتيها من البصرة[١٣٢]، واستوردت أيضا الخل، والأقمشة العراقية[١٣٣].
- **من عمان** : استوردت الخيول العربية الأصيلة المعروفة بالعراب والنحاس[١٣٤].
- **من خراسان** : استوردت الزيت واللوز[١٣٥] حيث عرف عن بلاد السند بشكل عام صناعة بعض أنواع الزيوت للإنارة، والبعض الآخر للطعام، وجلبوا بعضها من الخارج[١٣٦].
- **من فارس** : عرق الورد[١٣٧].
- **من الشام** : الزيت وزيتونه[١٣٨].
- **من مصر** : الأقمشة المصرية الممتازة[١٣٩]، والخواتم الذهبية المزينة بفصوص من الزمرد، والمحفوظة في علب جميلة، والمرجان وبعض الأحجار الكريمة التي لا مثيل لها في السند والهند ؛ لتستخدم في المجوهرات[١٤٠] مع العلم بأن وجهة سفن مصر إلى المشرق كان عن طريق ميناء الديبل.
- **من الهند** :استوردت الهند المسك الهندي الذي يأتي من التبت، ومن الديبل يصدر إلى الأقطار بحرا[١٤١].
- **من كابل** :كانت تأتي الديبل ثياب تصنع من القطن، وهو أجود أنواعها[١٤٢].
- **من الصين** :كانت ترد إلى الديبل من الصين بضائع مختلفة مثل المسك والعود والكافور[١٤٣].
- **من بلاد الروم** : الأقمشة الحريرية[١٤٤].
- **من غرب أوربا** : كانت منتجات غرب أوربا وبلاد الفرنجة تأتي الديبل عن طريق يهود الرزانية الذين كانوا يتجولون ما بين أقصى الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكانوا يبيعون ويشترون، ويتبادلون البضائع طوال رحلتهم هذه أينما رحلوا وارتحلوا، فكانوا ينطلقون من طنجة في بلاد المغرب- احدى مساراتهم- فالإسكندرية، فعدن، فكولم ملى حتى أقصى

الشرق، وكانوا يحملون من الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج والجلود والفراء والسمور والسيوف، فيبيعون هذه البضائع حسب حاجة المنطقة ورغبة أهلها، ومن ثم كانوا يشترون ما يناسب تجارتهم من تلك الموانئ إلى غيرها(١٤٥).

وذكر الإدريسي عن مهارة أهل الديبل في التجارة :" عن السفن والبضائع كانت تأتي من عمان والصين والهند فيشترون اكبر وأكثر قدر ممكن، حيث إنهم يملكون أكثر من غيرهم من الأموال وهم أغنياء، ثم يخزنون هذه البضائع حتى تقلع السفن التجارية من ميناء الديبل إلى وجهتها فيخرجونها ويبيعونها بأغلى الأثمان وكيف شاءوا"(١٤٦).

ويتضح من النص السابق أن هناك فئتين من التجار في ميناء الديبل، فئة مقيمة من أهل الديبل، وفئة زائرة يحضرون لموسم معين أو لفترات حسب الحركة التجارية ووصول السفن، حتى أنه بمجرد انقضاء وصرف بضائعهم يعودون من حيث أتوا.

ولقد استوردت الديبل بشكل عام الفواكه كالتفاح والكمثرى والسفرجل، مع وجود هذه المنتجات في بلاد السند الأخرى إلا أنها قليلة جدا(١٤٧).

سادسًا : وسائل المعاملات التجارية والمالية في الديبل :

بلغت الديبل درجة عظيمة من القوة التجارية، وخاصة في عهد الدولة الهبّارية، حيث أخذت بكل أسباب الحضارة المتغلبة ووسائل المدنية المتقدمة، خاصة فيما يختص بالإدارة والتعامل التجاري.

فلقد عرفت الديبل كل الوسائل التجارية والمالية المنتشرة، كما أنها عرفت تجارة المفرق والجملة. ولابد وأن تكون قد عرفت المعاملات البنكية لتنشيط حركة التجارة.فلقد عرفت الديبل الصيرفة والجهبذة، ولكن في صورة بدائية غير منتظمة تنظيمًا تامًا، فكان الصراف في السوق يقوم بالكثير من الأعمال البنكية، إذ يقوم بتغيير العملة سواء كانت أجنبية أم محلية، ذهبية كانت أم فضية، وكان من المعتاد أن التاجر إذا دخل السوق أودع ما معه من مال لدى أحد الصرافيين، وأخذ بدلًا منها صكًا أو ورقا عليه طابع "ختم" الصراف، ويسجل منها الحد الأقصى الذي يستطيع التاجر أن يتعامل به، وبهذا الرقاع يشتري ما يريد، ويعطي البائع منها ما

يساوي قيمتها، ويذهب الناس إلى الصراف ليأخذوا قيمتها النقدية ؛ وكان الناس يفعلون ذلك تفاديا لحمل مقادير كبيرة من العملة أثناء وجودهم في السوق، وتعرضهم للصوص في حالة الشراء، وفي آخر السوق يحسب التاجر حسابه مع الصراف، ويأخذ المتبقي له، أو يدفع الزائد عليه(١٤٨).

كما عرفت الديبل السفاتج(١٤٩)، فقد كان لنشاط التجارة في الديبل، وازدياد المعاملات المالية والتجارية بها أن اتخذت أساليب جديدة في المعاملات، تيسيرا على العملاء من أجل التعامل في أمن وطمأنينة ويسر. ومن هنا استعمل الناس السفاتج، وهي عبارة عن حوالة أو خطاب ضمان، يكتب بواسطة الجهابذة أو الصرافين، ويشتمل على قيمة معينة من المال قابلة للصرف في أي مكان من عملاء وجهابذة الشخص الذي له السفتجة بقيمة مالية، ويحملها في رحلته الطويلة وهو آمن على ماله، لأنه لا يجوز صرف أي مبلغ إلا لصاحب السفتجة، وقد استخدم التجار في الديبل هذه الوسيلة لإنجاز عملياتهم التجارية(١٥٠) وبذلك استطاع التجار نقل نقودهم من مكان إلى آخر، واستعملوا السفاتج في مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصة داخل الديبل وخارجها.

- **العملات السائدة :**

كانت العملة المستعملة في الديبل في عصر الدولة الهبّارية هي القاهريات. والقاهري(الفاطمي) الواحد يساوي خمسة دراهم من العادية، وكذلك الطاطري(الجاوي) ويساوي الواحد درهمين وثمن(١٥١)، ويتعاملون أيضا بالدينار(١٥٢) وذكر ابن حوقل أن اسمها القندهاريات(١٥٣)، وذكر ابن رستة أن التجار العرب عندما كانوا يتاجرون مع تلك البلاد كانوا يستعملون الطاطري ويساوي مثقالا(١٥٤).

ومما لاشك فيه أن الديبل أول أمرها، وقبل الهبّاريين كانت تستعمل العملات الإسلامية المضروبة في بلاد الشام والعراق، ثم استقلت عن الخلافة العباسية منذ سنة(٢٤٠هـ/٨٥٤م) وحتى عام(٤١٦هـ/١٠٢٥م) (فترة حكم الهبّاريين)، وضربت عملات جديدة من الفضة، فعملة الأمير عمر بن عبد العزيز الهباري الفضية كان حجمها واحدًا ونصف سم، ووزنها ٩ ذرات، وكتب على وجهها في أربعة صفوف(الله.محمد رسول الله.عمر)، ولا يوجد شيء على الهامش. وعلى

الظهر (بالله بنو عمر.وعنه المنذر)[١٥٥].

وكانت عملة عبد الله بن عمر أيضا فضية، وحجمها ٢سم، أي أنها أكبر من عملة أبيه- السابقة الذكر- ووزنها أقل، حيث كانت ٨ ونصف ذرة، وعلى وجهها(لا اله إلا الله وحده لا شريك له)، وعلى الظهر(محمد رسول الله)، ثم الأمير عبد الله. ولهذا الأمير أيضا عملة نحاسية أخرى حجمها ٣سم ونصف، والوزن ١٨ ذرة، وتحمل العبارات المسجلة نفسها على العملة الفضية السابقة الذكر[١٥٦].

كما وجدت عملات نحاسية بحجم ٣سم، ذكر أنها للأمير محمد بن عمر بن عبد الله، ووجه العملة أسود وعلى الظهر عبارة(بالله.محمد)، والوزن غير معروف، وهناك عملة ذكر الطرازي أنها للأمير أحمد، وهي فضية، وعلى وجهها عبارة (لا اله إلا الله وحده لا شريك له)، وهي العبارة المألوفة لدى الهبّاريين في ثلاثة صفوف. ويذكر صادق جودة أنه لا يوجد من بين المصادر التي وصلت إلينا أمير هبّاري اسمه احمد[١٥٧].

ومما سبق نستنتج أن هناك عملات دولية كالقاهرية(العملة الفاطمية)، والطاطريات (العملة الجاوية)، وكلها مستعملة في أرض السند بصفة عامة.

الخـــاتمـــة

بعد استعراض النشاط التجاري في الديبل في عصر الدولة الهبّارية، توصل البحث إلى مجموعة من النتائج هي :

- تعد مدينة الديبل من أقدم مدن إقليم السند وأشهرها، وذلك منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى أواخر العصر العباسي.
- انقرضت مدينة الديبل في القرن السادس الهجري، وكان تحديد موقع هذه المدينة تحديدا صحيحا لغزا حير الباحثين، والمؤرخين، وعلماء الآثار لفترة طويلة.وانتهت الدراسة إلي أن مكان الديبل الصحيح هو ما توصلت إليه دائرة آثار الحكومة الباكستانية وهو أن:"أطلال مدينة الديبل اليوم في داخل البلاد الباكستانية على نحو ٢٠كم جنوبي غرب ثتا Thatta، وعلى ٤٥ كم جنوب

شرق كراتشي الحالية، وهذا التحديد يعد هو الأقرب إلى مكان الديبل الحقيقي

- شهدت مدينة الديبل قمة ازدهارها التجاري في العصر الإسلامي بشكل عام، وفي عصر الدولة الهبّارية بشكل خاص.
- اعتمدت الديبل في اقتصادها على التجارة فقط، وذلك لأنها بلد غير زراعي وأفادت من موقعها المهم عند مصب نهر السند في المحيط الهندي.
- احتلت التجارة في الديبل مكانا متقدما في عصر الدولة الهبّارية، وكان تجار الديبل يجوبون الأقطار برًا وبحرًا ؛ ذلك بعد قيام الهبّاريين بدور كبير في حفظ الأمن والقضاء على الفتن الاضطرابات في البلاد.
- يعد الفتح الإسلامي للديبل من أهم عوامل ازدهار التجارة بها مقارنة بين حالة التجارة بها قبل الإسلام وبعده.
- أثر قيام دولة بني العباس، واهتمامهم بالمشرق بالإيجاب على تقدم حركة التجارة في الديبل وازدهارها.
- كان لجهود المسلمين في تأمين الخليج العربي، والمحيط الهندي من خطر القراصنة الدور الفعال في تنشيط تجارة الديبل.
- ارتبطت الديبل مع باقي مدن إقليم السند بروابط تجارية عديدة، حيث كانت ميناء السند الأول على المحيط الهندي.
- ارتبطت الديبل بالعالم الخارجي بمجموعة من الطرق البرية والبحرية ؛ كان لها أثر كبير في تنشيط تجارة الديبل الخارجية.
- تم تصدير معظم بضائع ومنتجات إقليم السند والهند إلى العالم الخارجي من خلال ميناء الديبل.
- عرفت الديبل كل الوسائل التجارية والمالية التي كانت منتشرة آنذاك في العالم الإسلامي مثل الصكوك والصيرفة والجهبذة.
- استعملت الديبل في عصر الدولة الهبّارية عملات بعضها ضرب في المنصورة – عاصمة إقليم السند – والبعض الآخر من الخارج.

الحــواشــي

1)الديبل:بفتح أوله وسكون ثانيه وياء موحدة مضمومة ولام . المباركبوري(أبو المعالي اطهر المباركبوري): رجال السند والهند إلى القرن السابع ، الجزء الأول ،جمعه وألفه وحققه القاضي أبو المعالي اطهر المباركبوري ، دار الأنصار ، الطبعة الأولى ،١٣٩٨هـ .صـ٣٢ .

2) البكري(أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد ، ج١ ،حققه مصطفى السقا، ط١، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٤٧ .صـ٥٦٩ .

3) الدمشقي(شمس الدين أبو عبد الله بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، ت٧٢٧هـ /١٣٢٣م) : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بإعتناء أوتوهار أسوتيز، لايبزج ،١٩٢٣ . صـ١٧٣ .

4) المقدسي(أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن موفق الدين بن قدامه المقدسي،ت ٣٧١هـ/٩٨١م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن ، بريل ، ١٩٠٩.صـ٣٧٩ .

5) الإصطخري(أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ت النصف الأول من القرن الأول من ق٤هـ/ ١٠م): المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، مراجعة محمد شفيق غربال ، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر ، ٢٠٠٤ ،صـ٢٢٨ .

6) ابن حوقل(أبو القاسم بن حوقل ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) : المسالك والممالك ، طبعة بريل ، ليدن، ١٩٨٠ . صـ٢٢٨.

7)الإدريسي(أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي، ت٥٦٢هـ / ١١٦٦م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون سنة طبع ، صـ١٦٧ .

8) اليعقوبي(احمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م): تاريخ اليعقوبي، دار صادر ، بيروت ، ج٢ .صـ٢٨٨ .

9) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥. صـ٣٣١.

10) صادق احمد جودة: مدينة المنصورة في ظل الدولة الهبّارية ببلاد السند ،ط١ ،٢٤٠-٤١٦هـ/٨٥٥-١٠٢٥م ، دار أمية ،الرياض ،١٤١٥هـ .صـ٧ .

11) المباركبوري: رجال السند والهند إلى القرن السابع ،صـ٣٣ .

12) عبد الله مبشر الطرازي : موسوعة التاريخ الإسلامي والنهضة الثقافية لبلاد السند والبنجاب في عهد العرب ، ج٢،الطبعة الأولى ،دار المعرفة ، جدة ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ،صـ٦٧٢ .

13) صادق احمد :المرجع السابق، صـ٧ .

14)الطرازي:المرجع السابق، صـ٦٧٤ .

15) البلاذري(أحمد بن يحيى بن جابر ،ت ٢٧٦هـ/٨٨٧م) : فتوح البلدان ، ج٣، تحقيق رضوان محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة السعادة ، مصر ،١٩٥٩، .صـ٥٣٥؛ ابن خرداذبة(أبو القاسم عبد الله بن عبد ربه ت ٣٠٠ هـ / ٩٠٠ م) : المسالك والممالك، دار صادر بيروت ، ١٨٨٩. صـ٦٢؛ الإصطخري: المصدر السابق ،صـ١٧٥ ؛المقدسي: المصدر السابق ،صـ٤٧٩ .

16) المسعودي(أبو الحسن علي بن الحسين ت ٣٥٤ هـ / ٩٥٦ م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،المكتبة العصرية ، بغداد ، (د.ت) .صـ٣٧٨ .

17) البيروني(أبو الريحان محمد بن أحمد ، ت ٤٤٠هـ/١٠٥٢م) : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الزخائر، العدد ١٠٩ ، مصر ، ٢٠٠٣.صـ٢٠٨ .

18) احمد الساداتي: تاريخ المسلمين في القارة الهندية – الباكستانية وحضارتهم ، القاهرة،١٩٧٠ ،صـ٩ .

19) Yasin(Muhammod) ,Asocial History of Islamic India,Lahore , Pakistan ,1958. ,P.29; Burn(E.J.E) Camberidge history of India , Iv, ed by E. J. Richard urn and others , camberidge ,1922 , p.476

20)الإدريسي:المصدر السابق ،ج١ ،صـ١٧٨.

21) المباركبوري : العقد الثمين في فتوح الهند وما ورد فيها من الصحابة والتابعين، العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين ، القاهرة ،١٩٨٠ .صـ١٩٣

22) Jaffar(s.m),Medieval India under muslim Kings ,Peshawar , Pakistan, P.15

23) ابن الأثير(عز الدين بن الحسن بن أبي الكرم الشيباني ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : الكامل في التاريخ ، ج٤ ، دار صادر بيروت / ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ .،صـ٣٦.

24) المباركبوري : العقد الثمين في فتوح الهند وما ورد فيها من الصحابة والتابعين،صـ١٩٣.

25)البلاذري:المصدر السابق ،صـ٤٢٣ .

26) Majmadar (R.C) The Arab invation of India, Journal of Indian history , Vol.x.

27) Lane Peole : Medival India under the Mohamadan Rule ,New York,1968.,p.9 .

28)parsad(Ishwari) .A short history of muslim rule in India , Pakistan,1986,41.

29) محمد يوسف النجرمي : العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية ، رسالة ماجستير ،كلية دار العلوم ،جامعة القاهرة ،إشراف د.احمد شلبي ،١٣٩٥هـ/١٩٧٥.،صـ٣٧ .

30)الطرازي:المرجع السابق ،ج١،صـ١٦٢.

31)نفسه والجزء ،والصفحة .

32)Lane Peole ,op.cit ,p.10 .
33)Lane Peole ,p.10

34) الزركلي : الأعلام ، ج٦، القاهرة ، ١٩٥٩ .صـــ٣٣٣ .
35)البلاذري:المصدر السابق ،صـــ٤٢٤.
36) اليعقوبي:المصدر السابق،ج٢،صـــ٢٨٨.
37)Lai (K.S) : Early Muslims in India ,New delhy,1984, p.12 ;parsad, op.cit ,p.42.
Lai, op.cit ,p.13.
38)ابن الأثير: المصدر السابق، ج٤،صـــ١٦٦؛
39)Panikar ,A survery of India, London , 1985 ,P.122 .
40) اليعقوبي :المصدر السابق،ج٢،صـــ٢٨٨ .
41)Ikram (S.M), History of muslim , p.9;civilization in India and Pakistan, 93-1273=711-1857.a political and cultural history ,Lahor , Pakistan, 1982 ,p.3.
42)parsad, op.cit ,p.42
43)Panikar ,op.cit ,p.123.
44)تم فتح بلاد السند عام ٩٢هـــ على يد القائد محمد بن القاسم ،وانتظمت البلاد في فلك الدولة الإسلامية،وعادت إليها الحرية والعدالة والمساواة،ولقد اهتم العرب المسلمون ببلاد السند،وعرفوا كيف ينهضون بتلك البلاد التي يحكمونها والتي يعتبرونها جزءا عزيزا من وطنهم الكبير وهو الوطن الإسلامي،فاهتموا في بادئ الأمر بتأسيس حكومة منظمة عادلة لأول مرة في تاريخ هذه البلاد ،ثم أسهموا مع الأهالي في تكوين نهضة حضارية كبيرة،شهدت بها القرون الهجرية الأولى في تاريخ بلاد السند.انظر البلاذري: المصدر السابق،ج٣،صـــ٤٤١.
45)بدأت الفتوحات الإسلامية تتجه صوب بلاد السند منذ فجر الإسلام ،ففي عهد الخلفاء الراشدين وصلت تلك الجيوش في زحفها إلى حدود بلاد السند حتى وصلت منطقة مكران(ثغر السند) تحت حكم العرب وأصبحت ولاية عربية صغيرة منذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان التي فتحت كلها بعد ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك سنة(٩٢هـــ/٧١٠م) وصارت بذلك ولاية إسلامية كبيرة.انظر البلاذري:المصدر السابق،ج٣،صـــ٥٣١.
كان منصور بن جمهور الكلبي واليًا على بلاد السند(١٢٩-١٣٢هـــ/٧٤٦-٧٥٠م)،وبقيام الدولة العباسية سنة(١٣٢هـــ/٧٥٠م) كان أبو مسلم الخراساني واليًا على خراسان وحاكما عاما على الولايات الشرقية التابعة للخلافة العباسية بما فيها بلاد السند ،فأرسل جيشًا بقيادة مفلس بن السري العبدي إلى بلاد السند الذي اشتبك بدوره مع منصور بن جمهور الأموي في قتال عنيف ،وهزم مفلس بن السري،فأرسل أبو مسلم جيشًا آخر بقيادة موسى بن كعب الذي استطاع أن ينتصر على جيش منصور بن جمهور ،وأسره وقتله ، ودخل موسى مدينة المنصورة منتصرا،وأسس بها حكومة عباسية جديدة.ابن الأثير،المصدر السابق،ج٥، صـــ١٤٧؛الطبري(محمد بن جرير الطبري) : تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ ،صـــ٨٠.

46)هارون بن خالد المروزي تولى بلاد السند من قبل الخليفة العباسي المتوكل من(٢٣٥-٢٤٠هـ/٨٤٩-١٠٢٥م)،وعندما وصل إلى السند لم يعبأ كثيرا بالمشكلات الموجودة فيها،وكان الحجازيون قد تركوا قوة جبارة تحت قيادة عمر بن عبد العزيز الهبّاري،وكان الوالي السابق عنبثة الضبي يسايسهم بحكمه ،ولكن يبدو أن هارون لم يجامل الحجازية ولم يبال بهم،فتضايقوا منه مما أدى إلى تجدد الخصومات بين الحجازية واليمانية واستمرت الحالة هكذا لمدة خمس سنوات حتى قتل هارون بن خالد المروزي في سنة(٢٤٠هـ/٨٥٤م) على أيدي الحجازية في مؤامرة دبرها ضده.عبد الله مبشر الطرازي : المرجع السابق،ج١،صـ٢٢٩؛ المباركبوري: الحكومات العربية في الهند والسند ، ترجمه عن الأردية :عبد العزيز عزت عبد الجليل ، السعودية ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م ،صـ١٠٤ .

47)يرجع أصل الأسرة الحاكمة الجديدة في المنصورة ببلاد السند(٢٤٠-٤١٦هـ/٨٥٤-١٠٢٥م) إلى صحابي جليل يسمى هبّار بن اسود،احد أفراد قبيلة بني أسد المتفرقة من قبيلة قريش الكبيرة،وقد اسلم هبّار في سنة ٨هـ ، وقدم حفيده المنذر بن زبير إلى بلاد السند في معية الحكم بن عوانة الكلبي الوالي الأموي على بلاد انسند في سنة(١١٢هـ/٧٣٠م)،وكان المنذر من كبار قواده،وقرر البقاء في هذه البلاد،وعين حاكما على مدينة باتيه،وزاد نفوذ أسرته فيها.ويعتبر عمر بن عبد العزيز الهبّاري مؤسس الدولة الهبّارية العربية في المنصورة ببلاد السند،قد نشا وترعرع في رعاية جده ووالده وتربى تربية طيبة ، روحها روح العسكرية والقيادة،وبذلك يكون نسبه هكذا عمر بن عبد العزيز بن المنذر بن زبير بن عبد الرحمن بن هبّار بن الأسود الأسدي القريشي ، ولقد شغل أفراد الأسرة الهبارية مناصب كبيرة في الدولة الأموية ثم في الدولة العباسية . ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ،ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م . ج٢، صـ٣٢٧؛ عبد الله مبشر الطرازي: المرجع السابق، ج١، صـ٢٣١؛ المباركبوري: الحكومات العربية في الهند والسند ، صـ١١٠ . ولقد ذكر الطرازي أن مدينة باتيه التي شهدت بداية بزوغ سيادة الهبّاريين ونفوذهم تقع بالقرب من المنصورة في جنوبها، واشتهرت أسرة عمر الهبّاري ببلاد السند بالأسرة الهبّارية،ونسبت إليها الدولة وقد أخطأ اليعقوبي بجعل هذه الأسرة من أسرة(سامه بن لؤي)مما جعل بعض الباحثين أن يقعوا في نفس الخطأ مثله،فلقد ذكر التاريخ أن أسرة(سامه بن لؤي) حكمت إقليم الملتان في القرنين الثالث والرابع الهجريين،كما يؤكد ذلك جميع المؤرخين والجغرافيين العرب.عبد الله مبشر الطرازي:المرجع السابق،ج١، صـ٢٣١،هامش١.

48)مما هو جديرا بالذكر انه في الوقت الذي استولى فيه عمر بن عبد العزيز الهبّاري على الحكم في المنصورة ببلاد السند،قامت دولة عربية ثانية في الملتان بإقليم البنجاب باسم الدولة العربية في الملتان،ومعنى ذلك أن الحكم العربي ببلاد السند انقسم إلى حكومتين عربيتين شبه مستقلتين عن الخلافة العباسية ابتداء من سنة(٢٤٠هـ/٨٥٤م).عبد الله مبشر الطرازي:المرجع السابق،نفس الجزء،صـ٢٣٠؛ المباركبوري : الهند في عهد العباسيين ،صـ٥٢ .

49)المسعودي:المصدر السابق،ج١،صـ٣٧٧. ؛ المباركبوري : الهند في عهد العباسيين ،صـ٥٣ .

50)Ikram, op.cit ,p.16.

51)المقدسي:المصدر السابق،صـ٤٧٩؛عبد الله مبشر الطرازي:المرجع السابق،نفس الجزء،صـ٢٣٦.

52)المسعودي:المصدر السابق،ج١،صـ١٨٩.

53)ابن الأثير:المصدر السابق،ج٩،صـ٢٤٣؛عبد الله مبشر الطرازي:المرجع السابق،ج١،صـ٢٣٧.

54) الكرديزي(أبو سعيد عبد الحي من الضحاك ت ٤٤٣هـ/١٠٥١م) : زين الأخبار ، ترجمة عفاف زيدان ، الطبعة الأولى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .صـ٢٨١.

55)ابن الأثير:المصدر السابق،صـ٣٢.

56)عبد الله مبشر الطرازي:المرجع السابق،ج١،صـ٢٣٧.

57)الكرديزي:المصدر السابق،صـ٢٨١.

58)Ikram, opcit ,p.16.

59)الطرازي :المرجع السابق،ج١،صـ١٥؛ Raverty ,The Mihran of Sind ,Bengal,1892, p.156

60)أبي ظفر الندوي ،تاريخ السند(بالاوردية) ،صـ٤.

61) الطرازي :ج٢،صـ٥٢٦ -٥٢٧ ؛ Chand ,Influence of Islam in India, Dacca , 1970 ,p.23

62) المقدسي:المصدر السابق،صـ٤٨٠؛ الطرازي :المرجع السابق،ج٢،صـ٥٢٨.

63) عادل محي الدين : تجارة العراق البحرية مع اندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري/ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ، ١٩٨٤ ،صـ٣٣.

64)نعيم زكي،طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣.صـ١٨٨؛عادل محي الدين:المرجع السابق،صـ٣٤.

65) عادل محي الدين:المرجع السابق،صـ٣٤؛ ادم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريده ، ج٢، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م،صـ٣٧١.

66)ابن خرداذبه:المصدر السابق،صـ٦٣.

67) المسعودي:المصدر السابق،ج١،صـ١٨٠.

68) سيف المريخي،القرصنة في الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي في العصور الإسلامية الأولى، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ،العدد٥٨ ، لسنة٢٠٠٨ . صـ٢١؛ رمزية عبد الوهاب : تجارة الخليج العربي وآثارها الاقتصادية في الخليج العربي والعراق منذ صدر الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية دار العلوم ،١٩٧٩.،صـ٦٦.

69) سيف المريخي :المرجع السابق،صـ٢١ .

70) سيف المريخي :المرجع السابق،صـ٢٣ ؛ مقبول احمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب من القرن العاشر قبل الميلاد إلى العصر الحديث ،مجلة ثقافة الهند ، يناير ،المجلد ١٦ ، العدد ١ لسنة ١٩٦٥، صـ٢٣.
71)سيف المريخي: المرجع السابق صـ٢٣.
72)رمزية عبد الوهاب،المرجع السابق،صـ١٥٠؛ سيف المريخي ،المرجع السابق،صـ٢٣ .
73)فاروق عمر،العباسيون الأوائل،ج١، بيروت ،١٣٩٠هـ/١٩٧٠.صـ٢٥١.
74) سيف المريخي : المرجع السابق ،صـ٢٤ ؛ عادل محي الدين:المرجع السابق،صـ٤٤-٤٥.
75) سيف المريخي: المرجع السابق ،صـ٢٤.
76) نفسه والصفحة.
77) نفسه،صـ٢٥.
78)نفسه والصفحة.
79) وفاء محمود عبد الحليم: تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية في الهند من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة،٢٠٠٣.صـ٩٢.
80)مقبول احمد :المرجع السابق ،صـ١٠٣؛وفاء محمود: المرجع السابق ،صـ٩٢.
81)ابن حوقل:المصدر السابق،صـ٢٢٠.
82)وفاء محمود: المرجع السابق، صـ٩٢.
83)نفسه والصفحة .
84)صادق احمد: المرجع السابق ،صـ٣٨.
85)المقدسي:المصدر السابق،صـ٤٨١.
86) صادق احمد: المرجع السابق ،صـ٦٦.
87)الإصطخري:المصدر السابق،صـ١٠٤.
88)المقدسي:المصدر السابق،صـ٣٧٩.
89)وفاء محمود: المرجع السابق ،صـ٩٣؛ سليمان إبراهيم العسكري : التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي ، مؤسسة الشراع العربي : الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ .صـ١٦٢.
90)المقدسي:المصدر السابق،صـ٣٨١.
91)وفاء محمود:المرجع السابق،صـ٩٣؛العسكري: المرجع السابق،صـ١٦٣.
92)متز: المرجع السابق،ج١،صـ١٣٤.
93)المسعودي:المصدر السابق،ج١،صـ٣٧٥.
94)المقدسي:المصدر السابق،صـ٤٧٩.
95)ابن حوقل:المصدر السابق،صـ٢٧٧.
96)ابن حوقل:المصدر السابق،صـ٢٣٠.
97)الإصطخري:المصدر السابق،صـ١٠٦.

98)صادق احمد:المرجع السابق،صـــ٦٢-٦٣.
99)السيرافي(أبو زيد حسن السيرافي التاجر): مذكرات السفر و سلسلة التواريخ ، باريس،١٨٤٥،صـــ١٠٣.
100) ابن خرداذبه:المصدر السابق،صـــ١٥٥؛ صادق احمد:المرجع السابق،صـــ٦٣.
101)Barthold : An Historical Geography of Iran, London , 1984, p.97.
102)ابن خرداذبه:المصدر السابق،صـــ٥٦؛ Barthold : Op.cit, p.97.
103)Minorsky ,Medival Iran and its Neighbours,London,1982 , p.25.
104) أبو ظفر الندوي : تاريخ سند ، طبع أعظم كده ، الهند ،١٩٤٧، صـــ٧.
105)جوستاف لوبون،حضارة الهند، ترجمه عادل زعيتر ، القاهرة ،١٩٤٨ .صـــ٢٣٧.
106)سليمان التاجر،سلسلة التواريخ،صـــ١٥؛عبد الله محمد جمال الدين،التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان،صـــ٢٠٥.
107) عبد الله محمد جمال الدين : التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان أو السند والبنجاب إلى أواخر فترة الحكم العربي(١٥-٤١٦هـ/٦٣٦-١٠٢٥م) ، الطبعة الأولى ،دار الصحوة ، القاهرة ، ١٩٩١ .صـــ٢٠٥.
108) ابن خرداذبه،المصدر السابق،صـــ١٦؛عبد الله محمد جمال الدين :المرجع السابق،صـــ٢٠٥.
109)ابن خرداذبه:المصدر السابق،صـــ٦٤؛عبد الله محمد جمال الدين :المرجع السابق،صـــ٢٠٥.
110) ابن الفقيه الهمذانى(أبو بكر محمد بن أحمد ت ٢٩٠/٩٠٣ م):البلدان ، ليدن،١٨٨٤ ، صـــ٢٧٠.
111)ابن خرداذبه:المصدر السابق،صـــ١٥٣.
112)صادق احمد:المرجع السابق،صـــ٦٦.
113) ابن رستة(ابي علي أحمد بن عمر، توفي نهاية القرن الثالث الهجري) : الأعلاق النفيسة ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٩٢ .صـــ٨٦،٨٧؛عبد الله محمد جمال ،المرجع السابق،صـــ٢٠٦.
114) سليمان ابراهيم: مقالات بالأردية ، طبع اله أياد،الهند ، صـــ١٧٢؛مقبول احمد،صـــ١٩٣٠.
115)الإصطخري:المصدر السابق،صـــ١٠٣.
116)المسعودي:المصدر السابق،ج١،صـــ٤٤؛المقدسي:المصدر السابق،صـــ٤٧٩.
117) رشيد(القاضي رشيد بن الزبير) : الزخائر والتحف ، تحقيق محمد حميد الدين ، الكويت ،١٩٥٩. صـــ٣٥؛ سليمان التاجر،المرجع السابق،صـــ٦.
118)المسعودي:المصدر السابق،ج١،صـــ٤٥.
119)المقدسي:المصدر السابق،صـــ٤٨١؛المسعودي:المصدر السابق،ج٢،صـــ١٣٢.
120)القاضي رشيد:المصدر السابق،صـــ٢٤.
121)الإصطخري:المصدر السابق،صـــ١٠٤.

122)سليمان التاجر:المرجع السابق،صـــ٢٣.
123) الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت٢٥٥هــ/٨٦٨م) : رسالة فخر السودان علي البيضان ، مصر ،١٣٢٤هــ/١٩٠٦م .صـــ٨٠
124)السعودي:المصدر السابق ،ج١،صـــ١٩٤:١٩٠.
125)القاضي رشيد:المصدر السابق،صـــ٢٢٥.
126)نفسه،صـــ٢٤.
127)نفسه،صـــ١٨٥.
128)المقدسي:المصدر السابق،صـــ٤٨١.
129)عبد الله محمد جمال الدين :المرجع السابق صـــ١٩٧ .
130) احمد أمين: فجر الإسلام ،ج١،القاهرة،١٩٣٨.ج١،صـــ١٣ .
131) محمد يوسف : المرجع السابق صـــ١٦ .
132) أبو الفداء(عماد الدين إسماعيل أبو الفداء ت ٧٣٢هــ/١٣٣٢ م): تقويم البلدان ، عني بتصحيحه رينود والبارون مالك كوتين ، دار صادر ، بيروت، ١٨٤٠تقويم البلدان ،صـــ٢٤٩ .
133) البلاذري : المصدر السابق ،صـــ٦١٣ ؛ الأعشى :المصدر السابق ،ج٥ ،صـــ٦٤ .
134) ابن الأثير :المصدر السابق ،ج٥ ،صـــ٤٥٥.مع العلم بأن السند كان بها الخيل والبراذين، لكن أكثرها غير جيد مقارنة بالخيول العربية .سليمان التاجر:المصدر السابق،صـــ٢٥.
135) ابن بطوطة(محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي ، ت ٧٧٩هــ/١٣٧٧م) : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المعروف برحلة ابن بطوطة) ، ج٢، مجلدان ، تحقيق على المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ،(د.ت).صـــ١٠٥ .
136)القلقشندى(أبو العباس أحمد المعروف بالقلقشندى ، ت ٨٢١ هــ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ، تقديم فوزي أمين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ، العدد ١٣٠ ، ٢٠٠٤ ،صـــ٨٣.
137)عبد الله محمد جمال الدين:المرجع السابق،صـــ٢٠٩ .
138)نفسه و الصفحة .
139) الأعشى:المصدر السابق،ج٥،صـــ٦٤.
140) سليمان التاجر:سلسلة التراريخ،صـــ٩٢.
141) اليعقوبي:المصدر السابق،صـــ٣٦٨.
142) الإدريسي:المصدر السابق،ج١،صـــ١٩٦.
143) ابن خرداذبه:المصدر السابق،صـــ١٥٣.
144) نفسه،صـــ١٥٤.
145) ابن خرداذبه :المصدر السابق،صـــ١٥٣.
146)الإدريسي:المصدر السابق،ج١،صـــ١٦٧.
147)الأعشى:المصدر السابق،ج٥،صـــ٨٣.

148)حسين مؤنس:عالم الإسلام،القاهرة ،١٩٧٣،صـــ٣٤١.

149)السفاتج:جمع سفتجة وهي كلمة فارسية ،ومعناها خطاب ضمان . الخوارزمي(أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي ، ت٣٨٧هـــ/٩٩٧م): مفاتيح العلوم،تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت) .،تحقيق إبراهيم الإبياري،دار الكتاب العربي ،بيروت،صـــ٥٨.

150)عبد العزيز الدوري:النظم الإسلامية،العراق،١٩٥٠،صـــ١٧٤.

151)صادق جودة:المرجع السابق،صـــ٦٨.

152)ابن حوقل:المصدر السابق،صـــ٢٧٧.

153)صادق جودة:المرجع السابق، صـــ١٠٥.حاشية٣٩٠.

154)ابن رسته:المصدر السابق،صـــ١٣٥.والمثقال يساوي درهما وكسرا ،وذكر المقدسي أن الطاطري يساوي واحدا وثلثي درهم عادي. صادق جودة:المرجع السابق،صـــ١٠٥.حاشية٣٩٠.

155)صادق جودة:المرجع السابق،صـــ٦٨.

156)الطرازي:المرجع السابق،ج٢،صـــ١٩٨؛ صادق جودة: المرجع السابق،صـــ٦٩.

157)صادق جودة:المرجع السابق،صـــ٦٩.

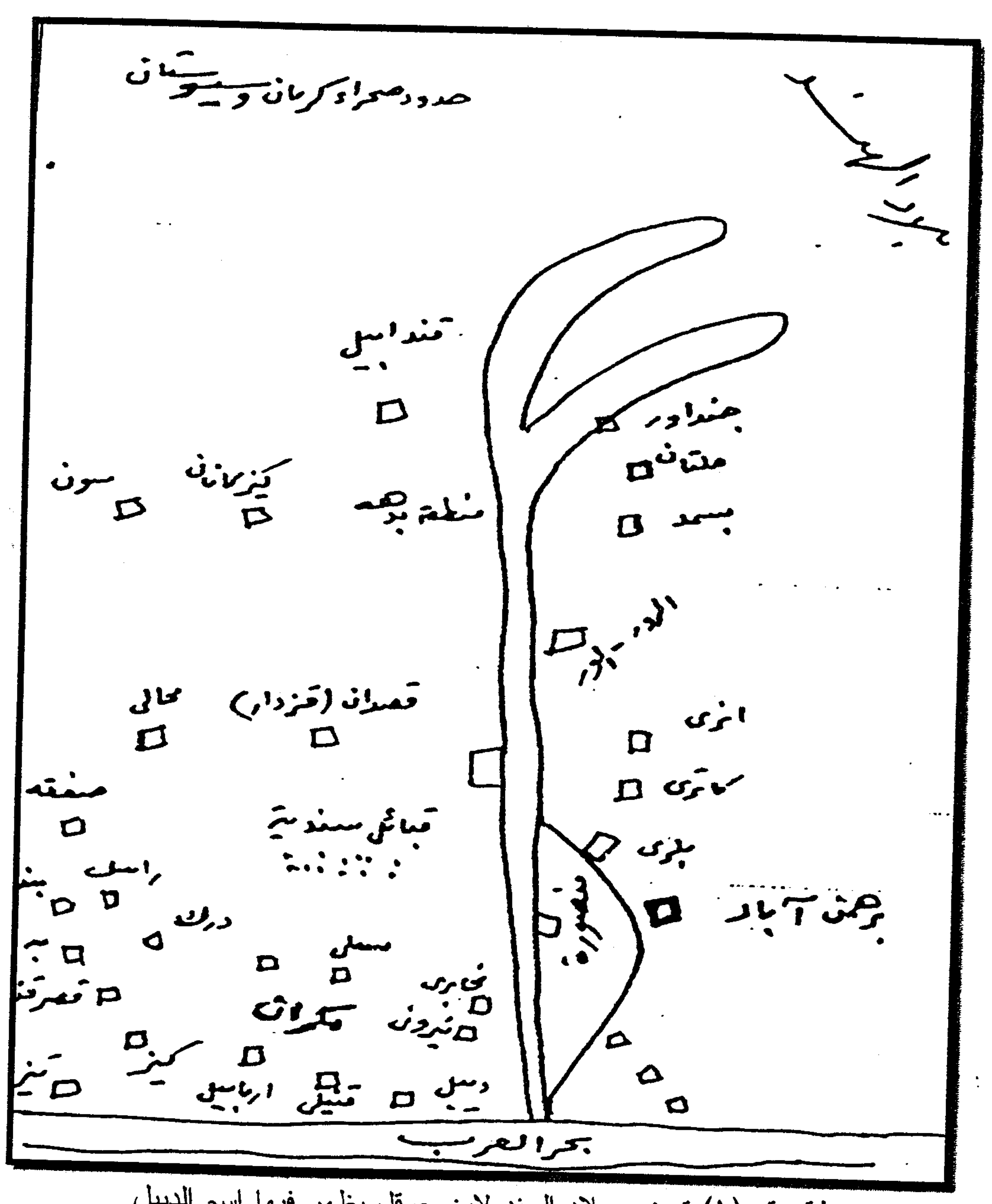
الملاحق

خلفاء العصر العباسي الثاني والثالث

١- المتوكل(جعفر بن المعتصم بالله) (٢٣٢-٢٤٧هـ)
٢- المنتصر بالله (ابن المتوكل) (٢٤٧-٢٤٨هـ)
٣- المستعين بالله (أحمد بن محمد المنتصر(٢٤٨-٢٥٢هـ)
٤- المعتز بالله (محمد بن المتوكل) (٢٥٢-٢٥٥هـ)
٥- المهتدي بالله (محمد بن جعفر بن الواثق) (٢٥٥-٢٥٦هـ)
٦- المعتمد على الله (أحمد بن المتوكل) (٢٥٦-٢٧٩هـ)
٧- المعتضد بالله (أحمد بن الموفق) (٢٧٩-٢٨٩هـ)
٨- المكتفي بالله (علي بن المعتضد) (٢٨٩-٢٩٥هـ)
٩- المقتدر بالله (جعفر بن المعتضد) (٢٩٥-٣٢٠هـ)
١٠- القاهر (محمد بن المعتضد) (٣٢٠-٣٢٢هـ)
١١- الراضي بالله (أحمد بن المقتدر) (٣٢٢-٣٢٩هـ)
١٢- المقتضي (إبراهيم بن المقتدر) (٣٢٩-٣٣٣هـ)
١٣- المستكفي(عبد الله بن المكتفي) (٣٣٣-٣٣٤هـ)
١٤- المطيع لله (أبو الفضل بن المقتدر) (٣٣٤-٣٦٣هـ)
١٥- الطائع لله (ابن المطيع) (٣٦٣-٣٨١هـ)
١٦- القادر بالله (أحمد بن المقتضي) (٣٨٣-٤٢٢هـ)

حكام الدولة الهبّارية في بلاد السند

١- عمر بن عبد العزيز بن المنذر (٢٤٠-٢٧٠هـ).
٢- عبد الله بن عمر بن عبد العزيز (٢٧٠-٣٠١هـ).
٣- عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز(الثاني)(٣٠١-٣٣٠هـ).
٤- محمد بن عمر بن عبد الله (٣٣٠-٣٦٠هـ تقريبا).
٥- علي بن عمر بن عبد الله(٣٦٠-٣٧٥هـ).
٦- ولاية (؟) بن علي الهباري (٣٧٥-٤٠١هـ) ونهاية الأسرة الهبارية.
- دولة الشيعة في المنصورة(٤٠٢-٤١٦هـ).
- حملة السلطان محمود الغزنوي على المنصورة وزوال الدولة العربية بها(سنة ٤١٦هـ).

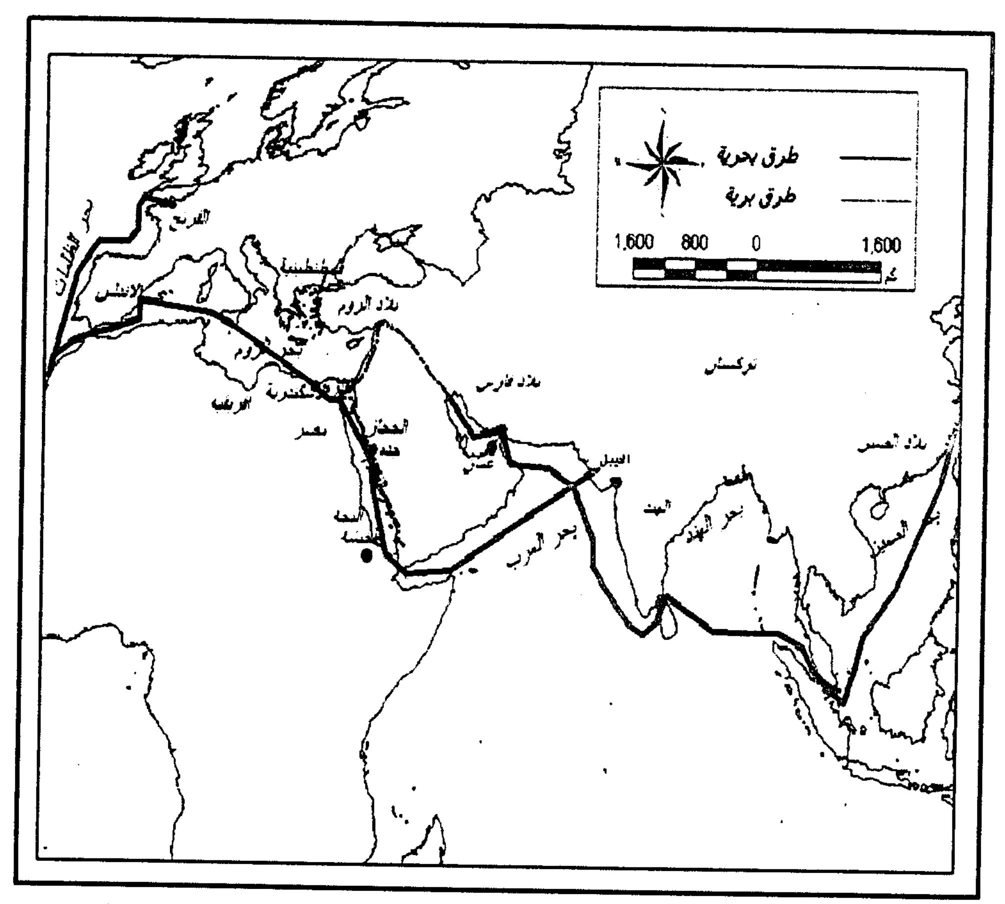


خريطة رقم (١) توضح بلاد السند لابن حوقل يظهر فيها اسم الديبل



المصدر/ الطرازي ، انظر الملاحق

خريطة رقم (٢) توضح موقع مدينة الديبل بالنسبة لبلاد السند



خريطة رقم (٣) توضح طرق التجارة الدولية التي ربطت الديبل بالعالم الخارجي

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية :

- **ابن الأثير**(عز الدين بن الحسن بن أبي الكرم الشيباني ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) : الكامل في التاريخ ، ج٣ ، دار صادر بيروت / ١٤٠٢هـ / ١٩٨١ .
- **الإدريسي**(أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي، ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦ م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، بدون سنة طبع .
- **الإصطخري**(أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ت النصف الأول من القرن الأول من ق٤هـ/ ١٠م): المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، مراجعة محمد شفيق غربال ، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر ، ٢٠٠٤ .
- **ابن بطوطة**(محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي ، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المعروف برحلة ابن بطوطة) ، مجلدان ، تحقيق على المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان،(د.ت).
- **البكري**(أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد ، ج٤، حققه مصطفى السقا، ط١، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
- **البلاذري**(أحمد بن يحيى بن جابر ،ت ٢٧٦هـ/٨٨٧م) : فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٩، .
- **البيروني**(أبو الريحان محمد بن أحمد ، ت ٤٤٠هـ/١٠٥٢م) : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الزخائر، العدد ١٠٩ ، مصر ، ٢٠٠٣.
- **الجاحظ**(أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) : رسالة فخر السودان علي البيضان ، مصر ،١٣٢٤هـ/١٩٠٦م .
- **ابن حوقل**(أبو القاسم بن حوقل ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) : المسالك والممالك ، طبعة بريل ، ليدن، ١٩٨٠ .
- **ابن خرداذبة**(أبو القاسم عبد الله بن عبد ربه ت ٣٠٠ هـ / ٩٠٠ م) : المسالك والممالك، دار صادر بيروت ، ١٨٨٩.

- **ابن خلدون**(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ،ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- **الخوارزمي**(أبي عبد الله محمد بن احمد بن يوسف الخوارزمي ، ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) : مفاتيح العلوم،تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت) .
- **الدمشقي**(شمس الدين أبو عبد الله بن أبي طالب الدمشقي، ت٧٢٧هـ /١٣٢٣م):نخبة الدهر في عجائب البر والبحر،بإعتناء أوتوهار أسوتيز، لايبزج ، ١٩٢٣.
- **ابن رستة**(ابي علي أحمد بن عمر، توفي نهاية القرن الثالث الهجري) : الأعلاق النفيسة ، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٢ .
- **رشيد**(القاضي رشيد بن الزبير): الزخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الدين، الكويت ، ١٩٥٩.
- **السيرافي**(أبو زيد حسن السيرافي): مذكرات السفر و سلسلة التواريخ، باريس ، ١٨٤٥.
- **الطبري**(محمد بن جرير الطبري) : تاريخ الرسل والملوك، ج٣، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨ .
- **أبو الفداء**(عماد الدين إسماعيل أبو الفداء ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢ م): تقويم البلدان، عني بتصحيحه رينود والبارون مالك كوتين، دار صادر ، بيروت، ١٨٤٠
- **ابن الفقيه الهمذانى**(أبو بكر محمد بن أحمد ت ٢٩٠/٩٠٣ م): البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤ م .
- **القلقشندى**(أبو العباس أحمد المعروف بالقلقشندى ، ت ٨٢١ هـ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ، تقديم فوزي أمين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ، العدد ١٣٠ ، ٢٠٠٤ .
- **الكرديزي**(أبو سعيد عبد الحي من الضحاك ت ٤٤٣هـ/١٠٥١م) : زين الأخبار ، ترجمة عفاف زيدان ، الطبعة الأولى ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .
- **المسعودي**(أبو الحسن علي بن الحسين ت ٣٥٤ هـ / ٩٥٦ م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية ، بغداد ، (د.ت).

- **المقدسي**(أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن موفق الدين بن قدامه المقدسي،ت ٣٧١هـ/٩٨١م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن ، بريل ، ١٩٠٩.
- **ياقوت الحموي**(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي الرزمي،ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م):معجم البلدان، ج٢،دار صادر،بيروت، ١٩٥٧.
- **اليعقوبي**(احمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م): تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ج٢ .

- **<u>ثانيا : المراجع العربية</u>** :

- **احمد أمين** : فجر الإسلام ،ج١،القاهرة،١٩٣٨.
- **احمد محمود الساداتي** : تاريخ المسلمين في القارة الهندية – الباكستانية وحضارتهم ، القاهرة ،١٩٧٠ .
- **ادم متز** : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريده ، جزءان ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م.
- **جوستاف لوبون** : حضارة الهند ،ترجمه عادل زعيتر ، القاهرة ،١٩٤٨ .
- **حسين مؤنس**: عالم الإسلام ،القاهرة ،١٩٧٣.
- **الزركلي** : الأعلام ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- **سليمان إبراهيم العسكري** : التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي ، مؤسسة الشراع العربي : الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ .
- **صادق احمد جودة**: مدينة المنصورة في ظل الدولة الهبّارية ببلاد السند ،ط١ ، ٢٤٠-٤١٦هـ/٨٥٥-١٠٢٥م ، دار أمية ،الرياض،١٤١٥هـ.
- **عادل محي الدين**: تجارة العراق البحرية مع اندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري / أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ، ١٩٨٤ .
- **عبد العزيز الدوري**: النظم الإسلامية ، العراق ،١٩٥٠ .
- **عبد الله مبشر الطرازي** : موسوعة التاريخ الإسلامي والنهضة الثقافية لبلاد السند والبنجاب في عهد العرب،جزءان ،الطبعة الأولى ،دار المعرفة ،جدة ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **عبد الله محمد جمال الدين** : التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان أو السند والبنجاب إلى أواخر فترة الحكم العربي(١٥-٤١٦هـ/٦٣٦-١٠٢٥م) ، الطبعة الأولى ،دار الصحوة ، القاهرة ، ١٩٩١.

- **عصام الدين عبد الرءوف الفقي** : بلاد الهند في العصر الإسلامي، دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ/٢٠٠١.
- **فاروق عمر**: العباسيون الأوائل ، بيروت ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠.
- **كي لسترنج** : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥.
- **المباركبوري**(أبو المعالي اطهر المباركبوري) : رجال السند والهند إلى القرن السابع ، الجزء الأول والثاني ،جمعه وألفه وحققه القاضي أبو المعالي اطهر المباركبوري ، دار الأنصار، الطبعة الأولى ،١٣٩٨هـ.
- ــــــــــــ :العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين، القاهرة ،١٩٨٠ .
- ــــــــــــ : الحكومات العربية في الهند والسند ، ترجمه عن الأردية :عبد العزيز عزت عبد الجليل ، السعودية ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م .
- **نعيم زكي**: طرق التجارة الدولية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣

- <u>**ثالثاً : مراجع باللغة الأردية :**</u>

- **أبو ظفر الندوي**: تاريخ سند ، طبع أعظم كده ، الهند ،١٩٤٧ .
- **سليمان الندوي** : عرب و هنديكي تعليقات، طبع اله أياد،الهند ،١٩٣٠.

- <u>**رابعاً : الدوريات :**</u>

- **سيف المريخي**: القرصنة في الخليج العربي والبجر الأحمر والمحيط الهندي في العصور الإسلامية الأولى ، مجلة كلية الآداب ،جامعة الإسكندرية ،العدد٥٨ لسنة٢٠٠٨ .
- **مقبول احمد**: العلاقات التجارية بين الهند والعرب من القرن العاشر قبل الميلاد إلى العصر الحديث ، مجلة ثقافة الهند ، يناير ،المجلد ١٦ ، العدد ١ لسنة ١٩٦٥.

- <u>**خامساً الرسائل الجامعية :**</u>

- **رمزية عبد الوهاب**: تجارة الخليج العربي وآثارها الاقتصادية في الخليج العربي والعراق منذ صدر الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية دار العلوم ،١٩٧٩.
- **محمد يوسف النجرمي**: العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية، رسالة ماجستير ،كلية دار العلوم ،جامعة القاهرة ،إشراف د.احمد شلبي ،١٣٩٥هـ/١٩٧٥.

- **وفاء محمود عبد الحليم**: تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية في الهند من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة،٢٠٠٣.

- **سادساً : المراجع الأوربية :**

- **Barthold** : An Historical Geography of Iran , London , 1984.
- **Burn**(E.J.E): camberidge history of India , vol. Iv, ed by E. J. Richard urn and others , camberidge ,1922.
- **Chand** :Influence of Islam in India , Dacca , 1970.
- **Ikram** (S.M): History of muslim , civilization in India and Pakistan , 93-1273=711-1857.a political and cultural history , Lahor , Pakistan, 1982.
- **Jaffar**(s.m):Medieval India under muslim Kings ,Peshawar , Pakistan.
- **Lane Peole** : Medival India under the Mohamedan Rule ,New York,1968.
- **Lai (K.S)** : Early Muslims in India ,New delhy,1984. -
- **Majmadar (R.C)**: The arab invation of India , Journal of Indian history , Vol.x.
- **Minorsky** : Medival Iran and its Neighbours ,London,1982 -
- **Panikar** : A survery of India , London , 1985.-
- **parsad(Ishwari)** : A short history of muslim rule India , Pakistan,1986.
- **Raverty** : The Mihran of Sind ,Journal of the Royal Asiatic society , Bengal,1892
- **Yasin**(Muhammod) : Asocial History of Islamic India ,Lahore, Pakistan ,1958.

الآخر نموذج مصرى تونسى
الطهطاوى وخير الدين

د/ إسماعيل زين الدين
كلية الآداب– جامعة القاهرة

مقدمة :

أثيرت قضية الإصلاح السياسى والنظرة إلى الآخر فى العالم العربى – مشرقه ومغربه – بوجه عام ومصر بوجه خاص بعد أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١، ومن ثم فقد بدأ العديد من الساسة والمفكرون يدلون بآرائهم ويطرحون أفكارهم حول قضايا الإصلاح بجوانبه المختلفة، كتحديث التعليم وحقوق المرأة والمواطنة وشكل النظام السياسى القائم وكيفية تداول السلطة، وغير ذلك من قضايا الإصلاح السياسى والاجتماعى. كما اتجه فريق آخر من هؤلاء المفكرين إلى محاولة تصحيح مفاهيم الآخر (أوروبا وأمريكا) عن الإسلام والمسلمين والدعوة إلى التقاء الحضارات فى عالم متغير، كسبيل للتقارب لا التباعد وتعميق الاختلافات بين الشرق والغرب.

وتأسيسا على ذلك، كانت هذه الورقة "رؤية من الشرق نحو الآخر : فى فترة تاريخية شهدت أشكالا وصوراً مختلفة من العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، وفى ذات الوقت شهدت بدايات الغزو الاستعمارى للشرق بدأ بالجزائر (١٨٣٠)، مرورًا بتونس (١٨٨١) وصولاً إلى مصر (١٨٨٢).

ويعد رفاعة الطهطاوى (مصر) وخير الدين (تونس) خلال هذه الفترة التاريخية نموذجًا من حيث الرؤية إلى الآخر بمختلف جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وباعتبارهما كانا يمثلان ذلك التيار التجديدى فى الفكر العربى الإسلامى

ومحاولة دفعه نحو النشاط والتطور فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، كما كانا من أكثر الدعاة إلى الخروج من عزلة العصور الوسطى والأخذ من الحضارة الأوروبية فيما لا يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية، وضرورة مواكبة المصالح المتجددة للمسلمين. وسوف نبدأ بتسليط الضوء على النموذج الأول وتتبع مدى رؤيته للآخر فى القضايا المثارة خلال القرن التاسع عشر.

رفاعة الطهطاوى :

كان مشروع بناء الدولة الحديثة فى مصر قد فتح المجال أمام الاحتكاك بالغرب، مما ترتب عليه اشتداد المواجهة بين أفكار وقيم ومؤسسات ونظم الحضارة الغربية وتلك التى يقدمها الفكر الإسلامى وقتئذ. وقد أدت هذه المواجهة إلى بروز ثلاث استجابات. الأولى محافظة، وترفض قبول أية مفاهيم تمت للحضارة الغربية بصلة، والثانية علمانية صرفة تهدف إلى نقل كل ما فى الحضارة الغربية وترى فى الدين سببًا للتخلف والجمود. والثالثة تجديدية تعود بالفكر الإسلامى إلى أصوله الأولى وتحترم العقل والعلم وتقيم توازنًا بين القديم والجديد، أى بين التراث الإسلامى والحضارة الحديثة[1].

ويعد رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣) من بين الذين يندرجون تحت التيار الأخير، حيث ظل مخلصًا للإطار الفكرى الإسلامى الذى نشا فيه، بالرغم من إعجابه بأفكار الحرية ومبدأ المساواة كما ظهرت وشاهدها فى فرنسا، وتشجيعه العقل والدعوة إلى الحرية الفكرية، وانفتاحه على تراث الثورة الفرنسية من أدب وفن ونظم سياسية، تنطلق من مبادئ ومفاهيم كانت بعيدة وغريبة على العالم الإسلامى وقتئذ، ومن ثم فقد كانت أفكاره تمثل نقطة تحول أساسية فى تاريخ الفكر السياسى المصرى الحديث، ومن خلال رؤيته للآخر.

وقد ولد رفاعة الطهطاوى عام ١٨٠١ بمدينة طهطا فى صعيد مصر لعائلة بارزة من علماء الأزهر كانت تمتلك مساحة صغيرة من الأراضى الزراعية تعيش على ريعها. وقد تمكن من حفظ القرآن الكريم وهو صغير، ثم أخذ يتلقى مبادئ العلوم الفقهية على أخواله. وفى عام ١٨١٧، جاء رفاعة إلى القاهرة والتحق بالأزهر، حيث مكث به خمس سنوات التحق خلالها بحلقة أستاذه الشيخ حسن

العطار الذى كان له تأثير كبير عليه[٢].

وعندما بلغ رفاعة الحادية والعشرين من عمره كان قد انتهى من دراسته بالأزهر، وتولى التدريس فيه لمدة عامين. وفي عام ١٨٢٦ رشحه أستاذه – الشيخ حسن العطار – للعمل كإمام للبعثة التعليمية الأولى التى أرسلها محمد على للدراسة فى باريس، وقد ظل هناك خمس سنوات (١٨٢٦-١٨٣١) كانت من أهم سنوات عمره، حيث انغمس فى الدراسة بحماس ونجاح كبيرين. وتقديرًا لكفاءته كتب المسيو جومار – العالم الفرنسى الذى تولى الإشراف على البعثة المصرية فى باريس – إلى محمد على يطلب منه الموافقة على أن يصبح الطهطاوى طالباً إلى جانب عمله كإمام للبعثة[٣]، فكان ذلك بمثابة نقطة تحول فى حياته العلمية والعملية.

ففى فرنسا اتسعت دائرة قراءات الطهطاوى فى الفلسفة اليونانية والميثولوجيا – علم الاساطير – والتاريخ القديم، وخاصة التاريخ المصرى القديم، والجغرافيا والمنطق والرياضيات مع تركيز خاص على دراسة الفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر لدى كل من فولتير وروسو وديدرو ومونتسكيو. وقد ساعده فى ذلك تمكنه من اللغة الفرنسية، والتغلب على مشكلات الترجمة من الفرنسية إلى العربية[٤].

وكان الطهطاوى من جيل المثقفين المصريين الذين أحسوا بأن الثقافة الأزهرية وحدها لم تعد تتلاءم مع ظروف عصرهم وأحسوا بضرورة دعوة مواطنيهم إلى الاستفادة من علوم الغرب وكان موقف الطهطاوى بالنسبة للحضارة الغربية بصفة عامة، هو الإحساس بمظاهر التفوق فى نظمها السياسية وبعض تقاليدها وعاداتها[٥].

ولم ينظر رفاعة إلى هذه العلوم الفكرية على أنها غريبة تجب الاسترابة منها، وإنما عكف وزملاؤه على "اكتساب العلوم التى فارقت مهدها بتقلب الأيام وتداول الشهور والأعوام، ثم قيض الله لها من اهتم بإحيائها بعد الاندراس – يقصد محمد على – واحتفل بردها إلى مصر ووضعها فيها على امتن أساس"[٦].

وقد تميز فكر الطهطاوى بالاصالة والتطور، مصحوبا بالإبداع والعطاء فى مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة، وامتاز على كثير من المثقفين والمفكرين،

ومن ثم فإن الرجل لم يكن "ناقلاً" عن الغير، حتى عندما يسترشد بفكر الآخرين، وإنما كان "هاضماً ومتمثلاً" لذلك الفكر، يقدمه فكراً مصرياً عربياً مستنيراً لأمته كى تتجاوز بواسطته عصور التخلف، وتلحق بالركب الحضارى، وتسهم من جديد فى العطاء للإنسانية، كما أسهم أسلافها العظام، وكما يسهم الذين سبقوها فى هذا المضمار فى العصر الحديث(٧).

وبعد أن أمضى رفاعة فى باريس خمس سنوات عامرة بالإطلاع والتفكير والتحصيل بين الأساتذة والمستشرقين وأهل العاصمة الفرنسية وأئمة الحضارة الحديثة، عاد إلى وطنه عام ١٨٣١ زاخر النفس بمعانى جديدة، متحفزًا لعمل كبير يهدف به إصلاح المجتمع المصرى بتعليم الشعب وتنوير العقول.

فعندما عاد الطهطاوى إلى مصر عام ١٨٣١ عين مترجمًا ومدرسًا للغة الفرنسية فى مدرسة الطب ثم نقل بعد ذلك بعامين على نفس وظيفته بمدرسة المدفعية، وعلى مدى أربعة أعوام ترجم بعض الكتب الفرنسية فى الهندسة والجيولوجيا وعلم الفلزات والجغرافيا بالإضافة إلى مراجعته لترجمة كتابين فى الطب. وقد نشر عام ١٨٣٤ كتابه الشهير "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" الذى قدم فيه وصفا للمجتمع الفرنسى كما شاهده أثناء إقامته هناك. وقد قرأ هذا الكتاب على نطاق واسع فى البلاد العربية والإسلامية، فقد أعيد نشره فى أعوام ١٨٤٨، ١٩٠٥، ١٩٥٨، ١٩٧٤، وطبعت ترجمته التركية عام ١٨٣٩ تحت عنوان "سفرنامه رفاعة بك"(٨).

وقد استهل رفاعة كتابه بالإشارة إلى الأسباب التى دفعته إلى تأليفه بقوله: فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين، وعزمت على التوجه إلى باريس، أشار علىّ بعض الأقارب، لاسيما شيخنا العطار، فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار، والإطلاع على غرائب الآثار، أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة، والأشياء العجيبة، وأن أقيده ليكون نافعا فى كشف القناع، عن محيا هذه البقاع، ليبقى دليلا يهتدى به طلاب الأسفار... ولحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع"(٩). وهى إشارة واضحة إلى التقدم العلمى فى أوروبا وأثر ذلك على النهضة

الحضارية والفكرية فيها، ودعوة صريحة للبلاد الإسلامية لكى تتزود بهذه العلوم والأخذ من حضارة أوروبا، لما تتمتع به من مظاهر التفوق فى نظمها السياسية والاقتصادية والإدارية.

وفى تلخيص الإبريز، وصف الطهطاوى هذه الفترة من حياته التى أمضاها فى باريس، وسجل مشاهداته إبان الرحلة، فوصف الحياة الاجتماعية وصفاً شائقاً بديعاً، ومدح فى الفرنسيين نظافة مساكنهم، وتحدث عن المظاهر والتقاليد الاجتماعية المتبعة فى المأكل والمشرب، وطريقة إعداد المائدة، كما أشار إلى الفنون ومشاركة المرأة فى الرقص والموسيقى، وكذا وسائل المواصلات، ورسم فى النهاية صورة لعاصمة البلاد وما تتمتع به من مظاهر أخرى كانت بعيدة تماما عن العالم الإسلامى(١٠).

إلا أن الطهطاوى لم تبهره هذه المدينة التى شاهدها إلى حد الدهشة التى تعميه عن النظرة الفاحصة والفكرة المستقلة والخاطرة الناقدة لما فى حياة الباريسيين من سلبيات . وهذه النظرة الناقدة العقلانية هى التى عبر عنها أستاذه المستشرق "دى ساسى" de Sacy عندما قال عن تخليص الإبريز "وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد سليم الفهم"(١١). وما يعنينا هنا محاولة إبراز الإطار العام للفكر السياسى عند الطهطاوى من خلال كتابيه تخليص الإبريز " "ومناهج الألباب".

ففى مجال الفكر السياسى ، تناول الطهطاوى من خلال مشاهداته فى باريس، وبما عرضه فى كتابه تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" و"مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية"، تناول العديد من الموضوعات المتعلقة بطبيعة وأسس النظم السياسية فى أوروبا من حيث نظام الحكم، وشكل السلطة القائمة، وطبيعة العلاقة بين الحاكم والرعية، وحقوق وواجبات كل منهما، ونظرية الفصل بين السلطات فى الدولة، والتمييز بينهما، ومبدأ المساواة والحرية بمفهومهما المتسع، من حيث حرية الرأى والعقيدة، وكذا فكرة الحكم الذاتى ممثلا فى إدارة البلديات، وهو ما يعرف بالإدارة المحلية فى وقتنا هذا، والتى كانت بعيدة تمامًا عن إطار الفكر العربى والإسلامى.

ولقد حاول الطهطاوى تكييف أفكاره ومعارفه الأزهرية التقليدية مع الأفكار

الوافدة والمفاهيم الجديدة حول الديمقراطية والليبرالية، وفقا لما شاهده فى فرنسا. ففى تلخيص الإبريز، وبعد أن يشير الطهطاوى إلى فضل العرب والحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، نراه يتحدث عن الحكومة الفرنسية، موضحا إعجابه بالنظام الديمقراطى فيها، حيث يدافع عن الملك مجلس الأعيان، ويدافع عن الشعب مجلس النواب، ويرى فى هذا التوزيع تحقيق العدالة(١٢).

وفى "مناهج الألباب المصرية" الذى صدر فى عام ١٨٦٩، وبحث فيه موضوع "التمدن وأصوله وأطواره" تبلور فكره السياسى والاجتماعى فى مسعاه نحو تطوير أو تكييف النظريات السياسية الإسلامية التقليدية والأفكار والمفاهيم الغربية الوافدة، فعندما يتأمل نظام الحكم الديمقراطى فى فرنسا، نراه يفكر فى نظام الشورى فى الشريعة الإسلامية. وقد ظلت هذه الأفكار تراوده فى إمكانية تطوير الشريعة الإسلامية نحو نظام للحكم السياسى يكون أقل استبداداً من الحكم المطلق لمحمد على وأسرته. ولقد ألهمت أفكاره السياسية عن الحكم النيابى فى فرنسا الجيل التالى من المثقفين المصريين، كما ساعدت على تطوير الفكر السياسى الإسلامى، خاصة فكرة نظام الشورى فى الشريعة الإسلامية وهى الفكرة التى حاول أن يطبقها الخديو إسماعيل بإنشاء مجلس شورى النواب فى عام ١٨٦٦، والذى اعتبره الطهطاوى أكبر عمل للخديو إسماعيل إنشاءه هذا المجلس، بالرغم أنه وغيره من المجالس النيابية الأخرى كانت مجرد مظاهر شكلية للحكم الاستبدادى فى عهد أسرة محمد على (١٣).

وكان من الاشياء الهامة التى استرعت انتباه الطهطاوى وتوقف عندها فى باريس "الديمقراطية الليبرالية" ومؤسساتها السياسية، ودستورها وقوانينها، ولقد أعطى الرجل هذه الناحية اهتماما كبيراً، ورام من وراء حديثه عنها، وترجمته لدستورها، بل وشرح مواده، ووصفه لمؤسساتها رام أن يدخل هذا الفكر السياسى إلى الشرق، الذى سادت وتسود فيه أنظمة الحكم الفردى وشريعة الاستبداد بالسلطات والسلطان. فهو يعلل اهتمامه "بكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية.. وأحكامهم "فيذكر الهدف قائلا : "ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر"(١٤).

وبعد أن يستعرض الطهطاوى أجهزة الحكومة المختلفة، يثنى على الدستور

الفرنسي ، "وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم". وقد حرص رفاعة – كما سبق وأشرنا – على ترجمة مواده، "لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، وكيف انقاد الحكام والرعايا لذلك، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم، فلا نسمع فيهم من يشكو ظلما والعدل أساس العمران"[١٥] فالعدل هنا يمثل حجر الأساس فى تقدم ونهضة الأمم. وهو ما ذهب إليه – فيما بعد – خير الدين التونسى فى كتابه "أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك"، عندما تعرض إلى نظرية الحكم الصالح، ووسائل هذا الحكم وطرق اقامته، وأن تحقيق ذلك يرتبط "بحسن الإمارة" ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال العدل والحرية اللذان هما أساس العمران وتقدم المعارف "المشاهد فى الممالك الأوروباوية بالعيان"[١٦].

ولم يكتف الطهطاوى بترجمة الدستور الفرنسى لكى يتمكن قراء العربية من معرفة طبيعة الحكم ونظم الإدارة فى المجتمعات الغربية، بل قام بالتعليق على بعض مواده الرئيسية، مبديا بعض الملاحظات، ومذكراً القارئ العربى بما كان قائما وفقا لنظام الشورى فى الشريعة الإسلامية. ففى المادة الأولى من الدستور، نراه يثنى على مبدأ المساواة أمام القانون، لا فرق بين رفيع ووضيع، بل أن الملك ذاته غير معصوم من المساءلة وفقا للدستور ينفذ عليه الحكم كغيره، مما يؤكد مبدأ العدالة.

وفيما يتعلق بمسألة الضرائب ، وهى المادة الثانية من الدستور، يقرر الطهطاوى أنه طوال فترة إقامته بباريس لم يسمع أحدا يشكو من المكوس والفرد (الضرائب)، مع العدالة والنزاهة فى تحصيلها، حيث تؤخذ بعيدًا عن الظلم والرشوة"[١٧].

وعندما تعرض إلى المادة الثامنة من الدستور الخاصة بحرية الرأى والتعبير، كان تعليقه عليها ما يكشف عن إيمانه العميق بالحرية "الليبرالية" فهى – على حد قوله – تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله، دون الإضرار بالغير". كما نراه يشيد بحرية الرأى والنشر، وبهما استطاعت الصحافة

أن تؤدى رسالتها[١٨].

وكان من بين الأفكار السياسية التى طرحها الطهطاوى فى كتابه "مناهج الألباب" وكانت بعيدة تماما عن الفكر العربى الإسلامى، نظرية الفصل بين السلطات الثلاث فى الدولة، التشريعية، والقضائية، والتنفيذية "فالأولى هى التى تقوم بتقنين القوانين وتنظيمها وترجيح ما يجرى عليه العمل من أحكام الشريعة أو السياسة الشرعية. أما الثانية، فتقوم بالفصل فى الحكم. أما الثالثة فمهمتها تنفيذ الأحكام بعد حكم القضاء بها". وهذه القوى الثلاث ترجع – على حد قوله – إلى القوة الحاكمة فى الدولة، والتى يجب أن تكون مقيدة بالدستور والقانون[١٩].

وبالرغم مما طرحه الطهطاوى عن الدولة ونظرية الحكم الديمقراطى، ومبدأ الفصل بين السلطات، فلم تكن فكرته عن الدولة، فكرة ليبرالى القرن التاسع عشر، بل كانت الفكرة الإسلامية المأثورة، فهو يحاول النظر فى الأسس النظرية للفكر السياسى الأوروبى فى ضوء الإسلام، فيرى أن الحكومة ضرورية للمجتمع لا حياة له بدونها : "فالملك كالروح والرعية كالجسد، ولا قوام للجسد إلا بروحه"، فهو يرسم لنا تصوره لركنى الدولة، وضرورة وجود "القوة الحاكمة" ضمانا للاستقرار ولانتظام العلاقات بين أفراد" القوة المحكومة" فإذا كانت القوة الحاكمة "جالبة للمصالح دارئة للمفاسد"، فإن القوة المحكومة هى "القوة الأهلية المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ووجوده وتحصيل سعادته دنيا وآخرة". فهو هنا يعتبر الحكومة والناس طرفين يقوم عليهما المجتمع، لكل وظائفه فليس الناس ملكا للحكومة، ولكنهم أحرار لهم حق التمتع بخيرات بلادهم[٢٠].

أما ملامح الحاكم الأعلى للدولة فى الفكر السياسى للطهطاوى فتتمثل فى القبول بسلطة الحاكم الفرد، وهو مقيد بالقانون، ويستعين بأجهزة الشورى، ولا سبيل إلى محاسبة "مادية" وإنما هناك سبل ووسائل لتقويمه تقويمًا معنويًا، وعليه أن يعطى الحرية لرعيته، ويسوى بينهم أمام القانون، وعليه كذلك أن يسلك سبيل العدل ليكسب قلوب رعيته، ويحقق التقدم والتمدن لوطنه، ليحوز رضاء الرأى العام، ويضمن الحكم بالثناء من محكمة التاريخ[٢١].

ويذهب الطهطاوى إلى أن العلاقة بين الحاكم والرعية تقوم علـــى الحقـــوق والواجبات فللحاكم على الناس حق الطاعة، غير أنه فى مقابـــل ذلـــك أن يـــؤدى واجباته تجاههم، ومن ثم وجب على الرعية أن يعرفوا الشريعة حق المعرفة لحماية حقوقهم، كما عليهم أن يعرفوا القوانين المدنية والإجراءات الحكومية. أما واجـــب الحكومة فيتمثل فى إقامة العدل وتحقيق المساواة والحرية وحمايـــة أرواح النـــاس وممتلكاتهم وفقا للشريعة ويجب على الحاكم الخضوع لأحكام الشريعة فى كل مـــا يتصل بشئون الناس(٢٢).

وفى إطار توضيحه للحقوق المدنية أيضالا أبرز الطهطاوى فكـــرة حكومـــة البلدية، مشيرا إلى الرابطة الوثيقة بين الحقوق المدنية والحقوق البلدية، مؤكدًا حق كل مدينة داخل الدولة فى إدارة أمورها بنفسها فيما يتصل بـــالمرافق والمـــدارس والمستشفيات والمؤسسات الخيرية وجباية الضرائب وغيرها من شئون محلية فـــى إطار القانون الذى ينظم أمور الدولة ككل.

وتعكس فكرة الحكم الذاتى ممثلا فى إدارة البلديات الاتجاه التوفيقى فى الفكر السياسى عند الطهطاوى فرغم تأكيده لأهمية تركيز السلطة فى يد الحاكم الفرد وفى المؤسسات المركزية للدولة، يطرح فكرة الحكم الذاتى فى صورة البلـــديات، ممـــا يعنى أن الطهطاوى كان يأمل فى التطور التدريجى للحكم الأوتقراطى من خـــلال اتساع نطاق البلديات بما تمثله من ليبرالية ومما يدعم هذا الرأى ما تكـــشف عنـــه المفاهيم التى طرحها لأفكار المساواة والحرية(٢٣).

ومن سمات الفكر السياسى عند الطهطاوى أيضا جهوده الكبرى والرائدة فى إصلاح القضاء لا على عهد الخديو إسماعيل فقط، كما يعتقد الكثير، وإنمـــا منـــذ عصر محمد على، عندما أنشأ الطهطاوى قسما بمدرسة الألـــسن لدراســـة الفقـــه الإسلامى والقوانين الأجنبية، وكان القضاة يتخرجون من هذا القسم، فأحدث بـــذلك تطورًا هاما فى عملية تنظيم القضاء وإصلاحه وتطويره(٢٤). وفى عصر إسماعيل قام الطهطاوى وبعض تلاميذه بترجمة مجموعة القوانين الفرنسية، ذلك أن الحكومة عندما فكرت فى إصلاح النظام القضائى فى عهد إسماعيل اســـتعانت فـــى ذلـــك بالقانون الفرنسى المعروف بقانون نابليون Code Napolen، فقام رفاعة وتلاميذه

بما لهم من إلمام بأسرار اللغتين العربية والفرنسية بترجمة هذا القانون بفرعيه "المدنى والجنائى"، وهى القوانين التى بنى على أساسها نظامنا القضائى الحديث(٢٥). وبذلك وضع الطهطاوى ثروة الفكر الأوروبى فى التشريع والتقنين إلى جانب تراث الحضارة الإسلامية فى هذا الميدان.

وكان من بين المظاهر التى بلورت فكره السياسى – إضافة إلى ما سبق – عاطفته الوطنية الجياشة، فقد كان رفاعة يحب مصر حبا ملك قلبه، وقد دفعه ذلك الحب الإخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه، وقد تغنى بهذا الحب كثيرا فى شعره. وفى كتبه المختلفة نجده يتحدث مرارا عن الوطن والوطنية، وتحليل هذا المعنى وضرب الأمثلة بمن عاشوا وضحوا فى سبيل أوطانهم. ففى مناهج الألباب – على سبيل المثال – نجده يحاول أن يبث فى نفوس النشئ معنى الوطن والوطنية، فنراه يتحدث عن "المنافع العامة"، وينقل فى ذلك الشواهد من الشرق والغرب، وفى خاتمة كتابه هذا يفرد موضوع خاص "فيما يجب" للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة"(٢٦). ومما أثار هذه العاطفة فى نفسه طبيعته الخيرة، وقوتها ثقافته الواسعة فى باريس، ودراسته للعلوم الفلسفية والاجتماعية والسياسية هناك، وأزكاها أيضا أنه شاهد ثورة الشعب الفرنسى فى عام ١٨٣٠، ورأى بعينيه كيف يبذل الفرنسيون أرواحهم فى سبيل وطنهم وحريتهم(٢٧).

كذلك دعا الطهطاوى إلى التسامح الدينى من منطلق المفهوم الإسلامى لأهل الذمة ولكنه لم يذكر مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات بينهم وبين غيرهم باعتبارهم من مواطنى الدولة(٢٨).

خير الدين والرؤية التونسية :

إذا كان الطهطاوى قد ولد لعائلة بارزة من علماء الأزهر تنتمى إلى أصول حجازية فإن خير الدين قد ولد فى إحدى القرى الصغيرة بجبال القوقاز، من أسرة أباظة الشركسية الأصل، واختطفه تجار الرقيق صغيراً وجاءت بهم قافلتهم إلى الأستانة، حيث بيع كما يباع الرقيق، وتناقلته الأيدى بالبيع والشراء رقيقا إلى أن وصل أخيرا إلى قصر حاكم تونس الباى أحمد باشا (١٨٣٦-١٨٥٦) عن طريق أحد وكلائه فى عام ١٨٣٩(٢٩).

وقد حرص الباى أحمد على تربيته وتعليمه، فتعلم القراءة والكتابة وفرائض الدين، ثم أخذ بعد ذلك يتوسع فى العلوم الشرعية بمخالطة العلماء والاستفادة منهم، وفى علوم اللغة ومطالعة كتب التاريخ بالإضافة إلى تحصيل العلوم العسكرية[٣٠]. وقد عرف فى بيئته بالتدين والمحافظة على أداء الشعائر الدينية، وتوقير الشريعة والعلماء، واتجه إلى تعلم الفرنسية فأجادها مع العربية والتركية[٣١].

وكانت تونس قد ألحقت فى عام ١٥٧٤ بالولايات العثمانية بعد انتزاعها من الإسبان بمواجهة عسكرية، وأصبحت بالتالى خاضعة للنفوذ والسيطرة العثمانية. وقد ظل هذا الوضع حتى نهاية القرن السادس عشر، حين دب الضعف فى كيان الإمبراطورية العثمانية، فلم يصبح لهم على هذه البلاد إلا السيادة الاسمية فقط، حيث انتقلت السلطة الفعلية إلى الحكام الذين عرفوا بالبايات، وهو لقب كالخديو فى مصر.

وعندما شرع الباى أحمد (١٨٣٦-١٨٥٦) فى انتهاج سياسته الإصلاحية، اقتداءً بتجربة محمد على فى التحديث – كما سبق وأشرنا – ركز اهتمامه على بناء الجيش، باعتباره الأداة للقوة العسكرية، فعمل على النهوض به، وإعادة تنظيمه وفقا للنظم الأوربية الحديثة، وأسس لهذا الغرض "مدرسة للعلوم الحربية" فى "باردو" بفرنسا عام ١٨٤٠، ليتعلم فيها الجنود الفنون الحربية، وعلوم الهندسة والمساحة والرياضيات، بالإضافة إلى الجغرافية والتاريخ، واسندت رئاستها إلى الإيطالى كاليفاريس، كما تم الاستعانة بمدرسين إيطاليين وإنجليز وفرنسيين، وعهد إلى خير الدين ، الذى قدر له أن يلعب دوراً مهما فى هذه الفترة بالإشراف على هذه المؤسسة العسكرية[٣٢]؛ وهناك عايش خير الدين الحضارة الأوربية الحديثة ولمس تأثيراتها، واكتملت معرفته بها – فيما بعد – من خلال سفارته المتعددة لعديد من دولها فى مهام سياسية، أفادته فى الإطلاع على النهضة الأوروبية الحديثة، ومعرفة بنظمها واحتكاكا برجال السياسة وفهما لأغراضهم، مما مكنه من دراسة الأسس التى قامت عليها المدنية الغربية وقارن بينها وبين تونس للبحث فى أسباب تأخرها وكيفية النهوض بها[٣٣].

وطوال الفترة التى بدأ خير الدين فيها مشاركا فى سياسة الدولة من خلال

مناصبه ، كانت البلاد تمر بأزمة مالية حادة وتدهور اقتصادى ملموس، واجهته الحكومة بفرض المزيد من الضرائب على الأهالى، مما أدى إلى اندلاع ثورة داخلية كادت أن تقضى على النظام القائم على الاستغلال والاستبداد السياسى، فيما عرف بثورة ابن غذاهم عام ١٨٦٤[٣٤].

وعندما رأى خير الدين استحالة الاصلاح فى ظل النظم القائمة على المصالح الشخصية، دون النظر بعين الاعتبار إلى مصلحة الوطن، استقال من مناصبه واعتزل العمل السياسى، لفترة امتدت تسع سنوات (١٨٦١-١٨٦٩) اعتكف خلالها فى بستان له، فكانت فرصة لكى يغوص فى فلسفة التاريخ ويحلل تطور المجتمعات ويفحص أسباب تقدمها وضعفها وبالتالى تخلفها عن ركب الحضارة والتقدم، ورصد ذلك فى كتابه الموسوم بـ "أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك" الذى طبع فى تونس عام ١٨٦٧ [٣٥]، موضحا فيه خلاصة أرائه فى التمدن والإصلاح، بعد أن ترسخت فى عقله ووجدانه كل تجاربه السابقة وصاغت هذه الخبرة الواسعة فكره السياسى ومنهجه ورؤيته للتقدم والإصلاح، وقد استند فى ذلك على "الشرع والعقل" وعلى المشاهدة والتأمل فنراه يستهل كتابه بتلك العبارة البليغة التى تكشف عن فلسفته "سبحان من فضل بالعقل نوع الإنسان وأهله به لحسن التدبير – يقصد الحكم السياسى – ومراتب العرفان"[٣٦].

وينبغى أن نشير بداية إلى أن خير الدين قد استقى الكثير من معلوماته حول نظم الحكم والإدارة وطبيعة الحكام من المصادر الإسلامية التى كان يستشهد بها، كمقدمة ابن خلدون، و"الأحكام السلطانية" للماوردى، هذا بالإضافة إلى ما اكتسبه من خبرات عملية سواء بالمشاركة الفعلية مع السلطة أو المشاهدة العملية من خلال أسفاره السياسية لعديد من بلدان أوروبا، فهى إذن خلاصة تجاربه فى التمدن والإصلاح، وفقا لما شاهده وعاصره، بهدف "تذكير العلماء، وإيقاظ الغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعوام"[٣٧].

ومن خلال مؤلفه "أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك" يتبين الغرض الأساسى، وهو الكشف عن أسباب تأخر الأمة الإسلامية فى عهدها الأخير، وما هى وسائل تقدمها؟ ذلك التساؤل الذى طرحه كل مفكرى النهضة العربية والإسلامية

الحديثة. وفى ذلك يقول خير الدين موضحًا الغرض من تأليف كتابه :

"إن الباعث الأصلى على ذلك أمران أيلان إلى مقصد واحد أحدهما إغـراء ذوى الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكـنهم مـن الوسـائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية وتنمية أسباب تمدنها مثل توسـيع دوائـر العلوم، والعرفان وتمهيد طرق الثروة من الزراعـة والتجـارة وتـرويج سـائر الصناعات ونفى أسباب البطالة وأساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه اتقـان العمل المشاهد فى الممالك الاوروباوية"[٣٨]. أى أنه يربط تقدم الأمة وازدهارها فى كافة الميادين بقوة الدولة، وقوة الدولة بالحكم الصالح، وبالتـالى فـإن منطلقاتـه السياسية تنبع من فكرة الحكم الصالح ووسائل هذا الحكم وطرق إقامته وفـى هـذا الميدان يكون "حسن الإمارة" – كما يقول خير الدين – هو الطريق نحـو التمـدن بمفهومه المتسع، والذى يمكن تحقيقه من خلال دعامتى "العدل والحرية".

أما ثانيهما فيتمثل فى تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم فى الإعراض عما يحمد من السيرغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش فى عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغى أن يهجر وتأليفهم فى ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر حتى أنهم يعدون الإنكار على من يستحسن شيئا منها وهـذا على إطلاقه خطأ فإن الأمر إذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقاً للأدلـة لاسيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا – يشير هنا إلى فترة ازدهار الدولة الإسـلامية زمن العصر العباسى الأول – فلا وجه لإنكاره وإهماله بل الواجب الحرص علـى استرجاعه واستعماله. وكل متمسك بديانته وإن كان يرى غيره ضالا فـى ديانتـه فذلك لا يمنعه من الاقتداء فيما يستحسن فى نفسه من أعماله المتعلقـة بالمـصالح الدنيوية كما تفعله الأمم الأوروبية... والحكمـة ضـالة المـؤمن يأخـذها حيـث يجدها"[٣٩]. وهو فى ذلك يرى خطأ وخطورة هذا الاعتقـاد وخاصـة إن الأمـة الإسلامية كانت قد وصلت إلى ما وصلت إليه من مجد وتقدم فى مختلف نـواحى العلم والمعرفة، ومن تطور وازدهار اقتصادى بالأخص مـن الـشعوب الأخـرى الوثنية وخاصة اليونانية، وبالتالى فإن تمسك المسلمين بالدين والعقيدة لا يمنع مـن النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بشئون الحكم والـسياسة.

وعنده – أى خير الدين – الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها".

وإذا كان خير الدين قد أوضح مراراً أحوال المسلمين وحاجتهم إلى الإصلاح، كما انتقد موقف العلماء –أى رجال الدين – الرافض للحضارة الغربية الحديثة، فإنه قد بين تصوراته لنهضة الأمة وبناء الدولة الحديثة، ذلك البناء الذى يتطلب وجود مؤسسات دستورية وقوانين ترتكز على قاعدتى العدل والحرية.

والعدل، كما تصوره خير الدين ، يرتبط – كما سبق وأشرنا – بالحكم الصالح ووسائل هذا الحكم وطرق إقامته. وصلاح الحاكم له أسس وشروط لابد من توافرها، لكى ترتقى الأمة الإسلامية بفضل توجيهه مع الأخذ بنظام الشورى الذى يقيد الحاكم، فنجد خير الدين هنا يربط تقدم الأمة وازدهارها بوجود المؤسسات الدستورية التى تقيد الحاكم، وفقا لنظام الشورى فى الشريعة الإسلامية[٤٠].

ويرى خير الدين أن الظلم مؤذن بخراب العمران، ويعتمد فى ذلك على مقدمة ابن خلدون، وإن إطلاق أيدى الحكام "مجلبة للظلم على اختلاف أنواعه"، واستشهد فى ذلك بما كان واقعا فى بعض الممالك الإسلامية، وبما وقع فى بعض بلدان أوروبا، نتيجة استبداد ملوكها، وفقا لنظرية الحكم المطلق دون التقيد بقوانين، لهذا نراه يؤكد مراراً على وجوب المشورة بين الحكام وجماعة أهل الحل والعقد – أى العلماء – والعمل على تقويم الحاكم وضرب أمثلة لذلك بما حدث زمن الخليفة عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان[٤١].

وبعد أن يدين خير الدين الاستبداد بالسلطة بمختلف أنواعه وحكم الفرد، نجده يدعو – كما أشرنا – إلى إحياء هيئة "أهل الحل والعقد" الإسلامية ويطالبهم بالوقوف أمام استبداد الحكام، وفقا للقوانين التى تقيد الرعاة كما "تقيد الرعية". وهو فى مذكراته – المشار إليها– يزكى صراحة تكوين المجالس النيابية بالانتخاب العام، وأن تكون مباشرة الحكم التنفيذى من اختصاص الوزراء لا الحاكم الأعلى للبلاد، وأن يكون الوزراء مسئولين أمام الأمة المنتخبين [٤٢]. وقد ذهب خير الدين إلى القول : "بأن أوروبا إذا كانت قد صنعت ذلك انطلاقا من القوانين الطبيعية غير الإلهية فإن المسلمين أولى منها بذلك لأن هذه التنظيمات السياسية هى التى تحقق غاية الشريعة الإسلامية أو مقاصدها، وأن الإسلام لا يمنع من نقل الحضارة

الغربية، ولا يمانع من الأخذ بنظمهم"(٤٣).

وبينما يدعو خير الدين العلماء إلى الوقوف أمام استبداد الحكام، نراه يطالبهم فى ذات الوقت بالتعاون مع رجال السياسة، لأن عوائق التقدم تتحصر فى الطائفتين ، فرجال الدين يعرفون الشريعة ولا علم لهم بأمور الدنيا، وإذا كانت أحكام الشريعة تتوقف على العلم بالنصوص، فهى تتطلب أيضا معرفة الأحوال التى تعتبر فى تنزيل تلك النصوص أما رجال السياسة "فيعرفون الدنيا ولا يعلمون الدين". أى أنهم يطبقون القوانين الوضعية دون الرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية، ولهذا فقد طالب خير الدين العلماء بضرورة الانفتاح ومعرفة الشئون السياسية وفقا للتطورات التى تمر بها المجتمعات، على أن يتوسطوا بين التفريط والإفراط بما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية، كما طلب من الحكام ضرورة معرفة أمور الدين، والعمل على عدم انفرادهم بالحكم، وفقا لمبدأ المسئولية الوزارية(٤٤).

نأتى بعد ذلك إلى القاعدة الثانية التى يرتكز عليها الفكر السياسى لخير الدين وهى مبدأ الحرية ومدى ارتباطها بنهضة الأمة الإسلامية وبناء الدولة الحديثة، وفى هذا الصدد يذهب خير الدين إلى القول بأن ثمة شيئين مرتبطين بالحرية، الأول، يتمثل فى نقل النظم الحضارية الغربية والأخذ بأساليبها بما يتفق وأحكام الشريعة الإسلامية وفى ضوء المصالح المتجددة للمسلمين، ويكون ذلك للحاكم والرعية. أما الثانى، فهو محاولة من جانبه للتأكيد على أن كل هذه النظم وما يتصل بها من مفاهيم حديثة قد وجد فى الإسلام ولها ما يقابلها فى الشريعة الإسلامية ولكنها لم تطبق إلا نادرًا ولم تحترم إلا لماما(٤٥).

والحرية التى يدعو إليها خير الدين هنا، ووفقا للفكر الأوروبى الحديث تعنى إطلاق تصرف الإنسان فى ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته لأبناء جنسه والتمتع بكافة حقوقه، وفقا للقوانين التى تقيد "الرعاة كما تقيد الرعية". ويستدل خير الدين، على أن مفهوم الحرية بما يتضمنه من معانى قد وجدت عناصره فى الشريعة الإسلامية بقوله : "فما تقتضيه الحرية الشخصية المشروحة سابقا من حفظ حقوق الإنسان فى نفسه وعرضه وماله قد اعتبرتها شريعتنا الإسلامية اعتبارا كليا"(٤٦)، فحسن الإمارة أو صلاح الحاكم، وفهم مدنيات

الأمم المتقدمة والأخذ بأساليبها الصالحة، والقدرة على إعمال العقل؛ كانت من أبرز خصائص منهاج خير الدين باشا.

وفيما يتعلق بخطورة التوسع الاستعمارى فى المنطقة، نجد خير الدين أكثر فهما وإدراكا بطبيعة المرحلة التاريخية التى كانت تمر بها الأمة العربية والإسلامية، بعكس رفاعة الطهطاوى، الذى لم يكن مدركا لهذا الخطر على الوطن العربى، حيث اعتبر أوروبا مصدر المعرفة والابتكارات الحضارية الحديثة وليست مصدراً للعدوان، وأبدى موقفا متسامحًا تجاه الأوروبيين الذين وفدوا إلى مصر واستقروا فيها واعتبرهم شركاء فى الحقوق مع المصريين طالما كانوا يساهمون فى الحياة الاقتصادية للبلاد. ولم يتناول الطهطاوى فى كتاباته من قريب أو بعيد قضية الاستثمارات الأجنبية التى سيطرت على الاقتصاد المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كما تجاهل الإشارة إلى الامتيازات الأجنبية وغيرها من مظاهر التغلغل الأجنبى فى مصر الذى أدى فى نهاية الأمر إلى وقوعها بين براثن الاستعمار البريطانى فى عام ١٨٨٢ بعد وفاة الطهطاوى بتسع سنوات فقط(٤٧).

أما خير الدين الذى كان مشاركا فى السلطة، ووصل إلى أعلى المناصب الإدارية والسياسية فى الدولة، وعاصر ذلك الضغط والتأثير الأوروبى على العالم العربى – مشرقه ومغربه – وشاهد عن كثب قيام فرنسا باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠، وسعيها نحو مد نفوذها الاقتصادى والسياسى على تونس من خلال القروض والاستثمارات المختلفة، ثم التدخل فى شئونها المالية تمهيدًا للسيطرة والاحتلال. كما رأى مدى خطورة الامتيازات التى كان يتمتع بها الأجانب بوجه عام، كحق التملك وممارسة الأنشطة التجارية فى تونس، مما فتح الباب على مصراعيه لتسرب رءوس الأموال الأجنبية إلى داخل البلاد، وتدفق المزيد من المهاجرين وأصحاب المصارف والمتاجر والمغامرون من الدول الأجنبية المختلفة، مما ترتب عليه تفاقم المشكلة الاقتصادية، وزيادة الديون الأجنبية، نتيجة التوسع فى القروض التى لم يستفاد بها فى مشروعات تنموية لمصلحة المجتمع، لأسباب تتعلق بفساد الإدارة واستبداد الحكم، تلك الأسباب التى لم يكن مسئولا عنها أو مشاركاً فيها(٤٨).

ولهذا، لم يكن غريبا على سياسى من الطراز الأول، كخير الدين، أن يكون أكثر وعيا وفهما لذلك الخطر الذى تتعرض له الأمة العربية، فنجده فى أكثر من

موضع فى كتابه يحذر من خطورة الاستعمار الأوروبى، وكان يوضح بصورة حاسمة أن سلوكنا لطريق النهضة والتقدم فى شتى ألوان المعرفة هو الحصن المنيع ضد هذا الخطر. وقد ربط خير الدين بين الاستقلال السياسى وتحقيق الاستقلال الاقتصادى، مؤكدًا أن الاستقلال السياسى لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الاستقلال الاقتصادى. وكان يرى أن تونس تملك من الموارد والامكانات الاقتصادية والقدرة الذاتية ما يؤهلها لبناء اقتصادًا مماثلا لاقتصاد الدول الأوربية المجاورة لها، والتى تأخذ موارد البلاد الأولية لتصنيعها بالخارج ثم إعادة تصديرها بأضعاف أسعارها مما يربك ميزانية الدولة ويجعلها عاجزة عن تحقيق التنمية الاقتصادية الذاتية، وبالتالى وقوعها تحت سيطرة الدول الأجنبية(٤٩).

ثم يعود خير الدين ليؤكد أن الخلل السياسى فى النظام القائم، ما هو إلا نتاج حاجة الدولة لغيرها ، وهو – على حد قوله – "مانع لاستقلالها وموهن لقوتها" ، وخاصة إذا كان ذلك الاحتياج يتعلق بالنواحى الحربية التى لو تيسر الحصول عليها فى الظروف الطبيعية لتعذر ذلك وقت الحرب، ولا يمكن تحقيق ذلك كله إلا فى ظل التقدم العلمى، ووجود المؤسسات الدستورية القائمة على دعامتى العدل والحرية، تماما كالتى تشاهد فى أوروبا(٥٠).

وفيما يتعلق بقضية الامتيازات الأجنبية، نجده ينتقد أوروبا انتقادًا مريرا، نظراً لتوسعها فى تفسير هذه الامتيازات، استناداً إلى عهود قديمة مضى وقتها، اعتمادا على قوتها ونفوذها بالرغم من مخالفة ذلك للأعراف والقوانين التى تقول : "من دخل مملكة فلابد أن يخضع لأحكامها". وعاب على الدول الأوروبية التى تضع بعض العراقيل أمام تقدم وإصلاح الدول الإسلامية"(٥١).

ولهذا لم يكن غريبا، والحال هكذا، أن نرى خير الدين عندما تولى رئاسة الوزارة (١٨٧٣-١٨٧٧)، يبدأ فى انتهاج بعض السياسات الإصلاحية بهدف وقف الضغط الخارجى ومواجهة الخطر الأوروبى، والحيلولة دون سيطرة الأجانب على اقتصاديات البلاد، وكان من بين اصلاحاته الداخلية إصدار عدة قوانين لحماية الأراضى التونسية من استيلاء الأجانب عليها دون حق شرعى، ثم العمل على إصلاح هياكل الدولة الأساسية وخاصة فى الإدارة حتى تستقيم شئون البلاد،

بالإضافة إلى السعى نحو تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للسكان(٥٢)، فقام بإعادة توزيع الأراضى على الفلاحين، كما خفض الضرائب التى كانت تمثل عبئاً ثقيلاً على الأهالى، وقلل من الواردات وزاد من الصادرات، وأنشأ نقاط التفتيش الجمركية لمنع التهريب وسن عدد من القوانين لضبط الشئون المالية والإدارية للبلاد(٥٣).

ولقد اتضح لخير الدين، من خلال تجربته فى الحكم، وبعد تحليل للأوضاع الداخلية، أن التنظيمات السياسية، أى المؤسسات الدستورية، والتى أوضحها فى كتابه المشار إليه، وألح فى اعتبارها حجر الأساس فى بناء الدولة، أدرك بالتجربة العملية استحالة تطبيقها يومئذ "لأن الأمة لا يزال حكامها يكرهون الحكم النيابى، والرأى العام جاهل خاضع لا يطالب بها"(٥٤).

وبالرغم من هذا، فقد كان خير الدين من المؤمنين بأن الأمة العربية تملك مقومات الحضارة، رغم ما أصابها من الانكماش، وهى قادرة على النهوض من جديد لتعطى لما حولها من تجاربها وقدراتها ما يجعلها أمة قادرة على صد أى غزو أجنبى يريد القضاء عليها، لأنها تملك مقومات القوة والتقدم، وإقامة العدل والعمران والعلوم(٥٥)، وهذا ما دفعه عندما قدر له تحمل المسئولية الوزارية إلى أن يتجه نحو الإصلاح، والذى كان يعتبره من مقومات ودعائم بناء الدولة الحديثة. ورغم أن حركته الإصلاحية لم تستمر طويلا، إلا أن آراءه وأفكاره استطاعتا أن تنفذا فى عقول الطبقة المثقفة فى عهده، وكانت دعوته الإصلاحية تعد أول نظرة عميقة لمفاهيم الإسلام فى ضوء الحضارة والتطور ومتغيرات العصر.

ومن خلال هذا العرض للفكر السياسى ورؤية كل من الطهطاوى وخير الدين للآخر، يتضح أن كل منهما قد تلقى الصدمة الحضارية بروح علمية مستنيرة وواعية، وكان الهدف من إدراكهما لإبعادها هو العمل على إرساء أسس ودعائم النهضة الحديثة فى عموم الأمة(٥٦)، مدركين بأن الأمة العربية والإسلامية كانت تملك من مقومات النهضة الحضارية ما يمكنها من تحقيق ذلك الهدف، عن طريق الحكم الصالح، والإيمان بالعدالة والحرية، والقدرة على إعمال العقل، والانفتاح على تراث الحضارة الغربية ومعرفة مدنيات الأمم المتقدمة والأخذ بنظمها، فيما يتفق

وشريعتنا الإسلامية، وفى ضوء المصالح المتجددة للمسلمين من أجل مواكبة العصر.

وقد عبر كل منهما برؤيته الخاصة ومن خلال مواقعهم داخل السلطة الحاكمة عن جوانب الفكر السياسى بمختلف صوره من حيث شكل الدولة وطبيعة السلطة القائمة، ومدى المشاركة السياسية، ومنطلقات التقدم وأسباب التخلف، وكذا العلاقة مع الآخر.

وإذا كان الطهطاوى، ومن خلال ما طرحه من آراء حول هذه الجوانب من الفكر السياسى يمثل الأكثر فهما وتعبيرا، فإن خير الدين كان الأكثر وعيا بطبيعة المرحلة التى كانت تمر بها الأمة العربية، وما كانت تتعرض له من ضغط استعمارى بمختلف صوره وأشكاله، انتهى باحتلال فعلى للجزائر عام ١٨٣٠، ولكل من تونس عام ١٨٨١ ومصر عام ١٨٨٢، وهو ما غاب عن فكر الطهطاوى عندما نظر إلى الآخر، باعتباره منبع الثقافة والمعرفة والتقدم الحضارى والمادى دون غيرها من دوافع أخرى استعمارية واستغلالية.

وإلى جانب ما تقدم، فإن الطهطاوى يعتبر أول من دعا إلى حق التعليم لكل مواطن باعتباره ملازما للفرد كالماء والطعام، وبالتالى يكون قد سبق طه حسين فى دعوته للتعليم، كما سبق قاسم أمين فى دعوته إلى تعليم المرأة وخروجها إلى مجالات العمل والحياة. فقد دعا الطهطاوى إلى نهضة المرأة وإلى تعليم البنات وتثقيفهن تماما كالأولاد. وقد وضع كتابا مشتركاً للبنات والبنين وسماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) وهو كتاب فى الأخلاق والتربية والآداب، وضعه كما يقول فى مقدمته بحيث "يصلح لتعليم البنين والبنات على السواء"، وقد طبع سنة ١٨٧٢م.

وقد وقف الطهطاوى من قضية عمل المرأة موقفا تقدميا وثوريا بالنسبة لعصره، فهو لم يحدد لتعليم المرأة آفاقا تحدد دائرة حياتها بالمنزل والأولاد والزوج فقط، بل ربط العالم عندها بالعمل الذى يمكن أن تتعاطاه، عندما تقتضى الحاجة إلى ذلك، ووفقا لقوتها وطاقتها وذلك لتجنب ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق بها. لقد رأى الطهطاوى

ضرورة تعليم البنات لتحقيق أهداف ثلاثة وهى ، الزواج المتجانس وتربية الأولاد تربية صالحة، وتمكين المرأة من ممارسة العمل أسوة بالرجل وتجنيب المرأة حياة الفراغ والنميمة عند الحريم. وقد أسست لهذا الغرض أول مدرسة لتعليم البنات فى السيوفية سنة ١٨٧٢م، وأشرفت على إنشائها "جشم آفت هـانم" إحـدى زوجـات الخديوى إسماعيل.

الهوامش :

(١) عبد العاطى محمد أحمد : الفكر السياسى للأمام محمد عبده، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٦.
(٢) رءوف عباس حامد : التنوير بين مصر واليابان، ص ٥٧.
(٣) المرجع السابق، ص ٥٩. وللمزيد من التفاصيل ، انظر : صالح بك مجدى : حلية الزمن بمناقب خادم الوطن. كذلك جمال الدين الشيال : رفاعة الطهطاوى.
(٤) محمد عبد السلام الشاذلى : تطور الفكر العربى، ج١، ص ٣٠.
(٥) عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٠، ٢١.
(٦) رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية، طبعة ثانية، ص ٣٧٢.
(٧) محمد عمارة :رفاعة الطهطاوى رائد التنوير فى العصر الحديث، ص ١٠٤، ١٠٥.
(١) رءوف عباس، المرجع السابق، ص ٦٠. وقد أعادات الهيئة العامة للكتاب طبعه عام ١٩٩٣ فى ثلاثة أجزاء، وقد اعتمدنا على هذه الطبعة الأخيرة.
(٩) تلخيص الإبريز، ج١، ص ٦٠، ٦١.
(١٠) رفاعة الطهطاوى : تخليص الإبريز، ج٢، ص١٣٥ - ١٤٠، ١٩٣-٢١٩.
(١١) محمد عمارة ، المرجع السابق، ص ١١٦.
(١٢) رفاعة الطهطاوى : تخليص الإبريز، ج٢، ص ١٧٣ وما بعدها.
(١٣) محمد عبد السلام الشاذلى: تطور الفكر العربى، ج١، ص ٣٣. وكان تصور الطهطاوى لمثل هذه المجالس، بأنها ذات سلطات استشارية فقط، ليس من اختصاصها إلا المذكرات والمداولات وعمل القرارات على ما تستقر عليه الآراء وتقديم ذلك لولى الأمر. انظر : مناهج الألباب ، طبعة ثانية، ص ٣٥٧.
(١٤) محمد عمارة، المرجع السابق، ص ١٦٥.
(١٥) الطهطاوى ، تخليص الإبريز، ج٢، ص ١٧٣، ١٧٤. وفى مناهج الألباب، يشير إلى أن العدل يؤدى إلى سلامة السلطان وعمارة البلدان، مناهج الألباب ، ص ٨.
(١٦) خير الدين: أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، ص ٢-٤. وكان خير الدين يمثل أول نموذج لرواد الفكر العربى الحديث فى الشمال الأفريقى وقد كشف فى كتابه السابق أسباب تأخر الامة الإسلامية ووضع يديه على سبل تقدمها.
(١٧) تخليص الإبريز، ص ١٧٢.
(١٨) نفسه، ص ١٨٧، ١٨٨.
(١٩) الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية، ص ٣٤٩، كذلك محمد عمارة، المرجع السابق، ص ٢٥٤.
(٢٠) رءوف عباس : المرجع السابق، ص ٨٩. وحول هذا الموضوع، انظر، مناهج الألباب، ص ٣٤٨، ٣٤٩.
(٢١) الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية، ص ٣٥٤، ٣٥٥. كذلك محمد عمارة، المرجع السابق، ص ٢٧٠.
(٢٢) رءوف عباس، المرجع السابق، ص ٩١.
(٢٣) نفس المرجع ، ص ٩٢. وحول هذا الموضوع، انظر، مناهج الألباب، ص ٣٦٦، ٣٦٧.
(٢٤) محمد عمارة، المرجع السابق، ص ٢٥٦.
(٢٥) أحمد سيد أحمد : رفاعة الطهطاوى فى السودان، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٩.
(٢٦) الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية، ص ٣٤٨ وما بعدها. كذلك جمال الدين الشيال، رفاعة رافع الطهطاوى : القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨، ص ٣٠-٣٧.
(٢٧) جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص ٥٤، ٥٥.

(٢٨) مناهج الألباب، ص ٤٠٥، ٤٠٦. كذلك انظر : ص ٤ حول سبب تأليف هذا الكتاب.
(٢٩) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، ص ١٤٦، ١٤٧. كذلك المنجى الشملى، خير الدين باشا، ص ٨.
(٣٠) أحمد أمين ، المرجع السابق، ص ١٥١.
(٣١) محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار، ج٢، ص ٤٩. نقلا عن المنجى الشملى، ص ٩.
(٣٢) المنجى الشملى، خير الدين باشا، ص ١٠.
(٣٣) أحمد أمين ، المرجع السابق، ص ١٥٧، ١٥٨.
(٣٤) وثائق تونسية ، ج١، المقدمة، حيث تشير الوثائق إلى أسباب اندلاع الثورة.
(٣٥) المنجى الشملى، المرجع السابق، ص ١٨.
(٣٦) خير الدين : أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، ص ١ من المقدمة.
(٣٧) خير الدين : المصدر السابق، ص ٢-٤.
(٣٨) خير الدين : أقوم المسالك ، ص ٦.
(٣٩) المصدر السابق، ص ٦.
(٤٠) خير الدين : أقوم المسالك، ص ٨، ٩.
(٤١) خير الدين : المصدر السابق، ص ١٠، ١١.
(٤٢) صلاح أحمد زكى : أعلام النهضة العربية الإسلامية فى العصر الحديث، القاهرة، ص ٣٤.
(٤٣) خير الدين، المصدر السابق، ص ٨، ٩.
(٤٤) نفس المصدر ، ص ٢-٣، ٣١.
(٤٥) خير الدين، المصدر السابق، ص ١٥، ١٦. كذلك صلاح زكى ، المرجع السابق، ص ٣٣.
(٤٦) خير الدين، المصدر السابق، ص ٩، ٣٤، ٣٥.
(٤٧) رءوف عباس ، المرجع السابق، ص ٩٩.
(٤٨) عندما بدأ خير الدين فى مزاولة الشئون السياسية والانغماس فيها، نازعته بعض الشخصيات المشهورة ووقفت حجر عثرة فى طريقه كمصطفى خزندار (وزير المالية والداخلية) انظر، أحمد بن أبى الضياف، المصدر السابق، ص ٢٠٩، حيث يتحدث عن سياسة البذخ والإسراف خلال هذه الفترة كذلك، وثائق تونسية ، ثورة ابن غذاهم.
(٤٩) خير الدين : أقوم المسالك ص ٨، ٩. كذلك انظر : خيرية عبد الصاحب وادى : الفكر القومى العربى فى المغرب العربى، ص ٤٧.
(٥٠) خير الدين ، المصدر السابق.
(٥١) المصدر السابق، ص ٢٨، ٢٩.
(٥٢) المنجى الشملى، المرجع السابق، ص ٢٦.
(٥٣) خيرية عبد الصاحب وادى، الفكر العربى فى المغرب العربى، ص ٤٧.
(٥٤) المنجى الشملى، المرجع السابق، ص ٢٥.
(٥٥) خيرية عبد الصاحب وادى، المرجع السابق، ص ٤٦.
(٥٦) صلاح أحمد زكى ، المرجع السابق، ص ٢٩.

النظام التعليمي في مدينة فاس خلال العصر المريني (٦٦٨ – ٨٦٩هـ)

د/ نايف عيد السهيل
كلية التربية الأساسية– جامعة الكويت

بدأت الدولة المرينية في الظهور مع الضعف والإنحلال الذي أصاب الدولة الموحدية علي أثر هزيمتها في موقعة العقاب عام ٦٠٩هـ/١٢٠٩م، ومع هذا الضعف خاض المرينيون صراعاً علي أرض المغرب الأقصى. ويعد أميرهم عبد الحق بن محيو (٥٩٢ – ٦٠٩هـ /١١٩٥ – ١٢١٧م) أول من جمع بني مرين وفي عهده بدأ التفكير لإقامة دولة للمرينيين في المغرب الأقصى. وبعد وفاته استكمل ابنه أبو سعيد عثمان (٦١٤-٦٣٧هـ /١٢١٧-١٢٣٩م)المهمة، وبسط النفوذ علي البوادى والضواحي والأرياف. وبعد ذلك قام المرينيون بالاستيلاء علي مدن المغرب الأقصى، وسقطت المدن المدينة تلو الأخرى، وكانت مدينة مراكش حاضرة الموحدين آخر المدن المغربية التي سقطت عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م. علي أيدى الأمير المريني يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/ ١٢٥٨- ١٢٨٦م) هكذا انقرضت الدولة الموحدية. وبعد سقوط مراكش تلقب يعقوب بن عبد الحق المريني بلقب"أمير المسلمين"بدلا من لقب (أمير) الذي كان يدعي به[١].

وقد تأسست مدينة فاس زمن الدولة الإدريسية بعهد إدريس الثاني (١٧٧ – ٢١٣ هـ / ٧٩٣ – ٨٢٨م)، بعد أن ضاقت به وبمن وفد إليه (مدينة وليلى). وقد بدأ التأسيس ببناء عدوة الأندليسيين عام (١٩٢ هـ / ٨٠٨ م). وبعد عام – أي في عام (١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) – بنى عدوة القرويين، ومن العدوتين تكونت مدينة فاس. وقد ازدهرت هذه المدينة من بداية التأسيس وطوال عهود الدولة المغربية المستقلة بفضل مكانتها العلمية والثقافية. ومع أن عصر مدينة فاس الذهبي هو عصر بني مرين، فإن المدينة قبل هذا العصر كانت ملتقى أهل العلم لأن المدينة

جمعت علوم المشرق والمغرب وأضافت إلي ذلك الكثير من تفكير أبنائها[٢].

علي أية حال لقد عرفت مدينة فاس في العصر المريني بأنها مدينة العلم والثقافة بفضل التطور الذي شهده هذا العصر في النظام التعليمي والتربوي ويرجع هذا التطور والازدهار إلي عدة عوامل.

أهم عوامل تطور النظام التعليمي في مدينة فاس:

يأتي في مقدمة هذه العوامل وأولها بناء المدارس بالإضافة إلي إنشاء المكتبات بها. مع توافر الموارد المالية للإنفاق علي العلماء والطلبة. وقد أعان علي كل ذلك ازدهار الأوقاف، وتعدد مصاريفها. وقد نال النظام التعليمي الكثير من تلك المصاريف الوقفية، وسوف يتبين هذا الأمر عند الحديث عن المدارس.

أما العامل الثاني فهو أن بعض سلاطين هذه الدولة كانوا علي قدر من الثقافة، فاهتموا بها، وعقدوا المجالس العلمية، ورفعوا من شأن رجال العلم والثقافة [٣]. فكان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني يقرأ بعد صلاة الفجر إلي صلاة الضحى كتب السيرة والتاريخ، يستمع ويناقش الحاضرين في مجلسه هذا[٤]. وكان في ليالي شهر رمضان يجلس مع العلماء ليذاكرهم في فنون العلم إلي الثلث الأخير من الليل[٥]. وقد نهج هذا النهج ابنه أبو مالك عبد الواحد الذي توفي في حياة أبيه عام (671ه1272-م) والذي كان يجالس أهل العلم والفقه مقربا لهم، وكان محبا للأدب والتاريخ والأنساب [٦].

كما كان أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (710-٧٣١ه ١٣١٠-١٣٣١م) معدوداً من أهل العلم[٧] ومن أساتذته فقيه فاس أبي الحسن الصغير المتوفى عام(719هـ ١٣١٩م)[٨]. وقد اشتهر ابنه أبو الحسن علي الذي تقلد الأمر بعده (731-752هـ 1348-1358م)بأنه من أبر أهل العلم وأعرفهم بقدرهم استخلصهم لنفسه، وجمعهم من سائر البلاد في حضرته وجعلهم خواص أهل مجلسه[٩].

كما عرف عن السلطان أبي عنان المريني (٧٤٩- ٧٥٩هـ /١٣٤٨-١٣٥٨م) اشتغاله بالعلم فقد كان يعقد مجلسه في كل يوم بعد صلاة الصبح وكان يحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره، ويقرأ هؤلاء بين يديه تفسير القرآن الكريم وحديث المصطفي صلي الله عليه وسلم وفروعاً من مذهب مالك [١٠].

وثالث تلك العوامل هو الأثر الأندلسي علي التعليم، فقد جاء استقرار الأمر للمرينيين قريبا من سقوط المدن والقواعد الأندلسية الكبرى، فانتقلت مجموعات من أعلام الأندلس إلي مدن المغرب الأقصى وخاصة مدينة فاس. فكان لهؤلاء الأعلام الأندلسيين مع من تقدمهم من الجاليات الأندلسية في عصور سابقة أثرهم في دعم النشاط الفكري وتطوره[١١].

وتتعدد أدوار الأندلسيين العلمية في مدينة فاس فبعضهم قام بالتدريس في جامع القرويين مثل الفقيه ابن رشيد الفهري (ت٧٢١هـ/١٣٢١م) [١٢]، بالإضافة إلي الفقيه ابن عباد الرندى (ت٧٩٢هـ/١٣٨٩م)[١٣]. وبعضهم ساهم في بناء المدارس في مدينة فاس منهم القاضي المفضل بن إبراهيم المري (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) إذ أوكل إليه السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني سنة(ت ٦٧٥هـ/١٢٧٦م)الإشراف علي بناء مدرسة الحلفاويين[١٤]. كما تولى عدد من الأندلسيين وظيفة التدريس في هذه المدرسة منهم أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي السرقسطي (ت٧٢٤هـ/١٣٢٤م)الذي قام بالتدريس في مدرسة العطارين[١٥].

بعد هذا العرض للعوامل التي أدت إلى تطور النظام التعليمي وازدهاره في مدينة فاس، نعرض لدور العلم في تلك المدينة والتي استقبلت طلاب العلم.

أولا – المكتب أو الكُتّاب:

يعد المكتب مكان تعليم صبية المسلمين مبادئ القراءة والكتابة بالإضافة إلي حفظ القرآن الكريم[١٦]. ومعلوماتنا عن المكتب في بلاد المغرب قليلة، إلا أنه من المؤكد أنه يشبه الكتاتيب في شرق العالم الإسلامي، بحيث لا يعدو أن يكون حانوتا أو حجرة مجاورة للمسجد أو بعيدة عنه أو غرفة في منزل[١٧]. ويمدنا محقق كتاب المستفاد بموقع أحد مكاتب مدينة فاس فيقول: يقع هذا المكتب بحومة زقاق الماء من عدوة القرويين، وقد بقي هذا المكتب قائما إلي مطلع القرن العشرين[١٨]. وكانت أعداد المكاتب كثيرة إذ يذكر الحسن الوزان أن بمدينة فاس مائتي مكتب لتعليم الأطفال[١٩].

والسؤال المطروح ما هو نظام العمل في تلك المكاتب المغربية ؟ أى صفات المعلم، والموضع المفضل للمكتب، وسن بداية التعليم، ومواد التعليم والعقوبات،

وأخيرا العطل. يعين الباحث في الإجابة علي هذا السؤال مؤلف مغربي عاش في مدينة فاس في الفترة الزمنية للدراسة هو محمد بن الحاج العبدري الفاسي المتوفى عام (٧٣٧هـ/١٣٣٧م)، وقد ترك لنا هذا المؤلف معلومات عن طريقة تعليم الصبيان وتربيتهم، وقد جاءت هذه المعلومات في كتابه"المدخل"[٢٠].

يري مؤلف كتاب المدخل أن المؤدب في المكتب يجب أن يكون من أهل الدين والتقوى، متقدما في اللغة العربية مع فقه وورع وزهد. لذلك على الآباء أن يتخيروا الأفضل من بين المؤدبين وإن كان مكان المكتب بعيدا[٢١]. ومن واجبات المعلم في المكتب ملازمة المكتب وأن يقوم بنفسه لتعليم الأطفال، فإن عجز وشق عليه يستعين بمن ينوب عنه من الحفاظ [٢٢].

ويفضل أن يكون المكتب في مكان معلوم في السوق أو علي الشوارع العامة، ويمنع اتخاذ المسجد مكانا لتعليم الصبيان حيث يجب صيانته من عبث الأطفال وعدم الاحتراز[٢٣].

أما عن سن بداية التعليم فأنه يحدده بسبع سنين ويخالف من سبقه في هذا التحديد. وهو يرى أن الصبي في هذه السن يكلف بالصلاة والآداب الشرعية كما أن في هذه السن لا يحتاج الصبي من يأتي به إلي المكتب[٢٤]. وقد سايرت البحوث التربوية الحديثة هذا الرأي فالاتجاهات الحديثة ذهبت إلي أنه لا يجب تعليم الصبي قبل اكتمال وعيه وإن هذا الاكتمال لا يتم في الأغلب إلا بعد السنة السادسة[٢٥].

أما عن مواد التعليم فهي تحفيظ الصبيان القرآن الكريم، وتعلمهم مبادئ القراءة والكتابة وقواعد الخط. كما يجب على المؤدب أن يؤدبهم على الآداب الإسلامية، ويحملهم علي إتباع السنة المطهرة، ويغرس في نفوسهم الاهتمام بالشعائر الإسلامية. كما يجب أن يدربهم على الفهم والإدراك فالحفظ والفهم من أكبر الأسباب المعينة على قراءة الكتب والاستفادة منها[٢٦].

ويحدد صاحب المدخل العقوبات التي تقرر علي الأطفال علي إهمال واجباتهم في المكتب، أو بسبب الفرار منه أو بسبب الكذب والسب واليمين المحرمة. لا يستحسن المؤلف التأديب بالضرب لمن لم يبلغ سن العاشرة، وإذ بلغ الطفل هذه السن يضرب ضربا غير مبرح من واحدة إلي ثلاث، فإن اضطر المعلم إلي الزيادة لا يتعدى العشر ويكون مسئولا عما يطرأ على الصبي إن زاد على ذلك. ومن أشد

العقوبات عقوبة الطرد من المكتب في حق من اتصف من الصبيان بواحدة من الصفات الذميمة [٢٧].

وكانت أوقات الراحة المخصصة للصبيان بعد محو الألواح للإفطار، وقبل الظهر للغذاء والراحة. وإذا اشتكى أحد الصبيان من مرض وهو في المكتب يصرفه المعلم إلي منزله. أما الراحة الأسبوعية فهي يومان الخميس والجمعة من كل أسبوع بالإضافة إلى عطل الأعياد الدينية [٢٨].

ويرسم الحسن الوزان صورة لما كان عليه المكتب في القرن العاشر الهجري فيقول: أن المكاتب المخصصة لتعليم الأطفال عبارة عن قاعات واسعة داخلها، والمعلم يعلم القراءة والكتابة على ألواح يكتب فيها التلاميذ جزءاً من القرآن الكريم في كل يوم، ويسيرون علي ذلك ويختمون القرآن في سنتين أو ثلاث، ويعيدون ختمه مرات عديدة حتى يحفظوه عن ظهر قلب، وأقصى ما يقضون في ذلك سبع سنوات [٢٩].

والجدير بالذكر أن بعض كتب الطبقات والتراجم أمدتنا بأسماء بعض من قام بتعليم الصبيان في المكاتب منهم ابن آجروم وهو محمد بن محمد بن داود الصنهاجى الفاسي المتوفى عام (٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) الذي كان يسكن بعدوة الأندلس من مدينة فاس وكان من مؤدبى أهل هذه المدينة [٣٠]. كما كان ابن الخراز وهو محمد بن محمد بن إبراهيم الفاسي المتوفى عام (٧١٨هـ/١٣١٨م) أصله من مدينة شريس بالعدوة الأندلسية. وكان له العديد من المؤلفات خاصة في رسم أحرف القرآن الكريم. وكان يعلم الصبيان بمدينة فاس التي استوطنها وبها كانت وفاته[٣١].

ويعد ابن خطا الصنهاجي وهو عبد الله بن عمر الصنهاجي الذي توفي في القرن ٨هـ/١٤م من معلمي الصبيان في مدينة فاس الذي كان عارفاً بالقراءات حتى كان أحد أسانيد القراء المميزين [٣٢]. إن التراجم الثلاثة التي عرضنا لها لمعلمي المكتب في مدينة فاس في الفترة الزمنية للدراسة تبين لنا ارتفاع المستوى العلمي والثقافي لهؤلاء المعلمين.

ثانيا _ المساجد:

كانت المساجد في المغرب الأقصى بوجه عام ومدينة فاس بوجه خاص

كسائر بلدان العالم الإسلامي علي رأس معاهد العلم والثقافة، فلم يمنع ظهور المدارس في دولة بنى مرين من أن تبقي المساجد مركزا من مراكز العلم في هذا العصر[٣٣]. وقد ضمت مدينة فاس في جنباتها عددا كبيرا من الجوامع والمساجد، ذكر ابن الوزان أن عددها بلغ سبعمائة مسجد وجامع، من بينها خمسون جامعا كبيرا حسنة البناء[٣٤]. ونعتقد أن هناك مخالفة في هذا الرقم وتبقي دلالته علي كثرة مساجد فاس وجوامعها. وهذه المساجد والجوامع أغلبها بني قبل العصر المريني وأهمها جامع القرويين وجامع الأندلسيين [٣٥]. وجامع زواغة وجامع صفروي[٣٦]، ومسجد ابن حنين، ومسجد ابن محمود، ومسجد أبي جعفر ومسجد زقاق الماء، ومسجد الرواحة، ومسجد إيصليتن، ومسجد عين علون ومسجد مصمودة[٣٧].

كما بني عدد من المساجد في العصر المريني أهمها الجامع الكبير بفاس الجديدة الذي بناه يعقوب بن عبد الحق المريني عام (٦٧٧هـ/١٢٧٩م) [٣٨]. ومسجد أبي الحسن المريني في فاس القديمة[٣٩]، كما بني أبو عنان المريني جامعين في فاس الجديدة الأول جامع الزهر عام (٧٥٩هـ/١٣٥٨)[٤٠]، الثاني جامع الحمراء[٤١] ولم نعثر على زمن البناء. كما يعد مسجد السوق الكبير آخر مسجد بني في فاس الجديدة في العصر المريني، وهو من تأسيس القائد عبد الله الطريفي حاجب السلطان أبي سعيد الثاني (٨٠٠-٨٢٣هـ/ ١٣٩٧-١٤٢٠م)[٤٢]

وكان لهذه المساجد دور تعليمي بالإضافة إلي دورها الديني ويتضح ذلك من الإشارات التي وردت في المصادر وتبين الدور التعليمي للمساجد. ويعد جامع القرويين الأهم في المجال التعليمي، فقد كان به عدد كبير من العلماء يدرسون العلم في مواضع عدة من هذا الجامع، يقصدهم الطلاب من أقطار شتى أي من كافة مدن بلاد المغرب والأندلس والسودان الغربي، كما كان يدرس في هذا الجامع معظم فنون العلم في مجالس شتى منه [٤٣].

والجدير بالذكر أن الأوقاف لعبت دوراً هاماً في دعم النشاط التعليمي في جامع القرويين. فقد كانت هناك أوقاف على قراءة الكتب الدينية. وكانت قراءة هذه الكتب لإسماع الناس تبدأ بعد الفراغ من قراءة حزب الصبح. ومن الكتب التي كان يقرأها بعض شيوخ المسجد تفسير القرآن الكريم للثعالبي، وكتاب حلية الأبرار لأبي نعيم، وكان له قارئ محسن متقن. وكان الناس يجلسون في المسجد حلقاً حلقا

فيستمعون إلي أن يطلع النهار فينصرفون. فأشار هذا الإمام على القارئ أن يجلس قرب المحراب في الوقت المذكور ويقرأ هناك من تلك الكتب فصولا لإسماع الناس فاجتمع إليه من كان يجلس في المسجد فانتفع به الناس. واستحسن أحد حكام الدولة المرينية هذا الأمر، وأجري على القارئ في ذلك جرايات استمرت إلي نهاية عهد هذه الدولة[٤٤].

كما كان هناك وقف مخصص لقراءة حزب من القرآن الكريم بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب، وقفه أمير المسلمين أبو الحسن المريني (٧٣١-٧٥٢هـ/ ١٣٣٠-١٣٥١م) الذي أجرى جراية لعشرة من القراء مرتبين لقراءته[٤٥]

ولدعم الرسالة الدينية والتعليمية لجامع القرويين بني أبو عنان المريني (٧٤٩-٧٥٩ هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٨م) خزانة للمصاحف تقع في صدر هذا الجامع وذلك سنة(٧٥٠هـ/١٣٤٩م).

وكانت هذه المصاحف تقدم لرواد الجامع لتلاوة آيات الذكر الحكيم[٤٦] وحتى تؤدى هذه الخزانة دورها على أتم وجه عين أبو عنان لها من يقوم على إدارتها بإخراج المصاحف من هذه الخزانة لمن أراد القراءة فيها، ثم ردها إلى موضعها لحفظها وصيانتها وذلك عند الفراغ من حاجات الناس إليها[٤٧].

وهناك العديد من المدرسين الذين قاموا بالتدريس في جامع القرويين في العهد المريني والذين ذكرتهم المصادر منهم الفقيه ابن رشيد الفهري المتوفى عام (٧٢١هـ/ ١٣٢١م) وكان مجلسه شرقي صحن القرويين، يقوم بالتدريس بين صلاتى الظهر والعصر، وكان يقوم بتدريس الموطأ وصحيح الإمام البخارى [٤٨]. وكان يقوم بالتدريس أيضاً أبو البركات بن الحاج البلفيقى المتوفى عام (٧٧٣ هـ / ١٣٧٢م) [٤٩].

كما يعد الفقيه ابن عباد الرندي المتوفى عام (٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩م) من مدرسي القرويين، وقد درس عدة كتب منها مختصر ابن الحاجب، وتسهيل ابن مالك، ومقامات الحريري [٥٠]. وأخيراً تمدنا المصادر باسم الفقيه أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد القرموني المتوفى عام ٨٦٤ هـ/ ١٤٥٩م الذي كان يدرس في هذا الجامع كتاب الرسالة للإمام الشافعي[٥١] كما كان لسلاطين الدولة المرينية دور هام في دعم النشاط التعليمي في مساجد مدينة فاس، إذ قاموا بإحداث الكراسي

الدراسية في تلك المساجد، وهي كراسي الأساتذة. وكرسي التدريس وهو الكرسي الذي يجلس عليه أحد أساتذة العلم في مكان بالمسجد مخصص لتدريس مادة معينة من خلال كتاب دراسي محدد أيضاً ويتقاضى الأستاذ المكلف بالتدريس راتبه من الأوقاف الموقوفة عليه وحده سواء كانت أوقافاً وقفت من قبل رجال الحكم أم من طرف الأهالي.

وهناك نوعان لكراسي الأساتذة في مساجد فاس: الأول مخصص لإسماع العامة وهو كرسي للوعظ. وقد ظهر هذا النوع من الكراسي الوعظية بجامع القرويين في منتصف القرن (٧ هـ/ ١٣م). أما النوع الثاني من الكراسي فقد كان مخصصاً لتعليم الطلاب المتفرغين لطلب العلم. وتسند هذه الكراسي لأساتذة ومدرسين متخصصين في المواد المكلفين بتدريسها. ويتقاضى هؤلاء المدرسون على ذلك أجوراً مرتفعة من الأوقاف بالمقارنة مع أجور الذين يقومون بالتدريس في الكراسي الوعظية[٥٢].

وقد وجدت كراسي لتدريس العلم في جامع القرويين يتم فيها تدريس كتب محددة بعد الفراغ من قراءة حزب الصبح، مثل تفسير القرآن الكريم للثعالبي وكان الناس ينتفعون بذلك كثيراً كما كان هناك كرسي في هذا الجامع لقراءة كتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالي حجة الإسلام والمتوفى في بلدة طوس عام (٥٠٥ هـ/١١١١م). وفي فترة حكم السلطان أبى عنان المريني أمر بتدريس كتاب الشفاء للقاضي عياض المتوفى عام (٥٧٥هـ/١١٧٩م) أ واستمر العمل على ذلك حتى انقراض الدولة[٥٣].

وانتشرت كراسى التدريس في مساجد فاس الأخرى، فقد كان هناك كراسى للتدريس في جامع الأندلس وهو كرسي الونشريسي، وهو أبو الربيع سليمان الونشريسي الفاسي المتوفى بها عام(٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م) الذي كان يجلس على كرسيه ويقرأ التفريغ ويقوم على المدونة، وكان ذا صدر رحب يناقشه طلابه، وقد أخذ عنه الكثيرون منهم الفقيه القاضي إبراهيم اليزناسى [٥٤]

ولم تقتصر كراسي الأساتذة في مدينة فاس على المساجد الكبيرة ذات الشهرة، فقد وجدت كراسي أيضا في المساجد الأقل شهرة ففي جامع الأزدغ من مدينة فاس كان هناك كرسي لأبى الحسن الصغير المتوفى عام (٧١٩ هـ/١٣١٩م) وصاحب

الكرسي هو على بن عبد الحق الزرويلى الفقية المالكى الحافظ. وكان مجلسه على كرسي عال ليسمع منه القريب منه والبعيد عنة[٥٥]. وكان أبو الحسن الصغير يقوم بتدريس كتاب التهذيب للبرادعى[٥٦].

أما عن كراسي الوعظ فقد انتشرت في معظم مساجد فاس، وقد جذبت إليها العوام من أبناء المجتمع الفاسي. وكانت الدروس تلقى بعد صلاة الفجر بقليل، وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس، وفي الصيف تلقى الدروس الوعظية من منتصف الليل إلى الساعة الواحدة والنصف صباحاً[٥٧].

والراجح أن كراسي التدريس التي أنشئت في مساجد فاس كانت تقدم خدماتها التعليمية لسكان المدينة وطلابها بخلاف المدارس- التي سوف نعرض لها – التي جذبت إليها طلاب فاس بالإضافة إلى الطلاب الغرباء بما وفرته لهم من مسكن وغذاء بفضل ما تم وقفه عليها. كما أن إنشاء تلك الكراسي الدراسية في مساجد فاس، جعل الدولة تشرف على التعليم في المساجد أكثر من ذي قبل [٥٨].

إذا كان النظام التعليمي في مدينة فاس قد ازدهر بفضل الدور التعليمي للمكاتب والمساجد في هذه المدينة، فإن ظهور المدارس في هذه المدينة وخلال الفترة الزمنية للدراسة كان له الأثر الأكبر في هذا الازدهار. فقد اعتمدت المدارس في إنشائها على الأوقاف التي بنت المدارس وحافظت عليها عامرة آهلة بالطلاب الذين قصدوها من كل مكان.

ثالثاً- المدارس المرينية في مدينة فاس:

ازدانت مدينة فاس بالمدارس التي أنشئت في العهد المريني، تلك المدارس التي قصدها طلاب العلم من جهات شتى، لقراءة العلم على أيدي أساتذتها من الفقهاء والمحدثين والأدباء. وقد أسهم هذا الأمر في تطور وازدهار النظام التعليمي في مدينة فاس.

وقد تباينت الآراء حول بداية ظهور المدارس في المغرب الأقصى. الرأي الأول، يرى أنها ظهرت في القرن الخامس الهجري أي في القرن الذي ظهرت فيه بالمشرق حين أسس الحاكم المرابطي يوسف بن تاشفين (٤٥٢-٥٠٠ هـ/١٠٦١-١١٠٦م) مدرسة الصابرين في فاس [٥٩]. الرأي الثاني ، يرى أن المدرسة ظهرت في القرن السادس الهجري حين قام يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠-٥٩٥ هـ/

١١٨٤-١١٩٨م) ببناء عدد من المدارس في المغرب [٦٠]، منها مدرسة الجامع الأعظم بسلا [٦١]. الرأي الثالث والأخير، يرى أنها ظهرت في القرن (٧ هـ/١٣م) حين بنيت مدرسة الحلفاويين بمدينة فاس [٦٢]. وهذه المدرسة بناها أبو يوسف يعقوب المريني في عام (٦٧٥ هـ/١٢٧٦م) [٦٣].

في البداية نستبعد الرأي الأول والثاني لأن المغرب الأقصى لم يعرف مدرسة الصابرين في العهد المرابطي، بل عرف جامع الصابرين الذي عرف تدريس العلم كبقية جوامع ومساجد المغرب. فليس من المعقول أن يطلق على مسجد رتبت فيه دروس العلم لقب مدرسة كما أن ابن الخطيب الذي زار مدينة فاس في منتصف القرن الثامن الهجري تحدث عن جامع الصابرين ولم يتحدث عن مدرسة الصابرين[٦٤]. أما الرأي الثاني، فلم يذكره سوى ابن أبي زرع والأخير لم يكن معاصرا ليعقوب المنصور الموحدي فهو يكتب تاريخه بعد قرن من الزمان من وفاة يعقوب المنصور الموحدي، أما القول بأنه بنا مدرسة الجامع الأعظم بسلا فمن الواضح أن صاحب هذا الرأي يقصد قيام يعقوب المنصور الموحدي بترتيب الدروس في هذا المسجد ولا يقصد بناء مدرسة بالمفهوم المتعارف عليه وهو بناء مخصص للتدريس يتكون من عدة ادوار للأساتذة والطلاب وبه خزانة كتب ومسجد مخصص للصلوات الخمس[٦٥].

إذا كان الباحث يستبعد الرأي الأول والثاني، فإنه يتفق مع صاحب الرأي الثالث إن المدرسة ظهرت في القرن السابع الهجري في بلاد المغرب، لكن أول مدرسة هي مدرسة أبى الحسن الشاري المتوفى عام (٦٤٩ هـ/١٢٥٢م) والتي بناها في مدينة سبتة عام (٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧م) [٦٦]. وبالتالي تعد مدرسة أبى يوسف يعقوب المريني والتي بنيت عام (٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦م) والتي تدعى بالحلفائيين هي ثاني مدارس المغرب الأقصى ويمكن القول أيضاً أن هذه المدرسة الأخيرة هي أول مدارس مدينة فاس [٦٧].

أما الباعث في ظهور المدارس المرينية هو مساعدة الطلاب على طلب العلم بالإضافة إلى إعانة الأساتذة على تدريس العلم.

ويقول ابن مرزوق: "لا خفاء في فضيلة نشر العلم وبثه، ولا يحفظ العلم إلا بمعونة طلابه على طلبه وبحثهم على تعلمه وتعليمه"[٦٨] كما جاء في نص وقفية أبى

عنان المريني على مدرسته البوعنانية ما يؤكد هذا المعنى"قصد ببنائها وجه الله تعالى في إحياء رسوم العلم. . . حبّس أيده الله تعالى على هذه المدرسة إرفاقاً لطلبة العلم وإعانة لهم"[٦٩] هكذا أنشأ المرينيون المدارس وأمدوها بكل ما تحتاج إليه ليجد فيها الطالب حاجته من التعليم بالإضافة إلى السكن والطعام. وقد أعانت الأوقاف على هذا الأمر بالإنفاق عليها لجذب الطلاب المقيمين في المدينة أو الغرباء عنها.

١ - مدرسة الحلفائيين:

بنى أبو يوسف يعقوب المريني هذه المدرسة سنة (٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦-١٢٧٧م) بمدينة فاس بالقرب من جامع القرويين، ثم أطلق عليها فيما بعد مدرسة الصفارين لأنها تقع بالقرب من حوانيتهم [٧٠] وبعد البناء سكنها الطلبة والأساتذة الذين حددت لهم المرتبات الشهرية[٧١] ولكي تؤدى المدرسة رسالتها ألحق بها خزانة الكتب والتي وقفها مؤسسها على طلاب العلم والمدرسين.[٧٢]

وقد استمرت هذه المدرسة تؤدى رسالتها التعليمية منذ أسست في القرن السابع الهجري وطوال عهد الدولة المرينية، بفضل الأوقاف التي تم وقفها علي هذه المدرسة والتي وردت في حوالة أحباس المدارس القديمة في فاس.[٧٣]

٢- مدرسة فاس الجديدة:

يرجع تأسيس مدرسة فاس الجديدة إلي أبي سعيد عثمان بن عبد الحق المريني (٧١٠-٧٣١ هـ/١٣١٠-١٣٣١م) الذي أمر ببناء هذه المدرسة عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) واكتمل بناؤها بعد عام أي في (٧٢١هـ/١٣٢١م) [٧٤]. وسكنها الطلبة لدراسة العلم، والفقهاء والأساتذة لتدريسه. وأجري عليهم المؤسس المرتبات في كل شهر تدفع لهم من الضياع الموقوفة علي تلك المدرسة [٧٥]. وقد توزعت الأوقاف الخاصة بهذه المدرسة بين فاس القديمة وفاس الجديدة [٧٦]. وقد ورد نص هذه الوقفية الخاص بهذه المدرسة في دراسة الفرد بل عن النقوش العربية في فاس[٧٧].

ومن اشهر مدرسي هذه المدرسة أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي المتوفى عام (٧٧٨هـ/ ١٣٧٧م) وكان يدرس بها كتاب التهذيب للبرادعي. [٧٨]

٣ – مدرسة العطارين:

أمر بتشييد هذه المدرسة أيضا أبو سعيد عثمان بن عبد الحق المريني في سنة (٧٢٣هـ/١٣٢٣م) بالقرب من جامع القرويين عند طرف سوق العطارين [٧٩]. وقد اكتمل البناء عام (٧٢٥هـ/٢٤-١٣٢٥م). ومن أشهر مدرسي هذه المدرسة ابن البناء المراكشي وهو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المتوفى عام (٧٢٤هـ/١٣٢٤م) [٨٠].

٤ – مدرسة الصهريج والسبعين:

بني أبو الحسن المريني المدرستين في فترة حكم أبيه أبي سعيد عثمان، وكان أبو الحسن في ذلك الوقت ولياً للعهد، وتقع المدرستان في غرب جامع الأندلس، وبني حولهما سقاية ودار وضوء وفندقا لسكنى طلبة العلم [٨١]. وكان لكل مدرسة بناء مستقل وأطلق عليهما اسم المدرسة الكبرى والمدرسة الصغرى [٨٢]. ثم سميت الأولي مدرسة الصهريج لأن صهريجا مربعا كان يحتل وسط الصحن، ثم أطلق علي الأخرى مدرسة السبعين نسبة إلي القراءات السبع التي من المحتمل أنها كانت تدرس بها [٨٣].

وبعد اكتمال بناء المدرستين في عام (٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)[٨٤] رتب المؤسس بهما الفقهاء للتدريس، واسكنها الطلبة وأجري علي الجميع المرتبات بعد أن وقف عليهما أوقافا كثيرة.[٨٥]

٥ – مدرسة الودى:

تقع هذه المدرسة بالقرب من جامع الأندلس، وهي من بين المدارس التي أنشأها أبو الحسن المريني وفقا لما ذكره ابن مرزوق.[٨٦] ويطلق عليها هذا الأسم لأن الوادي الأعظم يشقها من وسطها. وقد وردت الأوقاف التي أعانت هذه المدرسة علي تأدية رسالتها في حوالة أحباس المدارس القديمة بفاس.[٨٧]

ويعد الفقيه الحافظ المفتي عبد الله الوانغيلي الضرير المتوفى عام (٧٧٩هـ/ ١٣٧٨م) من مدرسي هذه المدرسة. وقام بتدريس الأصلين (أصول الدين وأصول الفقه) بالإضافة إلي مدونة الإمام سحنون.[٨٨]

٦– المدرسة المصباحية:

بني هذه المدرسة أيضا أبو الحسن المريني في سنة (٧٤٧هـ/٤٦ –

١٣٤٧م)حين أصبح سلطانا، ودعيت بالمدرسة المصباحية.[٨٩] نسبة إلـي مـصباح وهو أبو الضياء مصباح بن عبد الله الياصلوتى المتوفى عام (١٣٥٠م) وقد نسبت إليه المدرسة لأنه أول من تصدي للتدريس بها، وهو فقيه مالكي مشهور.[٩٠]

وتعد المدرسة المصباحية من أكبر مدارس فاس إذ تتكون من طابقين علويين لسكني الطلاب، وتحتوي المدرسة في الطابق الأسفل والطوابق العليا علي زهاء ١١٧ حجرة، كما تضم المدرسة مسجداً صغيراً له محراب موجود إلي الآن.[٩١]

ولكي تؤدي هذه المدرسة رسالتها وقف عليها أبو الحسن المرينـي حوانيت ودوراً وفنادق بالإضافة إلي جنان، وذكر في وثيقة الوقف أن هذا الوقف مؤبد إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.[٩٢]

٧ – المدرسة البوعنانية:

شيد أبو عنان المريني هذه المدرسة التي حملت اسمه، وبدأ البناء يوم الاثنين ٢٨ من شهر رمضان عام (٧٥١هـ/ نوفمبر عام ١٣٥٠م)، واكتمل البنـاء فـي أواخر شعبان من سنة (٧٥٦هـ/٨ سبتمبر عام ١٣٥٥م) [٩٣]. ولروعة وجمال هذه المدرسة فقد أشاد بها ابن بطوطة وقال: "لا نظير لها في المعمور اتساعاً وحـسناً وإبداعاً وكثر ماء وحسن موضع."[٩٤]

أما عن مدرسي هذه المدرسة فنعرف منهم الحافظ الصّرصّري الذي كان حيا في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وقد عينه السلطان أبو عنان لتدريس الفقه بعد اكتمال بناء المدرسة [٩٥]. كما كان الشيخ أحمد بن سعيد المكناسي (٨٠٤ – ٨٧٠هـ/١٤٠٢- ١٤٦٩م) من مدرسي هذه المدرسة أيضا وكان يـدرس الفقـه والتصوف. [٩٦]

أما عن أوقاف هذه المدرسة فكانت ضخمة تتناسب مع ضخامة مـصاريفها. وهذه الأوقاف سجلت علي لوحة رخامية مثبته في صحن المدرسة، ليصرف منها علي عمارتها ومرتبات الطلبة والأساتذة والقائمين علي خدمتها.[٩٧]

هكذا أسهمت هذه المدارس في بعث الحيوية في النشاط التعليمي كما رفعـت من مستواه. كما فتحت هذه المدارس أبوابها لطلاب المدن والبوادي، وأصبح فـي مقدور فئات بدوية أو حضرية أن تأخذ نصيبها من التعليم بما تـوفره لهـم هـذه المدارس من وسائل العيش والتعليم. كما فتحت هذه المدارس مجالا واسعا للعلماء

والفقهاء والمدرسين كي يعملوا بالتعليم والتأليف، مما أدي إلي ازدهار الحياة العلمية والتعليمية في فاس خلال العصر المريني ساهم في ذلك أنظمة التعليم في تلك المدارس.[98]

أنظمة التعليم في المدارس المرينية:

يدين الباحث إلي النوازل الفقهية التي أعانت في التعرف علي نظام العمل في تلك المدارس، بالإضافة إلي قواعد قبول الطلاب في ظل سكوت المصادر الأخرى عن هذا الأمر، بل إن الوثائق الوقفية اهتمت فقط بذكر الأعيان الموقوفة والأفراد الموقوف عليهم والذين يعملون في المدرسة من الأساتذة والعلماء والطلاب والقائمين علي خدمة المدرسة.

وبقراءة بعض النوازل الخاصة بالفترة الزمنية للدراسة يمكن تحديد نظام عمل هذه المدارس وهي:

١- يسكن المدرسة من بلغ عشرين سنة فما فوقها.

٢- علي الطالب الالتزام بقراءة الكتب العلمية التي تدرس في المدرسة بقدر سعته.

٣- أن يحضر الطالب قراءة الحزب صبحا ومغربا ويحضر مجلس مقرئيها ملازما لذلك.

٤- تقبل الأعذار المبيحة لتخلف الطالب عن القراءة كالمرض.

٥- لا يسكن المدرسة الطالب الذي ينقطع للعبادة ويترك دراسة العلم، فالعبادة ضرورية لكنها لا يجب أن تشغل الطالب عن طلب العلم.

٦- مدة إقامة الطالب في المدرسة عشر سنين، فإذا لم تظهر نجابته أخرج من المدرسة.

٧- لا يأخذ من له مرتب من الوقف المخصص للمدرسة إلا إذا قام بالعمل المحدد له في وثيقة الوقف[99].

أما عن المناهج التي كانت تدرس في المدارس المرينية فتشمل العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، فهذه المدارس درست الفقه المالكي بالإضافة إلي كتب الأصول والتفسير والنحو والبلاغة والحساب وغيرها[100]. وكان بعض الأساتذة يلقون دروسهم في الصباح والبعض الأخر في المساء ويتقاضون مرتبات حسنة من

ريع الوقف.[101]

بالإضافة إلي دور التعليم التي انتشرت في فاس وشملت المكاتب والمساجد والجوامع والمدارس فقد انتشرت أيضا في هذه المدينة الكتب التي أسهمت مع دور العلم في تنمية النظام التعليمي في خزائن مدينة فاس.

المكتبات العامة في مدينة فاس:

تعد المكتبة أداة مهمة للإطلاع علي كتب العلم والمعرفة، يعتمد عليها طرفا العملية التعليمية من الأساتذة والطلاب، لذلك شيدت مكتبات في مدارس المدينة بالإضافة إلي بعض مساجدها. وقد تعددت المكتبات في مدينة فاس ومن أهمها:

١- مكتبة مدرسة الحلفائيين:

أقام هذه المكتبة أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني في مدرسته التي بناها . وهي أول مكتبات العلم في مدينة فاس، وقد ضمت هذه المكتبة العديد من نفائس الكتب المخطوطة في فروع العلم كافة [102].

٢- مكتبة مدرسة الصهريج:

حوت هذه المدرسة التي شيدها أبو الحسن المريني حين كان وليا للعهد عام (٧٢١هـ/١٣٢١م) مكتبة ضخمة ضمت نفائس الكتب والمصنفات العلمية المفيدة[103]. وقد أوقف أبو الحسن علي هذه المكتبة العديد من الكتب، وتوجد بعض نسخ هذه المكتبة الآن محفوظة في خزانة القرويين[104]. والراجح أن أبا الحسن زود كل المدارس التي بناها بمكتبات لينتفع بها الطلاب والأساتذة.

٣- مكتبة جامع القرويين:

أسس تلك المكتبة أبو عنان المريني عام (٧٥٠ هـ/١٣٤٩م) وقد أنشأها كما ذكر في وثيقة الوقف الخاصة بهذه المكتبة من أجل طلب العلم وإظهاره [105]. وتقع هذه المكتبة في الركن الشرقي في صحن الجامع، ولا تزال الوقفية الخاصة بها. منقوشة أعلي هذه الخزانة [106]. وبقراءتها يتضح لنا إن هذه المكتبة ضمت كتباً في كافة فنون العلم من أجل طلب العلم ونشره. وتقدم هذه المكتبة لروادها خدمات القراءة والنسخ والمطالعة والمقابلة[107].

بالإضافة إلي هذه المكتبة العامة التي أنشاها أبو عنان المريني في جامع القرويين، فقد أنشأ مكتبة للمصاحف في نفس هذا الجامع. وتقع علي يسار

المحراب، وقد نحتت هذه المكتبة في جدار القبلة.[108]

٤- مكتبة مسجد السوق الكبير:

أنشأ الحاجب عبد الله الطريفي خزانة كتب في مسجده المسمي بمسجد السوق الكبير والذي بناه في فاس الجديد عام ٨٠١ هـ / ١٤٠٨م. وكان إمام هذا المسجد مسئولا عن توزيع الكتب علي القراء.[109]

هكذا ساعدت المكتبات العامة الأساتذة والطلاب علي الحصول علي الكتب التي يحتاجونها لتكونهم العلمي. لذلك أصبحت فاس قبلة لرواد العلم ومركزا لإشعاع المعرفة. فالمكتبات تعد من المؤسسات التعليمية الأساسية، كما يرجع إليها الفضل في حفظ تراث الإسلام الفكري في ربوع المغرب، فلا تزال مكتبة القرويين بفاس تحتفظ بنفائس من هذا التراث.

الخاتمة

بعد أن عرضنا للنظام التعليمي في مدينة فاس خلال العصر المريني، نري أن هذه الدراسة تمخضت عن عدد من النتائج منها:

- يرجع ازدهار النظام التعليمي في مدينة فاس في الفترة الزمنية للدراسة إلي بناء المدارس وإنشاء المكتبات، وازدهار الأوقاف التي أعانت علي الإنفاق علي النظام التعليمي. يضاف إلي ذلك ارتفاع المستوي الثقافي لأمراء بني مرين الذين شجعوا التعليم. وأخيرا يأتي الدور الأندلسي فقد أسهم هؤلاء في أنشاء المدارس والتدريس بها بالإضافة إلي جهودهم التعليمية في مساجد وجوامع هذه المدينة.
- بينت الدراسة تعدد دور التعليم في المدينة إذ انتشرت بها المكاتب التي اهتمت بتعليم الصبيان. وقد أبرزت الدراسة نظام العمل في هذه المكاتب والمقررات الدراسية التي كانت تدرس. وأوضحت الدراسة كيف تأثرت الاتجاهات الحديثة في التربية بالاتجاهات التربوية في الحضارة الإسلامية.
- كما أبرزت الدراسة الدور التعليمي الذي قامت به مساجد فاس وجوامعها حتى أصبحت مركزا من مراكز العلم في هذا العصر، سواء التي بنيت قبل العصر المريني أو بعده. ومن أبرز الظواهر التعليمية التي ظهرت في هذا العصر

ظهور كراسي الأساتذة في مساجد وجوامع هذه المدينة. وقد انقسمت هذه الكراسي إلي قسمين الأول كراسي الوعظ، والثاني لقراءة الكتب الدراسية لطلاب العلم.

- كما أكدت الدراسة أيضا أن النظام التعليمي في مدينة فاس ازدهر بفضل نشأة العديد من المدارس التي رصدتها الدراسة. وقد ظهرت المدارس في هذا العصر من أجل أعانة طلاب العلم علي تعلمه والأساتذة علي نشره. كما أبرزت الدراسة المناهج التي كانت تدرس ولائحة العمل بهذه المدارس.
- كما تمخضت الدراسة عن إبراز الدور الكبير للمكتبات لدعم النشاط التعليمي، فقد اعتمد علي هذه المكتبات الطالب والمعلم. وقد انتشرت هذه المكتبات في مدارس المدينة ومساجدها.
- أخيرا إن النظام التعليمي الذي عرفته الحضارة الإسلامية اقتبسته المجتمعات المعاصرة لما له من أثر في تقدم هذه المجتمعات ورقيها.

الهوامش

1- عن الدولة المرينية أنظر: ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ضبط المتن خليل شحاذه، الجزء ٧، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٨، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٢ ن الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصي دار الكتاب الدار البيضاء ١٩٩٧، محمد عيسي الحريري: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المرينى، دار القلم الكويت، الطبعة الثانية ١٩٨٧، محمد المنونى: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الأداب والعلوم الأنسانية جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، الطبعة الثانية ١٩٩٦.

2 - نقولا زيادة: إفريقيات، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للنشر، لندن، الطبعة الأولي ١٩٩١، ص ١١٠.

3 - محمد المنونى: ورقات، ص ٢٣٤.

4- الملزورى: أرجوزة نظم السلوك، المطبعة الملكية الرباط، بدون تاريخ، ص ٧٧، ٧٨.

5 - ابن أبي زرع : الأنيس، ص ٢٦٤.

6- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٢، ص ١٢٢، ١٢٣.

7 - ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق، أم القري للطباعة والنشر، القاهرة بدون تاريخ، ، جـ ٢، ص ٤٥٢

8-. ابن خلدون: مصدر سابق، جـ ٧، ص ٢٤٦

9. - ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨١، ص ٢٦٠

10 -. ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادى التازي، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٩٩٧، ص ١٩٨.

11 - عن دوافع الهجرة الأندلسية ومراحلها ودورها في المغرب الأقصى في العصر المرينى وخاصة مدينة فاس أنظر: آمل ربيع: الأندلسيون في المغرب الأقصى في عصر بنى مرين (٦٦٨- ٨٦٩هـ)رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ٢٠٠٨.

12 - المقري: أزهار الرياض فى أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفي السقا وآخرون، القاهرة، جـ ٢، ص ٣٥٥.

13 - ابن عيشون: الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، منشورات كلية الأداب والعلوم الأنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط ١٩٩٧، ص ١٩٩ - ٢٠٤.

14 - الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط ١٩٩١، ص ٨١.
15- ابن القاضي: جذوة الأقتباس في ذكر من حل من الأعـلام مدينـة فـاس، دار المنـصور للطباعة، الرباط ١٩٧٣، جـ ١، ص٥٢.
16- التميمي: المستفاد فى مناقب العباد بمدينة فاس وما يلها من البلاد، تحقيق محمد الـشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية تطوان، جامعة عبد الملك السعدي، الرباط، الطبعـة الأولي ٢٠٠٢، ص١٤٠، الجزنائي: مصدر سابق، ص ٥٩، ابن عيشون: مصدر سـابق، ص ٢٧٤، ابن القاضي: مصدر سابق، ص ٢١٩.
17 - محمد عادل عبد العزيز: التربية الإسلامية في المغرب، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، القاهرة ١٩٨٧، ص ٣٩.
18 - التميمي: المستفاد، أنظر هامش رقم ٣٨٥، ص ١٤٠.
19 - وصف أفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجى وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣، ص ٢٦١.
20-ابن القاضي: مصدر سابق، جـ ١، ص ٢٢٨.
21 - ابن الحاج: المدخل، المطبعة المصرية الأزهرية، القاهرة بدون تاريخ جـ ٢، ص ٣٢٣.
22 - المصدر السابق والجزء، ص ٣١٥.
23 - المصدر السابق والجزء، ص ٣١٣.
24 - المصدر السابق والجزء، ص ٣١٥، ٣١٦.
25 - محمد أسعد أطلس: التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٨٧.
26 - ابن الحاج: المصدر السابق، ص ٣١٧، محمد المنونى: ورقات، ص ٢٧٤.
27 - ابن الحاج: المصدر السابق، جـ ٢ ، ٣٢١، ٣٢٥، محمد المنوني: ورقات: ص ٢٧٦.
28- ابن الحاج: المصدر السابق: جـ، ٣١٤، ٣٢١، ٣٢٢.
29 - وصف أفريقيا، جـ ١، ص ٢٦١، ٢٦٢.
30- ابن القاض: المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٢١، ٢٢٢.
31 - الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء مدينة فاس، تحقيق عبـد الله الكتانى وآخرون، دار الثقافة الدار البيضاء، ٢٠٠٤، جـ ٢، ص ١٢٨.
32- المصدر السابق والجزء، ص ١١٨.
33 - عثمان الكعاك: محاضرات في مراكز الثقافة العربية، المطبعة الكمالية، القـاهرة ١٩٥٨، ص ٧٢.

34- وصف أفريقيا، جـ ١، ص٢٢٣.
35- حسين مراد: الأوقاف مصدرا لدراسة مجتمع فاس في العصر المرينـي، معهـد البحـوث والدراسات الأفريقية ن القاهرة ٢٠٠٢، ص ٤١.
36- التميمي: المستفاد، ص ٧٣، ص ١١٤.
37- المصدر السابق، ص ٥٨، ٦٢، ٦٩، ٧٤، ١٢٠، ١٥٩، ١٨٠، ١٩٩، ٢١٢.
38- ابن أبي زرع: الذخيرة، ص ١٦٢، محمد المنوني: ورقات: ص ٢٨.
39- Masslow,Boris: Les Mosquees de Fes et du nord du Maroc , Les editions d Art et d, Histoir , Paris 1937 p 80 .
40 - Ibid , p 65.
41 - ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٠٢ Masslow ,B: op cit , p 54
42 -Bel ,A: Inscription Arabes de Fes ,Journal Asiatique T 10 , Paris 1917 , p 119 .
43 - الجزنائى: المصدر السابق، ص ٨٤.
44 - ابن القاضي: المصدر السابق، جـ ١، ص ٧٤، ٧٥.
45 - الجزنائى: المصدر السابق: ص ٨٠.
46- المصدر السابق، ص ٧٦.
47- المصدر السابق والصفحة
48- المقري: أزهار الرياض ، جـ ٣، ص٣٥٥.
49- عبد الهادي التازي: مسجد القرويين، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٣م، ص ٤٩٥.
50 - ابن غيشون: المصدر السابق، ص ١٩٩-٢٠٤.
51- الكتاني: زهرة الآس في بيوتات فاس، تحقيق علي بـن منـصور الكتـاني ، دار النجـاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ١٠٩.
52- الوزان: المصدر السابق: جـ ١، ص٢٢٤،
53 - الجزنائي: المصدر السابق، ص ٨٠، ٨١.
54 - ابن القاضي: المصدر السابق، جـ٢، ص٥١٥، ٥١٦.
55 - المصدر السابق والجزء، ص٤٧٢.
56- المصدر السابق والجزء والصفحة.
57- الوزان: المصدر السابق، جـ١، ص٢٢٤.
58- حسين مراد: المرجع السابق، ص١٠٧، ١٠٨.

59- العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب منصور، الرباط، ج٨، ص٩٨.
60- ابن ابى زرع: الأنيس، ص٢١٧.
61- الناصرى: المصدر السابق، جـ١، ص١٨٨.
62- ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص٤٠٥.
63- الجزنائى: المصدر السابق، ص٨١.
64- ابن الخطيب: مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨، ص١١٠، حسين مراد: المرجع السابق، ص٧٩.
65- حسين مراد: المرجع السابق، ص٧٩، ٨٠.
66- الانصارى: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م، ص٢٧.
67 - حسين مراد: المرجع السابق، ص٨١.
68- المسند الصحيح الحسن، ص٤٥.
69 -Bel, A,: OP. CIT, Tome 12, PP363,364
70- ابن أبى زرع: الذخيرة السنية، ص ١٦٢، ١٦٣.
71- ابن لأبى زرع: الانيس، ص ٢٩٨.
72- الناصرى: الاستقصا، جـ٣، ص١١١.
73 - حوالة المدارس القديمة بفاس، قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط، ميكروفيلم رقم ١٦٠، ورقة٢٣، ٢٤.
74 - ابن أبي زرع: الأنيس، ص ٤١١، Bel ,A: op cit , p160
75 - ابن أبي زرع: الأنيس، ٤١١، ٤١٢، الناصري: الاستقص، جـ ٣، ص ١١١.
٧٦76 Bel ,A: op cit , T 10 , p 159 ,160. -
77 - Ibid , pp159 ,160 .
78 - محمد المنونى: ورقات، ص ٥١.
79 - ابن ابي زرع: الأنيس، ص ٤١١، ٤١٢.
80 - ابن القاضي: المصدر السابق، جـ ١، ص ١٥٢.
81 - ابن أبي زرع: الأنيس، ص ٤١٢.
82 - Bel ,A: op cit , T10 ,p222 .
83- لوتورنو: فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجى وآخرون، دار الغرب الإسلامى، بيروت

بدون تاريخ، جـ ١، ص ١٠٦ .

84 - Bal ,A: op cit ,T10 ,pp222, 224 .

85 - Ibid ,pp223 ,224 .

86- المسند الصحيح الحسن، ص ٤٠٥، ٤٠٦.

87 - حوالة أحباس المدارس القديمة في فاس ورقات ٢٥ - ٣٠.

88 - ابن القاضي: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٢٤.

89 - Bel ,A: op cit , T 12 ,p226 .

90 ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ٤٠٦.

91 - عبد الهادي التازى: جامع القرويين، جـ ١، ص ٣٥٩.

92 - Bel ,A: op cit , T12 , pp256 ,257 .

93 - Ibid , T 12 , p 365 .

94 - الرحلة، جـ ٤، ص٢٠٢.

95 - المقري: أزهار الرياض، جـ ٣، ص ٢٧، ٢٨.

96 - أحمد بابا: نيل الأبتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الخميد الهرامة، مكتبة الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا، الطبعة الأولي ١٩٨٩، ص١٢٥.

97 - Bel ,A: op cit ,T12 ,p365.

98 - حسين مراد: المرجع السابق، ص ١٠٠.

99 - الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، نشر محمد حجى وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١، جـ ٧، ص ٢٩٤، ص ٣٦٣، محمد المنونى: لقطات من معيار الونشريسي عن الحياة العلمية في فاس المدينة، ضمن كتاب الناريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط الطبعة الأولي ١٩٩٥، ص ٩٠ - ٩١.

100 - الحسين إسكان: الإنفاق علي التعليم بمدينة فاس بين القرنين السادس والثامن الهجري، بحث نشر في كتا ب المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب الدار البيضاء سلا ١٩٩٠، ص ٢٤٨.

101 - مارمول: أفريقيا: ترجمه عن الفرنسية محمد حجى وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط ١٩٨٩، جـ ٢، ص ٢٤٧.

102- ابن أبي زرع: الأنيس، ص ٣٦٣، ابن خلدون: العبر، جـ ٧، ٢٧٦، ٢٧٧.

103- ابن مرزوق: المسند، ص ٤٠٧.

104- محمد المنوني: ورقات، هامش ٢٧، ص ٢٤٢.

105 - محمد المنونى: نماذج من أنظمة الخزانات العمومية بالمغرب الوسيط ، المجلة التاريخية المغاربية، العدد٦١ ن٦٢، الرباط ١٩٩١، ص ١٤٦.

106- المرجع السابق، ص ١٣٧.

107- المرجع السابق، ص ١٤٦.

108- محمد المنونى: قبس من عطاء المخطوط العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٩، المجلد الأول، ص ١٨.

109- محمد المنونى: المرجع السابق ، ص١٨.

قائمة المصادر والمراجع

أولا- المخطوطات:

١- حوالة المدارس القديمة بفاس، قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط، ميكروفيلم رقم ١٦٠ .

ثانيا – المصادر العربية المطبوعة:

١. ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله كان حيا ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٢م.

٢. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٢م.

٣. أحمد بابا: (أحمد بن عمر أقيت التنبكتي المتوفى عام ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، مكتبة الدعوة الإسلامية، طرابلس – ليبيا، الطبعة الأولي ١٩٨٩م، الأنصارى: (محمد بن القاسم السبتى).

٤. اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

٥. ابن بطوطة: (أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجي ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٧م). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادى التازي، مطبوعات أكاديمبة المملكة المغربية، الرباط ١٩٩٧م.

٦. التميمي: (أبعبد الله بن عبد الكريم الفاسي ت ٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م). المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يلها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية تطوان، جامعة عبد الملك السعدي، الرباط، الطبعة الأولي ٢٠٠٢م.

٧. الجزنائى: (أبو الحسن علي كان حيا عام ٧٦٦هـ/١٣٦٥م). جنى زهرة لآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط ١٩٩١م.

٨. ابن الحاج: (محمد بن الحاج العبدري الفاسي ت٧٢٧هـ/١٣٢٧م). المدخل، المطبعة المصرية الأزهرية، القاهرة بدون تاريخ

٩. ابن حجر العسقلاني: (أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، أم القري للطباعة والنشر، القاهرة بدون تاريخ.

١٠. الحميري: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٨٦٦هـ/ ١٤٦٣م). الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

١١. ابن الخطيب: (لسان الدين بن محمد ث٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م). مشاهدات ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، مطبعة جامعة الأسكندرية ١٩٥٨م.

١٢. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ضبط المتن خليل شحاذه، الجزء ٧، دار الفكر بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

١٣. العباس بن إبراهيم: (السملالي المراكشي). الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٨٣م.

١٤. ابن عيشون: (أبو عبد الله محمد ت ١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م). الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط ١٩٩٧م.

١٥. ابن القاضي: (أحمد بن محمد المكناسي ت ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م). جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٣م.

١٦. الكتاني: (أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس المتوفى عام ١٣٤٥هـ). سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء مدينة فاس، تحقيق عبد الله الكتانى وآخرون، دار الثقافة الدار البيضاء، ٢٠٠٤. زهرة الآس في بيوتات فاس، تحقيق علي بن منصور الكتاني ، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٢م.

١٧. مارمول كربخال: ألف كتابه في النصف الثاني من القرن ١٠هـ/ ١٦م). أفريقيا: ترجمه عن الفرنسية محمد حجى وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط ١٩٨٩م.

١٨. ابن مرزوق: (محمد بن مرزوق التلمسانى ت ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م). المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزاير ١٩٨١م.

١٩. المقري: (أحمد بن محمد التلمسانى ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م). أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفي السقا وآخرون، وطبعة فضالة المحمدية الرباط ١٩٧٨م.

٢٠. الناصري: (أحمد بن خالد السلاوى ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى دار الكتاب الدار البيضاء ١٩٩٧م.

٢١. الوزان: (الحسن بن محمد الفاسي ت ٥٩- ٩٦٠هـ/١٥٥٢م). وصف أفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجى وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

٢٢. الونشريسي: (أحمد بن يحيي الونشريسي ت ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م). المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، نشر محمد حجى وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

ثالثا – المراجع العربية والمعربة:

١. ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

٢. احمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مطبعة المصري الإسكندرية بدون تاريخ.

٣. الحسين إسكان: الإنفاق علي التعليم بمدينة فاس بين القرنين السادس والثامن الهجري، ضمن كتاب المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب الدار البيضاء، سنة ١٩٩٠م.

٤. حسين مراد: الأوقاف مصدرا لدراسة مجتمع فاس في العصر المريني، معهد

البحوث والدراسات الأفريقية ن القاهرة ٢٠٠٢م.
٥. عبد الهادي التازي: مسجد القرويين، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٣م.
٦. عثمان الكعاك: محاضرات في مراكز الثقافة العربيـــة، المطبعـــة الكماليـــة، القاهرة ١٩٥٨م.
٧. لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيـــادة، مكتبـــة لبنـــان بيروت، ١٩٦٧م.
- فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجى وآخـــرون، دار الغـــرب الإســـلامي بيروت، بدون تاريخ.
٨. محمد أسعد أطلس: التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت.
٩. محمد عادل عبد العزيز: التربية الإسلامية في المغرب، الهيئـــة المـــصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م.
١٠. محمد عيسي الحريري: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المرينـــي، دار القلم الكويت، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.
١١. محمد المنونى: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.
- لقطات من معيار الونشريسي عن الحياة العلمية في فاس المدينة، ضمن كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط الطبعة الأولي.
- قبس من عطاء المخطوط العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٩م.
- تاريخ الوراقة المغربية، منشورات جامعة محمد الخامس، الربـــاط الطبعـــة الأولي ١٩٩١م.
١٢. نقولا زيادة: إفريقيات، دراسات في المغرب العربـــي والـــسودان الغربـــي، رياض الريس للنشر، لندن، الطبعة الأولي ١٩٩١م.

رابعا _ الدوريات العربية:

١. أحمد شوقي بنبين: ظاهرة وقف الكتب في الخزانة المغربية، مجلة مجمع اللغة العربية دمشق، العدد ٦٣، الجزء ٣، يوليو ١٩٨٨م.
٢. الزبير مهداد: جولة في المدارس الأثرية بفاس، مجلة دعوة الحق، العدد ٣٦٣، السنة ٤٢، يناير ٢٠٠٢م.
٣. محمد المنوني: نماذج من أنظمة الخزانات العمومية بالمغرب الوسيط، المجلة التاريخية المغاربية، العدد٦١، ٦٢، الرباط ١٩٩١م.
٤. كراسي الأساتذة بجامع القرويين، مجلة دعوة الحق، العدد الرابع السنة التاسعة يناير ١٩٩٦م.

خامساً – رسائل جامعية:

١- أمل ربيع إسماعيل، الأندلسيون في المغرب الأقصى في عصر بنى مرين (٦٦٨- ٨٦٩هـ)رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ٢٠٠٨م.

سادسا – المراجع الأجنبية:

1- Bel ,Alfred: Inscription Arabes de Fes ,Journal Asiatique T 10, Paris 1917, Tome12, Paris1918.
2- Masslow,Boris: Les Mosquees de Fes et du Nord du Maroc, Paris,1937.

التقارب اليمنى – السوفيتى
فى عهد الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين
والموقف الأمريكى منه ١٩٥٥ - ١٩٦٢م

د/ محمد عزيز محمد
مدرس التاريخ الحديث المعاصر
كلية الآداب– جامعة سوهاج

بداية التقارب اليمنى – السوفيتي :-

بدأت الصلات الأولى للسوفيت بمنطقة شبه الجزيرة العربية عـــام ١٩٢٣ م، عندما أنشأوا لهم أول وكالة تجارية بالحجاز، ترأسها شخص يدعى حكيموف، كان جميع موظفيها من السوفيت المسلمين .في تلك الفترة كانت قوات الـــسلطان عبـــد العزيز بن سعود – سلطان نجد – تتأهب للانقضاض على الحجاز وانتزاعه مـــن الشريف حسين – شريف مكة – .ولم ينته عام ١٩٢٥ م، حتى كان الحجاز كله قد خضع للسلطان عبد العزيز بن سعود، ليصبح سلطانا على نجد والحجاز، معلنا قيام المملكة العربية السعودية .وعلى أثر ذلك بادر السوفيت بالاعتراف به وبملكه في ١٦ فبراير عام ١٩٢٦م .وقد أمد الإتحاد السوفيتي المملكة العربيـــة الـــسعودية، بكثيرمن البضائع اللازمة، وأنشأ له قنصلية في جدة، وعمل على إغراق الأسواق هناك بالبضائع المختلفة، بعد أن قام الإتحاد السوفيتى بانشاء معـــرض للمنتجـــات السوفيتية فى جدة، حتى ثار ضده تجارها، وقناصل الدول الأجنبية هنـــاك، ممـــا اضطرت معه الحكومة السعودية إلى الحد من نشاط الـــسوفيت فـــي بلادهـــا [1]، فاتجهت أنظارهم إلى اليمن، البلاد الأكثر أهمية بعد المملكة العربية السعودية فـــي شبه الجزيرة العربية، ذات الكثافة السكانية، والموقع الاستراتيجي الهـــام. وعـــن

طريق وكالتهم في الحجاز، بدأت أولى اتصالاتهم باليمن، عندما وصل الوفد السوفيتي إلى اليمن، للاتفاق على عقد معاهدة تجارية مع الإمام يحيى حميد الدين . وقد تمكن هذا الوفد من عقد معاهدة صداقة وتجارة مع إمام اليمن، في الأول من نوفمبر عام ١٩٢٨م، سميت بمعاهدة "صنعاء". وكانت مدة هذه المعاهدة عشر سنوات قابلة للتجديد (٢). وقد نصت تلك المعاهدة في مادتها الأولى على اعتراف الإتحاد السوفيتي باستقلال اليمن استقلالاً مطلقاً وبالإمام يحيى حميد الدين ملكا عليها، بينما نصت مادتها الثانية على تعهد البلدين بتسهيل المعاملات التجارية بينهما، وأن يقوما بتقديم كل التسهيلات لرعايا كلا الطرفين في المجال التجاري، خاصة فيما يختص بالضرائب والرسوم الجمركية، مع خضوع رعايا كلا الطرفين لقوانين البلد التي يعملون فيها (٣).

وعلى أثر هذه المعاهدة حقق الإمام يحيى أغراضه السياسية والاقتصادية، فاعترف الإتحاد السوفيتي باستقلال اليمن، كما نظم معه التبادل التجاري والعلاقات السياسية (٤) .فلقد كان الإمام يحيى يسعى للحصول على الاعتراف بملكه وباستقلاله من قبل دولة أوروبية كبرى لها وزن كبير مثل الإتحاد السوفيتي، وهو ما نصت عليه المادة الأولى من المعاهدة .وكان الهدف الثاني غير المعلن هو الحصول على دعم السوفيت في مواجهة العدوان البريطاني في الجنوب اليمنى، والذي الحقت قواته خسائر كبيرة بقوات الإمام، اضطرته للانسحاب من الضالع وبعض المناطق الأخرى .أما بالنسبة للسوفييت فقد أعطتهم تلك المعاهدة حرية التجارة والحركة في اليمن، وهذا ما كانوا يبحثون عنه، كما منحتهم المعاهدة موضع قدم آخر في الجزيرة العربية وعلى مدخل البحر الأحمر(٥). وعلى ضوء هذه المعاهدة أصبح الإتحاد السوفيتي شريكاً أساسيا في معاملات التجارة الخارجية لليمن، وكان التنافس قوياً بين السوفيت والايطاليين، الذين سبقوا السوفيت إلى اليمن، بتوقيع معاهدة صداقة وتجارة مع الإمام يحيى فى عام ١٩٢٦م (٦).

وكيفما كان الأمر، فقد كان للبعثة التجارية السوفيتية نشاط كبير في اليمن، وقد ثبتت من وجودها إلى حد كبير، ونافست بشدة باقي الفئات التجارية في الحديدة، مما كان له أثره السيئ على تلك الفئات. ويصف نزيه مؤيد العظم، هذا النشاط التجاري للشركة التجارية السوفيتية فيقول " وقد رأيت سماسرتها في

الطريق يشترون البن رأساً من القرويين، وقد جلبت شيئاً من السلع المختلفة كالسكر والأرز والدقيق والخشب والكبريت والأقمشة إلى غير ذلك من البضائع الكثيرة، واستولت على الأسواق التجارية، وثبتت أثمان الحاجيات، بعدما كان التجار يتلاعبون بها كيفما شاءوا .وقد كان لهذه السياسة أثر بعيد في اليمن، وصارت تسير بواخرها إلى هناك، فتمر هذه البواخر بالبحر الأحمر، وتقف بالحديدة في ذهابها وإيابها . وتنقل البضائع والحجاج بأثمان زهيدة لاتنافس . وقد ضربت بعملها هذا السفن التجارية الصغيرة، التي تسير بين شواطئ البحر الأحمر ضربة قاضية، لأن أصحاب هذه السفن كانوا يستنزفون أموال التجار، ويتقاضون منهم أجوراً مرتفعة لنقل بضائعهم، ولذلك لما أتت هذه الشركة حول التجار نظرهم حولها، وانصرفوا عن غيرها، ولا تأتى سفينة سوفيتية إلى الحديدة إلا وهى مليئة بشتى البضائع والحاجيات، وتعود من الحديدة محملة بالجلود والبن " [٧].إلا أن هذا النشاط التجاري السوفيتي في اليمن لم يستمر طويلا، حيث أن هذه المعاهدة لم تجدد بعد مرور العشر سنوات المتفق عليها حيث سحب الإتحاد السوفيتي كل هيئاته الدبلوماسية التي تعمل في المجال العربي عام ١٩٣٨م، وكان دافع الإتحاد السوفيتي هو فشله أمام النفوذ الايطالي – الألماني، اللذين تغلغلا في المنطقة العربية بوجه عام . فقد كانا يمثلان لدى الشعب العربي المنقذان والمحرران من الاستعمار الإنجليزي والفرنسي .وقد تغلغل النفوذ الايطالي في اليمن،واستطاعت إيطاليا أن تجدد معاهدة عام ١٩٢٦م مع الإمام يحيى في الوقت الذي سحب فيه الإتحاد السوفيتي دبلوماسيه واختفى نشاطه تقريباً في اليمن في تلك الفترة [٨] .

التقارب اليمنى – السوفيتي في عهد الإمام أحمد[٩]:

بدأ النشاط السوفيتي، يتجدد ثانية فى اليمن،ولكن بعد مدة طويلة، وتحديداً في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين [١٠]. باعتبار اليمن الدولة العربية الوحيدة التي لم تدخل في علاقات وطيدة مع الدول الغربية، بل على العكس من ذلك، فقد كانت سياسة الإمام أحمد الخارجية تتصف بأنها سياسة معادية للغرب، وذلك بسبب استمرار الاحتلال البريطاني للجنوب اليمنى، وموقف الإمام أحمد المناهض لذلك التواجد[١١]، حيث كان الإمام أحمد أشد خوفاً من الاستعمار الانجليزي، ولهذا السبب،أقام علاقات مع القوى المناوئة لبريطانيا، كإيطاليا والإتحاد السوفيتي[١٢] .

وعندما بدأ الإمام أحمد تغيير سياسته الخارجية المتمثلة في سياسة العزلة تدريجياً، وبحذر في منتصف الخمسينيات، حيث ثبت عدم جدواها ؛ توجه إلى الإتحاد السوفيتي، الذي كان يمثل العدو اللدود لدول المعسكر الغربي، حتى يضمن الحصول على الدعم العسكري والسياسي والاقتصادي في مواجهة بريطانيا في الجنوب اليمنى [١٣] .

وهنا يجب أن نوضح الدور الذي لعبه الرئيس المصري حينئذ جمال عبد الناصر في توثيق العلاقات اليمنية – السوفيتية، في تلك الفترة ، لأنه أراد أن تكون اليمن قوية في مواجهة الاستعمار البريطاني، المتمركز في الجنوب اليمنى، آنذاك .وقد أدت الخلافات بين الإمام أحمد وبين بريطانيا حول تحديد الحدود فى جنوب الجزيرة العربية إلى تبنى اليمن مواقف مناوئة للسياسات الغربية فى المنطقة، وقد دفع ذلك باليمن إلى أن يطلب عام ١٩٥٣م مساعدة مصر فى تحديث قواته المسلحة وتدريب أفراد الجيش اليمنى، وقد استتبع ذلك تأييد اليمن لسياسات عبد الناصر وتبنيه لسياسة خارجية تقوم على مبادئ عدم الانحياز .

وقد واكب تلك التطورات تحسن فى العلاقات اليمنية مع الإتحاد السوفيتى الذى كان قد بدأ فى انتهاج سياسة الانفتاح على العالم الثالث فى عهد " خروشوف"، ولاسيما بعد المحاولات التى قام بها الأميرمحمد البدر – ولى العهد اليمنى – لإقناع والده الإمام أحمد بتحسين علاقاته مع السوفيت، فى أعقاب إبرام مصر لصفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥م .ومن ناحية أخرى كان السوفيت يتطلعون لتحسين علاقاتهم مع اليمن نظرا للأهمية الاستراتيجية لموقعه،ونظرا لمعاداة اليمن للاستعمار البريطانى فى عدن، وقيام الإمام أحمد بمساندة الوطنيين فى عدن بالسلاح لمحاربة قوات الاحتلال البريطانى[١٤]. وتمثل هذا التقارب في تجديد معاهدة الصداقة والتجارة اليمنية – السوفيتية في ٣٠ أكتوبر عام ١٩٥٥ م، في مدينة القاهرة، حيث تمت الاتصالات الأولى عن طريق السفارة السوفيتية بالقاهرة. كانت هذه المعاهدة – معاهدة عام ١٩٥٥م – امتدادا طبيعيا للمعاهدة الموقعة بين الجانبين عام ١٩٢٨م، وقد وقعها عن الجانب اليمنى السيد عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب وعن الجانب السوفيتي دانيال سيمونوفيتش سولود، وقد نصت المعاهدة في مادتها الأولى على تأكيد الاعتراف السوفيتي باستقلال اليمن استقلالا كاملا

ومطلقاً، وكذلك الاعتراف باستقلال وسيادة الإمام أحمد كملك على اليمن استقلالا كاملاً وسيادة شرعية عامة ومطلقة. وفى مادتها الثانية نصت المعاهدة على أن يسود بين البلدين السلم والوفاق الدائمان، وإذا حدث أي خلاف بين الدولتين فتجرى تسويته بالطرق السلمية والدبلوماسية المعمول بها. وفى مادتها الثالثة نصت المعاهدة على تعهد الطرفين بتسهيل التبادل التجاري بينهما وفقاً للقواعد المعترف بها دولياً وتكون معاملة كل دولة لرعايا الدولة الأخرى على أسس ومبدأ المعاملة بالمثل، ويخضع رعايا كل دولة المقيمين في أراضى الدولة الأخرى، لقوانين وأنظمة تلك الدولة المقيمين بها. بينما نصت المادة الرابعة من المعاهدة على أن ينشئ الطرفان المتعاقدان، علاقات دبلوماسية بين بلديهما، وفقاً للأسس المعمول بها، مع تطبيق مبدأ المعاملة بالمثل، على أن يكون تنفيذ ذلك باتفاق خاص في هذا الموضوع يعقد فيما بعد [١٥]. وقد تم الاتفاق على أن تصبح تلك المعاهدة نافذة المفعول من تاريخ تبادل وثائق التصديق عليها [١٦]، وأن تظل سارية لمدة خمس سنوات أخرى، إلا إذا شعر أحد الطرفين المتعاقدين برغبة فى تعديلها أو إلغائها، وذلك قبل ستة أشهر من تاريخ إنتهاء مدتها حسب ما جاء في مادتها الخامسة .

وفى تعقيبنا على هذه الاتفاقية وأهم ما اشتملت عليه من نصوص يمكن لنا أن نبدى الملاحظات الآتية :

١- تعتبر هذه الاتفاقية مشابهة لاتفاقية عام ١٩٢٨م الموقعة بين البلدين خاصة فيما يتعلق بالاعتراف السوفيتي بسيادة واستقلال اليمن وبحكم الإمام أحمد لها .

٢-أكدت هذه الاتفاقية على المحافظة على الروابط التاريخية بين البلدين مؤكدة على حل الخلافات بينهما بالطرق السلمية والتفاوض الدبلوماسي .

٣-أكدت بنود تلك الاتفاقية على مدى تأثر الإمام أحمد بمبدأ العزلة الذي كان سائدا في عهد والده الإمام يحيى ولم يتحرر من نظامها إلا بالقدر الضئيل خاصة فيما يتعلق بتبادل التمثيل الدبلوماسي وإنشاء السفارات والقنصليات بين اليمن والدول الأخرى .

٤- أبرزت تلك الاتفاقية الدور المحوري الذي كانت تلعبه مصر في تلك الفترة التاريخية الهامة من تاريخ الأمة العربية وقيامها بدور الزعامة وريادتها لشعوب الأمة العربية، واتضح هذا جليا في احتضان القاهرة لتلك الاتفاقية في مراحلها الأولى حتى التوقيع عليها، وهو ما يؤكد كذلك على مدى حجم التقارب المصري- السوفيتي في عهد الرئيس جمال عبد الناصر وأثره في العلاقات المصرية العربية .

وعلى أثر توقيع هذه المعاهدة، قام نجل الإمام أحمد وولى عهده الإمام البدر، بعدة زيارات إلى البلاد الاشتراكية، في الفترة من عام ١٩٥٦ م إلى عام ١٩٥٨م(١٧). وقد رافق البدر في هذه الزيارات، محمد عبد الله العمري، نائب وزير الخارجية، وعبد الصمد أبو طالب الوزير المفوض بالقاهرة، وعبد الرحمن السياغي وزير المالية، وقد تزامنت تلك الزيارات ودرجة الانفتاح التي كان الإمام أحمد قد سمح بحدوثها .ومما لاشك فيه أن حماس الإمام أحمد للعلاقة مع مصر وبالتيار القومي في الوطن العربي، قد ساهم في إنجاح زيارات البدر إلى هذه البلدان.

لقد بدأ البدر زياراته للإتحاد السوفيتي، في ١١ يونيه عام ١٩٥٦ م وقد استقبل البدر في موسكو استقبالا حافلا، حيث احتفى به في الكرملين (١٨) . وأبرم البدر مع السوفيت عدة اتفاقيات اقتصادية وعسكرية، حيث التزم الإتحاد السوفيتي بالإسهام في المشروعات الصناعية في اليمن وتزويدها بالمعدات والمواد الإنشائية، وتأهيل الكوادر الوطنية للعمل في المشروعات الجاري إنشائها . كما نصت إحدى هذه الاتفاقيات على أن يقوم الإتحاد السوفيتي ببناء ميناء حديث، يبعد أربعة كيلو مترات عن مدينة الحديدة، وقد بدأ العمل بهذا الميناء منذ بداية عام ١٩٥٨ م .وقد حث الإمام أحمد أثناء تفقده لسير العمل في الميناء، في شهر أغسطس عام١٩٥٩ م المهندسين السوفيت والعاملين به،على سرعة العمل لكي يتخلص اليمن – كما قال – من ويلات الاستعمار الاقتصادي، والركون على عدن في الاستيراد والتصدير .وتمنى الإمام أحمد أن يصبح ميناء الحديدة من أهم الموانئ بين الشرق والغرب عند إنجاز العمل به، وقد انتهى العمل منه في مارس عام ١٩٦٢م، ليصبح ذلك الميناء منذ ذلك التاريخ جاهزا لاستقبال السفن التجارية (١٩) . وعلى هذا فقد غزت

البضائع السوفيتية أسواق اليمن، وقد أثرت تأثيراً كبيرا على استيراد اليمن من انجلترا، وعلى الاستيراد من عدن، وذلك لأن السفن الراسية أصبحت تصل إلى ميناء الحديدة مباشرة، بعدما كانت البضائع تصل إلى عدن ثم تنقل بوسائل النقل المختلفة إلى اليمن [٢٠]. وكان من النتائج الأخرى التي حققتها المساعدات السوفيتية والاشتراكية عموماً في اليمن هي زيادة حدة التنافس الدولي، لكن هذه المساعدات – وتلك حقيقة أخرى – قد ساهمت إلى حد ما في فتح أبواب جديدة للنور في اليمن، وأدت إلى تراجع سياسة العزلة التي أعتمد عليها الأئمة على مدى سنوات طويلة .

لقد دفعت هذه الزيارة البدر إلى الشهرة العالمية، وخاصة عندما صرح قبل إقلاع طائرته من القاهرة، أن الإتحاد السوفييتي هو الصديق للدول العربية جميعاً، فأثار بذلك العواصم الغربية، وشنت صحافتها هجوما دعائياً قوياً على البدر واصفة إياه " بالأمير الأحمر " [٢١].

وخلال تلك الزيارة نجح البدر في الحصول على الأسلحة السوفيتية، كان الهدف منها تعزيز القدرة الدفاعية لليمن، في مواجهة الأخطار المحيطة بها، وعلي وجه الخصوص، تلك الأخطار التي يشكلها الاحتلال البريطاني لعدن والمحميات . ولقد وصلت أول شحنة من الأسلحة السوفيتية لليمن في نوفمبرعام ١٩٥٦ م، وكانت تتكون من الأسلحة الخفيفة، ومدافع المورتار والقنابل اليدوية والذخيرة، وسلمت إلي الجيش اليمنى، لاستخدامها لحاجته الماسة إليها. ثم تعاقب وصول سبع شحنات سوفيتية إلي اليمن، تكونت من ٣٠ دبابة من طراز " ف T" 34.، ومدافع عيار ١٠٠، وسبعين مدرعة، وعربة مصفحة، و١٠٠مدفع ميداني، ومضاد للطائرات، ونحو عشرين طائرة، وذلك في أغسطس عام ١٩٥٧ م [٢٢]. وقد استغل السوفيت في ذلك علي حد تعبير إريك ماكرو سذاجة البدر، إذ كانت تلك الأسلحة قديمة وفاسدة، حيث قدرت قيمة تلك الأسلحة بنحو خمسة ملايين من الجنيهات الإسترلينية. ونتيجة لعدم وجود خبرات يمنية في إدارة تلك الأسلحة، وعدم القدرة في التعامل معها واستيعابها؛ فقد وصل إلي اليمن فريق تدريب سوفيتي، يتكون من خمسين عضواً لتدريب اليمنيين علي أساليب استخدام تلك الأسلحة وصيانتها[٢٣]. كما قامت مصر بتقديم يد المساعدة عن طريق قيامها بتدريب ضباط الجيش اليمنى على استخدام الأسلحة السوفيتية وكيفية التعامل معها[٢٤].

ومما لاشك فيه أن وصول شحنات الأسلحة السوفيتية إلي اليمن، قد أوضح سرعة نمو العلاقات بين البلدين، الذي لم يجمعهما سوي العداء لبريطانيا، وجاء ذلك صريحاً علي لسان البدر، عندما أعلن في ١٨ نوفمبر عام ١٩٥٧ م، بأن اليمن سوف تستخدم السلاح الجديد لضرب مواقع البريطانيين في عدن، وأن قواته الجوية مستعدة لذلك فقال " إذا كانت بريطانيا غير مستعدة لأن تستغل الفرصة الأخيرة التي يعرضها لهم لتسليم كل الجنوب، الذي يحتلونه بطريقة غير شرعية، فعليهم أن يعرفوا أن الإمام الآن يملك أقوي قوة في الأرض تقف معه " وكان بذلك يعنى الإتحاد السوفيتي [٢٥]. وقد جاء تصريح البدر هذا بعدما أعلن السوفيت عن دعمهم لليمن فى صراعه ضد الاستعمار البريطانى فى عدن [٢٦].

كان من نتائج التقارب اليمني – السوفيتي، زيادة حدة التوتر في العلاقات اليمنية – البريطانية، فمنذ نوفمبر عام١٩٥٦ م، وصحافة الجنوب اليمني، تنشر المعلومات والتفاصيل عن السفن السوفيتية المحملة بالأسلحة من المعسكر الشرقي لليمن، وأعلنت وزارة الخارجية البريطانية، أن الدول الشرقية، شحنت إلي اليمن سبع سفن محملة بالأسلحة بكافة أنواعها، وأن الإتحاد السوفيتي زود اليمن بالطائرات الحربية .وأرجع الإنجليز أسباب تجدد القتال علي حدود اليمن، إلي الأسلحة التي حصلت عليها اليمن من الإتحاد السوفيتي والدول الشرقية الشيوعية . وهو ما دفع القائم بالأعمال البريطانية في اليمن إلي الإشارة في تقرير بعث به إلي حكومته في ٢٤ أبريل عام١٩٥٧، أن من أسباب تفاقم الوضع علي الحدود بين الإمام وبريطانيا في عدن والمحميات، يرجع إلي الأسلحة التي حصلت عليها اليمن من الإتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية[٢٧] .

ومن هذا يبدو واضحاً مدي الخوف الذي تملك الأوساط البريطانية من تواجد الأسلحة السوفيتية لدي حكومة الإمام أحمد، بل ومن التقارب المصري – اليمني، الأمر الذي دفع الإنجليز للقيام ببعض المناوشات العسكرية في منطقة البيضاء، وتحريض بعض القبائل اليمنية ضد حكومة الإمام [٢٨].

والواقع إن الفضل فيما تحقق علي أرض اليمن، إبتداء من عام ١٩٥٦ م، وما بعده، إنما يعود الي ذلك التعاون المتين، الذي كان قائماً بين مصر والإتحاد السوفيتي، ففي هذه الفترة، كانت الدولتان في حالة إتفاق شبه تام حول المبادئ

العامة للسياسة الخارجية القائمة علي مناهضة الأحلاف الدولية المشبوهة، كحلف بغداد، ومشاريع الهيمنة الاستعمارية، كمشروع إيزنهاور . ومع ذلك فإن هذا التحالف" المصري- السوفيتي"، ماكان يمنع تنافساً خفياً، كان يجرى بين الحليفين حول موقع ومكان كل منهما في اليمن مستقلاً عن الآخر، ولذلك كانت هناك بعض الخلافات، حول بعض البرامج الفرعية، فيما يتعلق بإعداد الجيش اليمني،وبرامج تأهيل أفراده،وبعض هذه الخلافات وصلت إلي حد إتهام السوفيت بمحاولة تقليص الدور المصري، والإنفراد ببرامج التطور والتنمية،وكالقول بأنهم " يريدون اليمن لهم وحدهم ليطبقوا عليه من وراء ستار حديدي وحميدي معاً، وحميدي هنا نسبة لآل حميد الدين " (٢٩) .

وفي نوفمبر عام ١٩٥٩م قام سيف الإسلام عبد الرحمن يرافقه، محمد عبد الله العمري، بزيارة موسكو، وأجري محادثات حول أوجه التعاون الاقتصادي بين البلدين . وفي أواخر عام ١٩٦٠ م، تم افتتاح مفوضية يمنية في موسكو، وعين أحمد عبد الله العمري أول ممثل لليمن هناك . ومع قرب افتتاح ميناء الحديدة قام وفد سوفيتي رفيع المستوي بزيارة اليمن كان علي رأسه فيكتور باكوف وزير البحرية السوفيتية (٣٠) . وتباحث الجانبان اليمنى والسوفيتي حول الدعم السوفيتي لليمن وتقديم المساعدات السوفيتية لحكومة اليمن . وبالفعل قدمت الحكومة السوفيتية إعانات مختلفة لليمن شملت مجالات عديدة، وبلغ حجم القروض السوفيتية لليمن نحو ١٥٠مليون روبل، فضلاًعن ذلك قدم السوفيت محولات كهربائية بقوة ١٥٠٠ حصان لإنارة ميناء الحديدة، وأهدي خروشوف ثلاثة زوارق حربية لإمام اليمن (٣١) . كما أرتفع عدد الاطباء السوفييت العاملين في مجال المساعدات الاجتماعية إلى خمسة عشر طبيبا، واستقبل الإتحاد السوفيتي عام ١٩٦١م مجموعة من الطلاب اليمنيين للدراسة في جامعاته ومعاهده، ضمن إطار برنامج المساعدات لليمن (٣٢) .

ومع الفشل الذي كانت تحققه العلاقات اليمنية – الأمريكية، وشعور الإمام بأن الأمريكيين في تعاملهم مع اليمن، يراعون كثيراً حليفتهم بريطانيا، لذا قرر منح السوفييت المزيد من الامتيازات في اليمن، فعرض عليهم القيام بإصلاح مينائي المخا وميدي . وقد قبل السوفيت العرض، لكنهم هذه المرة، طالبوا بمزيد

من التسهيلات لأسطولهم البحري في البحر الأحمر والمحيط الهندي . كما نشطت العلاقات التجارية، وجرت صفقات لشراء مواد تموينية، وبيع كميات جديدة من البن اليمنى إلي السوفيت .

الموقف الأمريكي من التقارب اليمنى –السوفيتي :-

ظلت الولايات المتحدة، تراقب عن كثب، تطورات العلاقات اليمنية – السوفيتية في بدايتها، ولم تعلق رسمياً علي وصول السلاح السوفيتي إلي اليمن عام ١٩٥٧م .إلا أن زيادة نمو تلك العلاقة والتي تمثلت بوصول البعثة العسكرية السوفيتية، لتدريب الجيش اليمنى، قد جعل إهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بذلك واضحاً . وقد برز هذا في خطاب موسع ألقاه " ألين ديليس "Allen Dulles مدير المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A في ٢٨ إبريل عام ١٩٥٨ م، أمام غرفة التجارة الأمريكية، حيث أشار إلي حجم المساعدات القادمة من الكتلة الشرقية إلي اليمن، وبين الخطورة التي قد تتأثر بها الكتلة الغربية من تواجد السوفيت في منطقة استراتيجية مثل اليمن، وأوضح قائلاً " إن السوفيت، كانوا أكثر سرعة فى استغلال الفرص المتاحة، لخلق عدم التوازن في اليمن، وذلك عن طريق تقديم المساعدات إليها .وأضاف " في أقل من سنتين، تمكنت هذه الدولة الصغيرة، والتي لايزيد عدد سكانها عن أربعة ملايين نسمة، من الحصول علي قرض يصل إلي ثمانين مليون دولار، وتنتظر الحصول علي عشرين مليون دولار ". وبين أن الخبراء السوفيت والتشيكوسلوفاكيين العسكريين، قد وصل عددهم إلي ٦٥ خبيراً، وأنهم يقومون بتدريب القوات اليمنية، وأوضح : " أنه ليس هذا فقط، بل إن الصينيين الحمر (يقصد الصين الشيوعية) قد ساهموا هم أنفسهم، وقدموا لليمن قروضاً اقتصادية تصل إلي خمسة عشر مليون دولار " [٣٣] . وقد أشارت إحدى التقارير الأمريكية إلى أن غياب الدور الأمريكى الفعال فى اليمن فى هذه الأثناء كان من الأسباب الرئيسية فى تنامى النفوذ السوفيتى فى اليمن وإغراقه بالمساعدات العسكرية والاقتصاديةالسوفيتية[٣٤] .

وهكذا يبدو لنا أن الأمريكيين كانوا يراقبون الموقف باهتمام كبير، وكان في تقديرهم أن سعي اليمن للحصول علي السلاح السوفيتي كان مبعثه أنها تحاول تطوير قدراتها الهجومية،إلا أنهم شككوا في الفوائد النهائية لصفقة السلاح اليمنى –

السوفيتى على الجيش اليمنى، خاصة سلاح الطيران،لاعتقادهم بضعف السلاح السوفيتى المصدر لليمن، ولكنه من المؤكد أن الأمريكيين قد اعتبروا هذا التطور في اليمن دليل علي نجاح السياسة السوفيتية، وأن هذه السياسة تحقق لهم مكاسب في المنطقة، وأن كل ذلك يتم علي حساب الغرب .

وكجزء من محاولة مقاومة النفوذ السوفيتي في اليمن، فقد أعلن في يناير عام ١٩٥٧ م عن مبدأ جديد في السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، عرف بمبدأ إيزنهاور، كان الهدف منه ملء الفراغ الذي خلفته بريطانيا وفرنسا في منطقة الشرق الأوسط[٣٥]، حيث طلب الرئيس الأمريكي من الكونجرس، منحه من السلطات ما يخول له التدخل في أية دولة،واستخدام القوة طالما كانت في حدود ميثاق الأمم المتحدة، والمعاهدات والمواثيق الدولية . ووافق الكونجرس علي منحه الحق في تقديم مائتي مليون دولار للدول التي تتعاون مع الإدارة الأمريكية [٣٦] .

وقد رفض الإتحاد السوفيتي مبدأ إيزنهاور، وأعلن أن دول الشرق الأوسط كفيلة بملء الفراغ فيه، وهاجم السوفيت السياسة الأمريكية الجديدة، لأنهم- كما رأوا – تؤدي إلي زيادة حدة التوتر في المنطقة بدلاً من تخفيفها . وقد لوحظ أن القيادة المصرية، قد ترددت في اتخاذ موقف علني من هذا المشروع، وإن كان عبد الناصر قد أعلن أكثر من مرة أن الخطر علي الاستقرار والأمن في المنطقة، إنما مصدره إسرائيل، وليس الإتحاد السوفيتي والدول الشيوعية كما يعتقد الأمريكيون[٣٧] .

وفي ضوء مبادرة السياسة الأمريكية الجديدة، وصل إلي اليمن في ١١ من أبريل عام ١٩٥٧ م السفير جيمس ريتشارد المبعوث الخاص للرئيس الأمريكي علي رأس وفد رفيع المستوي، التقي بالبدر في ١٥ أبريل وبحضور وزراء الداخلية والمالية والعدل .وفى هذا اللقاء كررالبدر الحديث عن الموقف في الجنوب، والاعتداءات البريطانية علي الحدود اليمنية، ثم تحدث بعد ذلك عن سعى اليمن إلي الدعم مهما كان مصدره، لصد هذه الاعتداءات –في إشارة إلي الإتحاد السوفيتي – وأبلغ البدر البعثة الأمريكية شكره للرئيس الأمريكي، لكنه قال إن الولايات المتحدة الأمريكية تقف بعيداً عن اليمن، في الوقت الذي تقدم فيه المساعدة للآخرين. وأبلغ البدر الأمريكيين أيضاً بأن العلاقات اليمنية – السوفيتية، لن

تتجاوز حدود العلاقات الاعتيادية وأنه ذهب إلي هناك لتجديد صداقة قديمة، كانت قائمة بين اليمن والإتحاد السوفيتي، وأن اليمن لاتقف إلي جانب السوفيت، فيما يتعلق برؤيتهم الشيوعية فاليمن دولة مسلمة، ولايمكنها القبول بالمبادئ الشيوعية . وأن ما جري بيننا وبين السوفيت- كما قال البدر- لايتجاوز حدود العلاقات الطبيعية بين بلدين صديقين لأن " اليمن تريد كسب السوفيت إلي صفها في صراعها الطويل مع البريطانيين، أوعلي الأقل تحييدهم، وكذا محاولة بناء قواتنا العسكرية لأغراض الدفاع والحماية " (٣٨) .

كانت توضيحات البدر إلي الوفد الأمريكي واحدة من أهداف الزيارة، حيث أراد الأمريكيون معرفة إلى أي مدي ستذهب اليمن في علاقاتها مع السوفيت، بعد أن حصلت منهم علي الأسلحة، وهاهو البدر يحاول أن يرسم لهم حدود هذه العلاقة،ويبلغهم بوضوح الهدف منها، والمدي الذي من المفترض أن تذهب إليه تلك العلاقة .وهكذا يبدو لنا أن الولايات المتحدة الأمريكية، قد سعت للاتصال بالجهات الرسمية اليمنية، وأبدت استعدادها لتقديم المساعدات التي قد تحتاجها اليمن. إلا أن الاتصالات الأمريكية لم تثمر عن شيئ .ويبدو أن الإمام كان يرفض قبول المساعدات الأمريكية نظراً لعدم تأييد الولايات المتحدة الأمريكية له ومساندته في مطالبه السياسية في قضية الجنوب اليمنى، وتشير إحدى الوثائق الأمريكية إلى أن حكومة اليمن قد رفضت تسلم بعض المساعدات الاقتصادية التي قدمتها لها الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٨م (٣٩) .

وقد ظل الحال علي ما هوعليه بين اليمن والولايات المتحدة الأمريكية، حتي نهاية عام ١٩٥٩ م، فلقد كان هذا العام عام قحط ومجاعة في اليمن، نتيجة لقلة سقوط الامطار ، فتقدمت الحكومة اليمنية بطلب المساعدة من الحكومة الأمريكية، فسارعت الأخيرة، إلي إرسال كميات من القمح قدرت بنحو خمسة آلاف طن (٤٠) . تلي ذلك بأيام قليلة أن قام الإتحاد السوفيتي بتقديم نفس الكمية من القمح لليمن، وهو ما دفع البعض إلي القول " أنه في ربيع عام ١٩٥٩ م، أصبحت الموانئ اليمنية، عبارة عن منظر للتسابق بين السفن الأمريكية والسوفيتية التي تفرغ حمولتها من شحنات القمح المستورد منهما لليمن " (٤١).

وعلي أثر قبول حكومة اليمن للمساعدات الأمريكية، وافق الإمام أحمد في٢٨ إبريل عام ١٩٦٠م، علي قبول أوراق اعتماد الوزير المفوض الأمريكي الجديد في اليمن " فردريك رينهاردت " Frederick Reinhardtوقد أخبر الإمـام أحمـد الوزير المفوض بعدم ارتياحه لمستوي العلاقات الاقتصادية بين اليمن والولايـات المتحدة الأمريكية، وأنه يرغب إبلاغ الحكومة الأمريكية بهذا الأمر(٤٢). لذلك رفع الوزير المفوض توصية عاجلة إلي حكومته، طالبا منها التنفيذ السـريع والحاسـم لبرنامج المساعدات الأمريكية لليمن، حيث أوضح أن هذا البرنامج ضروريا؛ لأن برنامج المساعدات الأمريكية فى اليمن يعتبر بـسيطا بمقارنتـه بقيمـة الجهـود الشيوعية هناك، منبها إلي أنه كلما تأخرت الولايات المتحدة الأمريكية، في تنفيـذ برنامج المساعدات في اليمن، كلما كان ذلك مفيداً للمعسكر الاشتراكي، الذي " شن هجوماً متواصلاً علي سياستنا وتوجهاتنا " وأشار الوزير المفوض، إلي أنه عنـد المقارنه بين حجم الأعمال التي ينفذها الإتحاد السوفيتي وأصـدقاؤه فـي الـيمن، وحجم الأعمال الأمريكية، كانت النتيجة دائماً في غير صالح الغرب وفـي غيـر صالح الولايات المتحدة الأمريكية (٤٣) .

فى هذه الأثناء كانت الإدارة الأمريكية ترتب لإحداث تغيير جذري وهام في علاقاتها باليمن . لقد أدركت أن الطريقة التي تعاملت بها مع الأوضاع في اليمن، تركت المجال للطرف الأخر أن يوطد صلاته وعلاقاته، وأن يكسب قادة النظـام، والرأي العام فى اليمن . لذلك قررت الإدارة الأمريكية هذه المرة أن ترمي بثقلهـا في اليمن، وبعد شهرين علي نصيحة الوزير المفوض، اتخذت الإدارة الأمريكيـة قراراً بتقديم مساعدات مالية لليمن حيث قامت بتخـصيص ١٢،٦٠٥،٠٠٠ دولارا أمريكيا لليمن، فى فترة أربع سنوات من عام ١٩٦٠-١٩٦٤ م، وذلك بالإضـافة الي ٢،٣٩٥،٠٠٠ دولارا أمريكيا من الإمدادات المالية لعام ١٩٦٠م، وقدرت قيمة هذه المبالغ بنحو خمسة عشرمليون دولار أمريكى، وهومبلغ يدل فعلاً علي توجه أمريكى جديد، لكنه جاء متأخراً، وقد أشارت إحدى الوثائق الامريكية إلـى مـدى خطورة النفوذ الشيوعى فى اليمن على مصالح الأمريكيين فى تلك المنطقـة " إن التغلغل السوفيتي – الصيني في اليمن أثناء الثلاث سنوات الأخيرة، كان أهم غزو شيوعي حدث في منطقة الخليج العربى وشبه الجزيرة العربية، ويقـوم الـسوفيت

ببناء ميناء كبير فى الحديدة بينما الشيوعيون الصينيون يقومون بإنشاء أول طريق يمكن استخدامه من الحديدة إلى صنعاء [٤٤] ". ومن هنا سعي الأمريكيون بعد هذا الدعم الاقتصادي لليمن والذي بدأ عام ١٩٥٩م، لإعادة التوازن فى علاقة الـيمن بالغرب، وبالأمريكيين علي وجه التحديد، فعملوا علي كسب المزيد من الأنـصار من الشريحة العليا من المجتمع ورموز النظام، فاقتحم الدولار الأمريكـي فجـأة الحياة في اليمن، وبجرأة بالغة وسخاء عظيم،ولقد ذهب في ذلك إلي حـد تقـدير مرتبات ضخمة وخيالية لبعض المسئولين اليمنيين ولحاشيتهم بصورة لم يحلم بها اليمنيون من قبل .

وفى رأينا يمكن القول أن هذا الالتزام الأمريكى تجاه اليمن بمنحها مزيدا من المساعدات المالية والمساهمة فى إنشاء الطرق إنما يرجع لوجهة النظر الأمريكية التى كانت ترى أن الحفاظ على المصالح الأمريكية فى اليمن يتم عن طريق: ١- التصدى للسيادة السوفيتية بالمنطقة .

٢- الحد من النفوذ الشيوعى بالمنطقة .

وبعد تدفق المعونات المالية الأمريكية لليمن ومزاحمتها للسوفيت، وكنتيجـة مباشرة، لنمو العلاقات اليمنية – الأمريكية، أصبحت اليمن الدولة العربية الوحيدة في منطقة شبه الجزيرة العربية،في هذه الفترة الزمنية، التي تقـيم علاقـات مـع الدولتين الأعظم وهي في الوقت نفسه أصبحت – أي اليمن – محل تنافس شـديد وتسابق بين الدولتين الأعظم علي كسب اليمن إلي كل منهما.

علي أن التنافس لم يتوقف عند هذا الحد، بل تعداه إلي تقديم عـدة مـشاريع اقتصادية، فعندما قام الإتحاد السوفيتى بتوقيع اتفاقية مع حكومة اليمن عام ١٩٥٨م بإسناد بناء ميناء الحديدة وتطويره إلى الإتحاد السوفيتى، حتي يستقبل أكبر عـدد من السفن ؛ قامت الولايات المتحدة الأمريكية بحفر بعض الآبار للمياه، كما قامت بشق طريق بري يربط صنعاء عن طريق تعـز- العاصـمة الثانيـة للـيمن - بالمخا[٤٥]، حيث تم توقيع اتفاقية بين حكومة اليمن وبين إدارة التعـاون الدوليـة الأمريكية في أبريل عام ١٩٦٠م، والخاصة بإنشاء طريق صنعاء – تعز- المخا. وقد تمت تلك الاتفاقية، بعد أن لاحظت حكومة الـيمن أن إنـشاء هـذا الطريـق وتطويره سوف يؤدي إلي تحقيق تنمية اقتصادية شاملة في هذه المنطقـة. لـذلك

طلبت المساعدة من الحكومة الأمريكية في إنشاء هذا الطريق، وكذلك طلبت المساعدة في تدريب المواطنين اليمنيين علي إنشاء الطرق وصيانتها. ونتيجة لذلك فلقد قامت إدارة التعاون الدولية الأمريكية بالموافقة علي تقديم مبلغ مليوني وواحد وخمسين ألف دولارا أمريكيا (٢٠٥١٠٠٠) لإتمام ذلك المشروع . ونصت الاتفاقية علي أن تضع حكومة اليمن كل المعدات اللازمة ومواد الإنشاء الخاصة بإقامة هذا الطريق تحت تصرف إدارة التعاون الدولية الأمريكية[٤٦] .

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن الإتحاد السوفيتي وفى إطار المنافسة بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية على مناطق النفوذ فى اليمن، قد تقدم بعرض لدى حكومة الإمام أحمد، أبدى فيه استعداده لإنشاء طريق صنعاء – تعز –المخا .لذلك نجد الإمام أحمد قد حذر الولايات المتحدة الامريكية من عواقب التأخير فى تنفيذ هذا الطريق ؛لأنه فى هذه الحالة سوف يضطر للاستجابة للضغط الشعبى الذى سوف يجبره على قبول العرض السوفيتي الجديد .وقد أشارت إحدى وثائق الخارجية الأمريكية إلى " أنه فى حالة تقاعس الحكومة الأمريكية عن تنفيذ هذا الطريق فإن النفوذ السوفيتى باليمن "لن يمكن تحديه وأن السيطرة السوفيتية على اليمن لن تنتهى"[٤٧] .

علي أيه حال فلقد استمرت العلاقات اليمنية بالدولتين الأعظم في عهد الإمام أحمد عند هذا الحد من التعاون، والمتمثل بتقديم المساعدات الاقتصادية التي تحتاج إليها اليمن، بالقدر الذي يحقق لكل من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتي، أن يكونا ظاهرين علي مستوي الساحة اليمنية، وبالمقابل فقد حاول الإمام أحمد أن يخلق نوعاً من التوازن حتي لاتصبح اليمن خاضعة بأي شكل من الأشكال لإحدي الدولتين .علي أن علاقة اليمن بتلك الدولتين قد أخذت أبعاداً جديدة في عهد الثورة اليمنية في ٢٦ سبتمبر عام١٩٦٢ م، وفقاً للمتغيرات التي استجدت علي الساحة اليمنية، ومع بروز الدور الأقليمي لهذه المتغيرات، وأثرعلاقات كل من الإتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية فيما بينهما على منطقة الشرق الأوسط ككل .

تقييم العلاقات اليمنية – السوفيتية في عهد الإمام أحمد بن يحيي حميد الدين:-

فى ختام هذا البحث يمكن لنا أن نجمل بعض الملاحظات فيما يختص بالعلاقات اليمنية –السوفينية فى عهد الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين على النحو التالى :

أولاً : كانت اليمن علي مقربة من المصالح الغربية في الجزيرة العربية .كما إنها تشرف علي مضيق باب المندب . أحد الممرات الإستراتيجية الهامة في العالم. ولها مصالح في عدن والمحميات الواقعة تحت الاحتلال البريطاني، بالإضافة إلي كونها سوقاً تجارية واعدة، لهذه الأسباب اندفعت القوي الدولية لتؤسس لنفسها وجوداً، وتقيم علاقات سياسية مع دولة الأئمة. فكان اليمن منطقة من مناطق الصراع الدولي، وبؤرة من بؤر التوتر المحتملة في المستقبل. وهذا الصراع يجري علي قاعدة المصالح، وفي البداية كان هذا الصراع إيطاليا – سوفيتيا و سوفيتيا –بريطانيا، تحول إلي صراع نفوذ بين الغرب الرأسمالي والشرق الاشتراكي . وقد مثلت الولايات المتحدة الأمريكية الغرب في هذا الصراع ومثل الإتحاد السوفيتى الشرق. وكانت حظوظ الأمريكيين بالفوز في هذا الصراع أفضل، إلا أنهم لم يتفهموا المطالب اليمنية في عدن والمحميات،وظلوا أقرب إلي الموقف البريطاني وتحت تأثيره .فيما كان السوفيت يعلنون صراحة تأييدهم للمطالب اليمنية في الجنوب، ويقفون إلي جانب اليمن في المحافل الدولية، وقد وازن الإمام أحمد بين الموقفين الغربي والشرقي، فوجد أن من مصلحته الإبقاء علي علاقات طيبة مع السوفيت، خاصة وأن هذه العلاقات لاتكلفه كثيراً وليس للسوفيت مطالب لايمكن قبولها، كتلك المطالب التي تقدم بها الأمريكيون لتأسيس وجود عسكري في اليمن . وأكثر من ذلك فإن الإمام أحمد بن يحيي حميد الدين لم ينس قط إن محاولة أخيه عبد الله للإطاحة بعرشه عام ١٩٥٥ م، كانت مباركة من جانب الأمريكيين وحلفائهم البريطانيين . ومع ذلك فقد حافظ على اتصاله مع الأمريكيين .وعندما قرر الأمريكيون تطوير علاقاتهم باليمن في عام ١٩٥٩م، وخلق توازن بين حجم وجودهم في اليمن، وحجم الوجود السوفيتي رحب الإمام أحمد بهذا التواجد، إلا أن نظامه قد شارف علي السقوط ثم كانت نهاية الإمامة علي يد الثورة اليمنية التي اشتعلت نيرانها في ٢٦ سبتمبر عام١٩٦٢ م لتعلن قيام الجمهورية اليمنية ونهاية عهد الأئمة.

ثانياً : كان السوفيت أول دولة عظمي تعترف بإستقلال اليمن في عام ١٩٢٨ م، ونتج عن ذلك علاقات اقتصادية وتجارية جيدة مع الإمام يحيي بن حميد الدين،ولكن مستوي هذه العلاقات قد تراجع مع قيام الحرب العالمية الثانية، وإزدياد حدة الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي، وظل الفتور هو الحالة السائدة في العلاقات بين البلدين حتي عام ١٩٥٥ م، عندما قرر الإمام أحمد إقامة علاقات متينة مع الإتحاد السوفيتي وبلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى، فضلا على إن إقامة مثل هذه العلاقات وعلي هذا المستوي، كان من شأنه حتماً أن يخفف من الضغوط البريطانية، ويدفع بالأمريكيين إلي إعادة النظر فى موقفهم تجاه اليمن، والتي كانت حتي ذلك الحين مواقف أقرب إلى المواقف البريطانية، وهكذا حصل الإمام أحمد علي الدعم الاقتصادي والعسكري والسياسي لموقفه، ولسياسته الخارجية . إلا أنه رغم ذلك لم يستثمر هذا الدعم بما يحقق الرخاء لشعبه .في الواقع كانت المساعدات الاقتصادية التي قدمها السوفيت والصينيون هي أفضل ما قدم للشعب اليمني حتي قيام الثورة .

ثالثاً : جاء الموقف الأمريكي من اليمن مرهوناً في الأساس بالعلاقات اليمنية- البريطانية وذلك لرغبة الأمريكيين في عدم إغضاب حليفتهم بريطانيا، باعتبار أن اليمن تقع بالقرب من مناطق النفوذ البريطاني في عدن، وكانت هناك مشكلة حادة بين الإمام أحمد والبريطانيين حول عدن والمحميات . وقد وقف الأمريكيون يدعمون السياسة البريطانية في تلك المنطقة الاستراتيجية الهامة، رافضين- أى الأمريكيون – الأعتراف لليمن بأية حقوق أو مطالب من شأنها الإضرار بالمصالح البريطانية . ولكن حدث خلال العقد الخامس من القرن العشرين أن غير الأمريكيون كثيراً من مواقفهم في هذا الشأن، فلقد أصبح لهم أيضاً مصالح في هذه المنطقة،وكانت هذه المصالح تدفعهم للتفكير بعيداً عن المواقف البريطانية أوعلي الأقل الوقوف علي مسافة منها، وتوجب عليهم بالتالي تقييم موقفهم من اليمن، القريب من هذه المصالح الحيوية الاقتصاية والاستراتيجية . وهكذا نراهم تدريجياً يرفعون مستوي اهتمامهم باليمن،ولكن في حذر حتى لايعرضوا نهجهم الجديد إلي نقد مباشر من جانب حليفتهم القديمة بريطانيا، فلم تحقق جهودهم في اليمن أي تقدم يذكر فيما يتعلق بتطوير التعاون والعلاقات

الثنائية مع حكومة الإمام أحمد.وقد شعر الإمام أحمد بتردد الأمريكيين فاندفع أكثر نحو الإتحاد السوفيتي والصين، وأسس مع الشرق علاقات كان في الواقع مضطراً إليها .

رابعاً : بالرغم من الاهتمام الأمريكي – السوفيتي في اليمن، إلا أن ذلك لم يفد إلي قيام علاقات كاملة بينهما وبين اليمن، إلا بعد منتصف الخمسينيات، وكان ذلك عائداً إلي سياسة الإمام أحمد الخارجية الحذرة تجاه العالم الخارجي، والتي تمثلت بعدم الدخول في علاقات واسعة مع الدول الأخري، خوفاً من تدخلها في الشئون الداخلية لليمن أومساندة جماعات المعارضة اليمنية، التي كانت تعمل علي الاطاحة بنظام حكم آل حميد الدين .

خامسا : تأثرت اليمن فى علاقاتها بالإتحاد السوفيتى فيما بين عامى ١٩٥٥-١٩٦٢م، بتوجهات السياسة المصرية وتطلعات الرئيس المصرى جمال عبد الناصر إزاء الأمة العربية، وظهر ذلك جليا فى تحفيز مصر لحكومة اليمن لأن تحدث تقاربا يمنيا مع الإتحاد السوفيتى، لينتهى ذلك التقارب بتوقيع اتفاقية يمنية – سوفيتة عام ١٩٥٥م فى مدينة القاهرة .وقد جاء التقارب اليمنى –السوفيتى نتاجا للتقارب المصرى – السوفيتى، لتتأثر اليمن فى سياستها الخارجية بالتوجهات الخارجية المصرية المرتبطة بالكتلة الشرقية ودول المعسكر الاشتراكى الذى كان يتزعمه فى تلك الفترة الإتحاد السوفيتى، لينعكس ذلك كله أيضا على سياسة اليمن الخارجية تجاه الولايات المتحدة الأمريكية .

هوامش الدراسة

(1) أحمد عبيد بن دغر: اليمن تحت حكم الإمام أحمد ١٩٤٨ – ١٩٦٢ م، مكتبة مدبولى القاهر، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٥ م ص ٤٢٣ ، فاروق عثمان أباظة : العلاقات البريطانية – اليمنية – بين الحربين العالميتين (١٩١٩ – ١٩٣٩) دار المعارف بدون .ص ١١٩ ،ممدوح محمود مصطفى منصور : الصراع الأمريكي-السوفيتي في الشرق الأوسط ، الناشر مكتبة مدبولي الاسكندرية عام ١٩٩٥م ص ٩١.

(2) فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق ص ١١٩.

(3) لمزيد من التفاصيل عن هذه المعاهدة وأهم بنودها أنظر: سيد مصطفى سالم: تكوين اليمن الحديث (اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤ – ١٩٤٨م)، توزيع دار الأمين للنشر والتوزيع الطبعة الرابعة سنة ١٩٩٣ م ص ٥٣٥ – ٥٣٨، نزيه مؤيد العظم: رحلة في العربية السعيدة من مصر إلى صنعاء، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦ م ص ١٩٥ – ١٩٧.

(4) سيد. مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٣٥٢

(5) أحمد عبيد بن دغر : المرجع السابق ، ص ٤٢٤ – ٤٢٥

(6) كانت اليمن قد عقدت مع إيطاليا معاهدة في الثاني من سبتمبر عام ١٩٢٦ م وكانت تتويجاً لمجهودات إيطالية في مجال منافساتها الاستعمارية لبريطانيا ، كما أدى عقد هذه المعاهدة إلى تمتع إيطاليا بنفوذ كبير في اليمن طوال عهد الإمام يحيى ، بل وحتى نهاية حكم أسرته بقيام الثورة اليمنية في ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ م . وقد نصت تلك المعاهدة على تنظيم العلاقات بين الدولتين (اليمن – إيطاليا) على أن تقدم إيطاليا كل مساعدة اقتصادية وفنية لليمن ، وأن تقوم بينهما علاقات تجارية ، وكانت مدة سريان هذه المعاهدة عشر سنوات قابلة للتجديد وجددت فعلاً عند نهاية هذه المدة أي في عام ١٩٣٧م ، وعلى ضوء هذه المعاهدة أمدت إيطاليا اليمن بمعدات وأسلحة حربية ، بعد أن رأت إيطاليا نشاط عبد العزيز بن سعود- سلطان نجد والحجاز ومؤسس المملكة العربية السعودية- العدواني تجاه اليمن ، بسبب نزاعهما على الحدود ، مما اعتبرته إيطاليا تهديداً لمصالحها في اليمن . أنظر :
F.O. 371 / 12238(E 3692 / 22 / 91) NO. 1047 From Sir Austen Chamberlain to Mr. Wing field (Rome) 25 August 1927.
ولمزيد من التفاصيل عن نصوص المعاهدة اليمنية الايطالية الموقعة عام (١٩٢٦ م) أنظر : سيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٥٢٦ – ٥٢٨ ، فاروق عثمان أباظة : المرجع السابق ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(7) نزيه مؤيد العظم : المرجع السابق ص ٨٥ ، ٨٦ .

(8) سيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٣٥٢.

(9) تولى الإمام أحمد الحكم في اليمن خلفا لوالده الإمام يحيى عام ١٩٤٨م وظل ممسكا بمقاليد الأمور حتى وفاته في ١٩ سبتمبر عام ١٩٦٢م ليخلفه ابنه وولى عهده الإمام البدر ولم يمض أسبوع واحد على تولي الأخير الحكم حيث قامت الثورة اليمنية في ٢٦ سبتمبر من نفس العام لتعلن القضاء على النظام الملكي وقيام الجمهورية اليمنية .

(10) سيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٣٥٢ .

(11) .McLane , Charles B. : Soviet – Middle East Relations' , central Asian Research Center , Expedite Multiprint, Ltd., London, VOL, 1, 19 73. P. 111.

(12) Wenner : Manfred : Modern Yemen 1913 – 1962 , john Hopking , Press Baltimore 1963 . P 176.

(13) Wenner : OP . Cit. P. 180.

(14) ممدوح محمود مصطفى منصور: المرجع السابق ص ٢٩١-٢٩٢.

(15) مما يسترعى الانتباه في نصوص هذه المعاهدة ، أن حكومة اليمن لم تطلق ، حق التبادل الدبلوماسي ، بينها وبين الإتحاد السوفيتي ، بل إنها طلبت النص على إقامة هذا التمثيل ، إذا دعت الحاجة ، وذلك خوفاً من إقامة سفارة سوفيتية في صنعاء ، أنظر صلاح العقاد : المرجع السابق: ص ٥٤٤ .

(16) تم تبادل وثائق التصديق على تلك المعاهدة في ٣٠ مارس عام ١٩٥٦ م .

(17) قام البدر بزيارة عدد من الدول الاشتراكية في الفترة من عام١٩٥٦ م إلى عام ١٩٥٨ م بدأت بالإتحاد السوفيتي في ١١ يونيه عام ١٩٥٦ م ثم قام بعد ذلك بزيارة تشيكوسلوفاكيا في نهاية يونيه من نفس العام . ووقع البدر مع الحكومة التشيكية ،معاهدة صداقة نصت على وجوب تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين وقبل البدرعرضاً من حكومة تشيكوسلوفاكيا لتدريب اليمنيين مجاناً في مجالات الطب والهندسة في جامعاتها . وفى ٣ يناير عام ١٩٥٨ م قام البدر بزيارة الصين بدعوة من حكومتها ، انتهت يوم ١٢ يناير من نفس العام ، بتوقيع اتفاقية مع الصين ، نصت على إقامة تمثيل سياسي ، شريطةعدم التدخل في الشئون الداخلية للطرف الآخر ، وحصلت الصين على أعظم مشروعات لمد طريق المواصلات ، وذلك بإنشاء طريق برى يمتد من الحديدة إلى صنعاء ، وبدون هذا الطريق ما كانت المساعدات العسكرية المصرية لتصبح ممكنة ، بعد قيام الثورة اليمنية في ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ م، وكذلك سمح بدخول فنيين صينيين ، وتلقى اليمن قرضاً قيمته ٧٠ مليون فرنك . وكانت هذه الاتفاقيات في مجملها ، خاصة الصينية منها ، كانت تمثل مظهراً من مظاهر التنافس الصيني – السوفيتي على النفوذ في آسيا كما أن الحكومة اليمنية ، قد رحبت بإيجاد توازن بين الدول التي تقدم لها المساعدة .

ولمزيد من التفاصيل أنظر : صلاح العقاد المرجع السابق ص ٥٤٤ ، إريك ماكرو : اليمن والغرب منذ عام ١٥٧١ – ١٩٦٢ م ، ترجمة حسين عبد الله العمري ، عام ١٩٨٧ م ص ٢٣٠

(18) صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٥٤٤ .

(19) فتاة الجزيرة : في ١٣ أغسطس عام ١٩٥٩ م ، ص ١ ، وقد لعب هذا الميناء دوراً هاماً في ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ م ، باليمن ، فعن طريقه تم استيراد الأسلحة والدبابات والعربات ، التي وصلت من الإتحاد السوفيتي ، والأهم في هذا الميناء أنه حرر اليمن من سيطرة عدن الاقتصادية قبل استقلالها عن بريطانيا عام ١٩٦٧ م .

أنظر : محمد سعيد العطار : المرجع السابق ص ٥٥ – ٥٦ .

(20) فتاة الجزيرة: في ١٧ نوفمبر عام ١٩٥٩ م.

(21) جان جاك : العرب من الأمس إلى الغد ، ترجمة د. على سعد ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت عام ١٩٨٢ م ، ص ١٧٢ .

(22) إدجار أوبالانس: المرجع السابق، ص ١٠٠-١٠٢، عبد الله جزيلان: التاريخ السري للثورة اليمنية من عام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٦٢م منشورات العصر الحديث ، الطبعة الثالثة عام ١٩٨٧ م، ص ٤٧، ٥٠. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن بعضاً من هذه الأسلحة ، قد وزع علي القبائل اليمنية المتواجدة علي حدود محمية عدن ، وهرب بعضها الأخر للقبائل الثائرة داخل المحمية نفسها . ولكي يتأكد الإمام أحمد من أن هذه الأسلحة لن تستخدم ضد اليمينين أنفسهم ،فقد اقتضت سياسة الإمام بأن يحصل علي رهينة من كل قبيلة داخل المحمية ، مقابل عشر بندقيات خرجت ووزعت . أنظر: إدجار أوبالانس : المرجع السابق، ص١٠١.

(23) إريك ماكرو: المرجع السابق ، ص٢٣٠-٢٣٣ كذلك صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٥٤٤، إدجار أوبالانس : المرجع السابق ، ص١٠٠، ١٠١ ، عبد الله جزيلان : المرجع السابق ،ص ٥٦،ممدوح محمود مصطفى منصور : المرجع السابق ص ٢٩٢. لقد تعامل السوفيت بحذر شديد مع الإمام أحمد منذ وصولهم إلي اليمن ،وحتى قيام الثورة اليمنية في ٢٦ سبتمبر عام١٩٦٢ م . ففي أثناء تدريبهم للجيش اليمني علي الأسلحة المستوردة ، كانوا حريصين علي ألا يعرضوا أفكارهم علي الضباط والجنود اليمنيين والتزموا الحياد في الصراعات المستمرة في المجتمع اليمنى بين أجنحة السلطة ذاتها من ناحية ، وبين هذه مجتمعة وقوي التغيير التي يمثلها الأحرار والقوميون والفصائل الأخرى من ناحية أخرى ، وجاء الموقف السوفيتي هذا متسقاً مع مبررات تعاملهم مع نظام الإمام أحمد .فعقب وصول الثمان شحنات من الأسلحة السوفيتية لليمن بنهاية أغسطس عام ١٩٥٧، توقف تدفق الأسلحة السوفيتية إليها فجأة ، وذلك لأن الإمام أحمد رفض أن يقدم أية تسهيلات في مقابلها، كما أن السوفيت قد أخفقوا في الحصول علي نفوذ داخل اليمن ، سواء مع المدنيين أومع القوات العسكرية اليمنية ، وهو الأمر الذي كان أحد الأهداف الرئيسية للإتحاد السوفيتي ، وكذلك رغبوا في التنقيب عن البترول ، غير أن الإمام أحمد لم يسمح لهم بذلك .أنظر إدجارأوبالانس : المرجع السابق ، ص١٠٢.

(24) Foreign Relations of the United States, 1955-1957 volume X111 Near East: Jordan-Yemen. United States Government Printing Office Washington 1988.P.753.

(25) الأهرام: عدد: ٢٥٩١٣ في ٢١ نوفمبر عام ١٩٥٧ م.

(26) Laquer,Walter:The Struggle For The Middle East : The Soviet Union and The Middle East 1958-1968(London 1970) P.105

(27) F.o.371/127024.No.11. Confidential.24 The. April, 1957.p.p.1-3.

(28) عبدالله جزيلان: المرجع السابق: ص٥٤

(29) دار الوثائق المصرية : وثائق الخارجية المصرية الأرشيف السري ، تقرير المفوضية إلي وكيل الخارجية ، بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٩٥٨ ، محفظة رقم ٣٣٨ ، ملف رقم ٣٩، وتقريراً آخر للمفوضية بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٩٥٨، نفس المحفظة ، ونفس الملف .

(30) أحمد عبيد بن دغر: المرجع السابق، ص٤٢٨.
(31) صلاح العقاد: المرجع السابق، ص٥٤٤. إريك ماكرو: المرجع السابق ، ص٢٢٣
(32) قناة الجزيرة: عدد ١٧٠٣ في ١٩٦٠/٧/١٧ م، ص١.
(33) إريك ماكرو: المرجع السابق، ص٢٣١- ٢٣٢.
(34)Foreign Relations of the United States, 1955-1957 volume X111 OP.Cit. P.761.
(35) الفراغ من وجهة النظر الأمريكية يعنى بقاء منطقة الشرق الأوسط بدون سيطرة غربية ، بعد جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن معظم دوله أى أن حصول أى دولة من دول الشرق الأوسط على أستقلاله ينشئ فراغا فى نظام الأستعمار الغربى ، ولايمكن ملؤه إلا بالقوات والمصالح الأمريكية ، لأن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن تبقى شعوب هذه المنطقة محكومة بقوى موالية لها.
(36) أحمد عبيد بن دغر: المرجع السابق ٤٠٧.
(37) الأهرام: عدد ٢٥٦٠١ في ١٩٥٧/١/٧ م، ص١.
(38) أحمد عبيد بن دغر: المرجع السابق، ص٤٠٧-٤٠٨.
(39) Foreign Relations Of the United States, 1955-1957 volume X111 OP.Cit., P.753
(40) Foreign Relations Of the United States, 1958-1960 volume X11Near East Region,Iraq,Iran, Arabian Peninsula United States Government Printing Office Washington .1993. P.808-809.
(41) قناة الجزيرة :أعداد :١١٣٠ فى ١٩سبتمبر، ١١٨٠فى ١٦نوفمبر سنة ١٩٥٩م ، ١٢٧٣فى ٤مارس سنة١٩٦٠م ص ١ كذلك أنظر :
Lenczowski: soviet Advances in the Middle East, American Enter prise in statute for policy Research, Washington, 1971.P.585.
(42) قناة الجزيرة عدد: ١٣٢٠ في١ مايو عام ١٩٦٠، ص١.
(43) Foreign Relations of the United States, 1958-1960 volume X 11, Op. Cit., P. 815.
(44) Ibid, p.818-819.
(45) إدجار أو بالانس: المرجع السابق ص ١٠٦، ١٠٧ ومما تجدر ملاحظته أن هذا الطريق لم ينته العمل منه إلا بعد قيام الثورة اليمنية في ٢٦ سبتمبرعام ١٩٦٢ م.
(46) Foreign Relations Of the United States,1958-1960 volume X11 Op.Cit., P.818-819
(47 Ibid, p. 819

مصادر ومراجع الدراسة

أولاً : الوثائق العربية غير المنشورة :

- وثائق مودعة بدار الوثائق القومية:

١- وثائق الخارجية المصرية، الأرشيف السري ، تقريرالمفوضية المصرية إلي وكيل وزارة الخارجية ، بتاريخ ١٥ أبريل عام ١٩٥٨م، محفظة رقم ٣٣٨، ملف رقم ٣٩.

٢- وثائق الخارجية المصرية ، الأرشيف السري ، تقرير المفوضية المصرية إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٧مايو عام ١٩٥٨م، محفظة رقم ٣٣٨، ملف رقم ٣٩.

ثانياً : الوثائق الأجنبية غير المنشورة :

أ-وثائق وزارة الخارجية البريطانية foreign office وهي مطبوعات مودعة بدار الوثائق العامة public record office وقد استعنا بمجموعة F.o.371 والمبينة حسب الأرقام والأعوام التالية:

1-F.o.371/12238 (E3692/22/91) No.1047 from Sir Austen chamberlain to Mr. Wing Field "Rome" 25 August, 1927.

2-F.o.371/12704.No. 11 Confidential.24 April, 1957.

ب- الوثائق الأمريكية :

1-Foreign Relations of the United States, 1955-1957 volume X111 Near East: Jordan-Yemen. United States Government Printing Office Washington 1988

2-Foreign Relations Of the United States, 1958-1960 volume X11 Near East Region,Iraq,Iran Arabian Peninsula. United States Government Printing Office Washington .1993.

ثالثا : المراجع العربية :

١-أحمد عبيد بن دغر : اليمن تحت حكم الإمام أحمد ١٩٤٨-١٩٦٢م، مكتبة مدبولى، القاهرة الطبعة الأولى عام ٢٠٠٥م.

٢-سيد مصطفي سالم : تكوين اليمن الحديث " اليمن والإمــام يحيــي ١٩٠٤ م – ١٩٤٨ م ، توزيع دار الأمين للنشر والتوزيع ،الطبعة الرابعة عام ١٩٩٣م .
٣-صلاح العقاد : المشرق العربي المعاصر ، مكتبة الأنجلــو المــصرية ، عــام ١٩٩٨ م.
٤-عبد الله البردواني : اليمن الجمهوري ، مطبعة الكاتب العربي ، دمشق ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٣ م .
٥-عبد الله جزيلان : التاريخ السري للثورة اليمنية من عام ١٩٥٦ إلي عام ١٩٦٢ م ،منشورات العصر الحديث ، الطبعة الثالثة عام ١٩٨٧م .
٦--عبد العزيز المقالح : عبد الناصر واليمن ، مركز الحضارة العربية القاهرة ، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٠ م.
٧-فاروق عثمان أباظة : العلاقات البريطانية -اليمنية ، بين الحــربين العــالميتين ١٩١٩ م- ١٩٣٩م، دار المعارف ، بدون .
٨-نزيه مؤيد العظم : رحلة في العربية السعيدة من مصر ، إلى صنعاء ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦ م.
٩-محمد سعيد العطار : التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقــافي فــي الــيمن، المطبوعات الجزائرية، الجزائر عام ١٩٦٥ م.
١٠-ممدوح محمود مصطفى منصور :الصراع السوفيتى -الأمريكى فى الــشرق الأوسط ، الناشر مكتبة مدبولى ، الاسكندرية عام ١٩٩٥م .

رابعا : المراجع الأجنبية :

أ) المراجع الأجنبية المعربة

١- إدجارأوبالانس : اليمن الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠م ، ترجمة وتعليق الدكتور عبد الخالق محمد لاشين ، دار الرقي بيروت ، مكتبــة مــدبولى القاهرة ، الطبعة الأولي عام ١٩٨٥ م.
٢- إريك ماكرو: اليمن والغرب ، منذ عام ١٥٧١ -١٩٦٢ م ترجمة حــسين عبد الله العمري ، عام١٩٨٧ م.

٣- جان جاك : العرب من الأمس إلي الغد ، ترجمة علي سعد ، دار الكتـــاب اللبناني ، بيروت عام ١٩٨٢ م.

ب) المراجع الأجنبية غير المصرية:

1-Laquer,Walter: The Struggle for the Middle East the Soviet Union and the Middle East 1958-1968(London 1970)

2- Lenczowski: soviet Advances in the Middle East, American Enter prise in statute for policy Research, Washington, 1971.

3-Mclane, Charles B.: soviet- middle East Relations, central Asian Research center, Expedite Multi print Ltd, London, voL 1, 1973.

4-wenner Manfred: modern Yemen 1913- 1962. The John Hopking press Baltimore 1963.

خامسا : الدوريات :

الأهرام يوليه عام ١٩٥٦ م .

الأهرام : يناير عام ١٩٥٧م .

الأهرام : نوفمبر عام ١٩٥٧م.

الأهرام: نوفمبر عام ١٩٥٩ م.

الأهرام : مارس عام ١٩٦٠ م.

فتاة الجزيرة :أغسطس عام ١٩٥٩م.

فتاة الجزيرة : سبتمبر عام ١٩٥٩ م.

فتاة الجزيرة : نوفمبر عام ١٩٥٩ م.

فتاة الجزيرة : مارس عام ١٩٦٠ م.

فتاة الجزيرة : مايو عام ١٩٦٠ م .

فتاة الجزيرة : يوليه عام ١٩٦٠ م.



الحملة العثمانية على مصر
١٢٠٠- ١٢٠١هـ / ١٧٨٦-١٧٨٧م
في ضوء كتابات الجبرتي

د/ سحر على حنفى
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب– جامعة القاهرة

اعتقد المصريون عند وصول الحملة العثمانية إلى مصر في ١٣ رمضان ١٢٠٠هـ / ١٠ يوليه ١٧٨٦م أن الهدف منها تأديب المماليك بعد زيادة مظالمهم وجورهم على الشعب المصري ، وخروجهم عن طاعة الدولة العثمانية ، غير أن الأحداث التي أعقبت وصول الحملة دلت على أن هدفها ؛ لم يكن رعاية الشعب المصري ، وإنما استرجاع هيمنة الدولة العثمانية على مصر، وانتظام وصول المال الميري سنوياً .

لذا هناك عدة تساؤلات تفرض نفسها على بساط البحث حول الهدف من هذه الحملة ؛ ما هو رد فعل المصريين تجاهها ؟ وهل استمر رد فعلهم هذا عند خروج الحملة أم تغير ؟ وإذا تغير رد الفعل فلماذا ؟ وما هو صدى أعمال حسن باشا – قائد الحملة – على مدينة القاهرة عاصمة الولاية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً خلال هذه المدة القصيرة التي لم تتجاوز عدة شهور ؟

كانت الدولة العثمانية تبدي قدراً كبيراً من التسامح مع الأمراء المماليك في مصر ، طالما كان يصل إليها المال الميري كل عام ، والذي يدل على تبعية تلك الولاية للدولة[١]، لكن اقتسم الأميران مراد بك وإبراهيم بك دخل مصر[٢] دون أن يُقدِّما عنه حساباً ، وإن قدماه لا يكون إلا حبراً على ورق [٣]. وكانا لا يكترثان بإرسال المال الميري للدولة صاحبة السيادة ، لذا تأخر وصول الخزانة المصرية

للدولة أربع سنوات متتاليات[٤] ما بين عامي ١١٩٤-١١٩٨هـ/ ١٧٨٠-١٧٨٥م حتى وصل المتأخر على مصر للدولة العثمانية ٧٦٢,٣٦٩, ١٠٣[٥] باره [٦].أضف إلى ذلك تطاول الأميرين المذكورين على الأجانب المقيمين في مصر[٧] ، بابتزاز أموالهم ومصادرة متاجرهم ، وتهديدهم بهدم كنائسهم في مصر ، مما دفع ممثلوا كل من فرنسا والنمسا وهولندا بالشكوى لدى الدولة العثمانية[٨].وقد بلغ خروج الأميرين – عن طاعة الدولة العثمانية – مداه عندما اتصلا بروسيا (العدو التقليدي للدولة العثمانية) والتي شجعتهما على الانفصال عن الدولة [٩] .

لذا انعقد الديوان بمركز الدولة العثمانية باستانبول في ٧ شعبان ١١٩٩هـ/١٥ يونيه ١٧٨٥م وقرر السلطان عبد الحميد الأول [١٠] إعداد حملة عسكرية وإرسالها إلى مصر ، وتم تحديد موعدها بالعام التالي ، على أن يتم خلال تلك الفترة ، الاستفسار من أحمد باشا الجزار والي عكا – وهو أحد بكوات مصر السابقين – عن أحوال مصر ، وإعداده تقريراً حول كيفية إخضاع الدولة للمماليك الخارجين عن طاعتها . وقد أكد الجزار في تقريره على انقسام[١١] المماليك وتراجع شعبيتهم وترحيب المصريين والعلماء بالحملة العثمانية المزمع إرسالها ، لما يعانونه من عنف وابتزاز المماليك[١٢] .

وللتمويه عن الحملة ؛ أرسلت الدولة العثمانية في ١٠ رجب ١٢٠٠هـ/ ٩ مايو ١٧٨٦م إلى مصر تطالب المماليك بما تأخر على مصر من المال الميري[١٣]، والأموال والغلال اللازمة للحرمين الشريفين ، وتهدد باتخاذ إجراءات قاسية إذ لم يتم تدبير ذلك في مهلة أقصاها ثلاثون يوما [١٤].

واستكمالاً للسرية غادر الأسطول العثماني مدينة استانبول بقيادة القبطان حسن باشا في شعبان ١٢٠٠هـ/ يونيه ١٧٨٦م معلنا اتجاهه إلى الشام [١٥]، بينما كان هدفه الحقيقي الإسكندرية ، التي وصل إليها بالفعل في ١٠ رمضان ١٢٠٠هـ/ ٧ يوليه ١٧٨٦م [١٦]، وقد ضمت الحملة ثماني سفن حربية ، وثلاثين سفينة صغيرة لعبور نهر النيل ، وما بين ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ بحارا[١٧] .

وعندما علم الأمراء المماليك بوصول الحملة إلى ميناء الإسكندرية ، أتفق رأيهم على إرسال جماعة من العلماء إلى حسن باشا مع هدية مكونة من مائة فرقة بن ومائة قنطار سكر وعشر بقج ثياب هندية وعودا وعنبر . ليعبروا له عن

امتثالهم وطاعتهم .[١٨] غير أن العلماء لم يجرؤوا عند مقابلة حسن باشا على التحدث عن الأمراء وتركز حديثهم على حماية الرعية موضحين أن بيوت المصريين مجاورة لبيوت الأمراء ، فإذا تم محاربة الأمراء سيتأثر سكان القاهرة أيضا ، فطمأنهم حسن باشا بقوله (إن أول ما أوصاني مولانا السلطان ، أوصاني بالرعية).[١٩]

وفي طريق حسن باشا من الإسكندرية إلى القاهرة ،استمال الشعب المصري إليه ، فأرسل من رشيد إعلان في ١٦ رمضان ١٢٠٠هـ/ ١٣يوليه ١٧٨٦م إلى أقاليم مصر أن ضريبة الفدان صارت سبعة بارات ونصف ، والإعلان كذلك عن رفع ضريبة المظالم والسير على القانون الصادر منذ عهد السلطان سليمان . ففرح سكان مصر وخاصة الفلاحين ، وتمنوا زوال حكم المماليك .[٢٠]

زاد قلق المماليك عقب هذه الخطابات واجتمعوا في بيت إبراهيم بك وعزموا على التصدي للحملة العثمانية ، فأرسلوا تجريدة بقيادة مراد بك إلى جهة فوه[٢١] لمحاسبة حسن باشا ورجوعه من حيث اتى وإلا حاربوه [٢٢] ، غير أن هذه التجريدة هزمت بالقرب من فوه . وعاد مراد بك مسرعاً إلى القاهرة[٢٣] فاجتمع بإبراهيم بك بالقرب من حلوان ، واتفقا على الاستعداد لملاقاة الحملة بالقاهرة ، فأقام مراد بك المتاريس والمدافع والأخشاب جهة السبتية لصد المراكب العثمانية عند وصولها إلى بولاق . [٢٤] ونهبت طوائفها من الأهالي عشرين مركبا وأخذوا ما كان فيها من الغلال والسمن والأغنام والتمر والعسل والزيت . واشتد الكرب وتعطلت المصالح. ولخطورة الوضع خشى الوالي والمحتسب على نفسيهما فأقاما في القلعة ، ولم ينزلا إلى المدينة .[٢٥]

وعلى الرغم من رغبة حسن باشا في تأخير وصوله إلى القاهرة ، حتى تسافر قافلة الحج وتصل القوات البرية العثمانية المدعمة له ، فإن الوالي العثماني محمد باشا ألح عليه بسرعة دخوله القاهرة.[٢٦]

وعقب توارد الأخبار عن وصول الحملة العثمانية إلى الإسكندرية واتجاهها نحو القاهرة ، صعد سكان العاصمة إلى المنارات وأعالي الأسطح ينظرون إلى النيل منتظرين وصول الحملة إلى بولاق . حتى سمعوا صوت مدافع عن بعد فأجابتها مدافع القلعة . عندئذ أدرك السكان وصول الحملة ففرحوا واستبشروا

واطمأنوا[٢٧]وفاجأت الحملة مراد بك وإبراهيم بك في السبتية ، ففرا إلى الوجه القبلي[٢٨] . فتجمع بعض الأهالي حول مدافع ومتاريس مراد بك ، يكسرون أخشابها ويأخذونها للحريق [٢٩].

وصل حسن باشا إلى بولاق مساء يوم الاثنين ١٢ شوال ١٢٠٠ هـ/ ٨ أغسطس ١٧٨٦م[٣٠] ، فأطلقوا له المدافع من بولاق واطمأن المختبئون بالقلعة ، ففتحوا أبوابها ونزلوا إلى دورهم وبات حسن باشا ليلته ببولاق . وفي الصباح دخل القاهرة من باب الخرق ونزل ببيت إبراهيم بك الكبير.[٣١] وكانت أولى إجراءاته ، هي حصر ثروات المماليك الفارين إلى الصعيد . فقبض على زوجات إبراهيم بك ومراد بك ، ولم يخل سبيلهن إلا بعد تقديم قدر كبيراً من المال والمصاغ . كما صادر بيوتهما وختم على باقي الممتلكات . واستدعى غفراء الحارات ليدلوا على البيوت المتعددة للمماليك الفارين ، وما بها من ودائع . وأمر نواب القضاة بالذهاب إلى بيوت الأمراء وحصر متروكاتهم . ونادى في الأسواق بأن من كان عنده وديعة للأمراء الخارجين عن طاعة الدولة العثمانية ولم يسلمها خلال ثلاثة أيام يهدر دمه، وطلب من السيد البكري ودائع مراد بك فسلمها . ثم قام ببيع أمتعة وجواري إبراهيم بك ومراد بك بالمزاد بأبخس الأثمان للضباط والعساكر العثمانية [٣٢] ، وقد وصلت رغبته في الانتقام من الأمراء العاصين إلى حد بيع جواريهم الحوامل وأولادهم ، مثل (مرزوق بك وعديلة هانم ولدى إبراهيم بك) [٣٣] لولا تشفع المشايخ ، وعلى رأسهم الشيخ السادات[٣٤] الذي قال لحسن باشا : " لا يحل بيع الأحرار وأمهات الأولاد " ، مما أثناه عن هذا الأمر المخالف للدين الإسلامي .[٣٥]

ثم بدأ حسن باشا في الإعداد للقضاء على الأمراء الفارين إلى الصعيد. فأحضر باقي قواته من مدينة الإسكندرية ، وطلب المدد من استانبول[٣٦]. وتعددت تجريداته المرسلة للوجه القبلي ، وعقب كل صدام بين قواته وقوات مماليك الصعيد كانت تدور مفاوضات الصلح وتتنوع شروطه . لكن كانت المفاوضات تنتهي دائما بالفشل.[٣٧]

أعاد حسن باشا تنظيم الإدارة في مصر فعين في شوال ١٢٠٠هـ/ ٩ أغسطس ١٧٨٦م عدداً من السناجق وضباط الأوجاقات[٣٨] وحكام الأقاليم [٣٩] وكانت وصيته لهم أن اتبعوا طريقتكم وقوانينكم القديمة ، ولا تدخلوا بيوت السناجق

دون وجود حاجة ملحة لذلك . وقد ترتب على إعادة هيكلة الإدارة في مصر ، عودة نفوذ الأوجاقات ، فاستعادت الانكشارية العديد من المقاطعات التي سلبت منها سابقا، ولاسيما مقاطعات جمرك التوابل والسلخانة [٤٠].

كما حاول ضرب القوى المتمردة من المماليك بقوى أخرى منافسة لهم ، ندلك قرب إليه إسماعيل بك منافس إبراهيم بك ومراد بك وعينه في محرم ١٢٠١هـ/ نوفمبر ١٧٨٦م شيخاً للبلد.[٤١] وأنفق حسن باشا الكثير من الأموال لمحاربة الأمراء التمرديين. فقد أعطى إسماعيل بك ٢٠,٠٠٠ دينار[٤٢] وحسن بك ١٥,٠٠٠ دينار ، ولكل سنجق ١٠,٠٠٠ دينار ، ولكل طائفة وجاق ٤٠٠٠ دينار من أجل الاستعداد للحملات العسكرية المتجهة إلى الوجه القبلي [٤٣].

ولكن من أجل تغطية الحملات العسكرية وتوفير المال الميري ، لم ينج كبير أو صغير من ابتزاز حسن باشا ، فعقب صدور أوامر السلطان العثماني في محرم ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦م بنقل محمد باشا والي مصر إلى ديار بكر وتعيين بدلا منه عابدي باشا قائد الحملة العثمانية البرية ،[٤٤] منعه حسن باشا من السفر في جمادي الأول ١٢٠١هـ مطالبا إياه بسداد ما عليه من مال للدولة العثمانية الذي قدره ٢٢٢٥ كيسا ،[٤٥] رغم أن بعض تلك الأموال ، كانت قد حُصلت من قبل الأمراء العصاه. واضطر محمد باشا إلى بيع أمتعته لسداد المبلغ المطلوب منه[٤٦]. كما اقترض في ٢٤ شوال ١٢٠٠هـ/ ٢٠ أغسطس ١٧٨٦م من التجار مسلمين وفرنجة وأقباط وأعطاهم تمسكات[٤٧] بذلك مدتها ثلاثين يوما لضمان حصولهم على النقود . وفي ٦ ذي القعدة ١٢٠٠هـ/ ٣١ أغسطس ١٧٨٦م بدأ في سداد القرض للتجار الفرنجة والمغاربة أولا[٤٨] ، ثم استكمل باقي القرض في ٦ ذي الحجة ١٢٠٠هـ / ٣ سبتمبر ١٧٨٦م وتعجب الجبرتي على ذلك بقوله إن هذا القرض(آخر السلف المدفوعة) [٤٩]. وجدد حسن باشا طلب الاقتراض من التجار في ١٩ محرم ١٢٠١هـ/ ١١ نوفمبر ١٧٨٦م ، مما دفع الكثير من التجار للفرار، بعد إغلاق حوانيتهم ومخازنهم . فأمر بهجوم عسكره على بيوتهم، ونهب ما فيها وجمع المال بشق الأنفس[٥٠] . كما حاول حسن باشا في ١٠ ذي القعدة ١٢٠٠هـ/ ٤ سبتمبر ١٧٨٦م فرض رسوم الجمارك على تجار البن والتوابل ، بعدما حصلت منهم مقدما في ١٢شعبان ١٢٠٠هـ/ ١٠ يونيه ١٧٨٦م من قبل الأمير إبراهيم بك

الهارب إلى الوجه القبلي وبلغت قيمة المبلغ ٤٤,٠٠٠ ريال فرنسي[٥١]. وعندما عرض التجار الأمر أمام المحكمة ، طالب قاضي القضاة حسن باشا بمطالبة إبراهيم بك بهذه الضرائب[٥٢]. كما زاد حسن باشا الضرائب المفروضة على جمرك الإسكندرية ومقاطعة السنا [٥٣]والسلخانة . . . الخ ، بصورة أدت إلى زيادة أموال خزانة الدولة إلى ٦,٨٠٠,٠٠٠ باره أضيفت إلى مال الإرسالية البالغ ٢٨,٥٢٣,٤١٨ باره [٥٤].كما قرر على الأقاليم في شعبان ١٢٠١هـ/أبريل – مايو ١٧٨٧م ضريبة رفع المظالم التي أبطلها عقب وصوله إلى مصر ، إلا أنه أعادها مرة ثانية باسم ضريبة التحرير[٥٥] أو حق البيات (أي ثمن الإقامة) [٥٦] بالإضافة إلى ما يتبعها من الكلف [٥٧]وحق الطريق [٥٨]. ثم فرض ضريبة أخرى على الأقاليم في ٢٢ رمضان ١٢٠١هـ/ ٨ يوليه ١٧٨٧م وهي كالآتي :

على كل بلد من أعلى البلاد	٢٠,٠٠٠ بارة
والبلد من أوسط البلاد	١٧,٠٠٠ بارة
ومن أدنى البلاد	٩٠٠٠ بارة [٥٩]

خلاف ما يتبعها من الكلف وحق الطريق [٦٠]. فعانى الفلاحون لتوفير تلك الضرائب ، خاصة نتيجة لوباء البهائم في جمادي الأول١٢٠١هـ/ فبراير ١٧٨٧م وتسلط الفئران على الزرع.[٦١]

ولم تقتصر عملية ابتزاز سكان القاهرة من حسن باشا فحسب ، فإلى جانب ذلك طلب إسماعيل بك شيخ البلد من تجار القاهرة قرضا لاستكمال الأنفاق على الحملة العسكرية المتجهة لمعاقبة منافسيه من الأمراء المماليك الفارين إلى الوجه القبلي[٦٢] ، فاعتذر التجار بعدم المقدرة ، عندئذ أدعى على تجار البن بحقه في مبلغ من المال ، عندما كان شيخا للبلد سابقا ، فصالحوه بإعطائه ٤٠٠٠ ريال[٦٣].

وإلى جانب الضغوط الاقتصادية التي تعرض لها المصريين من جراء هذه الحملة ، نهب العسكر العثمانية بيوت علية القوم بالإضافة إلى بيوت الأمراء الفارين . [٦٤] وقد شجع ذلك حرافيش المدينة على استكمال حركة النهب[٦٥] . كما قام العسكر بالخطف والسرقة من الأسواق مثلما فعلوا بسوق الغورية وسرقتهم للأقمشة من الحوانيت [٦٦]. كذلك قاموا بالتعدي على أهل الحرف كالقهوجية والحمامية والمزينين والخياطين ، فكان الرجل منهم يأتي إلى الحمامي أو القهوجى

أو الخياط فيخلع سلاحه ويعلقه على باب المكان ويرسم رنكة [٦٧]في ورقة أو على الباب واعتبر نفسه شريكة أو في حمايته ثم يذهب حيث شاء ويـأتي آخـر اليـوم يحاسبه ويقاسمه في ربح يومه ، فشكى أهل المدينة للباشا ، فمنعهم مـن ذلـك[٦٨] وأعدم ثلاثة منهم على ذلك وثلاثة أخرين لتعرضهم للنساء ، لكنهم لم يكفوا إلا بعد فترة [٦٩].

ومع زيادة عدد العسكر بالمدينة وتعرضهم للنساء نـودي علـى النسـاء ألا يجلسن عند حوانيت الصياغ ولا ينزلن الأسواق إلا للضرورة .[٧٠] فامتنعت النساء من ارتياد الأسواق ، أو ركوب المراكب وقت فيضان النيل كما كانت عادتهم مـن قبل .[٧١]

وعقب قتل أحد التجار المغاربة (ابن عياد) لاثنين من العسكر ، ألزم حسن باشا ، كبير تجار المغاربة (الحاج سليمان بن ساسى) [٧٢] بخمسمائة كـيس ديـة للمقتولين ،فصالحة سليمان بن ساسى على مائة كيس دفع نصفها من ماله والنصف الآخر دفعه باقي تجار المغاربة بطولون .[٧٣]

كما ساء حسن باشا زيادة مكانة وثراء النصارى في القاهرة التي وصلوا إليها منذ عهد على بك الكبير[٧٤] . لهذا أرسل من نادى في شوارع القاهرة بألا يركـب النصارى الدواب ولا يستخدمون المسلمين ولا يشترون الجواري والعبيد ، ومـن عنده شيء من ذلك باعه أو اعتقه ، وأن يلتزموا بلبس زيهم الأصـلي[٧٥] . وقـد شجعت هذه الأوامر الحرافيش على مد أذيتهم للنصارى ، ففضل الأخيرين البقـاء في منازلهم عدة أيام إلى أن جاء لهم الأمان من حسن باشا.[٧٦] كما أمـر قاضـي القضاة بإحصاء ثروة المعلم إبراهيم الجوهري كبير المسيحيين في القاهرة وأخيـه الريس جرجس الفارين من القاهرة إلى الوجه القبلي ، وبما وقفاه من أطيان وأملاك على الكنائس والأديرة من أجل مصادرته[٧٧]. وقبض على نسائهما فأقررن علـى خبايا أخرجوا منها أمتعة وأواني ذهب وفضة.[٧٨] كما أمـر بإحـضار مـا عنـد النصارى من الجواري والعبيد وإن لم يفعلوا يتم تفتيش منازلهم ، فصالحوه علـى ذلك بمال ، فسمح لهم ببيع ما عندهم من الجواري والعبيـد علـى ألا يـستخدموا المسلمين ، فأخرجوا ما عندهم ، باعوا بعضه ، وأودعوا الباقي عند معارفهم مـن المسلمين[٧٩] . غير أنه لم يف بوعده للنصارى ، فعقب وصول الجيوش البريـة ،

أمر حسن باشا باقتحام منازل الأقباط وإخراج ما بها من الجواري والعبيد . وتم بيعهم بالمزاد للعسكر بأبخس الأثمان[٨٠] . كما قرر على بيوت النصارى الذين خرجوا مع الأمراء الفارين إلى الصعيد غرامة قدرها خمسة وسبعون ألف ريال . كما فرض على ما في منازلهم غرامة قدرها خمسمائة كيس ، وقيل حسب على النصارى أيضا من بين ثرواتهم الجواري التي أخرجت من بيوتهم وبيعت بالمزاد بأرخص الأسعار وقدر ثمن كل جارية بأربعين ريال. وقرر أيضا على كل شخص دينار جزية العال كالدون . وكانت هذه الجزية خلاف الجزية الديوانية[٨١] المقررة.[٨٢]

كما عانى كافة عناصر سكان القاهرة من غلاء الأسعار ، فعقب وصول أخبار هذه الحملة إلى القاهرة قلت الغلال وخاصة القمح وغلا سعره حتى امتنع بيع الخبز في الأسواق ، ولولا نزول الأغا[٨٣] المحتسب وهجومه على المخازن وإخراج الغلال وضرب القماحين ومنعهم من زيادة الأسعار ، لما ظهر القمح والخبز بالأسواق مرة ثانية هذا من ناحية [٨٤]. ومن ناحية أخرى قام الأمراء المماليك عقب هزيمتهم في فوه واستعدادهم للفرار إلى الصعيد ببيع الغلال المخزونة لديهم ، مما ترتب عليه رخص أسعار الغلال لفترة محدودة[٨٥] بعدها ارتفعت الأسعار مرة ثانية ، فتكلم الشيخ العروسى مع حسن باشا . فرد الأخير عليه قائلا (أنا لا أعرف اصطلاح بلادكم) وأمر في ١٦ ربيع الأول ١٢٠١هـ/ ٦ يناير ١٧٨٧م بإحضار الأغا المحتسب والمعلمين وعمل تسعيرة والمناداة بها ومن خالف أو احتكر شيئا قتل . فزاد ذلك الأمر سوءاً حيث عزت الأشياء وقل وجود اللحم .[٨٦]أضف إلى ذلك أن انشغال حسن باشا بتأديب المماليك الفارين ، شجع البدو على زيادة النهب والسلب (فلا مانع يمنع ولا حاكم يردع).[٨٧]

لم تدم إقامة حسن باشا بمصر طويلاً فقد أمرته الدولة العثمانية بالعودة إلى استانبول للحاجة إليه في محاربة روسيا[٨٨] ، التي أغارت على أراضي الدولة العثمانية وسيطرت على القرم [٨٩]، وحماية لماء الوجه أعلنت الدولة عفوها عن إبراهيم بك ومراد بك على أن يتولى الأول حكم قنا ويتولى الثاني حكم إسنا ، ولا يسمح لهما بدخول القاهرة [٩٠]. وقد قرأ حسن باشا في ١٤ ذي الحجة ١٢٠١هـ/٥ أكتوبر ١٧٨٧م المرسومين على الوالي عابدي باشا وسائر الأمراء والمشايخ .

وترك لإسماعيل بك شيخ البلد مدافع وذخيرة وآلات حرب وقوة عسكرية من ألف وخمسمائة مقاتل للاستمرار في مقاتلة الأمراء القبالى اذا حاولا دخول القاهرة (٩١)، وغادر مصر يوم السبت ٢٣ ذي الحجة ١٢٠١هـ/ ٦ أكتوبر ١٧٨٧م.(٩٢)

سادت حالة من الارتياح الشديد ، والفرح من جانب الشعب المصري بعد رحيل حسن باشا ، ذلك لأنه لم يحصل من مجيئه إلى مصر وذهابه منها إلا الضرر(٩٣) ، فلم يرفع المظالم ، بل دعم هذه المظالم ، وكان أصحاب هذه المظالم يقومون بها قبل مجيئه في الخفاء خوفا من الحكومة العثمانية. وحطم آمال المصريين ، فعقب استقبال المصريين له بفرحة غامرة أملاً في إصلاح أوضاع مصر ، خيب آمال المصريين لما لا قوة على يديه من جور وعسف. كما لم ينل الباب العالي من وراء هذه الحملة لا الراحة ، ولا الهدوء ، ولم تتحسن أحوال مصر ، ولم تعد الولاية إلى نظام الحكم التي كانت عليه عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، كذلك لم تزد الامتيازات المالية العثمانية المؤخودة من مصر ، ولم تنجح الحملة في القضاء على الأمراء الذين ظلوا أحد مصادر التهديد في صعيد مصر . (٩٤)

ومما سبق يمكن القول أن إلحاح محمد باشا الوالي العثماني على حسن باشا بسرعة دخول مدينة القاهرة ، إن دل على شيء فإنما يدل على حرص الوالي العثماني على حياته وأمواله خوفا من انتقام المماليك منه ، مما دفعه للبقاء بالقلعة وإغلاقه أبوابها وعدم الخروج منها إلا بعد التأكد من وصول الحملة .

كما حرص حسن باشا عقب وصوله لميناء الإسكندرية على تأييد المصريين لحملته وعدم انضمامهم إلى المماليك ، لذا بدأها بإعادة قيمة الضرائب لسابق عهدها منذ عهد السلطان سليمان القانوني بـ ٧,٥ بارة على كل فدان كما ألغى ضريبة المظالم . لكن عقب دخوله (القاهرة) أراد توفير المال اللازم لتأديب المماليك في الوقت الذي وجد فيها الخزانة المصرية خاوية ، فلجأ أولا للاقتراض من كبار التجار ، وقد ثبتت حُسن نيته عندما سدد القرض في ميعاده . مما دفع الجبرتي إلى التعجب خاصة لأن الشعب المصري لم يعتد هذا من الأمراء المماليك . كما رضخ حسن باشا لأوامر قاضي القضاة الذي حكم في صالح تجار البن والتوابل ، عندما حاول حسن باشا أخذ رسوم الجمارك منهم ، إلا أنه كان لديهم صك يفيد سدادهم الرسوم لإبراهيم بك ، فأمر القاضي برجوع حسن باشا إلى إبراهيم بك وليس إلى

التجار . لكن حاجته للمال دفعته إلى زيادة رسوم جمرك الإسكندرية ، وأعاد ضريبة المظالم بمسمى جديد هو " ضريبة التحرير " . وأقر ما هو غير رسمي من الكلف وحق الطريق . ورغبة منه في القضاء على تمرد المماليك ، أتاح لإسماعيل بك شيخ البلد – منافس وعدو كل من إبراهيم بك ومراد بك – ابتزاز سكان القاهرة دون اعتراض منه . كما أن إساءته للنصارى ، لم يكن الهدف من ورائها اضطهاد طائفة مخالفة للدين الإسلامي ، والدليل على ذلك أنه لم يضطهد اليهود المصريين ، وهم من أهل الذمة أيضا . ولكن تعليل سلوكه هذا مع النصارى أنهم كانوا من المقربين للمماليك الفارين إلى الصعيد ، بل فر بعض النصارى معهم إلى الصعيد كالمعلم إبراهيم الجوهري وأخوه جرجس . لذلك تتبع ثرواتهم كتتبعه لثروات الأمراء العاصين هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أثبتت حملة حسن باشا مدى الترابط والوحدة بين المسلمين والمسيحيين المصريين ، فعند تتبع حسن باشا للنصارى وثرواتهم ، لجأ النصارى إلى نقل جواريهم وثرواتهم لدى جيرانهم من المسلمين ولم يجد المعلم إبراهيم الجوهري من يودعه بعض ثرواته سوى الشيخ البكري ، ولكن إفشاء الوشاة دفع حسن باشا للضغط على الشيخ البكري لتسليم تلك الوديعة.

ويمكن القول أن حسن باشا لم يتعمد القسوة على سكان القاهرة ، فعندما اشتكى له المشايخ من غلاء الأسعار عقب دخول حملته القاهرة أوضح للشيخ العروس أنه لا يعرف النظام السائد بالولاية وأمر على الفور بتسعير السلع ومعاقبة من يخرج عن هذه التسعيرة من التجار. وفي هذا دلالة على أن هدفه من حملته على مصر كان معاقبة المماليك فحسب ، وكان يحاول إرضاء الرعية ، ولكن دفعته الضرورة أحيانا إلى ما فرضه على المصريين من ضرائب.

غير أن اضطراره إلى ترك مدينة القاهرة ، بناء على طلب الدولة العثمانية ، وعدم توقعه العودة بهذه السرعة ، أدى إلى فشل حملته . لكن هذه الحملة جاءت بنتيجة ايجابية حينما أكدت مدى الترابط بين المسلمين في مصر وإخوانهم من أهل الذمة ضد هذا القادم إليهم بحملته حتى لو كان مشتركاً معهم في الدين.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن الشكوى المتكررة من قناصل فرنسا والنمسا وهولندا للدولة العثمانية من جراء ظلم المماليك للأجانب في مصر ، وفشل حملة

حسن باشا ، يعتبر أحد العوامل الرئيسية لمجيء الحملة الفرنسية على مصر فيما بعد ، فلم يكن هدف الحملة الفرنسية قطع الطريق بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند فحسب ، ولكن ايضا تأديب المماليك ، الذي كان هدفا لا يقل عن سابقة في الأهمية ، رعاية لمصالح التجار الفرنسيين في مصر.

هوامش البحث

(١) أندريه ريمون : الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر ، ترجمة ناصر أحمد إبراهيم ، الجزء الثاني ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٥ ، ص ١٠٦١ .

(٢) علماء الحملة الفرنسية : وصف مصر (قاهرة المماليك) ، ترجمة منى زهير الشايب ، الجزء الحادي عشر ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، الجزء الأول ، القاهرة ١٨٨٩، ص ١٣٩ .

(٤) صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٧ ، ص ٣٥٠ .

(٥) أندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٦١ .

(٦) يعود أصل البارة الفضية المستخدمة في مصر في العصر العثماني إلى عملة فضية مملوكية يقال لها المؤيدي ، وكانت تعادل نصف الدرهم لذلك ، أطلق على البارة اسم ميدي ومدينى، وأيضاً نصف فضة ... لمزيد من التفاصيل أنظر اندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ص ١١٩-١٢٢ .

(٧)Brehier, Louis : L'Egypte de 1798 a 1900 , Paris 1900 , p.21 .
؛ على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، الجزء الأول ، تاريخ القاهرة ومصر منذ العصر الفاطمي حتى عصر توفيق ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٨ ، ص ١٥٦ .

(٨) صلاح أحمد هريدي : المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .

(٩) نفس المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .

(١٠) السلطان عبد الحميد الأول هو ابن السلطان أحمد الثالث ولد سنة ١١٣٧هـ (١٧٢٤م) ... لمزيد من التفاصيل أنظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة د . ت ؛ جرجى زيدان : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(١١)لمزيد من التفاصيل عن انقسام المماليك أنظر
De Tott , Baron : Memoires du Baron de Tott , sur les Turcs et les Tartares , quartieme Partie , Paris 1784 , pp.66-69 ;.Irwin , Eyles : A series of Adventures in the course of A Voyage up the Red. Sea , on the coasts of Arabia and Egypt and of A Route through the deserts of thebais , hither to unknown to the European Traveller in the year 1777 , London 1780 , pp. 340-341 .

(١٢) أندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٦١ .

(١٣) Holt , P.M.: Egypt and the Fertile crescent 1516-1922, London 1980 , p.99 .

(١٤)عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم ، الجزء الثاني ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٥٣.

(١٥)أندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٦٢ .

(١٦)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(١٧)أندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٦٢ .

(١٨)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(١٩)نفسه ، ص ١٦١ .

(٢٠)نفسه ، ص ١٥٩ ؛ Holt , P.M . : op.cit; p.99

(21) فوة : مدينة أنشأها بطليموس على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد ، بينها وبين البحر ستة فراسخ ، والفوه العروق التي تصبغ بها الثياب الحمر ... لمزيد من التفاصيل أنظر محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ ، القسم الثاني ، البلاد الحالية ، الجزء الثاني ، مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤ ، ص ص ١١٣-١١٥

(٢٢)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٢٣)أمين سامي : تقويم النيل ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص ١٠٢.

(٢٤)ميخائيل شاروبيم : الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ، تحقيق يواقيم رزق مرقص ، الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ٢٠٠٥ ، ص ٤٠١ .
؛ عراقي يوسف محمد : الوجود العثماني المملوكي في مصر (القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر) ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ ،ص١٤٩ .

(٢٥)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٦٧ ؛ أمين سامي : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢٦)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٢٧)نفسه، ص ١٦٧ ؛ ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٤٠١ .

(٢٨)مصطفى الصفوي القلعاوي : صفوة الزمان فيما تولى على مصر من أمير وسلطان ، مخطوط غير منشور ، دار الكتب والوثائق القومية ، رقم ٢٠٤٥٠ ، ميكروفيلم ٢٣٨٤٣ ، ص ١٩٢ ؛ عراقي يوسف محمد : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٢٩)ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٤٠١ .

(٣٠)مصطفى الصفوي القلعاوي : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(٣١)نفسه ، ص ١٩٢ ؛ ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٤٠٢ .

(٣٢)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩، ١٧٢-١٧٤؛ أمين سامي : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٣٣)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٧٤؛ ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ص ٤٠٤-٤٠٥ .

(٣٤)قدم الشيخ السادات إلى مصر من بلاد المغرب ، وينحدر من نسل على بن أبـي طالـب ، وكان ذا عزوة وثروة كبيرة ، وله تابعون ومريدون ... لمزيد من التفاصيل أنظر أولياجلبي : سياحتنامة مصر ، ترجمة محمد على عوني ، تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرين ، القاهرة ٢٠٠٥ ، ص ٤٠٥ ؛ أحمد باشا الجزار : نظامنامة مصر ، عن كيفية إعادة مصـر إلـى سلطة الدولة العثمانية عام ١٧٨٥ ، ضمن كتاب عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، الطبعة الأولـى ، دار المعـارف ١٩٨٢ ، ص ١٧٧ ؛ شفيق غربال : مصر عند مفرقة الطرق ١٧٩٨-١٨٠١ ، المقالة الأولى في ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامة في عهد الحملة الفرنسية ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٢٥ .

(٣٥)علماء الحملة الفرنسية : المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٣٦)ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ص ٤٠٩-٤١١ ؛ أمين سامي : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(37) Holt , P.M. op. cit , p.100

(٣٨)الأوجاقات : من التركية أوجاق ومعناه في التركية الموقد والمدخنة ، ثم أطلق على كل مـا تنفخ فيه نار فأطلق على البيت ، ثم على أهله ثم على الجماعة تتلاقى في مكان واحد ثـم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف وعلى الصنف من أصناف الجنـد. وكانـت العساكر العثمانية التي تركت في مصر بعد عودة السلطان سليم أربعة وجاقات ، ثم زادهـا ابنه السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٢٤ وجاقين فصارت ستة أوجاقات ، ثم صارت سنة ١٥٥٤ سبعة أوجاقات . وهذه الوجاقات السبعة هي : الأنكشارية ، العـزب ، الجمليـة ، التفكجية ، الجراكسة ، الجاويشية ، المتفرقة ... لمزيد من التفاصيل أنظر . أحمد الـسعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف ، القـاهرة د.ت ، ص ص ١٩٤-١٩٧ ؛ عفاف مسعد السيد العبد : دور الحامية العثمانية في تاريخ مـصر ١٥٦٤-١٦٠٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ٥٢ .

(٣٩)عبد الوهاب بكر : الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القـرن الثـامن عـشر ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القـاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٣٣ ؛ Holt ; P.M . : op.cit ; pp. 99-100 .

(40) Shaw , Stanford J. : The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517 -1798 , New Jersey 1972, pp.301-302. ؛ أندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ص ١٠٦٣-١٠٦٤ .

(٤١)عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(٤٢)الدينار : عملة ذهبية ، منها ما هو عثماني كالمحبوب والفندقلي والطرلي والجنزير ، ومنها

ما هو أجنبي كالبندقي... لمزيد من التفاصيل أنظر سحر على حنفي : العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠، ص ص ١١٢-١١٧ .

(٤٣)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٤٤)ميخائيل شاروبيم : المصدر السابق ، ص ٤١١ .

(٤٥)يقدر الكيس الواحد بـ ٢٥,٠٠٠ باره .

(٤٦)أمين سامي : المرجع السابق ، ص ١٠٣.

(٤٧)التمسك : هو وثيقة الدين الذي يسجل تاريخ الدين ، وأسماء وتوقيع الشهود عليه إلى جانب تسجيل حقوق الدائن والتزامات المدين ... لمزيد من التفاصيل أنظر سحر على حنفي : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٤٨)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٧٨.

(٤٩)نفسه ، ص ١٨٥؛ أندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ،ص١٠٦٥.

(٥٠)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ . ؛ ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ،ص ٤١٢ .

(٥١)الريال الفرنسي : نسبة للدولة التي أصدرته ، وهو ريال من الفضة ، كان سعره في ارتفاع دائم رغم التشديد في معاقبة المتزايد في سعره إلى حد الشنق على باب زويلة وتعليق ريال فرنساوي في أنف المخالفين ... لمزيد من التفاصيل أنظر عبد الرحمن فهمي : النقود المتداولة أيام الجبرتي ، ضمن بحوث عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ص ٥٥٨-٥٥٩ ، ٥٧٨ .

(٥٢)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ص ١٧٩-١٨٠ ؛ اندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص١٠٦٥.

(٥٣)السنا : يستخدم في صناعة ملح النشادر ، التي انفردت به مصر لفترة طويلة ، والسنا هو السناج الناتج عن إحراق الأقراص الجافة من روث الماشية ، والتي تستخدم باعتبارها وقودا ... لمزيد من التفاصيل أنظر ب . س . جيرار : الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر ، الجزء الأول (الزراعة – الصناعات والحرف – التجارة) ، ضمن موسوعة وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص ٢٠٣ .

(٥٤)اندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ص ١٠٦٥ – ١٠٦٦ .

(٥٥)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

(٥٦)استيف : النظام المالي والإداري في مصر العثمانية ، ضمن موسوعة وصف مصر ، الجزء الخامس ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص ٦٩ .

(٥٧)الكلف : جمعت كل الأعباء التي فرضت على القرى بشكل استبدادي منذ عهد محمد بك أبي الدهب في ضريبة واحدة سميت الكلف ومن بين مشتملاتها تبن السلطان وحوالة الحوالات

... لمزيد من التفاصيل أنظر نفس المصدر السابق ، ص ص ٦٩، ٨٥ .

(٥٨)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ٢١٣
وحق الطريق : كان الجاويشية الذين يكلفون السفر لجمع الضرائب التي حصلها الأمناء والعمال والكشاف وشيوخ البلد ، يحصلون على حوالات أو تذاكر تخولهم حق جمع (حق الطريق) من القرى التي يرسلون إليها ، وكان حق الطريق يتفاوت بتفاوت درجة الجاويش المرسل ، ثم صار حق الطريق حقا لكل من يرسل من قبل الديوان أو الوالي أو الملتزم ولو لم تكن مهمته جمع الضرائب ... لمزيد من التفاصيل أنظر أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ، ص ص ٧٦- ٧٧ .

(٥٩)انقسمت أراضي مصر من حيث الجودة إلى (عال ، وسط ، دون) وتخضع هذه أو تلك للضرائب وفقا لدرجة جودتها... لمزيد من التفاصيل أنظر استيف:المصدر السابق، ص ٧٧

(٦٠)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ٢١٧؛ أمين سامي : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٦١)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ٢١٠ ؛ أمين سامي : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٦٢) De Tott , Baron : op.cit ; p. 71 .

(٦٣)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ ؛ عراقي يوسف محمد : المرجع السابق ، ص ١٥١ .
والريال : عملة أجنبية فضية ، ومن العملات الفضية الأجنبية التي تداول انتشارها بأراضي الدولة العثمانية ، الريال الهولندي والأسباني والفرنسي والألماني وأن كان الأخير أكثر انتشارا لثبات قيمته ، وقد سمى في مصر بالريال أبو طاقة ... لمزيد من التفاصيل أنظر سحر على حنفي : المرجع السابق ، ص ص ١١٧-١١٨ .

(٦٤) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٤٠٨.

(٦٥) نفسه ، ص ٤٠٢ .

(٦٦)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٧١.

(٦٧)الرنك : من الفارسية بمعنى اللون والصفة وهي في الإصطلاح التاريخي بمعنى الشعار ... أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ، ص ١١٥.

(٦٨)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٧١.

(٦٩)ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٤٠٣ . ؛ اندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ص ١٠٦٤-١٠٦٥ .

(٧٠)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٧٢.

(٧١)اندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ص ١٠٦٤-١٠٦٥ .

(٧٢)سليمان بن ساسى : هاجر من طرابلس إلى القاهرة في النصف الأول من القرن الثامن عشر . واستقر بحي طولون ... لمزيد من التفاصيل أنظر حسام محمد عبد المعطي :

العائلة والثروة (البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٨ ، ص ٤٩ .

(٧٣)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(74) Browne : W.G: Travels in Africa , Egypt , and Syria from the year 1792 to 1798, London , p. 54 .

(٧٥)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٧٦)محكمة الباب العالي ، فيلم ١٢٤ ، س ٣٠٦ ، م ٤٠٩ . (٢٠ ذي الحجة ١٢٠٠هـ/ ١٦ أكتوبر ١٧٨٦م).

(٧٧)محكمة الباب العالي ، فيلم ١٢٤ ، س ٣٠٦ ، م ٦٣٧ . (١٨ ذي الحجة ١٢٠٠هـ/١٤ أكتوبر ١٧٨٦م) .

(٧٨)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٧٩)نفسه، ص ١٧٦.

(٨٠)نفسه ، ص ١٧١.

(٨١)نفسه، ص ص ١٧٧- ١٧٨ .

(٨٢)انقسم دافعي الجزية الديوانية منذ عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م إلى ثلاث فئات :

- الفئة العليا ويدفع الشخص منها ٤٠٠ بارة سنوياً
- الفئة الوسطى ويدفع الشخص منها ٢٠٠ بارة سنوياً
- الفئة الأدنى ويدفع الشخص منها ١٠٠ بارة سنوياً

لمزيد من التفاصيل أنظر ليلى عبد اللطيف أحمد : الإدارة في مصر في العصر العثماني ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ص ٣٢٦-٣٣١ .

(٨٣)الأغا : تركية من المصدر أغمق ، ومعناه الكبر وتقدم السن ، تطلق في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة ، والأغا المحتسب ، وهي هنا لقب... لمزيد من التفاصيل أنظر أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٨٤)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٨٥)نفسه، ص ١٦٠ .

(٨٦)نفسه ، ص ٢٠٥ . ؛ أمين سامي : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .
؛ صلاح أحمد هريدي : المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

(٨٧)على مبارك : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

(٨٨)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ؛ عراقي يوسف محمد : المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

Holt ; P.M . : op.cit ; p.100؛

(٨٩)إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثـاني ، الطبعـة الأولـى ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م ، ص ٢٠٨ .

(٩٠)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ؛ أمين سامي ، المرجع الـسابق ، ص ١٠٤ ؛ عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٩١)عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ، ص ١٣٦ ؛ Holt , P.M. : op.cit ; p.100 .

(٩٢)إسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٩٣)الجبرتي : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

اختلف مصطفى الصفوي القلعاوي مع الجبرتي حول تاريخ رحيل حسن باشا من مـصر ، فقد أشار القلعاوي بخروج حسن باشا من مصر في ١٣ ذي الحجة ١٢٠١هـ . على حين أشار الجبرتي أن ١٣ ذي الحجة هو تاريخ وصول المرسوم العثماني بطلب حسن باشا في استانبول ... مصطفى الصفوي القلعاوي : المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

(٩٤) اندريه ريمون : المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ٩٢ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية غير المنشورة :

- محكمة الباب العالي ، فيلم ١٢٤ ، سجل ٣٠٦ .
- مصطفى الصفوي القلعاوي : صفوة الزمان فيما تولى على مصر من أمير وسلطان ، مخطوط غير منشور ، دار الكتب والوثائق القومية ، رقم ٢٠٤٥٠ ، ميكروفيلم ٢٣٨٤٣ .

ثانياً : المصادر العربية والمعربة المنشورة :

- أحمد باشا الجزار : نظامنامة مصر ، عن كيفية إعادة مصر إلى سلطة الدولة العثمانية عام ١٧٨٥ ، ضمن كتاب عبد الوهاب بكر (الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر) ، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٩٨٢ .
- استيف : النظام المالي والإداري في مصر العثمانية ، ترجمة زهير الشايب، ضمن موسوعة وصف مصر ، الجزء الخامس ، القاهرة ٢٠٠٢ .
- اوليا جلبى : سياحتنامة مصر ، ترجمة محمد على عوني ، تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرين ، القاهرة ٢٠٠٥ .
- ب.س . جيرار : الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر ، ترجمة زهير الشايب ، الجزء الأول (الزراعة – الصناعات والحرف التجارة) ، ضمن موسوعة وصف مصر ، القاهرة ٢٠٠٢ .
- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الجزء الثاني ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٩٨ .
- علماء الحملة الفرنسية : وصف مصر (قاهرة المماليك) ، ترجمة منى زهير الشايب ، الجزء الحادي عشر ، القاهرة ٢٠٠٢ .

<u>ثالثاً : المصادر الأجنبية</u>

- Browne , W.G: Travels in Africa , Egypt , and Syria from the year 1792 to 1798 , London 1800 .
- De Tott , Baron: Memoires du Baron de Tott, Sur les Turcs et les Tartares , Quartieme Partie , Paris 1784 .

- Irwin , Eyles : A Series of Adventures in the course of A voyage up the Red. sea on the coasts of Arabia and Egypt and of A Route through the deserts of Thebais , Hither to un known to the European Traveller in the year 1777 , London 1780.

رابعاً : المراجع العربية :

- أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف ، القاهرة د.ت .
- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م .
- أمين سامي : تقويم النيل ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٨ .
- أندريه ريمون : الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر ، ترجمة ناصر أحمد إبراهيم ، الجزء الأول والثاني ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٥ .
- جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ، الجزء الأول ، القاهرة ١٨٨٩ .
- حسام محمد عبد المعطي : العائلة والثروة (البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية) الهيئة المصرية العامة للكتب ، القاهرة ٢٠٠٨ .
- سحر على حنفي : العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر ، الهيئة العامة للكتب ، القاهرة ٢٠٠٠ .
- شفيق غربال : مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨ – ١٨٠١ ، المقالة الأولى في ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الرزنامة في عهد الحملة الفرنسية ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٦ .
- صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٧ .
- عبد الرحمن فهمي : النقود المتداولة أيام الجبرتي ، ضمن بحوث عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ .

- عبد الوهاب بكر : الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢.
- عراقي يوسف محمد : الوجود العثماني المملوكي في مصر (في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر) الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .
- عفاف مسعد السيد العبد : دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر ١٥٦٤ – ١٦٠٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠ .
- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، الجزء الأول ، تاريخ القاهرة ومصر منذ العصر الفاطمي حتى عصر توفيق ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٨ .
- ليلى عبد اللطيف أحمد : الإدارة في مصر في العصر العثماني ، القاهرة ١٩٧٨ .
- محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية في عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ ، القسم الثاني ، البلاد الحالية ، الجزء الثاني ، مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤ .
- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة د.ت .
- ميخائيل شاروبيم : الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ، تحقيق يواقيم رزق مرقص ، الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ٢٠٠٥ .

<u>خامساً : المراجع الأجنبية :</u>

- Brehier , louis : L'Egypte de 1798 a 1900 , Paris 1900 .
- Holt , P.M . : Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922 , London 1980 .
- Shaw , Stanford J. : The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517 – 1798 , New Jersey , 1962 .



السلطان عبدالحميد المفترى عليه

أ/ إيمان علاء الدين صائغ
مدرس مساعد ـ جامعة نجران

المقدمة :

أحمد الله تبارك وتعالى، واصلي واسلم على أنبيائه ورسله وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلي يوم الدين..

واستفتح بالذي هو خير ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [1]

أما بعد ... فإن الأمم الغربية المتحضرة لا تنفك تبحث وتفتش لها عن عمل بطولي أو شبه بطولي قام به أحد قادتها أو زعمائها، أو أي من أبنائها لتنسج منه ما شاء لها خيالها. وتفيض على صاحبه هالات من التعظيم والتقديس والمحبة والاحترام وتنتهز المناسبات والفرص لتعيد ذكرى ذلك البطل أو الزعيم أو القائد – فيما تزعم– لتبتهج بها.

وعندما يقف الأمر عند قادتنا في تاريخنا الإسلامي، نجدهم يقفون منه موقف الاستهانة به والازدراء له، وهي خطة رسمت بعناية ومكر، وذلك كي تنشأ الأجيال المحدثة والقادمة وهي مفصولة روحياً وذهنياً عن آبائها وأجدادها الأصلاء.

ولذلك نري الدراسات والكتابات والمؤلفات الغربية والاستشراقية قد امتلأت بالتطاول على أعلام الإسلام وقادته وخلفائه وسلاطينه وأمرائه ونوابغه في التشهير بهؤلاء العظماء في كل عصر عن طريق تزييف طائفة من الأخبار المشكوك فيها وبعض القصص الملفقة، وفي الاعتماد على مصادر غير أصليه، أو مطعون في صحتها، لإلصاق هذه الشبهات حول بطولات رجال الجهاد الإسلامي الكبار.وأباح بعض المشغوفين بالخيال في كثير من الجامعات أن يذهب مذهبهم في ابتكار تلك

الصور المشوهة التي يدعون أنها تقرب للناس حقائق التاريخ، وبذلك جرى تصيد لمثل هذه الروايات من هنا وهناك لمحاولة دعم آراء محرفة ومغرضة أعدت أساساً لإثارة الشبهات، وما تزال هذه المحاولات مستمرة، وتعتمد من التآمر على التاريخ الإسلامي ورجالاته قديمًا وحديثًا هدفاً ثابتاً لها.

وقد أثر ذلك في الأجيال المسلمة فاستهواهم الغرب في تقدمه العظيم وبنائه لحضارته المادية الهائلة بكل ما فيها من سفاسف الاستهتار بالقيم الروحية وانتشار الفسق والفجور والإباحية والمثل المنحطة ...إلخ.

فنرى –الجيل المسلم – يعرف عن ميكافيلي ونابليون وهتلر وبتهوفن وشكسبير ولوثر، وغيرهم أكثر بكثير مما يعرفه عن الخلفاء الراشدين، أو خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وأبي حنيفة، ومالك ،وغيرهم، رضوان الله عليهم أجمعين، ناهيك عن ابن سينا والرازي، وابن النفيس، والطبري، والزهراوي، وعشرات المئات والألوف من أولئك الأجداد العظماء الذين بنوا لنا صرح حضارة إسلامية عريقة لم يجد التاريخ لها مثيلاً.

تلك الحضارة التي ما قامت حضارة أوروبا المعاصرة إلا على صرحها وذلك بعد أن تخاذل أبناؤها وانصرفوا من الجد والاجتهاد إلى اللهو واللعب، بل إلى سبات عميق لم يفيقوا منه إلا بعد فوات الأوان.

فجاءنا الاستعمار الأوروبي بجميع ألوانه وأشكاله وأنواعه من عسكري واقتصادي وحضاري واجتماعي وفكري وغير ذلك، وجثم على صدورنا وبلادنا وبقي فيها ما شاء له البقاء؛ إلى أن استطعنا بعد كفاح مرير أن نتخلص منه بعد أن قدمنا ملايين الشهداء.

وأخيراً عندما سحب الاستعمار جيوشه من معظم البلاد الإسلامية خلف وراءه استعماراً آخر من أتباعه من أبناء تلك البلاد كانوا أخبث وأقوى وأشد مفعولاً من أساتذتهم من الاستعمار العسكري السابق ذلك هو الاستعمار الفكري أو ما يسمي (بالغزو الثقافي) الذي يوجه شبابنا وفتياتنا من خلال برامج وخطط رسمها ونفذها بنفسه، وأوعز بمتابعتها إلى تلامذته وذيوله بل وخدمه.

إنهم المتأثرون بهم من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلساننا، يقومون بذلك الدور الخطير والمخزي في الوقت نفسه، وذلك من خلال برامج التربية والتعليم والإعلام

والصحافة والكتب والمجلات والدراسات والتأليف والإذاعة والتلفاز وغير ذلك. وكانت النتيجة أن نشأ جيل لا يعرف عن آبائه وأجداده شيئا بل قد يخجل من أي رواية عن شخصياتهم أو الحديث عن أخبارهم وأعمالهم.

فمن هؤلاء الأجداد شخصية **السلطان عبدالحميد التركي**،أحد سلاطين العثمانيين المتأخرين الذي وصفوه بأخبث وأدنى الصفات والنعوت، وافتروا وكذبوا عليه خاصة بعد انقلاب (١٩٠٨م – ١٩٠٩م) بتشجيع من جمعية الاتحاد والترقي أولاً، والماسونية والصهيونية واليهود والاستعمار ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً.

- **فلماذا السلطان عبدالحميد الثاني؟**
- **لماذا كل هذه الضجة الإعلامية التي دارت حول السلطان؟**
- **لماذا كان وصفه الشائع بأنه السلطان الأحمر –السفاح– والمخادع– والدموي– والمستبد ....؟**
- **هل كان فعلاً كذلك؟**
- **بل لماذا تكالبت كل القوى ضده؟**
- **أو لماذا كل هذا العداء اليهودي والصهيوني والماسوني للسلطان عبدالحميد الثاني؟**

فهذا ما سنعرفه من خلال هذا المجهود المتواضع، كما أني حاولت ألا أجعل السلطان معصوماً من الخطأ أو مبرأ من المعاصي؛ ولكن حسبي أن يعرف الناس بصورة عامة والمسلمون بصورة خاصة بعض مواقفه المشرفة، وكيف انه قد دفع عرشه ثمناً لذلك الموقف المشرف من قضية فلسطين.

هنا يجب ذكر الحادثة التاريخية التي تذكر ما عرضه اليهود علي السلطان عبدالحميد من المال بالأرقام سواء لشخصه أو لدولته المفلسة بمساعدتها وسداد ديونها في ذلك الوقت وكيف كان جوابه بالتفصيل.

فمن هو السلطان عبدالحميد الثاني؟

السلطان عبدالحميد الثاني، هو السلطان الرابع والثلاثون بين سلاطين الدولة العثمانية ، وهو الابن الثاني للسلطان عبدالحميد خان [2]، ولد يوم الأربعاء السادس عشر من شهر شعبان ١٢٥٨هـ /الحادي والعشرين من سبتمبر ١٨٤٢م والدته هي (تيري موجكان) وهي جركسية– كسائر زوجات السلطان عبدالحميد– توفيت

والدته وهو في الثامنة من عمره،فربته زوجة أبيه(برستو هاتم)وعاملته معاملة الأم أسبغت عليه كل حنانها وعطفها.تولي العرش خلفاً لأخيه مراد[3] في ١٠ اشعبان ١٢٩٣هـ/٣١ أغسطس عام١٨٧٦م[4].

وقد أطلق أعداء السلطان -وما أكثرهم-كثيراً من الشائعات والأكاذيب حول نسبه لكي يتوصلوا إلي غاية محدودة وهي إثبات عدم جواز سلطنته وخلافته، فأشاعوا أن والدته أرمينية [5]، وأشاعوا مرة أخري أن والده أرمني وكان من خدم القصر[6]. وزعم بعض أعدائه أن والده السلطان عبدالحميد لم يعترف بابنه لمدة أسبوع [7] ثم أشاعوا أن والده كان يكرهه ويتشاءم منه؛ولكن ما المبرر الذي يقدمه هؤلاء لكي يكره أب أبنه؟

ولم يتورع أعداؤه حتى عن تلويث مرحلة طفولته البريئة فقالوا عنه أنه كان معتادا على السرقة [8] وهناك الكثير من الافتراءات عن السلطان عبدالحميد – مما سيأتي ذكرها لاحقاً-

كيف كانت نشأة السلطان عبدالحميد وطفولته؟وما هي صفاته؟

اتصف السلطان عبدالحميد في صغره بأنه كان كثير الصمت، وقد تلقي تعليما منتظما في القصر السلطاني، حيث كان معلموه من أبرز رجالات عصره علما وخلقا،وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية والشركسية والألبانية.درس التاريخ، وله بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية، كما كان يمارس الرياضة البدنية، وركوب الخيل، والجري والمبارزة بالسيف،وكان في نفس الوقت خطاطا ونجارا لديه ورشة نجارة خاصة به. كان محبا للقراءة والمطالعة، يكلف أتباعه بجمع الصحف والمجلات الأوروبية لقراءتها، ثم ترجمتها له. ويحب قراءة الروايات.وهو صاحب رأي مستنير، يرغب في معرفة كل شئ ويتعلمه بشكل جيد وبجانب هذا كان له اهتمام بمعرفة أخبار السياسة العالمية ومكانة بلاده فيها .

كانت البساطة صفة عبدالحميد في تصرفاته وعاداته،مقتصدا على نفسه فلم يكن مسرفا ولم يعرف التبذير،كريما في الخير والإحسان .فقد كان ذو سياسة وفكر اقتصادي منظم منذ شبابه.

ومن صفاته أنه كان مشهورا بقوة ذاكرته، وبذكائه الحاد، وبقوة تأثيره في مستمعيه، والمتعاملين معه، رقيقا في تعامله الخاص،على غاية في اللطف، يعرف

كيف يستحوذ على قلوب الناس جميعا. كان السلطان ذو شخصية رزينة، لم يتأثر بالمظاهر الخداعة، كما أنه كان مثالا للعفة والاحترام والوقار،عفيفا بكل معنى الكلمة.

ومن صفاته المعنوية :التدين، والشجاعة، وكان عادلا ورحيما حتى بأعدائه، يحظى بتقدير معارضيه، ناجحا في إقناع الآخرين بفكره، وكذلك في محاولة استرضائهم. وفي تطويع أعدائه لخدمة أهدافه.ويملك قدرة هائلة من الحلم تجاه مناوئته، وحريص على الاتفاق أو الموافقة للآخرين، ويخضع للرغبة العامة إذا تحقق من اتجاهاتها.وعنده نفور من سفك الدماء، شديد الحذر من الأعداء وعنده القدرة الفائقة على مراوغتهم أو مناورتهم.

وفي هذا الصدد يذكر عمر يلماز: (كان الغازي عبدالحميد خان، ملك ملوك العالم، وسلطان الأمم، ذا صلابة في الدين، ومن الرجال المقيمين للصلاة والصوم. ولأنه كان شخصية عاليه القدر متصفا بحميد الخصال، مداوما على أوراده الخاصة، فقد أصبح جلوسه السلطاني محل تبرك وتيمن للجميع) [9]

ماهي ظروف الدولة العثمانية عندما تولى السلطان عبدالحميد حكمها واعتلى عرشها؟

عندما استلم السلطان الخلافة كانت الأزمات تحيط بالسلطنة من كل جانب، فقد فسد التعليم، وكانت التجارة والزراعة والصناعة في أدنى درجات التردي، ولم يعد لدى الجيش أسلحة أو مهمات، وأصيب الاقتصاد بالشلل حيث وجد السلطان عند توليه العرش أن العجز في الميزانية العثمانية للعام المالي ١٨٧٥م قد بلغ ٥ مليون ليرة عثمانية، وقيمة فوائد ديون الدولة ١٤ مليوناً، أما ديون الدولة نفسها فقد بلغت ٣٠٠ مليون ليرة. كما كانت هناك عناصر تنمي نفسها بأحلام القومية. إلى جانب ذلك مؤامرات دولية في سبيل تحقيق الأماني القومية لبعض العناصر العثمانية[10].

هذا بالإضافة إلى مؤامرات سياسية استعمارية للاتفاق على إرث الدولة العثمانية أو (الرجل المريض)[11] ناهيك عن الاضطرابات والكوارث فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية[12].

ويسجل من شهدوا ذلك العصر شهاداتهم قائلين:

(نعم، نادراً ما يصادف في التاريخ مثل ذلك الخليفة، فقد تولى إدارة الحكم في فترة كتلك، وأظهر صلابة تثبت – بالفعل – استحقاقه لمقام الخلافة "العالية")[13]

تجاه هذا الموقف الصعب ما كان للسلطان إلا أن أخذ يفكر جدياً في إعادة تنظيم الدولة وإنقاذها مما وقعت فيها من المحن والكوارث وقد خطط لذلك الإنقاذ بأمور عديدة.

فما هي هذه الأمور التي اتخذها السلطان لإنقاذ الدولة العثمانية مما هي فيه؟

١. فرض سياسة اقتصادية متقشفة على مصروفات الدولة بدأها بنفسه وأسرته وأركان رجالات الدولة، وبذلك غدا مثلاً للشعب كله في قلة الإنفاق والزهد في متع الحياة.
٢. اتبع سياسة موازنة هادئة ودقيقة مع الدول الأوروبية بقصد إبعاد الدولة العثمانية عن الحروب التي لم تكن مهيأة للدخول فيها، ولأن الإصلاح في رأيه لا يتم إلا في ظروف سلام.
٣. استطاع بحنكته السياسية وسماحته الإسلامية أن يتودد إلى زعماء الأقليات الدينية والقومية، فقضى على جانب كبير من ثوراتها وحركاتها.
٤. أنشأ جهاز مخابرات قوي جداً نفذ إلى أعماق الدول الأوروبية ومؤسساتها بحيث كان على علم بكل ما كانت تدبره الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية مقدماً وكان يتخذ من الخطط الكفيلة لمجابهتها وكان ينجح في تنفيذ تلك الخطط في معظم الأحيان.
٥. لم يكن مستبداً بقرار من قرارات الدولة، على عكس ما نشره عنه أعداؤه بعد عزله، وقد اتبع بالنسبة لظروف زمانه سياسة شورية إسلامية صحيحة.
٦. كان عبدالحميد رجلاً متديناً وكان موقناً بأن الدولة العثمانية لا تنقذ إلا باللجوء إلى الجامعة الإسلامية التي تربطها مع المسلمين جميعاً برباط الإسلام، للوقوف وحدة متراصة أمام مؤامرات الدول الاستعمارية، ولقد ثبت أن الدول الاستعمارية في مواقفها كانت تضع دائماً في حسبانها مسألة الجامعة الإسلامية وخطرها عليها وعلى سياستها.
٧. كان رجلاً مسالماً لا يحب سفك الدماء، ولم يكن يتدخل قط في أمور القضاء

ولم يعامل خصومه معاملة غير شرعية.

٨. انتبه إلى مخطط اليهود للاستيلاء على فلسطين عن طريق شراء الأراضي وهجرة اليهود إليها فأصدر أمراً بإلحاق إدارة (سنجق) القدس بالباب العالي مباشرة، ووقف فيما بعد بصلابة أمام المؤامرة اليهودية، مما أدى إلى عزله.(14)

فما هي نتيجة السياسة التي اتبعها السلطان عبدالحميد لإنقاذ دولته؟

كانت نتيجة هذه السياسة المتزنة أن استطاع السلطان عبدالحميد أن يحفظ الدولة من الضياع فجمع شتاتها، ووحّد كلمتها، وأظهر المرونة مع خصومه في الداخل فكان يتعقبهم ليتعرف على أهدافهم ونقاط ضعفهم بحيث يتمكن بعد ملاطفتهم وتلبية بعض رغباتهم من تحقيق الأهداف التي يريدها منهم.

كما أظهر مرونة فيها الحذر مع خصومه في الخارج، فلم يصطدم معهم مباشرة بل استعمل كل دهاء وحيلة ليبعدهم عن دولته المتهالكة ريثما يقوى عودها، يقول السلطان عبدالحميد في ذلك: (وعندما اعتليت كرسي الحكم خلفاً لأخي وجدت نفسي محاطاً بأناس يريدون تقييدي بشباك من المؤامرات والدسائس، ولكي أحافظ على حياتي وعرشي قررت أن أبرد مكرهم بمكر أدهي وأمر) (15).

وقد رفض كل المقاييس الأوروبية متمسكاً بالأسس الإسلامية وهو ما صرح به: (لا يجوز أن تقاس بلادنا بمفاهيم أوروبية، إن بنية المجتمع في بلادنا بنية دقيقة للغاية، كلّ حركاتنا وتصرفاتنا يجب أن تنطلق من هذا الأساس، وإلاّ فكيف يمكننا أن نجعل أقواماً بدائيين يعيشون بجرة قلم عيشة أوروبية محضة). (16)

هذا فيما يختص بالسياسة العامة لعبدالحميد، وقد وضع خطواتها العريضة منذ توليه العرش لكن للأسف الشديد لم تستطع شعوب الدولة العثمانية أن تتفهمها، ولا حتى وزراؤه المقربون منه نتيجة لعدم قدرتهم على استيعاب فهم مقاصده ومراميه، فقد كانت سياسته سياسة استراتيجية عامة بعيدة المدى ليست وقتية ولا محدودة، بل سياسة تحيط بكل الظروف وتخطط لها تخطيطاً شاملاً، يقول سعيد الأفغاني عن السلطان عبدالحميد: (يرحم الله عبدالحميد لم يكن في مستواه وزراء ولا أعوان ولا شعب، لقد سبق زمنه وكان في كفايته ودرايته وسياسته وبعد نظره بحيث استطاع وحده بدهائه وتصرفه مع الدول تأجيل انقراض الدولة ثلث قرن من

الزمان، ولو وجد الأعوان الأكفياء والأمة التي تفهم عنه لترك للدولة بناءا من الطراز الأول).[17]

لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فأفلت زمام الأمور من يد السلطان في أواخر عهده نتيجة لسياسة الضغط التي اتبعتها الدول الأوروبية عملاء اليهود الماسونيين الذين بذلوا الغالي والرخيص في سبيل تقويض الدولة، ولا يتم ذلك إلاّ بإقالة السلطان عبدالحميد الذي تنبه لجحافل تلك الماسونية المنظمة فقد استطاع أن يكشف والناس عنها غافلون خطرها العظيم لأن أسرارها وخلفياتها ظلت خافية على المسلمين حتى سقوط السلطان عام ١٩٠٩م، فكان بعد ذلك قيام حكم الاتحاديين ربائب المحافل الماسونية الذين احتوتهم الصهيونية العالمية لخدمة أهدافها.[18]

وقد اتخذ هؤلاء شتى الطرق للوصول إلى أهدافهم بمختلف الوسائل وباستخدام أقبح الصفات وأخبث العبارات للحط من قدر السلطان الذي لم يأل جهداً في نصحهم خدمة للإسلام والمسلمين.

فألصقوا بالسلطان عبدالحميد من التهم والافتراءات التي لا تخطر على البال حتى كانت من الكثرة مما يصعب على المرء إحصاؤها، فقد تجرأوا حتى على طفولته - كما رأينا سابقاً - فأخذوا يكيلون له التهم ويتهجمون على أعماله وتصرفاته، حتى لم يبق منفذا للأذى إلاّ واندفعوا فيه للوصول إلى تحطيم صورته والتطاول عليه، فلم يتركوا له قراراً إلا وأثاروا حوله الشبهات، ولا موضوعاً تبناه إلا وانتقدوه بكل ما أوتوا من سلاطة لسان ووقاحة بيان.

يقول الدكتور محمود صالح منسي: (.. ففي تصوري أن السلطان عبدالحميد الثاني تعرض لحملة قاسية من النقد أثارها أولاً الكُتّاب الأوروبيون بدافع الحقد بسبب سياسته الإسلامية، وجاراهم في ذلك الكُتّاب العرب، الذين كرهوا عبدالحميد مثلما كرهوا فترة الحكم التركي للبلاد العربية وبخاصة في المشرق، حتى يمكن أن نطلق على عبدالحميد اسم السلطان المفترى عليه).[19]

فما هي هذه الافتراءات والشبهات والأكاذيب التي أثارها حوله الأعداء من اليهود والماسون وعملاء الاستعمار وأذنابه وتلامذته؟

١ – إفتراءة الحرم والحريم:

يذكر يوسف روفايل في كتابه أو روايته (السلطانة زاهية ست الحريم في قصر السلطان عبدالحميد): {لقد زخر البلاط العثماني في عصر السلطان الطاغية عبدالحميد بحوادث تكاد تشبه الأساطير، وكان محور هذه الحوادث في معظم الأحيان (دار الحريم) التي شغلت أيام عبدالحميد وامتدت شراراتها إلى الأمور السياسية والأحوال العامة فأحرقت من القادة من أحرقت، وشردت من العامة من شردت، وكانت وبالاً وشراً على كل من اتصل بالبلاط من قريب أو بعيد، ومن غرائب (الواجبات) التي فرضها الطاغية على وزرائه والمنتفعين به والمتملقين إليه، أن يقدم كلٌ منهم هدية مناسبة ذكرى جلوسه على العرش كل عام، وشرط أن تكون هذه (الهدية) فتاة عذراء يلتمس الوصول إليها بالشراء أو الخطف أو الاغتصاب، ثم يكون لهذه (الهدية) شأن في قصر السلطان}.[20]

ونحن نقول لهذا الكاتب "وأمثاله" من الكتّاب الشرقيين والغربيين الذين كثيراً ما يلوكون عبارة "الحريم في بلاد الشرق" أو "الحريم في قصور الأمراء والسلاطين" ويتحدثون عن بذخ السلاطين وحريم الأمراء والولاة، وكأنهم لا يعرفون ما كان يجتمع في بلاط الملوك في فرنسا وغيرها من خليلات عاشقات، وما كان لهؤلاء الملوك من أبناء غير شرعيين بما لا يقارن مع ما كان في قصور بعض الأمراء أو السلاطين الشرقيين بجانب ذلك شيئاً مذكوراً. فليس هناك مجال للمقارنة بين قصور الخلفاء العثمانيين وقصور الأسر المالكة في الممالك الأوروبية كفرساي بفرنسا، وباكنجهام في انجلترا – على سبيل المثال – ناهيك عن قصور قياصرة روسيا وملوك النمسا وأباطرة ألمانيا، بل إنها لا تقارن حتى بقصور البندقية ونابلي وروما وغيرها من الولايات الأوروبية الصغيرة.

وإذا أخذنا قصر (يلدز)، الذي أعد على شكل أجنحة بحيث يتسع لأربعين ألف شخص ففيه المدارس السلطانية التي تعد العلماء، والضباط، والفنيين، والمهنيين، وفيه مكتبة شهيرة بمخطوطاتها العربية والفارسية والتركية النادرة. وفيه جناح الحرم (وليس الحريم) باعتباره يؤوي زوجة السلطان وبناته وأخواته وخدمهن.

أما الجناح السلطانى فليس فيه ما يضارع قصور ملوك أوروبا المعاصرة من

أثاث وبذخ، وهذا لا يعني أن الحريم لم يكن لهن دور، أو لم يتدخلن في شؤون الدولة وتوجيه سياستها. فقد وصل نفوذ نساء الحريم أوجه زمن السلطان إبراهيم[21]، حيث استطاعت إحدى جواريه لشدة ما لها من تأثير عليه أن تنال حكم مقاطعة من المقاطعات وأن تنيب عنها في إدارتها شخصاً غيرها، لأنه لم يكن مسموحاً للنساء (الحرم) مهما كانت طبقتهن أن يغادرن القصر إلاّ إذا صحبهن السلطان في رحلة من رحلاته أو أمرهن بالانتقال معه إلى أحد قصوره الصيفية خارج العاصمة. وإذا أردن الخروج إلى جزء من أجزاء القصر فلا بد لهن من استئذان السلطان نفسه، ويكون ذلك في حراسة شديدة، حيث يمنع اقتراب أي شخص منهن[22].

٢ – إفتراءة تبذير السلطان عبدالحميد:

وقد ذكروا أن نفقات القصر ونفقات العاصمة كانت تزداد سنة فسنة بسرعة متزايدة، وتبتلع قسماً كبيراً من موارد الدولة. كما زعموا أن السلطان عبدالحميد بذر أموال الدولة وأهدرها على ملذاته وشهواته ومأكله وملبسه.. الخ.

فقد أدعى الكاتب الألماني (داجوبرت فون مبكوش) بأن: "عدد الطباخين الذين يشتغلون في قصره الملكي – قصر عبدالحميد –ثمانمائة طباخ" [23]

أقول: من المعلوم أن السلطان عبدالحميد قد وصل إلى السلطة والدولة في ضائقة مالية – كما مر علينا سابقاً – كما أن عبدالحميد لم يكن بذلك المسرف حتى يدخل نفقات لا حاجة لها في قصره، والدليل على ذلك أن السلطان أدخل تعديلات على ميزانية القصر منذ الأيام الأولى من خلافته أدت إلى اقتصاد كميات ضخمة من الأطعمة كانت تذهب هدراً، وكان ملبسه يميل إلى البساطة، كما أنه أمر بمنع مظاهر البذخ والترف التي كانت عادة لأمراء وأميرات القصر. [24]

في هذا الصدد تذكر الدكتورة الألمانية (الماوتلن): "كان السلطان يرتدي سترته السوداء إلى أن يرث تماماً. وعندما زوج كريمته نثرت نقود نحاسية على الشعب بدل القطع الذهبية المعتادة" [25]

فكان لذلك أن اتهمه خصومه بالبخل، وكان رده: "أن ديننا يأمرنا بمطلق المساواة فعلينا أن نكون بسطاء في مأكلنا وملبسنا". وقال أيضا: "أليس الإسراف هو الذي أوصل إمبراطوريتنا إلى ما وراء الإفلاس؟ لم يحدث أن صرفت أموالاً

على لهو أو على أمور يمكن أن تجر البلاد إلى ضائقة مالية، كما حدث عند كثير من الحكام، إنني مدين بحالتي المادية الجيدة للمحاسبة الدقيقة والاستثمار المعقول"(26)

كما أن السلطان عبدالحميد طوال حكمه الذي بلغ أكثر من ثلاثين سنة لم يمد يده إلى خزينة الدولة كأسلافه، بل قام في كثير من الأحيان بالتبرع من ماله الخاص لكثير من المشاريع الخيرية كالمدارس والجوامع والمستشفيات. وقد بلغ عدد هذه البنايات التي أنشأها من ماله الخاص (١٥٥٢) بناية، صرف عليها (٧٨٠١٢٩) ليرة ذهبية. كما أنه أسهم بالتبرع لإنشاء خط سكة الحديد (دمشق – الحجاز)، وافتتح القائمة بالتبرع بمبلغ (٣٢٠) ألف ليرة ذهب، من ماله الذي اتهم فيها السلطان بعد صرف معظم الإعانات التي جمعت من البلاد الإسلامية إلى المشروع، بأنه أخذها لنفسه (27).

وأنه في الحرب اليونانية (28) التي وقعت عام ١٨٩٧م اضطر إلى دفع أكثر مصاريفها من خزنته الخاصة، وكان ينفق من ماله الشيء الكثير على الفقراء والمحتاجين. (29)

يكفي أن نقول باختصار شديد: إن إنساناً يصرف كل هذه المبالغ الضخمة على مثل تلك الأمور – من ماله الخاص – أكيد إنه إنسان حريص على أمواله وأموال رعيته، وبالتالي فإنه ليس مسرفاً ولا مبذراً كما أدعى الداعون وزعم الزاعمون، بل العكس هو الصحيح، فلو كان مبذراً ومسرفاً لما استطاع أن يوفر مثل تلك الأموال وغيرها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لو كان مبذراً لبذر وأهدر أمواله الخاصة أولاً. فإذا فنيت ولم يبق منها شيء التفت إلى أموال الدولة، ولكن ذلك لم يحدث أبدا أبدا. (30)

ولنسأل بعد هذا: **أيمكن أن يجتمع الإسراف والتبذير من جهة والشح والبخل من جهة أخرى في شخص واحد ؟؟**

٣ – إفتراءة بث العيون والجواسيس :

إن هذه الشبهة التي تتردد كلما ذكر السلطان عبدالحميد كأنها سمة من سماته البارزة، من هؤلاء بروكلمان، إذ يقول: "وبينما كان عبدالحميد منهمكاً في قصر (يلدز) حيث اعتزل الجمهور اعتزالاً متزايداً يوماً بعد يوم في كبت كل نزعة إلى

الحرية في الإمبراطورية العثمانية بواسطة جهاز من الجاسوسية معقد واسع الشعب" [31].

فإننا نستطيع أن نرد على هذا الافتراء بما ذكرته الدكتورة (الماوتلن) إذ نقول: "ولقد اختار السلطان عبدالحميد أن يؤدي واجبه، فلم يأنف من الجلوس مع الضباط والموظفين العظام على طاولة واحدة، الأمر الذي لم يفعله سلطان تركي قبل ذلك، وكان يذهب بنفسه لزيارة دواوين الحكومة وثكنات الجنود، فقد كانت به رغبة شديدة في معرفة كل شيء عما يجري في ملكه الواسع". فلا شك أنه افتراء في غير محله، فلقد سمي بروكلمان الحيطة والحذر والدهاء من السلطان (انطواء)، وقد علل السلطان عبدالحميد كثرة اعتزاله في قوله: "من المعلوم أنني تعرضت للاغتيال، وأوشك المحاولون مرات عدة على النجاح في قتلي، فلا غرابة في مثل هذه الأحوال أن أحذر كل الناس وأبتعد حتى عن أقرب المقربين، إنها طبيعة بشرية وحس يمكن أن تفهمه، ويقال إن إنزوائي أدى إلى انقطاعي عما يجري من الأحداث الداخلية في البلاد، مع أن المخابرات عندي منظمة بحيث لا يمكنها أن تغيّب عن نظري أي شيء" [32]

ونتساءل: **ماهي الأسباب إلى دعته لذلك؟ ثم من هم الأشخاص الذين كان الجواسيس يراقبونهم ويتتبعونهم؟ ولماذا؟**

نحن لا ننكر أن السلطان قام ببث ونثر ونشر الجواسيس والعيون، وأنه ألف جهازاً بوليسياً سرياً ليراقب المشبوهين والخونة وأعداء الأمة الإسلامية والماسونيين وعملاء الدول الأجنبية.

فهل يعاب على السلطان إذا وضع جواسيس خارج مقر المحفل الماسوني مثلاً؟ أو على اليهود الذين يدخلون فلسطين سراً أو يتسللون إليها؟ أو أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الماسونية أو على الدول الأجنبية وبعثاتها المشبوهة [33].. الخ. أيعاب عليه أن يقيم حكمه على الجواسيس والعيون في بلاطه وحكومته الذين هم عملاء لقيصر روسيا وحكومة فرنسا، وهناك حشد هائل من المخابرات البريطانية بل و لإيطاليا والنمسا وألمانيا؟؟ وكان في جيشه وحاشيته أكثر من عميل للصهيونية والماسونية بل يوجد يهود يخفون ديانتهم للتآمر، وكان يعلم أن قصوره تعج بعملاء المخابرات الاستعمارية ليتجسسوا على السلطان حتى يمهدوا الطريق

لمجيء الجيوش والأساطيل فيما بعد، وللتآمر على سلامة الدولة والتخطيط للتخلص من السلطان وأعوانه؟!!. أيعاب على السلطان إقامة نظام للتجسس لمواجهة هذا الطوفان من الجواسيس؟!!

٤ – إفتراءة الاستبداد :

إن الذين وصفوا السلطان عبدالحميد بالاستبداد هم كثير، ومن هؤلاء (المنجد في الأعلام) إذ يذكر: (السلطان عبدالحميد، بأنه سلطان عثماني عرف باستبداده).[34] ويقول لوثروب ستودارد الأمريكي وهو يستعرض منجزات السلطان عبدالحميد الثاني بقوله: "فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمي، ثم طفق يسعى وراء ذلك بمتنوع الوسائل سعياً وإن كان قائماً معظمه مبنياً على شدة الحذق والدهاء، فإنه لم يخلُ في بعض المواضع من ضروب العبث، وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجية، يظن السوء بعماله، مولعاً بأن تكون صغائر الشؤون وعظائمها معلقة على إرادته النافذة" [35]..

ويذكر محمد الهلالي عن (قدري قلعجي) صاحب كتاب (مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين): "لم يقم بين سلاطين آل عثمان خلال الستمائة سنة التي انقضت على الحكم العثماني رجل شر من عبدالحميد أو ندّ له في استبداده وجوره" [36].

إن صفة الاستبداد بعيدة عن السلطان عبدالحميد بعد الثرى عن الثريا، فنرى أن د. محسن عبدالحميد يذكر: "لم يكن –عبدالحميد – مستبداً بقرار من قرارات الدولة على عكس ما نشره عنه أعداؤه بعد عزله، وقد اتبع بالنسبة لظروف زمانه سياسة شورية إسلامية صحيحة، حيث كان يعرض أي قرار يريد أن يتخذه على كبار رجالات الدولة والعلماء والمفكرين والمختصين والفنيين، وبعد مناقشات مستفيضة كان غالباً يأخذ بقراراتهم ويشكل لجاناً جديدة لمناقشتها وإعطاء الرأي النهائي فيها. ولقد أدت سياسته هذه إلى تبني الرأي الموضوعي الصائب، فمكنه من القضاء على كثير من مشاكل الدولة الاقتصادية والعسكرية والإدارية والتربوية"[37]

ولو كان مستبداً لما سمح للآخرين بتعيين الحكام والقضاة مع علمه بما يتمتع به أولئك (الحكام والقضاة) من مكانة رفيعة في المجتمع، وما يملكون من تأثير فعّال بين الجماهير المسلمة آنذاك.

يقول تحسين باشا [٣٨]: "كانت هناك طائفة من الموظفين لم يكن السلطان عبدالحميد يتدخل أبداً في تعيينهم، وهم طائفة الحكام (القضاة)، فعندما كانت أسماؤهم تعرض عليه فإنه كان يوافق على تعيينهم دون تردد حتى أن وزير العدل عبدالرحمن باشا عرض عليه مرة قائمة بأسماء المرشحين لشغل منصب قاضي، لكي يختار بنفسه المرشح لذلك المنصب. ولكن السلطان أعاد مذكرة الوزير قائلاً: إن عليه هو أن يختار وأن يقدم له المرشح الذي يراه أهلاً لذلك" [٣٩].

ولو كان السلطان عبدالحميد يريد الجبروت ومتاع الحياة الدنيا كما صوره أعداءه ليشوهوا صورته – انتقاماً من موقفه العنيد الواعي من مخططات الصليبية والصهيونية لتدمير المسلمين والقضاء على الإسلام – لقبل العرض (اليهودي – الصليبي)[٤٠] وأنساق معه، ولكن الرجل قال قولته المشهورة: "إن هذه ليست أرضي ولكنها أرض المسلمين، وقد رووها بدمائهم، وفي كلّ شبر منها شهيد، ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها". كما رفض توقيع اتفاقية تسليم البترول العراقي للإنكليز، وكان توقيعها من باكورة أعمال الاتحاديين عند وصولهم للسلطة بعد الانقلاب الدستوري، وكان ما كان مما يعرفه الجميع، عزل السلطان عبدالحميد بعد أن لوثت سمعته بكل شناعة يمكن أن يوصف بها حاكم.[٤١]

٥ – إفتراءة السلطان الأحمر :

جاء في المنجد في الأعلام: "عبدالحميد الثاني (١٩٤٢-١٩١٨م) سلطان عثماني ١٨٧٦... لقب بـ (السلطان الأحمر) لكثرة ما سفكه من الدماء، خلع ١٩٠٩" [٤٢].

ووصفه المستشرق البريطاني (بلنت) في مذكراته بقوله: "إن السلطان عبدالحميد هو أكبر مجرم سفاك في هذا العصر" [٤٣].

كما صوره أعداؤه اليهود والماسون والأرمن [٤٤] والاتحاديون بصورة السفاح، حتى أن الأرمن أطلقوا عليه لقب (السلطان الأحمر). وأطلق عليه جلادستون – وزير الخارجية البريطانية – صفة (المجرم الكبير) و (عدو المسيح).[٤٥]

يقول بروكلمان عن السلطان عبدالحميد الثاني: "ومن الثابت أنه لم يعارض سنة ١٩٠٥م في المذبحة الوحشية التي قام بها الأكراد بالاشتراك مع الأتراك ضد

الأرمن في مدن البلاد الكبرى كلها تقريباً، وفي طرابزون والرّها، بل في استانبول أيضاً، والحق أن هذه الفظائع التي تكررت في السنة التالية في ولايتي بتليس ووان وإن لم تحط من قدر الإمبراطورية العثمانية واعتبارها في العالم المتمدن فحسب، بل زعزعت أساس الدولة نفسها أيضاً" [٤٦].

وتدعي د. (الماوتلن) وتزعم: "أن السلطان عبدالحميد الذي كان في العادة يفضل سياسة التدرج والتراضي، ذهب إلى أقصى العكس فيما يتعلق بأرمينية. كان كرهه الفائق لتلك البلاد يتغلب على حكمته السياسية كلما سمع باسمها ينطق أمامه، فقد كانت حياته كلها مظللة بالشك في أنه من صلب والد أرمني، وقد كاد ذلك الشك أن يدمره بعد ولادته مباشرة، فكان يقصد من وراء كلّ عمل من أعمال القسوة الموجهة ضدّ الأرمن، أن يثبت أنه ليس واحداً منهم، كان ذلك هو الدليل الوحيد الذي يستطيع تقديمه.." [٤٧]

ومن الإدعاءات والمزاعم التي زعموها وقام بنشرها وبثها على نطاق واسع، منظمات الماسونية واليهودية والصهيونية والاستعمار وعملاؤهم ووسائل إعلامهم. إن موت (مدحت باشا) [٤٨] كان بإيعاز من السلطان عبدالحميد وأنه (المتآمر الأكبر) بل (الوحيد) على حياة مدحت باشا.

وهذا ما ذكره وأكده قدري قلعجي حيث قال: كان علي بك نجل نامق كمال دائما مع مدحت باشا فخنقوه...إلى أن يقول: ويقال: إن الطاغية (يقصد عبدالحميد) لم يطمئن إلي موت أبي الأحرار، فظلت الهواجس تعصف به حتى أرسل إلى الطائف أمرا بحفر قبره وفصل رأسه عن جسده وإرساله إليه ليتحقق من موته، فنبش القبر، وفصل رأس مدحت عن جثمانه ووضع في صندوق، أرسل إلى الآستانة وقد كتب عليه:(مصنوعات من العاج الياباني لجلاله السلطان) فلما تسلم عبدالحميد هذه الهدية اطمأن وشاع السرور في قلبه.[٤٩]

فمشكلة الأرمن كما صورها بعض الكتاب وما لاقوه من ظلم واضطهاد على يد الأتراك المسلمين لم تبرز صورة الأحداث كاملة، ولم يعرف العالم شيئا عن أسباب القسوة التي عومل بها الأرمن، لم يعرف العالم الغربي،ولعله لا يريد أن يعرف بأن الأرمن التابعين للدولة العليا كانوا يتعاونون مع الروس ويقومون بأعمال التخريب خلف الخطوط التركية وأنهم بهذه الأعمال قد تسببوا في مقتل ٣٠٠ألف

تركي مسلم، وأنهم كانوا يستخدمون كنائسهم لتخزين الأسلحة والذخائر للفتك بمؤخرة القوات التركية، المشتبكة مع الروس، ومثل أحداث الأرمن أحداث كثيرة وقعت في أوروبا وكانت الصليبية تستفز الأتراك المسلمين لتجبرهم على استخدام العنف، ثم تهب داعية اليهود لتوجيه المطاعن للإسلام نفسه حتى انطبعت في أذهان الغرب صورة الإسلام المتوحش الذي يمثله بعض قادة الأتراك في أوروبا (٥٠) .

وقد وقعت عدة مذابح ضد المسلمين تناسى الأوروبيون قوتها وأغفل مؤرخيهم ذكرها، فعندما قامت الحرب الروسية التركية قام البلغاريون النصاري بجرائم ضد المسلمين تقشعر لها الأبدان، واضطر أكثرهم بعد ذلك إلى أن يتجهوا إلى اسطنبول مشيا علي الأقدام بمجرد سماعهم اقتراب الروس منهم خوفا من فظاعة العدو وشراسته. ولولا إسراع الدولة في إبرام الصلح وتوزيعهم على ولايات الأناضول لهلكوا عن بكرة أبيهم، وغير ذلك من المذابح.(٥١)

فلقد تناسى مؤرخو أوروبا ومن ضمنهم بروكلمان وحشية المسيحيين وتذكروا عنف المسلمين وقوتهم في إخماد أطماعهم فأخذوا يلوكون أفواههم بما لا يصدقه العقل.

والحقيقة التي لاشك فيها أن العثمانيين معذورون تجاه هذا الموقف فكيف يمكن معالجة ثورة أقدم أهلها على فرض دولة مستقلة تحمل الشعار الصليبي وتعادي الإسلام والمسلمين وتتعاهد مع أعداء الدولة وتأخذ المساعدات لتضرب الدولة العثمانية ؟ فهل من المعقول أن تقف الدولة العثمانية موقف المتفرج ؟

أما بالنسبة لمدحت باشا فلم يكن سوي سجين كبقية السجناء (٥٢)، وانه لم يكن في موقع الصدارة العظمي (موقع القوة)، فلو أراد السلطان قتله فمن الذي يمنعه ؟؟ وهو الآمر الناهي، وأمامه مئات الطرق للتخلص منه، وما الفائدة التي سيجنيها من قتله ؟! خاصة بعد مرور تلك السنوات الثلاث على سجنه والتي جعلت معظم أفراد الشعب ينسونه أولا يتذكرونه ولا ينطقون باسمه إلا من القلة القليلة ومن المقربين إليه.

ونتساءل ماذا يقول أولئك المدعون الزاعمون بل والكذابون عندما علموا عفو السلطان عن أعضاء الاتحاد والترقي وهم من أعدى أعداء السلطان وخصوصا بعد ما انكشف أمرهم بل ثبت تآمرهم على السلطان والدولة ثلاث مرات وبعد أن ألقي

القبض على معظمهم في اسطنبول للمرة الأولى بعد افتضاح أمرهم وانكشاف تآمرهم وقدموا للمحاكمة العسكرية حيث أصدرت بحقهم أحكام مختلفة بالسجن فقط، بعد كل ذلك لم يقض هؤلاء مدة السجن إذ لم يلبث أن أصدر السلطان (الأحمر) العفو عنهم.

وفي سنة ١٨٩٥م ألقي القبض مرة ثانية على معظم رؤوس الاتحاديين في اسطنبول. وقد ثبت أن العفو السابق لم يأت بنتيجة ولم يثمر معهم. وإذن فلا بد من العقاب الشديد والرادع وهذا ما يقوله العقل والمنطق. ولكن السلطان للمرة الثانية يكتفي بعقوبة النفي وتحديد الإقامة في المنفى لهم.

وفي آب ١٨٩٦م خططت جمعية الاتحاد والترقي لحركة الانقلاب، ولكن المؤامرة افتضحت قبل يوم فقط من ساعة الصفر فألقي القبض على جميع المشتركين في المؤامرة وأودعوا السجن.

فما المنتظر الآن من السلطان تجاه جماعة يضبطهم متلبسين بمؤامرات الواحدة تلو الأخرى وفي فترات متقاربة للإحاطة به.

من حاكم فردي ديكتاتوري وسفاح أشاع عنه نفس هؤلاء المقبوض عليهم بأنه قاتل وسفاك وأنه في وسوسة دائمة على عرشه وعلى حياته.

وللمرة الثالثة يصدر السلطان أحكاماً مخففة جداً، إذ يكتفي بنفي جماعة منهم وتحديد إقامتهم في مدن مختلفة من البلاد، وتبديل وظائف جماعة أخرى، ولم يصدر أي حكم بالإعدام لأي شخص منهم.(٥٣)

إن الإعفاء والنفي اللذين أصدرهما السلطان بحق أولئك المتآمرين جعل الدكتور (جلال يحي) صاحب كتاب (العالم العربي الحديث) وهو من المتحاملين على السلطان يتعجب من عمل السلطان فيقول: "ولا يفهم المؤرخ كيف يحكم السلطان عبدالحميد (الطاغية الأحمر) على هذه الجماعة بالنفي بدل أن يسفك دمائها بعد وصول خبر مؤامراتها إليه"(٥٤).

وختاماً :

فإننا نتساءل : كم كان السلطان عبدالحميد متهماً ومظلوماً إلى تلك الدرجة عندما وصفوه بتلك الصفات التي لا تليق بأي إنسان؟ فما بالها تطلق على سلطان المسلمين؟

لا شك أن المواقف التي وقفها السلطان تجاه الخارجين والناقمين عليه لتدل وبكل فخر أنه سلطان لا تهزه الحوادث ولا يعتريه الضعف،بل وقف منها موقفا صلبا شامخا، ولو كان في مكانه أي حاكم آخر لم يسعه يعمل أكثر مما عمله السلطان الذي لو ترك الأمور تسير علي طبيعتها لما استطاع أن يحفظ دولته التي ائتمن عليها خلال فترة حكمه، وإن كل ما اتهم به من أوصاف إنما كان مرده أساسا للحقد، الحقد على الإسلام أولا، والحقد على الأتراك العثمانيين، ثانيا. أما الإساءة إلى شخص السلطان والافتراء عليه فإنما هو لفشل أولئك الأشخاص الأعداء في تدميره والقضاء عليه في عصره،ولذلك عندما فشلوا عمدوا إلى الإساءة والافتراء على خليفة المسلمين.

وإذا كان كثيرون وصفوا السلطان عبدالحميد بما وصفوه ونعتوه بالنعوت التي ذكرناها سابقا وبغيرها من النعوت لتشويه سمعته وسيرته، ممن انطلت عليهم ألاعيب الاستعمار والصهيونية، والماسونية، وعبيدهم، أو من الحاقدين وأعداء الأمة الإسلامية .فإن ذلك لم يمنع من وصف السلطان بما كان يتصف به فعلا- وحقيقة- من صفات حميدة حسنة وذلك إظهار للحقيقة التاريخية واعترافا بفضله وحكمته وحسن سيرته وسياسته وبما قام به من أعمال جليلة في سبيل رفعة وتقدم وازدهار دولته وشعبه والدولة الإسلامية في وقت حرج وزمن صعب ومعقد.

من أقوال المنصفين وشهادتهم:

❖ إن السلطان عبدالحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ العصر لرجحهم ذكاء ودهاء.

السيد جمال الدين الأفغاني،داعية من دعاة الوحدة الإسلامية

❖ عرفوا السلطان عبدالحميد في أوروبا بأنه رجل مريض،واعتقد أن الحكم العادل لصالحه لم يصدر بعد.

بسمارك (السياسي الألماني)

❖ السلطان الغازي عبدالحميد خان،أمير المؤمنين خليفة الرسول الكريم، من نفتخر بوجوده ونرتع في ظلال عدله.. ولازال مبتهجا به الزمان، مطفئا بطلعته النيران، مزيناً به عرش الخلافة الإسلامية، مفتخراً بآثار جلالته للأمة العثمانية.

السيد محمد عارف الحسيني (إمام الشافعية في الشام)

❖ قلنا: إن السلطان ظالم، وإن السلطان مجنون، قلنا: لابد من الثورة على السلطان، وصدقنا ما قاله لنا الشيطان، فثرنا، وأيقظنا الفتنة النائمة. ولم تكن أنت يا أعظم سياسيي العصر مجنوناً، بل كنا نحن المجانين ولم نكن ندري، لم نكن مجانين فحسب، بل كنا أنذالاً أشراراً حَرموا الأخلاق الطيبة.

د. رضا توفيق، (فيلسوف الاتحاد والترقي)

❖ أتعرف يا جمال ما هي مصيبتنا؟ قمنا بالانقلاب ونحن آلة في يد الصهيونية ولم نكن ندري.. كنا أغبياء [٥٥]

أنور (من كبار الثوار ضد السلطان عبدالحميد)

. وأخيرً فلسنا بصدد جعل السلطان عبدالحميد معصوماً من الخطأ ومبرأ من الأغلاط، ولكن حسبنا أن يعلم الناس بصورة عامة والمسلمون بصورة خاصة أن هذا العرض الذي ذكرناه عن حياته وسيرته قد كشف وجه الحقيقة في أمر هذا السلطان المسلم الذي شوهو تاريخه طويلاً.

التوصيات:

١. دراسة سيرة قادتنا ومعرفة سيرهم وعلى رأسهم القائد الأعظم سيدنا ونبينا محمد والاقتداء بهم والسير على منهجهم في جميع نواحي حياتنا اليومية.

٢. الاعتزاز بهويتنا العربية الإسلامية، فليس ضعف الأمة وقوتها فيما تملك من وسائل مادية- وإن كان على المسلمين أن يملكوها- فالقوة الحقيقية هي في القوة الذاتية في الإبداع والابتكار.

٣. النظرة التأملية من وزارة التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي، إلى ما دسّ في الكتب المدرسية المقررة وبخاصة كتب التاريخ التي انفردت بسرد الحوادث دون النظر إلى استخلاص العبر والعظات، بأن يزيلوا كل ما فيه طعن للإسلام وقادته حتى لو كان كلمة أو مصطلحاً أصبح بمنزلة المسلمات التي رددتها كتب المدارس وأبحاث الجامعات ومقالات الصحف خصوصاً ما شاع منها على أنها التصور الحقيقي للأمور.

٤. تطوير مناهج وأقسام التاريخ بما يوازي قسم الإستشراق في جامعات الغرب للرد علي أغاليط الإستشراق ولتساعد على تكوين كوادر علمية قادرة على فهم

الغرب، مع التمكن من العلوم الشرعية، بحيث تكون علاقاتنا مع الغرب خاضعة للمعايير الإسلامية.

ومن ذلك دراسة اللغات الأوروبية ودراسة الصحافة الغربية مثل ما قامت به بعض الجامعات الأوروبية جامعة نيويورك، في إدخال دراسات لقسم الشرق الأوسط، حيث تكون مناسبة للخريجين ليعملوا في بعض المجالات المتعلقة بتلك الثقافات بعد تخرجهم، كالعمل في مجال الإعلام الخارجي أو كمراسل في الغرب الأوروبي.

٥. السعي لتكون لنا وسائل إعلام عالمية قوية هدفها توضيح الصورة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين، ولما كان عليه سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين – وليس كما هو حال المسلمين الآن، إذ فليس العيب في الإسلام بل في المسلمين أنفسهم.

٦. ما دام الفكر الغربي وثقافته قد دخلا إلى عالمنا العربي والإسلامي من خلال الإعلام، ومن خلال المناهج الدراسية، فلماذا لا نعرف هذا الغرب على تلك الحقائق أو نصححها له بالوسيلة نفسها التي دخل إلينا منها وذلك من خلال مواد علمية خاصة لعرض الإسلام بالطريقة التي يفهمها الغرب، كما قيل (وبضدها تتميز الأشياء).

٧. العمل بكل الوسائل لنشر الدين الإسلامي حتى يصل إلى كل فرد في العالم، مثل إعداد مجلات عربية للدراسات الغربية، والحضور القوي في المؤتمرات والندوات التي تعقد في الغرب ليصل الصوت الإسلامي قوياً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

الهوامش

1) سورة الممتحنة:٤.
2) السلطان عبدالحميد خان:هو السلطان الحادي والثلاثون في سلسلة سلاطين بني عثمان،ولد في ١٤شعبان ١٢٣٧/٦آيار ١٨٢٢م، تولي أمر السلطنة وعمره سبعة عشرة سنة،شهد مؤتمر لندن ومعاهدة ١٥تموز ١٨٤٠م بين محمد على باشا والدول الاوروبية من أجل عودته إلي حدوده الأولي. وفي عهده اندلعت المذابح بين الكاثوليك الموارنة والدروز في لبنان،كما نشبت حرب القرم عام ١٨٥٣م، توفي في ٦حزيران ١٨٦١م.يعتبر هو ?أول من دعا إلي التفرنج والإنحلال،ذلك بعد الأنتهاء من حرب القرم سنة١٨٥٥م التي دامت ما يقرب من ٣سنوات، ذلك ليعن عن حبه للرقي والتقدم.
لمزيد من التفاصيل عن السلطان عبدالحميد، أنظر:محمد فريدبك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية،تحقيق إحسان حقي، الطبعة الأولي ١٩٨١م، دار النفائس، بيروت، ص٤٥٥-٥٢٩. محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م، ص٢٦.
3) ولد السلطان مراد الخامس عام ١٨٤٠، وتولي السلطنة وعمره ٣٦لاسنة وتوفي عام ١٩٠٤، وكان علي صلة قوية بأعضاء تركيا الفتاة ويعاونهم ماديا ومعنويا، ودخل الماسونية عن طريق ولي عهد إنجلترا فترة وجوده في لندن. وكان مغرما بالموسيقي محباً لها، ويجيد اللغة الفرنسية. مكث في الحكم ٩٣ يوما فقط لم يخرج للشعب منها يوما. لمزيد من التفاصيل انظر:أورخان محمد علي :السلطان عبدالحميد، الطبعة الأولي ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، دار الأنبار،العراق، ص ٧٧-٨٠.
4) أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده،ص٨٣-٨٥. يوسف حسين عمر،أسباب خلع السلطان عبدالحميد الثاني ١٨٧٦م-١٩٠٩م،١٤٢١هـ/٢٠٠١م،إربد الأردن، ص:٩-١٠. محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص:٢٨.
5) كان أحمد صائب صاحب كتاب (أوائل سلطنة عبدالحميد) الذي أصدره في مصر،أول من روج هذه الشائعة عنه.
6) مع أن تقاطيع وجه السلطان تعد نموذجا جيدا لسلالة آل عثمان، فكان السلطان عبدالحميد متوسط القامة، يميل شعر الرأس إلا في قمتها، وكان محدب الأنف بالشكل الذي يحمل سمة بني عثمان،وعيناه بين الزرقة والخضرة تحيط بهما بعض الحلقات، وكانت نظراته تنم عن الذكاء والحساسية،كما كان صوته جهوريا قويا ، قادرا علي شرح أفكاره بأفصح عبارة
عائشة عثمان أوغلي: والدي السلطان عبدالحميد الثاني، نقلها إلي العربية د/صالح سعداوي صالح، دار البشير:عمان- الأردن،ط الأولي،١٤١١هـ/١٩٩١م،ص:٦٣.

7) إن جزاء أية شبهة أو أي شك في نسب المولود كان القتل الفوري للمولود وللزوجة أيضا،وليس مجرد تأخير الأعتراف مدة اسبوع واحد.
أورخان محمد علي :نفس المرجع،ص:٨٤،هامش(٩١).
8) أورخان محمد علي:مرجع سابق،ص:٨٥.عبدالله أحمد حسين:السلطان عبدالحميد طاغية وليس خليفة،مجلة العربي،العدد ١٧٨-سبتمبر ١٩٧٣م،ص:١.
9) أورخان محمد علي:السلطان عبدالحميد،ص٨٦-٨٩.عمر فاروق يلماز.السلطان عبدالحميد خان الثاني بالوثائق، ترجمة طارق عبد الجليل السيد،مراجعة أ.د/الصفصافي أحمد المرسي،دار نشر عثمانلي استانبول،ب ت،ص:٢٥-٢٨. يوسف حسين عمر:أسباب خلع السلطان عبدالحميد،ص:١١-١٧،محمد حرب:السلطان عبدالحميدالثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار،دار القلم بدمشق،ط الأولي ١٤١٠هـ/١٩٩٠م،ص:٦٥-٦٧.
10) عمر فاروق يلماز: السلطان عبدالحميد الثاني بالوثائق، ص: ٣٠. محمد حرب: السلطان عبدالحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، ص : ٣٤-٥١.
11) اصطلاح الرجل المريض: تعبير لم يكن ترجمة حقيقية لوضع العلاقة العثمانية قبل السقوط، وإنما هو مجرد دعاية يهودية خرجت من داخل تركيا لقتل كل أمل يؤمله المسلمون في توحيد صفوفهم لأنهم إخوة (إنما المؤمنون إخوة)- وأنهم سيكونون يداً واحدة تجاه المصاعب والمصائب التى يخلقها الغرب لهم، ويعملون على البناء في الداخل، وقد نجحت الصهيونية في ذلك، لأن المسلمين لم يبق لهم ذلك (الأمل) في القوة والازدهار بالاعتماد على رجل مريض معرض للموت في كل لحظة ولذلك حاول كل شعب وكل حزب وجمعية الفوز بنصيب الأسد، أما الدول الاستعمارية فحدث ولا حرج عن نصيب كل منها من (حلى وجواهر وكنوز وبيت) ذلك الرجل المريض.
محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد الثاني، دار الفكر ، دمشق، ٢٠٠٤، ص: ٢٧، هامش (٢).
12) الحرب الروسية العثمانية (١٦٩٦-١٨٧٨م): سلسلة من الحروب أعلنتها روسيا ضد تركيا في سبيل التوسع، بدأها بطرس الأول الأكبر في محاولة لفتح القوقاس وانتزاع أجزاء من الدولة العثمانية والسيطرة على دول البلقان المسيحية. حققت كاترين الثاني انتصارات و اسعة ١٧٦٨م – ١٧٧٤م – ١٧٨٧-١٧٩١م، واستولت على شبه جزيرة القرم، ضم اسكندر الأول بسارابيا في حرب ١٨٠٦-١٨١٢م شاركت في حرب القرم ١٨٥٤-١٨٥٦م فرنسا وانكلترا حليفتا تركيا، فكانت معاهدة باريس نكسة لروسيا، وبعد حرب ١٨٧٧-١٨٧٨م عقد مؤتمر برلين الذي انتزع من روسيا بعض مكاسبها.
المنجد: في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط٣٤، ١٩٤٤م ، ص٢١٩. لوثروب

ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، دار الفكر ب .ت، مجلد ١، ح١، ص:٣٠٩.
13) عمر فاروق يلماز: نفس المرجع ، ص:٣٠.
14) محمد قربان نياز ملا: السلطان عبدالحميد وأثره في نشر الدعوة الإسلامية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٨هـ، ص: ٨١-٨٣.
15) محمد قربان : السلطان عبدالحميد، ص: ٧٩.
16) محمد قربان: نفس المرجع، ص :٨٣.
17) محمد قربان: نفس المرجع، ص : ٨٤.
18) محمد قربان: نفس المرجع، ص : ٨٥.
19) محمد قربان : السلطان عبدالحميد، ص: ١٨٨.
20) الحرم يعني المحرم: وهن ما لاينبغي لأجنبي أن يراهم كزوجة السلطان وبناته وأخواته وأمه.. الخ، حيث تقوم الخادمات بخدمتهن، وهو جزء مستقل عن باقي القصر، والحرم
21) السلطان إبراهيم ١٦٤٠-١٦٤٨م: كان السلطان مسترسلا إلى شهواته، فتقاد إليه جواريه الحسان يفعل لهن ما يشأن، فاستنزفن خزانة السلطنة، وكثر القال والقيل، فعزم السلطان على البطش بقواد الإنكشارية، فتجمعوا، وانضم إليهم العلماء وقرروا خلع السلطان، ومبايعة أبنه محمد الرابع – وهو طفل – لمزيد من المعلومات. أنظر: شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ص٢٤٤-٢٢٥.
22) محمد الهلالي : السلطان عبدالحميد، ص:١٣٠.
23) محمد الهلالي : نفس المرجع السابق، ص:١٣٦.
24) أورخان: السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده، ص:٩٣. محمد قربان: السلطان عبدالحميد وأثره في نشر الدعوة الإسلامية، ص ٢١٢.
25) محمد الهلالي : نفس المرجع ، ص:١٣٦.
26) محمد قربان: نفس المرجع، ص: ٥٢، ٩٧، ٢١٦.
27) محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد الثاني، ص: ٤٥-١٣٨. محمد قربان: السلطان عبدالحميد وأثره في نشر الدعوة الإسلامية، ص١٢١-١٤١.
28) الحروب اليونانية: هذه الحرب هي الثانية في عهد السلطان عبدالحميد، وكان من أسبابها أن جزيرة كريت كانت قد حصلت على بعض الامتيازات الخاصة، بحيث أصبح نصف عدد المتصرفين من المسيحيين، كما كان للوالي معاونان أحدهما مسلم والآخر مسيحي، وكان لها مجلس إدارة يشكل المسيحيين فيه الأكثرية، لذا فإن المشاكل بين الوالي وهذا المجلس لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد.

بدأت القلاقل في الجزيرة بعد أن طالب مسيحيوها أن يتولى مسيحي ولاية الجزيرة، ولما

استجاب السلطان ثار المسلمون على هذا التعيين، وبدأت الصدامات، بحيث تدخلت اليونان بإمداد مسلحي الجزيرة بالمال والعتاد لضم الجزيرة إليها، ولكن السلطان تمكن من إنزال الهزيمة باليونانيين، وانتهت الحرب بالتوصل إلى تسوية بين الطرفين كانت لصالح الدولة العثمانية، أنظر يوسف حسين عمر: أسباب خلع السلطان، ص٩٣.

29) محمد الهلالي : نفس المرجع ، ص:١٣٨.

30) محمد الهلالي : نفس المرجع ، ص:١٣٩.

31) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس وآخر، دار العلم للملايين بيروت، ط الأولى، ١٩٤٨م، ص: ٥٩١.

32) محمد قربان: السلطان عبدالحميد، ص:٢٠٥.

33) يروى أن علماء البعثة الإنجليزية قالوا له بأن الغاية من البعثة علمية تاريخية، وستغير كثيراً من المعلومات التاريخية. ثم توجهت البعثة إلى الموصل وبغداد، بحجة التنقيب عن الآثار، وبعد فترة أرسلوا إلى السلطان بعض التماثيل والنقود القديمة، كما أرسلوا سيفاً قديما لايهامه أنهم بالفعل ينقبون عن الآثار، ولكن تبين فيما بعد بأن السيف وبقية الآثار هي حديثة الصنع، مما دعا السلطان إلى طردهم من الأراضي العثمانية.
محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد، ص: ١٤١-١٤٢، هامش (٢).

34) أنظر ص : ٣٦٥.

35) حاضر العالم الإسلامي ، (٣٠٨/١).

36) السلطان عبدالحميد، ص: ١٤٤.

37) محمد الهلالي: نفس المرجع ، ص: ١٤٨.

38) شغل تحسين باشا منصب رئيس الكتاب في قصر يلدز لمدة تزيد على عشر سنوات.
أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد، ص: ١٦٠، هامش (٨٩).

39) أورخان محمد علي: نفس المرجع، ص: ١٦٠-١٦١.

40) عرض هرتزل وغيره من زعماء الصهاينة والماسونيين على السلطان عبدالحميد قروضاً مالية طويلة الأجل ومشروعات لإنعاش الاقتصاد العثماني المتأزم، وعرضوا عليه التدخل لدى روسيا وبريطانيا لكف أيديهما عن إثارة الأقليات في كل مكان ... وكانت هذه بالذات من أشد ما يستخدمه الأعداء لإجهاد الدولة وعدم اعطائها الفرصة لالتقاط أنفاسها. وكان رد عبدالحميد حاسماً ناصعاً عمل كما ينبغي للقائد المسلم أن يكون.
وللمزيد أنظر: أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، مؤسسة الرسالة دار البشير، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ١١٢-١٥٥.

41) محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد، ص١٤٧. محمد قطب: واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة

للصحافة والطباعة، جدة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٧٨م، ص٣٨٢.

42) أنظر ، ص: ٣٦٥.

43) محمد الهلالي: نفس المرجع، ص١٥١.

44) من المشاكل التي أشغلت بال السلطان وأثقلت خزينة آل عثمان بما صرف لدرء مفاسد الأرمن، وترجع أساس فتنتهم إلى أنهم كانت لهم في العصر القديم دولة وكان لهم استقلال وكانت مملكتهم واقعة شرقي الأناضول – بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسية – ولما سيطر الأتراك السلاجقة على تلك البلاد رحل قسم منهم إلى غرب الأناضول، وأصبح الأرمن في الشرق والغرب لا يشكلون أكثرية عددية بالنسبة إلى السكان المسلمين. فلما ظهر ضعف السلطنة العثمانية صار الأرمن يرفعون رؤوسهم وينتهزون الفرص ليطالبوا بتجديد ملكهم القديم، وزاد هذا الأمر شباب الأرمن العائدون من الدراسة في أوروبا فقد كانوا يعودون متشبعين بروح الانفصال عن الدولة. وكان بتمويل روسي من أجل خدمة المطامع الروسية.

لمزيد من التفاصيل أنظر محمد قربان: السلطان عبدالحميد، ص ٥٣. كذلك أنظر موفق بني مرجه: صحوة الرجل المريض، دار البيارق بيروت، ط الأولى١٤٠٤هـ/١٩٨٤م – الطبعة الثامنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص:٢٣.

45) محمد الهلالي: نفس المرجع ، ص: ١٥١.

46) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: ٥٩٦.

47) محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد، ص: ٥٢.

48) مدحت باشا: من يهود الدونمه، اشتهر بالمكر والخداع والدهاء فوصل إلي أعلي مناصب الدولة ليكون أقوي يهودي يتمكن من بذر الفتن في الدولة العثمانية متظاهراً بالإسلام ومبطنا يهوديته الحاقدة الماكرة، وأصبح مدحت الوزير الأول في الدولة، ورجل تركيا العصري الذي كان محبوبا حتي في البلقان ذاتها، كما لقب مدحت باشا بـ (أبو الدستور)، لأنه كان المفكر في وضع الدستور الذي يعرف (بالحكم النيابي علي الطراز الحديث، حيث تحكم الامة نفسها بنفسها، مع حفظ حقوق الخليفة الأعظم، وتتضافر علي إنفاذ مضمون الدستور حرفا حرفا) وقد سمي الأتراك هذا الدستور باسم (القانون الأساسي) كما اصطلحوا علي تسمية (العهد الدستوري) ب(عهد المشروطية)، وقد وافق علي هذا السلطان عبدالحميد.

وكانت طريقة عبدالحميد في قبول الدستور تكشف عن مواهبه كسياسي بارع، فقد أعلن عن استعداده ليرأس جمعية الأتحاد والترقي ولكنه قنع بقبول العضوية العادية عندما أبانت له اللجنة المركزية للحزب بأن الأعضاء كلهم يتساوون، وأكثر من ذلك أنه أخرج عن طريقه الأعتيادي ليثبت أنه أشد الأعضاء إخلاصا للحزب، فاستطاع عبدالحميد بذكائه أن يحول

حماس الجماعة عن مجراها الأصلي إلي أوروبا، واستعمل كل حيلة ودهاء ليؤكد للدستوريين أنه أصبح دستوريا أكثر منهم، ولكنه رد علي إعلان الدستور بأن سعي سرا في تأليف جمعية باسم (الجمعية المحمدية مشكلة من الأشراف والعلماء مرماها بأن الشوري تعمم المساواة بالعباد علي مبدأ الشريعة المطهرة، فأقبل الناس علي الدخول فيها، وفي مدة قليلة تألف لها شعب من عموم الولايات العثمانية، وقامت في أول أعمالها في يوم المولد النبوي بتجمهر أمام الباب العالي مطالبين بالشريعة الإسلامية) فكان الذكاء والدهاء الذي اتصف به السلطان جعل هؤلاء الذين فشلوا في إحداث مدخل سياسة السلطان يكيلون له التهم المغرضة لينالوا من شخصة أولا ومن ثم زحزحته عن الحكم ليولوا سلطاناً يسايرهم ويتمشي مع هو أهم لمزيد من المعلومات انظر محمد قربان: السلطان عبدالحميد، ص: ٤٨-٥٨.

49) محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد،ص:٥٧.

50) محمد قربان: السلطان عبدالحميد، ص: ٢٠٦.

51) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ب.ت ٨٤٢/٢.علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص٢٣٣.

52) عندما حكمت المحكمة بالإعدام علي مدحت باشا بعد ثبوت الجريمة التي قام بها وهي اشتراكه في قتل السلطان عبدالعزيز تمهل السلطان عبدالحميد في المصادقة علي هذه الأحكام، فشكل لجنة مؤلفة من ٢٥ شخصا من كبار الدولة وعلمائها مدنيين وعسكريين وخوّل هذه اللجنة صلاحية تصديق أو تعديل هذه الأحكام . وقد صوت(١٥) عضوا من هذه اللجنة بالتصديق علي أحكام الإعدام بينما صوت الباقون(وهم عشرة)علي تخفيف هذه الأحكام إلي أن الأكثرية صادقت علي قرار الإعدام. ومع ذلك فإن السلطان عبدالحميد خفف أحكام الإعدام إلي السجن المؤبد علي عادته في الأبتعاد عن إزهاق الأرواح وسيق المحكومون إلي سجن الطائف في غرة رمضان سنة١٢٩٩هـ/٨تموز ١٨٨١م. أورخان محمد علي: السلطان عبد الحميد، ص: ١٨٦-١٨٧.

53) أورخان محمد علي: سلطان الدولة العثمانية، ص ٢٧٠-٢٧٧.

54) محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد ، ص ١٥٥-١٥٦.

55) محمد pزب: السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، ص:٢٩١-٢٩٢.

المصادر والمراجع

- أحمد النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد حياته وأحداث عهده، دار الأنبار، العراق، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية/ نقله إلى العربية أمين فارس وآخر، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٤٨م.
- شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ.
- عائشة عثمان أوغلي: والدي السلطان عبدالحميد الثاني، نقلها إلى العربية د/ صالح سعداوي صالح، دار البشير، عمان، الأردن، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ب.ت.
- علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤١٥هـ/١٩٩٢م.
- عمر فاروق يلماز: السلطان عبدالحميد خان الثاني بالوثائق، ترجمة طارق عبدالجليل السيد، مراجعة أ.د/الصفصافي أحمد المرسي، دار نشر عثمانلي، اسطنبول، ب.ت.
- لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، تعليق شكيب أرسلان، دار الفكر العربي، ب.ت.
- محمد الهلالي: السلطان عبدالحميد، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م.
- محمد حرب: السلطان عبدالحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم بدمشق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق/ إحسان حقي،

ط١، ١٩٨١م، دار النفائس، بيروت.
- محمد قربان نياز ملا: السلطان عبدالحميد وأثره في نشر الدعوة الإسلامية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.
- محمد قطب: واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- موفق بني المرجه: صحوة الرجل المريض، دار البيارق، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، الطبعة الثامنة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- يوسف حسين عمر: أسباب خلع السلطان عبدالحميد، ١٨٧٦هـ/١٩٠٩م-١٤٢١هـ/٢٠٠١م، إربد، الأردن.

الدوريات:

- عبدالله أحمد حسين: السلطان عبدالحميد طاغية وليس خليفة، مجلة العربي، العدد ١٧٨ - سبتمبر ١٩٧٣م.
- المنجد : في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٤م.

الحرب الجزائرية الأمريكية

(١٧٨٥-١٨١٦)

د.محمد فؤاد خليل
أستاذ التاريخ الحديث و المعاصر المساعد
بكلية الآداب-جامعة الفيوم

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة الحرب التى دارت بين ولاية الجزائر العثمانية والولايات المتحدة الأمريكية فى نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر(١٧٨٥-١٨١٦) والتى تعرف فى المصادر الأمريكية بحرب الجزائر المنسية " .The Forgotten American - Algerian War"

و ترجع أهمية هذا الموضوع إلى أنه يرصد بداية العدوان العسكرى الأمريكى على العالم العربى فى العصر الحديث، فلقد كان من الملفت للنظر حقاً أن تستهل الدولة الأمريكية الناشئة علاقاتها بالعالم العربى بالعدوان على الولايات العثمانية فى منطقة المغرب العربى، تلك الولايات التى عاملتها حكومة الاتحاد الأمريكى على أنها مجموعة من البلدان المارقة عن المجتمع الدولى فى عالم القرن الثامن عشر، فسارت تعرف فى الأوساط الدبلوماسية الأمريكية فى ذلك الحين بالبلدان البربرية .

وهذا ما دفع الباحث إلى دراسة الموضوع المطروح للتوصل إلى أسباب هذه البداية العدائية للعلاقات العربية الأمريكية المبكرة، و معرفة دوافعها و نتائجها على المديين القريب و البعيد، خصوصاً وأن هذه العلاقات المتأزمة بين الطرفين لم تكد تنته بمعاهدة صلح فى عامى ١٨١٥و١٨١٦، حتى بدأ الحصار البحرى الفرنسى للجزائر فى عام١٨٢٧، والذى انتهى باحتلالها فى عام١٨٣٠،وكان لذلك مدلولات خطيرة ترتبط بشكل وثيق بمرحلة الصراع الجزائرى - الأمريكى محل البحث.

و يمكننا تقسيم الحرب الجزائرية الأمريكية إلى مرحلتين رئيسيتين على النحو التالى:

- المرحلة الأولى (١٧٨٥-١٧٩٥) : و شهدت بداية الحرب بين الطرفين و التى امتدت لعشر سنوات فى صورة حملات عسكرية بحرية أمريكية ضد الأسطول الجزائرى فى حوض البحر المتوسط، و تنتهى هذه المرحلة بتوقيع معاهدة السلام بين الطرفين فى عام١٧٩٥.
- المرحلة الثانية (١٨١٥-١٨١٦) : و شهدت مرحلة الحسم العسكرى بين القوتين بعد مرحلة السلام بينهما والتى امتدت لعشرين عام، و تنتهى هذه المرحلة بتوقيع معاهدة جديدة للسلام بين الطرفين فى عام ١٨١٥، عدلت فى العام التالى ١٨١٦.

على أية حال فسوف تعتمد هذه الدراسة بصفة أساسية على الوثائق الأمريكية الخاصة بالجزائر فى تلك الفترة و المحفوظة فى كل من :

- مكتبة الكونجرس -Library of Congress
- وزارة الخارجية -Department of State
- وزارة البحرية -Department of Navy

وهى كما يلى :

١- الوثائق الخاصة بالرؤساء الأمريكيين خلال فترة الدراسة .

٢- التقارير المتبادلة بين قادة الاسطول الأمريكى فى البحر المتوسط ووزارة البحرية الأمريكية.

٣- التقارير المتبادلة بين القناصل الأمريكيين فى مرسيليا ونانت و طولون و الجزائرو مدريد ومكتب الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى.

٤- الخطابات المتبادلة بين الرؤساء الأمريكيين و دايات الجزائر.

٥- مجموعة المعاهدات و الاتفاقيات الدولية بين الولايات المتحدة و دول العالم، والتى أصدرتها وزارة الخارجية الأمريكية فى عدة مجلدات فى عام ١٩١٠.

كما تعتمد الدراسة على عدد كبير من المراجع العربية و الأجنبية الحديثة التى تساهم فى إبراز الحقائق التاريخية المتعلقة بالموضوع.

****

كانت معركة ليبانتو(أوليبانت) البحرية التاريخية الحاسمة بين الأساطيل الأوروبية والأسطول العثماني في عام ١٥٧١ ذات نتائج خطيرة للغاية، ليس فقط على الدولة العثمانية وإنما على ولاياتها أيضاً، وبصفة خاصة ولايات منطقة المغرب العربي، فلقد زالت الرهبة من الدولة العثمانية لدى دول أوروبا، بعد كانت قوتها العسكرية البحرية الضخمة محل فزع لأعدائها و أحد أسباب انتصاراتها، و هذا كان يعني اختلال ميزان القوة البحرية في منطقة حوض البحر المتوسط لصالح أوروبا[١] كما كان من نتائج ليبانتو ضعف سلطة الدولة العثمانية على ولاياتها مما أدى إلى ظهور قوى محلية جديدة نافست سلطة الوالي العثماني في هذه الولايات.

ففي الجزائر تميزت الفترة الممتدة من عام ١٥٨٨ إلى عام ١٦٥٩ بالصراع بين ثلاث قوى رئيسية هي الباشا العثماني والانكشارية وأمراء البحر من الوطنيين، واتفقت المجموعتان الأخيرتان ضد الباشا، وهو ما أضعف نفوذه و من ثم نفوذ الدولة العثمانية في الجزائر.

وفي عام ١٦٥٩ تم خلع الباشا العثماني و انتخاب الداي رئيس الديوان – والذي كان أشبه برئيس الوزراء – حاكماً على الولاية، مما أدى إلى تحكم الجند ورؤساء البحر في الدايات منذ ذلك الحين، وأصبح الدايات عرضة للانقلابات والقتل منذ بداية مرحلة حكمهم في عام ١٦٧١، فقتل منهم نحو ستة عشر دايا[٢] مما كان يدل على عدم استقرار النظام السياسي في الجزائر في تلك الفترة.

وعلى الرغم من أن الولاية الجزائرية قد صارت في منتصف القرن السابع عشر قوة سياسية وعسكرية شبه مستقلة عن الدولة العثمانية، إلا أن أهم نتيجة سلبية لهذا الاستقلال كانت هي تجرؤ دول أوروبا والولايات المتحدة عليها وعلى الولايتين العثمانيتين الأخرتين في منطقة المغرب العربي وهما طرابلس وتونس،فعملت باستمرار للسيطرة عليها .

وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت هذه الولايات العثمانية الثلاث قد تبوأت مكانتها نتيجة للصراع البحري المستمر مع القوى الاستعمارية الأوروبية، وأصبحت الجزائر أكبر الولايات العثمانية الثلاث في منطقة المغرب العربي من

الناحيتين السياسية و العسكرية، و تحملت معهما العبء الأكبرفي الدفاع عن المنطقة[٣] وصار أسطولها البحرى الحربى يمثل تحدياً كبيراً لأكبر الأساطيل الأوروبية، التى كانت ترغب فى تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة أوروبية.

و لقد كانت هناك ثلاث قوى دولية اثنتان أوروبيتان و الثالثة أمريكية معنية بالحفاظ على مصالحها التجارية فى منطقة حوض البحر المتوسط فى تلك الفترة، لدرجة تبنيها لسياسة الصراع العسكرى مع بلدان المغرب العربى إذا تطلب الأمر ذلك، وهذه القوى الثلاث هى الدانمرك و السويد و الولايات المتحدة، فأما الدانمرك و السويد فلم تكونا تمتلكان الأسطول الحربى القوى لحسم الصراع فى المنطقة[٤] وهكذا انفردت الولايات المتحدة بالتدخل العسكرى المباشر فى المنطقة مستفيدة من امتلاكها اسطولاً بحرياً متمرساً فى الصراع مع الدول الأوروبية الكبرى فى أمريكا الشمالية[٥] ومستغلة انشغال دول أوروبا بالثورة الفرنسية و حروبها [٦].

و قد بدأ الصدام العسكرى الأمريكى الجزائرى الأول فى عام ١٧٨٣، عندما قام الأسطول الحربى الجزائرى بالاستيلاء على سفينتين أمريكيتين وأسر جميع ركابها بالقرب من السواحل المراكشية جهة المحيط الأطلنطى، مما جعل الحكومة و الشعب الأمريكيين ينظران للأمر على أنه كارثة قومية[٧].

ذلك على الرغم من أن النظرة الجزائرية للأمر لم تتعد كون العملية تأتى ضمن العمليات الجهادية المنتشرة فى المنطقة- والتى لم يعتبرها رجال البحر فى الجزائر بمثابة أعمال قرصنة بحرية كما كانت تظن دول أوروبا - ضد إحدى دول دار الحرب (أو دار الكفر) وفقا للأيديولوجية الجهادية العثمانية، و التى سادت فى بلدان المغرب العربى الأخرى [٨] بعد ضعف الدولة العثمانيةعن القيام بواجبها الدينى و الجهادى فى المنطقة [٩].

و قد ظهرت الدعوة فى الولايات المتحدة للقيام بعمل عسكرى لتحرير الأسرى الأمريكيين فى السجون الجزائرية، من خلا ل غارة بحرية مشتركة مع الأسطول البرتغالى، حيث كانت البرتغال تخوض حرباً ضد الجزائر فى ذلك الحين، ولكن انتهاء الحرب بين البلدين بالصلح أدى إلى تغاضى الحكومة الأمريكية عن الفكرة[١٠].

و على الرغم من قوة الاتجاه الذى كان يفضل العمل العسكرى ضد الجزائر

داخل الولايات المتحدة، فلقد كانت الإدارة الأمريكية معنيــة باســتمرار التجــارة الأمريكية التى كانت تمر عبر سواحل بلدان الشمال الأفريقى إلى منطقــة الــشرق الأقصى، والتى قيل أنها كانت تقوم على نقل الأفيون-بطريقة سرية- إلى آسيا من خلال ميناء أزمير التركى[١١] و من ثم رأت الحكومة الأمريكية ضرورة الوصول إلى حل سلمى مع الجزائر و عقد معاهدة سلام معها ومع بقيــة بلــدان المغــرب العربى بدلاً من الدخول فى صراع عسكرى معهم[١٢] وخــصوصاً أن الأســطول الأمريكى لم يكن قد استكمل قوته الضاربة للقتال فى المناطق البعيدة عن المحــيط الأمريكى، و هكذا رجحت كفة لغة الدبلوماسية على لغة الحرب .

و فى عام ١٧٨٤ شكل الكونجرس الأمريكى لجنة برلمانية من أجل التفاوض على إبرام معاهدات سلام مع كل من مراكش و الجزائر و تونس و طرابس[١٣] وقد ضمت اللجنة ثلاث شخصيات أمريكية تاريخية هم جــون آدامــز John Adams وبنيــامين فــرانكلين Binjamin Franklin و جيفرســون Jifferson ، ومــنح الكونجرس اللجنة صلاحيات واسعة[١٤] و رصد لها مبلغ ثمانين ألــف(٨٠,٠٠٠) دولار أمريكى [١٥] لإنجاز مهمتها.

و فى العام التالى (١٧٨٥) أسفر عمل اللجنة عن إبــرام أول معاهــدة مــع سلطان مراكش سيدى محمد عرفت بمعاهدة الصداقة و التجارة، و ذلك فى مقابــل حصول السلطان على منحة سنوية تبلغ عشرة آلاف(١٠,٠٠٠)دولار أمريكــى[١٦] على أن يتولى حماية السفن التجارية الأمريكية المارة فى ميــاه مــراكش[١٧] مــع إعفائها من رسوم المرور(الترانزيت)[١٨].

ولقد فشلت هذه اللجنة فى عقد معاهدة مماثلة مع داى الجزائربابــا محمــد باشا(١٧٦٢-١٧٩١) بسبب المعلومات التى تلقتها الحكومة الأمريكية من أن الداى لن يقبل بأقل من ستة ملايين(٦,٠,٠,٠,٠,٠,٠) دولار أمريكــى كــثمن للــصلح معها[١٩] وهو مبلغ ضخم إذا تمت مقارنته بما قدمته لمراكش .

كما فشلت اللجنة أيضاً فى عقد معاهدة مع إيالة طرابلس [٢٠] وكذلك تــونس التى تأخرت الحكومة الأمريكية فى عقد معاهدة معها إلى عام ١٧٩٧ [٢١].

وبعد فشل المفاوضات بين و الداى محمد باشا و الولايات المتحدة بعد رفض الحكومة الأمريكية للمبلغ الضخم الذى طلبه كثمن للسلام، بدأت ولاية الجزائر فى

صيف عام١٧٨٥في الاستعداد لخوض غمار حرب بحرية ضد التجارة الأمريكية في البحر المتوسط،و يمثل ذلك بداية المرحلة الأولى من الحرب الجزائرية الأمريكية، والتي تميزت بأنها جاءت من جانب واحد فقط هو جانب الجزائر التي قررت إستباحة التجارة الأمريكية في البحر المتوسط .

و لم تكن الحكومة الأمريكية على إدراك بخطورة الموقف و تأزمه على هذا النحو، و لم تأخذ الأمر على نحو جاد إلا بعد حصولها على معلومات مفادها قيام باشا الجزائر بزيادة قوته البحرية الضاربة بصورة كبيرة و خطيرة تنم عن اتجاهه لخوض حرب ضد التجارة الأمريكية، فقد حصل قائد الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط القومادور دي ليجونديز De Ligondes- لدى عودته من المياه الجزائرية إلى طولون في صيف عام١٧٨٥ - على معلومات عسكرية هامة عن الجزائر، تتعلق بقيام الداي محمد بشراء أسلحة ومعدات حربية جديدة تمثلت في ثمان بوارج حربية تحمل من ١٨إلى٣٤ مدفعاً، و اعتقد القائد الأمريكي أنه قد تم تصميم هذه البوارج لأسر السفن الأمريكية في المنطقة، و طالب بسرعة إرسال هذه المعلومات إلى القادة العسكريين الأمريكيين (٢٢) .

على أية حال فقد أعلنت الجزائر الحرب رسمياً على الولايات المتحدة في ١٤يولية١٧٨٥، وجاء ذلك في برقية من دي سولنجيس De Soulanges -القنصل الأمريكي في ميناء طولون الفرنسي- إلى مكتب الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكي(٢٣) .

و في برقية من جون جاي John Jay - وزيرالشئون الخارجية الأمريكي- إلى مكتب الشئون الخارجية بالكونجرس في ١٣أكتوبر١٧٨٣، أعرب الوزير عن اعتقاده بأن إعلان الحرب من جانب الجزائريين قد أثبت أن فكرة عقد معاهدة معهم لم تكن أمراً مجدياً (على حد قوله) و أن هذا الإعلان سيؤدي إلى توحيد الشعب الأمريكي وتقويته، آملاً أن تقف البرتغال إلى جوار الولايات المتحدة في هذه الحرب (٢٤) .

وقد أظهرت الخطابات المتبادلة التي جرت بين كل من وزيري الخارجية والبحرية الأمريكيين من جهة، ورئيس الولايات المتحدة والكونجرس من جهة أخرى، وجود حالة من الترقب والتحدي معاً لدى المسئولين الأمريكيين من إعلان

الجزائريين الحرب ضدهم، وإصرارهم على مرور التجارة الأمريكية أمام الشواطئ الجزائرية تحت حماية سفن الأسطول الأمريكى، والاستعانة بكل من أسبانيا و البرتغال للمساعدة فى هذا الشأن، مع الحذرمن الرضوخ لما اعتبروه نوعاً من الابتزاز المالى الذى يمارسه حكام الجزائر ضد التجارة الأمريكية فى حوض البحر المتوسط(٢٥).

ففى برقية فى ٢٠أكتوبر١٧٨٥من جون جاى وزير الشئون الخارجية إلى الرئيس الأمريكى جورج واشنطونGeorge Washington جاء فيها ما يلى "........إن إعلان الحرب(من جانب الجزائر).............هو من أجل الحصول على غنائم ....و لن ترد الولايات المتحدة عليها بعروض للسلام............إنه لمن المشرف للولايات المتحدة ومن مصلحتها القيام بإجراءات فعالة لحماية التجارة الأمريكية و مواجهة أولئك الأعداء المتوحشين!!بصورة تامة "(٢٦)على حد قوله.

وعلى الرغم من هذا الخطاب الأمريكى المتشدد فلقد كان هناك نوع من التردد إزاء التورط فى حرب مع الجزائرو تغليب لغة الدبلوماسية بدلاً من لغة الحرب،و قد عبرعن ذلك جاى عندما اقترح فى برقيته تسليح السفن التجارية الأمريكية التى تمر عبر حوض البحر المتوسط تسليحاً جيداً بدلاًمن التدخل العسكرى المباشر، على أن يكون ذلك على نفقة الشركات التجارية الأمريكية التى ترغب فى التجارة فى هذه المناطق، و أوضح أن كل سفينة ستحتاج إلى حمل اثنى عشر مدفعاً تقوم الحكومة الأمريكية بتزويدها بها، بالإضافة إلى المؤن العسكرية و نفقة الرجال اللازمين للقيام بهذه الحماية، ولكنه عاد وتغاضى عن هذا الاقتراح(٢٧) .

و لم تجد الحكومة الأمريكية خياراً فى النهاية سوى التدخل العسكرى فى الجزائر، و قد طلب وزير البحرية الأمريكى بناء خمس و أربعين بارجة حربية للحرب ضد الجزائر ووضعها "تحت قيادة قائد متمرس و شجاع"(على حد قوله) . كما طلب جاى من الرئيس واشنطون إرسال مبعوث خاص إلى البرتغال لعقد حلف عسكرى بين الدولتين فى مواجهة الجزائر(٢٨).

كما أوصى جاى الرئيس واشنطون بالقيام بعملية حصار اقتصادى للجزائر تمهيداً للحصار البحرى المزمع القيام به،و اقترح إجراء اتصالات مع البلدان التى

فى حالة سلام مع الجزائر، و إقناعها بوقف تصدير أية منتجات إليها حيث قال:"من السياسة أن يتم منع كل الأمم التى فى حالة سلام مع الجزائر من نقل أى شئ إلى هذا البلد الذى لاينتج أى شئ بنفسه و لا إلى موانئه ..."[٢٩].

و قد تطورت الأحداث سريعاً فيما بعد و دفعت باتجاه حتمية الحرب بين البلدين، فبعد إعلان الجزائر الحرب استمرت فى تحديها للولايات المتحدة و اتخذت إجراءات استباقية لهذا الغرض،ففى ٢يناير١٧٨٦ تلقى مكتب الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى بالأسى أنباء قيام الأسطول الجزائرى بأسر سفينتين تجاريتين أمريكيتين وسكونة(وهى مركب شراعى ذو صاريتين أو أكثر) بجميع ركابهم و تم نقلهم إلى مدينة الجزائر[٣٠].

وقد زاد من حسرة المسئولين الأمريكيين المعلومات التى حصلوا عليها حول استغلال هؤلاء الأسرى الأمريكيين للعمل فى قصر الداى، وعلموا أنهم فى حالة سيئة-على حد وصف التقرير- وأنهم كانوايحصلون على حصة ضئيلة من الطعام و القوت اللازمين[٣١] على حد وصف التقرير .

كما علم المسئولون الأمريكيون أن القنصل البريطانى فى الجزائر تشارلز لوجيه Charles Logie قد تدخل لدى الداى بابا محمد، و افتدى بعض الأسرى الأمريكيين بمبلغ ستمائة جنيه إسترلينى واصطحبهم إلى منزله، كما تعهد القنصل أن يدفع عن كل واحد منهم مبلغ دولارين شهرياً للداى[٣٢] و لم يذكر التقرير إن كان هذا التدخل قد تم بالتنسيق بين الحكومتين الأمريكية و البريطانية، أم أنه كان بمبادرة شخصية من القنصل البريطانى .

و الواقع أن هذا الحادث لم يكن هو الأخير بين الطرفين، فبعد أشهر قليلة لم تتعد الثلاثة وفى ١٥إبريل ١٧٨٦ قام الأسطول الجزائرى بأسر واحد و عشرين بحاراً وملاحاً أمريكيا، من بينهم اثنان يحملان رتبة قبطان و أربعة نواب قبطان وخمسة عشرملاحاً، ووضعت الحكومة الجزائرية قائمة أسعار بقيمة الفدية عن كل رتبة من هؤلاء البحارة و التى بلغت إجمالاً خمسين ألف و خمسمائة(٥٠,٥٠٠) دولار[٣٣] ووافق الكونجرس الأمريكى على دفعها[٣٤] .

و بدلاً من أن تؤدى هذه الحوادث إلى اندفاع الأمريكيين نحو الحرب أكثر من أى وقت مضى، إذا بها تؤدى إلى اتجاههم إلى البحث مرة أخرى عن حل

سلمى للأزمة مع الجزائريين، و يرجع ذلك إلى أسباب عديدة يأتى على رأسها أن الحرب مع الأسطول الجزائرى القوى كانت مغامرة غير محسوبة و خصوصاً أن الأسطول الأمريكى - حديث التجهيز- كان سيقطع آلاف الأميال حتى يصل إلى شواطئ الجزائر، فى وقت لم يكن قد استكمل بناء بوارجه المجهزة لخوض غمارهذه الحرب، ومن ثم فسوف يكون الأسطول الجزائرى فى وضع أفضل فى هذه الحالة،كما أن الأمريكيين لم يكونوا يستطيعون التنبؤ بموقف القوى الأخرى فى المنطقة مثل إيالة طرابلس التى كان يحكمها فى تلك الفترة الحاكم القوى يوسف باشا القرمانلى(١٧٩٥ – ١٨٣٢) وهو من طبقة القوأوغلية الحاكمة و الذى كان يمتلك اسطولاً بحرياً قوياً، ولم تكن الولايات المتحدة قد عقدت معه معاهدة بعد(٣٥) بالإضافة إلى إيالة تونس التى كان يحكمها أيضاً حاكم قوى هو حمودة باشا(١٧٨٢-١٨١٤) والذى تمتع بوضع قريب من وضع القرمانلى فى طرابلس(٣٦).

كما كان هناك عامل آخر هام أدى إلى تراجع الموقف الأمريكى الداعم للحرب، ألا و هو تدخل الرأسماليين الأمريكيين من التجار و أصحاب السفن لدى الإدارة الأمريكية للوصول إلى حل سلمى مع الجزائر حرصاً على تجارتهم(٣٧) وجاء الموقف الجزائرى الأخير الخاص بتسليم بعض الأسرى من البحارة والملاحين الأمريكيين سلمياً مقابل الفدية المذكورة ليعضد هذا السعى نحو إيجاد حل سلمى سلمى للأزمة بين الاطرفين.

وقد بدأت الحكومة الأمريكية بإجراء محاولات لتوسط بعض الدول الأوروبية (أسبانيا وإنجلترا والبرتغال) وسلطان مراكش لدى الدولة العثمانية - والتى لم تكن تربطها بالولايات المتحدة أية معاهدة حتى عام١٨٣٠(٣٨)- من أجل عقد معاهدة مع الجزائر.

فقد كلف مكتب الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى القائم بالأعمال الأمريكى فى مدريد فى٢٢مارس ١٧٨٦، بطلب وساطة أسبانيا لدى الباب العالى لإبرام معاهدة سلام مع الجزائر، مثلما فعلت بتوسطها لدى مراكش لنفس الغرض(٣٩) .

ولما كان الأسبان قد خرجوا لتوهم من حرب طاحنة مع الجزائر امتدت

لعشر سنوات(١٧٧٥-١٧٨٥)[٤٠] كما أن أسبانيا كانت تعتبر نفسها ليست نداً للدولة العثمانية للدرجة التى تتيح لها مطالبتها بالضغط على الجزائر فى هذا السياق - فقد كانت أسبانيا تدفع جزية سنوية للباب العالى- ومن ثم فقد اعتذرت عن القيام بهــذه المهمة[٤١] .

وقد لجأت الحكومة الأمريكية إلى سلطان مراكش سيدى محمد الــذى كــان مرتبطاً معها بعلاقات ودية منذ إبرام المعاهدة بين الطرفين، طلباً لوساطته بما كان له من نفوذ لدى الباب العالى لإبرام معاهدة مع الجزائــر[٤٢] وتركــزت الجهــود السياسية و الدبلوماسية الأمريكية خلال هذه الفترة على توسيط سلطان مراكش.

و جاء فى برقية من وزير الشئون الخارجية الأمريكى إلى سلطان مــراكش فى ٢٣يولية١٧٨٩:"إن الثقة التامة فى صداقتكم قد أقنعتنا أن نطلب وساطتكم فــى موضوع الجزائر......لإبرام السلام............إن وساطة جلالتكم ستضع الوسائل الكفيلة بجعل الولايات المتحدة فى سلام مع أعدائها..........ولن يجعلك ذلك أكثر مكانة عند رعاياك فقط، و إنما أكثر و أكثر شهرة فى تاريخنا أيضاً !!" [٤٣] .

و هكذا استمرت الجهود السياسية و الدبلوماسية الأمريكية والمراكشية لعقــد معاهدة السلام مع الجزائر دون جدوى من عام ١٧٨٦ إلى عــام١٧٩٥، تخللتهــا أحداث الثورة الفرنسية و حروبها و تأثيراتها على مجمل العلاقات الدولية فى تلك الفترة، و أثر ذلك على منطقة المغرب العربى عامــة والجزائرخاصــة والتــى أسرعت و أعلنت اعترافها بحكومة الإدارة الفرنسية [٤٤] وتلاقى ذلك مــع تبــادل المشاعر الثورية الودية بين الشعبين الأمريكى و الفرنسى الذى شارك الأمــريكيين فى ثورتهم .

على أية حال وفى ظل هذه التطورات الدولية الجديدة بدأت أخيراً فى عــام ١٧٩٥ المفاوضات المباشرة بين الحكومة الأمريكية وداى الجزائر الجديــد حــسن باشا(١٧٩١-١٧٩٨) و استمرت لعدة أشهر، وانتهــت بــإبرام معاهــدة الــسلام والصداقة بين البلدين فى ٥سبتمبر١٧٩٥ وصدق عليها الكونجرس الأمريكى فــى ٢مارس١٧٩٦ [٤٥] .

وقد اشتملت المعاهدة على اثنين وعشرين بنداً أهمها البنــد الخــاص بقيــام الحكومة الأمريكية بدفع جزية سنوية للجزائر تبلغ إثنى عــشر ألــف(١٢,٠,٠,٠)

سكوين جزائرى ذهب * فى صورة ذخيرة بحرية سنوية، كما تناولت العلاقات التجارية بين البلدين، وحماية السفن التجارية والبوارج الحربية الأمريكية التى تعبر المياه الجزائرية، و قضايا الأسرى والرقيق والغنائم وحماية الممتلكات الأمريكية الخاصة فى الجزائر،و ألية محاكمة الرعايا الأمريكيين وحرية القنصل والرعايا الأمريكيين فى ممارسة شعائرهم الدينية فى الجزائر،ومسألة إعلان الحرب بين البلدين....ألخ...(٤٦) .

وعند تحليل بعض بنود هذه المعاهدة نجد أن الجانب الأمريكى كان هو الأكثر استفادة من الجانب الجزائرى على الرغم من الجزية السنوية الضخمة التى تعهدت الحكومة الأمريكية بدفعها للجزائر، فلقد أقرت المعاهدة مبدأ حماية السفن الأمريكية ليست فقط التجارية، وإنما الحربية أيضاً، وبعد أن كان جل أمل الأمريكيين حماية سفنهم التجارية أمام الهجمات الجزائرية فحسب، فقد نص البند الثالث من المعاهدة على منح السفن الحربية الأمريكية الحماية فى حالة وجود حرب بين الولايات المتحدة و بلدان شمال أفريقيا، فقد ذكر البند الثالث:" تستطيع سفن وحاويات كلتا الدولتين المرور عبر أراضى الدولتين دون التعرض لأى نوع من الإعاقة أو المضايقة " . كما سمح البند الثانى من المعاهدة ببيع الذخائر الحربية و البحرية و متطلبات صناعتها داخل الموانئ الجزائرية"سيتم السماح ببيع حمولات الناقلات البحرية و الحربية مثل البارود و الرصاص والحديد والأخشاب وألواح الأخشاب المستخدمة للبناء .... وأية بضائع أخرى تندرج تحت مسمى الذخائر الحربية والبحرية فى الولاية دون دفع أية رسوم فى إدارة الجمارك التابعة للولاية"(٤٧).

و كان هذا أمراً غريباً حقاً من الداى حسن، و الأغرب منه مانص عليه البند الحادى عشرمن المعاهدة والذى أعطى للسفن الحربية الأمريكية الحق فى أن ترسو فى الموانئ الجزائرية وأن تحصل على المؤن و المواد اللازمة :" كل السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية(كما كان يطلق عليها فى ذلك الوقت) التى سيكون مسموحاً لها أن ترسو فى موانئ الإيالة، سوف تحصل على الهدايا المألوفة من مؤن ومثلجات مجاناً.........."(٤٨) كما يتم إطلاق تحية لها بإطلاق طلقات المدفعية كما نص البند العشرون:" أية سفينة حربية تابعة للولايات

المتحدة لأمريكا الشمالية ترسو فى موانئ الإيالة سيقوم القنصل بإبلاغ الداى بوصولها و ستتم تحيتها بإطلاق إحدى و عشرين طلقة و تغادر بنفس الطريقة، ويقوم الداى بإرسال المواد الطازجة إلى السفينة مجاناً كما هو معتاد"(٤٩).

و قد عمل البند الأخير من المعاهدة على منع نشوب الحرب بين البلدين بأية وسيلة فجاء فيه:" عندما تقع أية توترات بين رعايا الولايات المتحدة ورعايا هذه الإيالة، أوعند حدوث أى خرق لأى مادة من مواد هذه المعاهدة فلن تعلن الحرب على الفور، و سيتم التباحث حول كل الموضوعات بصورة منظمة و سيدفع الطرف المعتدى تعويضاً "(٥٠).

وفى أعقاب التصديق النهائى على المعاهدة قامت السلطات الجزائرية بإطلاق سراح الأسرى الأمريكيين لديها فى ٨ يولية١٧٩٦(٥١) وبذلك تنتهى المرحلة الأولى من أحداث الحرب الجزائرية الأمريكية لتبدأ المرحلة الثانية منها ليس بعد زمن بعيد.

على أية حال فقد أخذت العلاقات الجزائرية الأمريكية تمربمرحلة من التحسن النسبى فى أعقاب إبرام المعاهدة، غلب عليها رغبة الجزائريين فى الاستفادة من الخبرة الأمريكية لتقوية اسطولهم الحربى، فى مقابل التنازلات العديدة التى قدموها فى المعاهدة .

فقد تلقى الرئيس الأمريكى واشنطون طلباً – من الداى حسن – قام بعرضه على الكونجرس فى٢٤يولية ١٧٩٧، يتضمن رغبة الداى فى قيام الأمريكيين ببناء طرادين حربيين مجانيين للجزائر،و قد أوضح واشنطون للكونجرس أن تكلفة الطرادين بكامل أسلحتهما ستبلغ خمسة وأربعين ألف(٤٥,٠٠٠) دولار تنفيذاً للمعاهدة بين الطرفين، مؤكداً على أن تلبية طلب الداى يمثل أهمية بالغة للولايات المتحدة ويعد ثمناً للسلام مع الجزائربعد إبرام المعاهدة معها، ومقابلاً لقيام الداى بالإفراج عن الأسرى الأمريكيين فى السجون الجزائرية فى عام سابق(٥٢).

و قد أثار تقديم طرادين أمريكيين مجانين للجزائر حفيظة حاكم طرابلس يوسف باشا القرمانلى، وأدى إلى توتر علاقته مع الولايات المتحدة التى كانت قد نجحت فى عقد معاهدة معه فى نفس العام١٧٩٧(٥٣) واعتبر أن ما قدمته له الحكومة الأمريكية مقارنة بما قدمته للجزائر يعد إهانة له، ومن ثم اشتعلت الحرب

بينه وبين الأمريكيين فيما بعد و استمرت من ١٨٠١ حتى عـــام١٨٠٥ و ســـبقتها بعض المناوشات المتبادلة بين الطرفين(٥٤).

وفى ظل الأجواء المتوترة التى سبقت الحرب الطرابلسية الأمريكية فقد ظهر الأسطول الأمريكى أمام السواحل الجزائرية بصفة مستمرة، مما جعل الداى حسن يشعر بحساسية الموقف – على الرغم من المعاهـــدة المبرمـــة بـــين الطـــرفين – وخصوصاً أنه كان محاطاً بعدد من كبار قادة جيشه من رجال البحرالذين لم يكونوا راضين تماماً عن المعاهدة مع الولايات المتحدة، و خشى الأمريكيين من جانبهم من أن يؤدى التوترمع القرمانلى إلى تقويض المعاهدة مع الجزائر .

لذلك فقد أرسل القومادور دالىDale – قائد الأسطول الأمريكى فى البحـــر المتوسط المحاصر لطرابلس– برقية إلى داى الجزائر فى نهاية عام١٨٠٠، حاول فيه إزالة شكوكه من الوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة، وادعـــى أن وجـــود الأسطول الأمريكى على مقربة من المياه الجزائرية هو من أجل المراقبة وأعمـــال التدريب فقط، ولحماية التجارة الأمريكية من هجمات القرمانلى، موضحاً أنه لديـــه تعليمات من الرئيس جون آدامز John Adams بتقديم كل علامات الاحترام عنـــد الاقتراب من الموانئ الجزائرية :"....و يقدم الأسطول الذى تحت قيادتى لكم التحية لحسن استقبالكم"(٥٥).

وأوضح دالى أنه سيترك للقنصل الأمريكى فى الجزائر مهمة شرح الميـــول الودية التى تحملها الولايات المتحدة للداى حسن،و رغبتها فى الحفاظ على المعاهدة المبرمة بين البلدين، ونوه إلى ضرورة الوثوق بتعهد الرئيس فى هذا الشأن(٥٦).

ومهمـــا يكـــن مـــن أمـــر فقـــد أدت تطـــورات الحـــرب الطرابلـــسية الأمريكية(١٨٠١–١٨٠٥) إلى توتر الوضع فى المنطقة، و اعتبرتهـــا الولايـــات المتحدة فرصة لاختبار المعاهدة مع الجزائر،و رسالة موجهة إلـــى داى الجزائـــر وباى تونس بالمعاملة بالمثل، وعبر عن هذه السياسة وزير الخارجية الأمريكى فى رسالة منه إلى القائد الأمريكى للحملة على طـــرابلس ويليـــام ايتـــون William Eatonفى٢٠مايو١٨٠١ عندما أشار إلى أن القوة العسكرية الأمريكية التى جاءت إلى المنطقة لضرب طرابلس، إنماهى رسالة إلى الجزائر و تونس أيـــضاً عنـــدما ترى نتائج الحرب ضد طرابلس، فى محاولة لمنع انتشار عدوى القرصـــنة ضـــد

السفن الأمريكية(٥٧) مما يثبت وجود سوء نية من الأمريكيين تجاه الجزائر.

و قد تأكد هذا النهج العدوانى الأمريكى فى اجتماع لمجلس النواب الأمريكى فى ديسمبر ١٨٠١ حيث أوصى المجلس بزيادة حجم القوة العسكرية الأمريكية التى تواجه طرابلس من أجل إرهاب الجزائر حتى لا تتحول إلى معاداة الولايات المتحدة هى الأخرى(٥٨) .

على أية حال فقد صمدت المعاهدة الجزائرية الأمريكية خلال مدة الحرب الطرابلسية، بل و استمرت قائمة بعدها لعدة سنوات، لكنه قد أصبح واضحاً أن الولايات المتحدة كانت ترغب فى خرق المعاهدة و التخلص من دفع الجزية السنوية بأى شكل حينما تأتى الفرصة لذلك، و خصوصاً أنها كانت قد نجحت فى هزيمة يوسف القرمانلى باشا طرابلس، بعد عملية غزو برى انطلاقاً من برج العرب(فى مصر) إلى درنة (بايالة طرابلس) عام ١٨٠٥، و بمساندة قوية من الأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط، و انتهت الحرب بمعاهدة مهينة للقرمانلى، بعد أن كاد حكمه يسقط لصالح شقيقه أحمد باشا الموالى للأمريكيين(٥٩) .

وقد أدى هذا الانتصار العسكرى الأمريكى على ولاية طرابلس إلى أثر سلبى على القوى الأخرى بالمنطقة وعلى رأسها الجزائر، فقد اعتقد الجزائريون أن المعاهدة مع الولايات المتحدة سوف تستمر على النحو الذى كان قبل غزو ولاية طرابلس، بينما كان الجانب الأمريكى يدرك تماماً بأن ذلك لن يكون و أن الزمن الذى تدفع فيه الولايات المتحدة جزية للجزائر قد ولى بعد أن صار التدخل الأمريكى فى المنطقة أمراً واقعاً، و أن المسألة لا تعدو فى أن تكون حدث قرصنة هنا أو هناك كى تستغله واشنطون لإلغاء المعاهدة، والانقضاض على أية قوة فى المنطقة حتى و لو كانت هذه القوة هى الجزائر نفسها .

و مهما يكن من أمر فقد جاءت الحرب الأمريكية البريطانية (١٨١٢-١٨١٥) لتؤجل فكرة الحرب مع الجزائر إلى حين(٦٠) وأصبحت مسألة حسم الصراع مع الجزائر هى مسألة وقت فقط . .

فقد بدأت الحكومة الأمريكية بتغيير موقفها من الجزية السنوية المتفق عليها فى معاهدة ١٧٩٥ (٦١) و زاد من إصرارها على عدم الوفاء بتعهدها اطلاعها على حجم المشاكل الداخلية التى كان يعانى منها الداى عمر و التى كادت أن تعصف

بالإيالة الجزائرية، و كان من أخطرها ثورة وهران(١٨١٣-١٨١٤) التى قادها باى وهران عندما تمرد على سلطة داى الجزائروزحف بجيشه إلى مكان قريب من العاصمة، وبعد معارك بين الطرفين تمكن الداى عمر من إعدامه .

كما أنه بعد أن انتهت حرب الولايات المتحدة مع بريطانيا فى عام ١٨١٥[٦٢] قدمت الحكومة الأمريكية للداى خمس(١/٥) المبلغ المتفق عليه والذى كانت تدفعه له منذ توقيع المعاهدة، و لكن الداى رفض المبلغ الجديد بشدة، ليس فقط لأنه يعد خرقاً للمعاهدة المبرمة بين البلدين، و لكنه أيضاً لتخوفه من أن يؤدى ذلك إلى تعرضه للاغتيال على يد أتباعه بسبب تهاونه مع الأمريكيين فى الجزية[٦٣] فى الوقت الذى كانت تعد الجزية مصدراً هاماً لبقاء الإيالة الجزائرية بما كانت تدره إلى الخزينة الجزائرية سنوياً مع الضرائب والرسوم الجمركية والخراج وفدية الأسرى.ألخ.....فظهر بذلك للأمريكيين مدى ضعف الداى عمر و تفكك قيادته وسهولة إسقاطه،مما أغراهم للعمل على انتهاز الفرصة و القضاء على الخطر الجزائرى الذى يهدد سفنهم فى المنطقة إلى الأبد .

وهكذا فى نفس العام بدأت سفن الأسطول الأمريكى تتجمع فى جبل طارق لتأديب الجزائر وإلغاء الجزية و إسقاط المعاهدة معها، و توجيه رسالة تحذيرية لباى تونس أيضاً [٦٤] .

و قد بدأ الأمريكيون عدوانهم على الجزائر فى صيف عام١٨١٥ بأسلوب يغلب عليه الخداع و التضليل، فقد اتجه كل من القائدين العسكريين الأمريكيين القومادور ستيفن ديكاتورStephen Decatur والقومادور بينبريدج Bainbridge – وهما من بين القادة الذين شاركوا فى حربى طرابلس و بريطانيا-إلى موانئ الجزائر، وعند اقترابهم من السواحل الجزائرية رفعوا الأعلام البريطانية على سفنهم من أجل تضليل الجزائريين[٦٥] .

و لم تنطل هذه الخطة على الجزائريين الذين كانوا مستعدين لكافة الاحتمالات، ففى مطلع يونية ١٨١٥ كلف الداى عمر(١٨١٥-١٨٢٠) قائد أسطوله القبودان حميدو بالقيام بعملية مسح بحرى خارج سواحل الجزائر تحسباً لهجوم أمريكى مباغت،لكن حميدو عمل على عدم الاصطدام بالأسطول الأمريكى الذى كان على مسافة قريبة منه،و لكن الجانب الأمريكى بدأ بالعدوان على الأسطول

الجزائرى[٦٦] .

ووفقاً لتقرير ديكاتور قائد الحملة الأمريكية على الجزائر إلى وزير البحرية الأمريكى حول سير الحرب فى ١٩يونية ١٨١٥، فقد بدأت المعارك بين الطرفين فى١٧يونية، وأوضح ديكاتور أنه فى ذلك اليوم "التقى مصادفة-على حد زعمه- ببارجة جزائرية تحمل على متنها ست و أربعين مدفعاً، و ما بين أربعمائة إلى خمسمائة جندى بقيادة الريس حميدو قائد الأسطول الجزائرى،و دارت معركة بين الطرفين استمرت لخمس و عشرين دقيقة،و قد قتل الريس حميدو فى بداية المعركة،كما أصيب عدد من الجنود الأمريكيين بطلقات نارية، و قتل عدد آخر نتيجة لسوء صناعة بعض المدافع الأمريكية التى كانت تصيب مستخدميها"[٦٧] .

كما أوضح ديكاتورأن الأسطول الأمريكى قد تمكن من أسر أربعمائة وستة جنود جزائريين من بينهم عدد من المصابين، وثلاثين أسيراً تم قتلهم و طرحهم من على ظهر السفينة إلى البحر[٦٨] .

من جهة أخرى فقد أكد ديكاتور أنه على الرغم من مقتل الريس حميدو فقد تمكنت عدة سفن جزائرية من الفرار، وأنها كانت عند موضع يبلغ مسيرة خمسة أيام من مكان تجمع الأسطول الأمريكى، و أنه قرر الوصول إلى ميناء الجزائر على أمل اعتراضهم عند وصولهم، كما أوضح أنه سوف يرسل الغنائم إلى قرطاجنة[٦٩] .

و قبيل توجهه لحصار ميناء الجزائر إلتقى ديكاتورفى١٩يونية ببارجة حربية جزائرية ضخمة على متنها اثنان وعشرون مدفعاً ومائة و ثمانون رجلاً، ودارت معركة طاحنة بين الطرفين استمرت لثلاث ساعات وانتهت بهروب البارجة الجزائرية، و لكن ديكاتورتمكن من حصارّها مرة أخرى بأربعة بوارج حربية أمريكية، و تمكن من الاستيلاء عليها و عثر فيها على عشرين جندياً أمريكياً مقتولاً وعشرين أسيراً أمريكياً قام بتحريرهم، و أرجع ديكاتوروجود أسرى أمريكيين مقتولين إلى القصف الأمريكى للبارجة الجزائرية [٧٠] .

و فى أعقاب الاستيلاء على بارجة حربية ثانية تحطمت القوة الضاربة للأسطول الجزائرى، و حينئذ قام ديكاتور بقصف ميناء الجزائر قصفاً عنيفاً للضغط على الداى للقبول بصلح مهين[٧١] .

و قد أرسل ديكاتور إلى وزير بحريته فى ٥يولية معبراً عن هذا المعنى، فقد أوصى بضرورة قيام الرئيس الأمريكى بإرسال رسالة إلى الداى موضحاً "

ستكون هذه هى اللحظة المواتية لبدء المفاوضات معهم(الجزائريين)"[٧٢] على حد قوله.

و لم يخف ديكاتور تشفيه لهزيمة الجزائريين ولم يرغب فى أن يكون القائد المنتصر المتواضع فذكر"إن معاهدة السلام سيتم إملاؤها عليهم(يقصد الجزائريين) من جانبنا وسوف يتم إبرامها فى غضون أربع وعشرين ساعة........و ستتضمن الاحتفاظ بكل مزايا الدول الأولى بالرعاية و ميزات أخرى ستقدم لنا فقط.....وعن نفسى سأعتبرها مشرفة للولايات المتحدة عندما تتم مقارنة استخدام القوة العسكرية فى هذه المرة بالحملات التى أرسلت إلى الجزائر(من قبل) و لم تحقق نجاحاً"[٧٣].

ووفقاً لاقتراح ديكاتور قامت الحكومة الأمريكية بتعيينه هو والقنصل الأمريكى فى الجزائر ويليام شاليرWilliam Shaler للتفاوض مع داى الجزائر عمر باشا حول إبرام معاهدة جديدة بعد سقوط معاهدة ١٧٩٥، وأهم ما كانت تريد الحكومة الأمريكية فرضه بالقوة هو إقرار مبدأ الدولة الأولى بالرعاية،وعدم دفع أى جزية جديدة للجزائر تحت أى مسمى[٧٤].

وعلى ظهر البارجة الحربية الأمريكية جيوريور Guerriere و بحضور القنصل السويدى بالجزائر كوسيط بدأت المفاوضات المذلة بين الطرفين، و قد حمل المفاوضون الأمريكيون مذكرة تحتوى على الأسس المقترحة التى وضعتها الحكومة الأمريكية لبنود المعاهدة الجديدة.

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التى أحاطت بالمفاوضات،التى عقدت فى ظل الحصار البحرى الكامل الذى فرضه الأسطول الأمريكى على الشواطئ الجزائرية، بل والأنباء التى كانت ترد إلى الجزائريين عن وصول تعزيزات متتالية جديدة للأمريكيين قادمة من جبل طارق، تظهر الوثائق الأمريكية أن مندوبى الداى كانوا يتحدثون بقوة أمام المندوبين الأمريكيين، و قد دارت المفاضات حول إقرار مبدأ الدولة الأولى بالرعاية للولايات المتحدة فى الجزائر،و فى نهاية المفاوضات المضنية أعلن مندوبو الداى اعتراضهم على بعض بنودها، كما طالبوا بإعادة البوارج والسفن الجزائرية التى استولى عليها الأسطول الأمريكى فى المعارك

الأخيرة، و أكدوا أنهم ليس بإمكانهم الموافقة على مثل هذه المعاهدة قبل الرجوع إلى الداى ليقرها بنفسه، و قد أكد الجانب الأمريكى على قيام الحكومة الأمريكية بتقديم تعهد مكتوب بتلبية الطلبات الجزائرية فى حالة توقيع المعاهدة[٧٥] .

وعلى الرغم من هذه المرونة غير المتوقعة من المفاوضين الأمريكيين فقد عادوا و استخدموا لغة التشدد مع الوفد الجزائرى مرة أخرى،فحينما طلب الجزائريون إمهالم ثلاث ساعات فقط للتشاور مع الداى رد القائد الأمريكى "و لا دقيقة واحدة "[٧٦] .

وفى ٦يولية١٨١٥ تم التوقيع على معاهدة السلام و الصداقة بين الجزائر و الولايات المتحدة، و صدق عليها مجلس الشيوخ الأمريكى فى٢١ديسمبر١٨١٥، و تم إعلانها للعمل بها رسمياً فى ٢٦ ديسمبر١٨١٥، و قد اشتملت على واحد وعشرين بنداً تتعلق بالمسائل التجارية و القنصلية و الأسرى و التقاضى.ألخ....[٧٧] و قد اشتقت معظمها من معاهدة ١٧٩٥ مع عدد من التعديلات الجوهرية التى تخدم المصالح الأمريكية فى الجزائر، و تقلص من سيادة الأخيرة على أراضيها .

فقد أكد البند الأول من المعاهدة الالتزام بمبدأ الأمة الأولى بالرعاية الذى لم تكن ستستفيد منه الجزائر فى أى حال من الأحوال، لأنها لم تكن لها أية مصالح تجارية أوغيرها داخل الولايات المتحدة المستفيد الأوحد من هذا البند ، فقد جاء فيه:"من تاريخ إبرام المعاهدة الحالية سيستتب السلام و الصداقة الراسخة والمنيعة و الشاملة بين رئيس و رعايا الولايات المتحدة الأمريكية من جانب، و داى إيالة الجزائر البربرية(كما جاء فى النص الانجليزى) و أتباعه من جانب آخر، و على شروط الأمم الأولى بالرعاية " [٧٨] .

وقد ألغى البند الثانى من المعاهدة الجزية السنوية التى كانت تدفعها الولايات المتحدة للجزائر وجاء فيه:" إنه سيكون من المفهوم بوضوح بين الأطراف المتعاقدة أنه لن تكون هناك جزية، سواء كانت فى صورة هدايا كل عامين أو تحت أى شكل أو أسم آخر يطلبها الداى أو إيالة الجزائر من الولايات المتحدة الأمريكية تحت أى ذريعة"[٧٩].

وقد اتفق على تبادل الأسرى بين الطرفين و فرض البند الرابع من المعاهدة على الداى دفع تعويضات للأسرى الأمريكيين فى السجون الجزائرية، و كذلك

الأمريكيين الذين ضاعت ممتلكاتهم فى الجزائر، فقد جاء فى هذا البند:" سيدفع داى الجزائر تعويضا كاملاً إلى أية رعية تابعة للولايات المتحدة كانت السفن الجزائرية قد أسرتها أو احتجزتها، أو كانت ممن اجبروا على تسليم ممتلكاتهم فى الجزائر، الأمر الذى كان يعد انتهاكاً للبند(٢٢) من معاهدة السلام والصداقة المبرمة بين الولايات المتحدة و داى الجزائر فى٥سبتمبر١٧٩٥"[٨٠].

كما تم فى المعاهدة إسقاط أية ديون مستحقة على الرعايا الأمريكيين للداى مالم يكن القنصل الأمريكى على علم مسبق بها" لن يكون قناصل الولايات المتحدة الأمريكية مسئولين عن ديون رعاياهم حتى يقدموا تعهدات مكتوبة مسبقة لعمل ذلك"[٨١] .

و قد أعطت المعاهدة ميزة الأمة الأولى بالرعاية للسفن الحربية الأمريكية فى حالتى السلم و الحرب، و كذلك فى حالة الحرب مع بلدان المغرب العربى الأخرى[٨٢] و هى شروط مجحفة للغاية و تعبر عن حالة من غطرسة القوة التى كان يستشعرها الأمريكيون الذين لم يدركوا أن التشدد فى المعاهدات يجعلها عادة عرضة للسقوط السريع.

و حينما استشعر الأمريكيون ذلك و مع تزايد المكاسب التى حققتها الشعوب الأوروبية على حساب إمبراطورية نابليون المتهاوية، و احتمالية عودة بريطانيا إلى منطقة شمال أفريقيا لملء الفراغ فيها بعد زوال الخطر الفرنسى، أسرعت الولايات المتحدة إلى الجزائريين تطلب منهم تعديل بعض البنود المجحفة لهم فى معاهدة ١٨١٥بإبرام معاهدة جديدة فى١٨١٦ .

و قد تم بالفعل تعديل المعاهدة رسمياً فى٢٣ديسمبر١٨١٦ ووقع عليها الداى و صدق عليها الكونجرس الأمريكى فى ١فبراير١٨١٦ [٨٣] .

و قد احتوت المعاهدة الجديدة على معظم البنود التى جاءت فى معاهدة١٨١٥، مع بعض التعديلات الطفيفة التى تطلبتها الصياغة الجديدة لها،و قد كان أهم بند فيها هو البند الأخير الذى سمى"بند إضافى و توضيحى" فقد ألغى هذا البند الميزات الخاصة التى أعطاها البند الثامن عشر فى معاهدة سنة ١٨١٥ ويتعلق بمزايا أكبر مما كان للدول الأولى بالرعاية .

و قد جاء فى التعديل:" رغبة من الولايات المتحدة الأمريكية فى أن تقدم لداى

الجزائر دليلاً على رغبتها في الحفاظ على علاقات السلام و الصداقة بين القوتين، وعلى أساس الحرية الكاملة و من أجل إزالة أية عقبة قد تعترض سبيل العلاقات مع البلدان الأخرى، توافق على إلغاء البند الثامن عشرمن المعاهدة السابقة و الذى كان يعطى الولايات المتحدة ميزة فى موانئ الجزائر تفوق ما تحصل عليه الأمم الأولى بالرعاية و التى لها معاهدات مع هذه الإيالة" (٨٤).

على أية حال فلم تكد الولايات المتحدة تهنأ بمكاسبها فى الجزائر حتى نافستها بقوة فيها قوى أوروبية أخرى، ولم يشفع لها أمام هذه القوى الأوروبية تنازلاتها فى المعاهدة الأخيرة عن بعض المزايا الخاصة، فلقد كان أسوأ أثرعلى المنطقة برمتها نتيجة للتدخل العسكرى الأمريكى فى شئونها، هو أن تجرأت دول أخرى ظلت لفترة طويلة تعمل حساباً للدولة العثمانية صاحبة السيادة على إيالات المغرب العربى، حتى و إن ظلت هذه السيادة اسمية،ففى تلك الفترة كانت انجلترا معنية بالقضاء على تجارة الرقيق فى سواحل غرب أفريقيا و من ظهر الأسطول البريطانى فى غرب البحر المتوسط، و بدأت انجلترا مع بعض حلفائها تهدد منطقة المغرب العربى (٨٥) و بالتعاون مع هولندا قامت بإرسال حملة عسكرية بحرية إلى الجزائر فى عام١٨١٦ حصلت كلتاهما على إثرها على صلح مهين للجزائر، كان من نتيجته النهاية المأساوية التى لقيها الداى عمر حينما قام رجال الحامية العسكرية باغتياله فى قصره فى عام ١٨٢٠ (٨٦).

و لم تمض سوى سنوات معدودات حتى وجد الحزب الملكى الفرنسى فى الجزائر لقمة سائغة و حلاً مناسباً لمشاكله الداخلية المتفاقمة، فكانت عملية حصارها بحرياً منذ ١٨٢٧ ثم غزوها و احتلالها فى عام ١٨٣٠بمثابة الفصل الدامى الأخير من تاريخ الجزائر الحديث.

****

هوامش الدراسة

(١) لم يخض الأسطول العثمانى معركة بحرية بعد ليبانتو إلا فى منتصف القرن التالى لانتزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية، واستغرق ذلك خمسة و عشرين عامـــا، و قـــد أطلـــق العثمانيون على ليبانتو بالتركية"صنفين دوننما سفرى" أى "معركة الأسطول الـــذى غـــرق". عبد العزيزمحمد الشناوى(دكتور): الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٢، مكتبـــة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية١٩٨٦، ص ص٨٩٦ ،٨٩٧، على الصلابى(دكتور):الدولة العثمانية، عوامل النهوض و أسباب الـــسقوط، دارالتوزيـــع والنـــشر الإســـلامية، الطبعـــة الثانية٢٠٠٤، ص ص٢٨٣،٢٨٢،٢٨١.

(٢) صلاح العقاد (دكتور) : المغرب العربى، دراسة فى تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصـــر، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٩٨٥، ص ٢٩،- شوقى عطا الجمل (دكتـــور) وعبـــد الله عبـــد الرازق إبراهيم (دكتور) : تاريخ العالم العربى الحديث والمعاصر من الفتح العثمـــانى إلـــى الوقت الحاضر، القاهرة ١٩٨٩،ص ص ١٩، ٢٠ .

(٣)عمارجحيدر:آفاق ووثائق فى تاريخ ليبيا الحديث،الدار العربيـــة للكتـــاب، طـــرابلس١٩٩١، ص١٧٦.

(٤)كان الأسطول الدانمركى ضعيفاً للغاية و لم يكن يمتلك السفن الحربية الكافية التى تمكنه وحده من ضرب الجزائر، و هذا ما منع ملك الدانمرك من تنفيذ خطته لحـــصارالجزائرفى تلـــك الفترة. انظر:

Wolf,John B.:The Barbary Coast,Algiers Under The Turks1500-1830, W.W.Norton and Company,NewYourk,London1979,pp.311,312, Anderson, R. C. : Naval Wars in the Levant 1559 – 1853, Princton, 1952,p.393.

(5) Ibid.

(٦) جرانت و تمبرلى : أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جـــ ١، ترجمة بهاء فهمى، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٥٤.

(٧)انظر :وليام شالر،مذكرات وليام شالر القنصل الأمريكى فى الجزائر(١٨١٦-١٨٢٤) ترجمة إسماعيل العربى،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر١٩٨٢،ص ص٥، ١٢٩،١٢٨،

Gallagher : The United States and North Africa, Cambridge 1963,p.233

(٨) انظر:إبراهيم شحاته حسن (دكتور) :أطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة فـــى تـــاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠ - ١٩٤٧)، منشأة المعارف الإســـكندرية، ١٩٨١، ص ص٧٩،٧٨.

(٩) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ - ١٩١٤) القاهرة ١٩٧٧، ص١٣٢ .

(11) op.cit.,p.234 Gallagher :

(١١) بوندا ريفسكى : الغرب ضد العالم الإسلامى، ترجمة إلياس شاهين، موسكو ١٩٨٥، ص ٥٢ ؛ وأنظر ك .م بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٢٨ وما بعدها

(١٢) بونداريفسكى : المرجع السابق، ص ٥٣ .

(١٣) وكانت اللجنة مكلفة بعقد معاهدات مماثلة مع روسيا والنمسا وبروسيا والدانمرك وسكسونيا وهامبورج وبريطانيا وأسبانيا والبرتغال ومدن إيطاليا والدولة العثمانية.

U.S Congress : Journals of the Continental Congress, march 11.1785, p. 139 – 140; Ibid., March 4, 1785, p. 116; Bryson, Thomas : American Diplomatic Relations With the Middle East 1784 – 1975, New Jersy 1977, p. 1-2; Hall, Luella J.: the United States and Morocco 1776 – 1956, New Jersy 1971.p. 50

(١٤) انظر U. S Congress : Journals of the Continental congress. March 11, 1785, p. 139 – 140.

(15) U.S Congress : Journals of the Continental congress. March 11, 1785,p.65

(16) op.cit., p.233 : Gallagher

(١٧) بونداريفسكى : المرجع السابق، ص ٥٣ .

(١٨) المرجع السابق، ص ٥٣ .

(19) Barnby:The Prisoners of Algiers,An Account of The Forgotten American-Algerian War 1785-1797,NewYourk1976,p.123.

(٢٠) محمد فؤاد خليل (دكتور) : الحرب الطرابلسية الأمريكية (١٨٠١ – ١٨٠٥)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، جامعة المنيا، المجلد (٣١)، يناير ١٩٩٩، ص٤ ومابعدها.

(٢١)رشاد الإمام(دكتور): سياسة حمودة باشا فى تونس١٧٨٢-١٨١٤،منشورات الجامعة التونسية، تونس١٩٨٠،ص١٣٧.

(22) U.S Congress :Documents From the Continental Congress and theConstitutional (1774-1789): De Soulanges to American consul in Nant,July14,1785.

(23) Ibid.

(24) U.S Congress :Documents From the Continental Congress and the Constitutional (1774-1789): Secretary for Foreign Affairs(John Jay) to Office for Foreign Affairs,October13,1785 .

(٢٥)كان دايات الجزائر يقومون بإنفاق الأموال التى تأتى من الجزية المفروضة على السفن الأجنبية، أو من عمليات السلب التى تأتى من الاستيلاء على السفن التى ترفض الدفع، على لأرامل و المساكين و اليتامى و زواج الشباب . أنظر:

إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، ج ٢، المطبعة الأميرية، الطبعة الأولى، بولاق، القاهرة ١٣١٤ هـ،ص٤٣.

(26) U.S Congress :Documents From the Continental Congress and the Constitutional (1774-1789): Secretary for Foreign Affairs (John Jay)to the President(Washington)October20,1785 .
(27) Ibid.
(٢٨) Ibid. وانظر أيضا :
Allen, Gardner W.:Our Navy and The Barbary Corsairs ,Houghton Mifflin and Company1905.
(29) Ibid.
(30) U. S Congress : Journals of the Continental congress, (1774-1789) January5, 1786, pp.11,12
(31) Ibid.
(32) Ibid.
(٣٣)جاء فى تقرير للكونجرس الأمريكى بتاريخ ٣١يولية١٧٨٧ حول هذا الموضوع أن تفاصيل الفدية المدفوعة للجزائر كانت على النحو التالى:
- ستة آلاف دولار لفدية قبطان السفينة
- أربعة آلاف دولار لفدية نائب القبطان
- ألف و خمسمائة دولار لفدية الملاح العادى
U. S Congress : Journals of the Continental congress, (1774-1789)July31,1787.
(34) Ibid.
(٣٥) بدأ الحكم العثمانى فى طرابلس عام ١٥٥١ بتعيين مراد أغا بابا لمدة عام، واستمر الأتراك فى حكم طرابلس لمدة مائة وستين عاما ولكن التزاوج بين الأتراك والسكان المحليين أوجد طبقة الكول أو أغلية التى خرج منه أحمد مؤسس الأسرة القرمانلية . أنظر :
كولا فولايان(دكتور) : ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلى، ترجمة د. عبد القادر المحيشى، طرابلس، الطبعة الأولى ١٩٨٨، ص ص٩،٥٢.
(٣٦) رشاد الإمام(دكتور):المرجع السابق، ص٢٩٥.
(37) U. S Congress : Journals of the Continental congress, (1774-1789) May11,1786,p.250.
(٣٨)انظر: محمد فؤاد خليل(دكتور):المعاهدة العثمانية الأمريكية ١٨٣٠، مجلة المؤرخ العدد(٢٦)المصرى كلية الآداب - جامعة القاهرة، يناير ٢٠٠٣.
(39) U. S Congress : Journals of the Continental congress, (1774-1789) March22,1786,p.126-130.
(٤٠) كانت العلاقات الجزائرية الأسبانية متوترة بصفة مستمرة منذ سقوط الأندلس، وقد اشتعلت حرب طاحنة بين البلدين استمرت عشر سنوات(١٧٧٥-١٧٨٥) قام خلالها الأسطول

الأسبانى بقصف العاصمة الجزائريةفى١٧٨٣، ثم تم الصلح فى ١٦يونية ١٧٨٥.
دلندة الأرقش :مقدمات ووثائق فى تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، تـونس ١٩٩٥، ص٣٦٣.

(41) U. S Congress : Journals of the Continental congress, (1774-1789)May26,1786,p.312-313 .

(42) Hall : the United States and Morocco 1776 – 1956, New Jersy 1971,p.50.

(43)U. S Congress : Journals of the Continental congress, (1774-1789) July23,1787.

(٤٤) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : تاريخ العرب الحديث والمعاصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ص ١٧٦، ١٨٠.

(٤٥)انظر:

U.S Treaties : Conventions, International Acts., Protocols and Agreements, 1776 – 1909, Part 1 , Vol. I,New Yourk 1910, p.1-6.

* كان السكوين هو عملة ذهبية إيطالية كانت تستخدمه الجزائر، ثم ضـربت السكوين كعملـة عثمانية.

(٤٦)انظر الترجمة العربية للمعاهدة فى الملحق رقم(١)من هذا البحث.

(47) Ibid.

(48) Ibid.

(49) Ibid.

(50) Ibid.

(51)George Washington Papers, Vol. 34. Washington to Congress 1796.

(52) the executive Proceedings of the Senate,June24,1797. U.S Congress:

(٥٣) كولا فولايان : المرجع السابق، ص ص٥٥،٥٤.

(54) U.S Congress : Congressional Documents and Debates, Extract of a letter from William Eaton to Secretary of State, Tunis, Sept. 51, 1801,p. 704 – 705.

(٥٥) U.S Congress : Congressional Documents and Debates,Letter from Commodre to the Dey of Algiers and the Bey of Tunis,Undated.

(56) Ibid.

(57) U.S Congress : Congressional Documents and Debates, Extract of a letter from cathcart to the secretary of state to William Eaton, Consul at Tripoli, Washington, May 20, 1801, P. 702 – 704 -703

(58) U.S Congress: Congressional Documents and Debates,History of Congress,Dec.1801,p.328

(٥٩) انظر:محمد فؤاد خليل(دكتور):الحملة الأمريكية على درنة(١٨٠١-١٨٠٥) مجلة علم النفس المعاصر و العلوم الإنسانية - جامعة المنيا ٢٠٠١.

(٦٠)محمد أنيس(دكتور) و السيد رجب حراز(دكتور):مدخل تاريخ الأمريكتين، دار النهضة العربية، القاهرة١٩٦٤، ص٩٤، وأيضا:

Bemis, Samuel : A Diplomatic History of the United States, New York, Third Edition, 1958 .p.159.

(61)U.S Treaties, Conventions International Acts, Protocols And(1776-1909)PartI,Vol.I,pp.1-6.

(٦٢) محمد أنيس(دكتور):المرجع السابق، ص٩٥، Bemis:op. cit.,p.163 .

(63) George Clear:The Naval Monument,Containing Official ,p.303.

(64) Ibid.

(٦٥) بونداريفسكي : المرجع السابق، ص ٥٧، كان ستيفن ديكاتور(١٧٧٩-١٨٢٠) قد شارك فى الحرب الطرابلسية الأمريكية(١٨٠١-١٨٠٥)و قاد غارة على ميناء طرابلس لاطلاق سراح البارجة الأمريكية فيلادليفيا التى أسرتها البحرية الطرابلسية،كما شارك فى الحرب البريطانية الأمريكية(١٨١٢-١٨١٥)،و قتل فى عام ١٨٢٠ فى الولايات المتحدة. انظر:

Shavit, David : The United States in the Middle East, A historical dictionary, Greenwood Press,NewYourk1988,p.87.

(٦٦) إسماعيل سرهنك : المرجع السابق، ص١٤٤.

(67) 14th congress1816)p.396.(U.S Congres: Documents Congressiona)

(68) Ibid.

(69) Ibid.

(70) Ibid.

(٧١) بونداريفسكي : المرجع السابق، ص ٥٦ .

(73) 14th congress1816)p.396.(U.S Congres: Documents Congressional

(Ibid.

(74) George Clear: op.cit. ,p.304.

(75) Ibid. p.305.

(76) Ibid. p.305

(77) U.STreaties,Conventions International Acts,Protocols And Agreements (1776-1909) PartI,Vol.I,pp.6-11.

(٧٨) انظر الترجمة العربية للمعاهدة فى الملحق رقم(٢)من هذا البحث.

(79)U.S Treaties,Conventions International Acts,Protocols And Agreements (1776-1909)PartI,Vol.I,pp.6-11.

(80) Ibid.

(81) Ibid.

(82) Ibid.

(83) U.S Treaties,Conventions International Acts,Protocols And Agreements(1776-1909)PartI,Vol.I,pp.11 -17.

(٨٤) انظر الترجمة العربية للمعاهدة فى الملحق رقم(٣)من هذا البحث.

(85) Thomson,Ann:Barbary and Emlightenment,European Attitudes towards the Magherb in 18th century,E.J Brill, New York,1987,p.137.

(٨٦) إسماعيل سرهنك : المرجع السابق، ص١٤٥.

الملحق رقم(١)
الترجمة العربية
للمعاهدة الجزائرية الأمريكية عام ١٧٩٥(*)

فى هذا اليوم ٢١صفر عام١٢١٠هـ الموافق السبت ٥سبتمبر١٧٩٥م تم إبرام معاهدة السلام و الصداقة بين حسن باشا داى الجزائر وديوانه و أتباعه، و جورج واشنطون رئيس الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية و رعايا الولايات المتحدة المذكورة آنفاً .

(أبرمت فى٥سبتمبر١٧٩٥م،وصدق الكونجرس على المعاهدة فى ٢مارس١٧٩٦).

البند الأول :

من تاريخ المعاهدة الحالية سيستتب السلام و الصداقة الراسخة و الصادقة بين رئيس و رعايا الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية و حسن باشا داى الجزائر وديوانه و أتباعه، سفن و رعايا كلتا الدولتين تتعامل مع الطرف الآخر بلطف وشرف و احترام.

البند الثانى:

كل السفن التابعة لرعايا الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية سيكون مسموحاً لها أن تدخل إلى الموانئ المختلفة للداى للتجارة مع رعايانا أو أى أشخاص آخرين مقيمين داخل نطاق سيادتنا، مع دفع الرسوم المعتادة فى بيت الجمارك التى تدفعها كل الأمم التى فى سلام مع هذه الولاية، مع ملاحظة أن كل البضائع التى يتم تفريغها من السفن دون أن يتم بيعها هنا سيتم السماح بإعادة شحنها دون دفع أى رسوم سواء للشحن أو للتفريغ، وسيتم السماح ببيع حمولات الناقلات البحرية و الحربية مثل البارود و الرصاص والحديد والأخشاب وألواح الأخشاب المستخدمة للبناء و الكبريت والقطران و القار و راتينج القلفونية والتربنتينا وأية بضائع أخرى تندرج تحت مسمى الذخائر الحربية والبحرية فى الولاية دون دفع أى رسوم فى إدارة الجمارك التابعة للولاية.

البند الثالث :

تستطيع سفن وحاويات كلتا الدولتين المرور عبر أراضى الدولتين دون

التعرض لأى نوع من الإعاقة أو المضايقة ؛ كما أن كل البضائع و الأموال ومسافرى أى من الدولتين على متن سفن أى من الطرفين سيتم اعتبارها حرمة لا تنتهك، و سيتم السماح لها بالمرور دون أى إعاقة تذكر

البند الرابع :

إن كل السفن الحربية التابعة لهذه الولاية عند ملاقاتها لحاويات وسفن تجارية مملوكة لمواطنين من الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية سيتم السماح لشخصين فقط بزيارتهم بالإضافة إلى المجدفين ؛ يؤذن لهذين الشخصين بالذهاب على متن السفينة المذكورة دون الحاجة للحصول على إذن مغادرة من قائد السفينة المذكورة، حيث يقوم بمعاينة التأشيرة وعلى وجه السرعة يسمح للسفينة بالاستمرار ومتابعة رحلتها دون أى مضايقات أو إعتراض . وكذلك كل السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية عند ملاقاتها لأى سفينة حربية جزائرية ستقوم بمعاينة التأشيرة والتصريح لهذه السفينة الحاصلة عليه من قنصل الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية المقيم بهذه الولاية فيُسمح لهذه السفينة بمتابعة رحلتها دون أى اعتراض ؛ لا يتم إصدار أى تأشيرة لأى سفن فيما عدا تلك التى يمتلكها رعايا الولايات المتحدة بشكل مطلق، والمدة القصوى للحصول على تأشيرات للسفن من الولايات المتحدة الأمريكية هى ١٨ شهراً .

البند الخامس :

لن يتم السماح لقبطان أى من السفن الحربية التابعة للولاية بأخذ أى شخص ينتمى لأى دولة أو جنسية، خارج أى سفينة تابعة للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية بهدف التحقيق معه أو تحت غطاء جعلهم يدلون بأى شئ يرغبونه (تلقينهم بما يريدون منهم أن يقولوه فى مصلحتهم) وكذلك لن يسمح لهم بمعاقبتهم بأى نوع من العقاب الجسدى أو أن يتم مضايقتهم بأى طريقة كانت .

البند السادس :

إذا جنحت أى سفينة تابعة للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية على شاطئ هذه الولاية، فستتلقى جميع أنواع الدعم والمساندة الممكنة من رعايا هذه الولاية، كما سيتم السماح لكل البضائع التى تم إنقاذها من حطام السفينة الغارقة أو الجانحة بإعادة شحنها على متن أى سفينة أخرى دون دفع رسوم فى إدارة الجمارك .

البند السابع :

لن يكون فى استطاعة الجزائريين إعطاء أو بيع أى سفينة حربية أو أى سفينة قادرة على الإبحار لأى أمة فى حالة حرب مع الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية للإضرار بالتجارة مع الولايات المتحدة.

البند الثامن :

إذا اشترت أية رعية تابعة للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية سفينة مسلوبة ادانها الجزائريون، فلن يتم أسرها مرة ثانية بواسطة السفن الحربية للداى وهى فى عرض البحر،حتى إن لم يكونوا يملكون تأشيرة مرور، و سوف تعتبرشهادة من القنصل المقيم مستنداً كافياً حتى يمكنهم تدبير أى تأشيرة مرور.

البند التاسع :

إذا قامت أى من البلدان البربرية التى فى حالة حرب مع الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية بأسر أى سفينة أمريكية و حملتها إلى أى من موانئ الولاية،فلن يكون مسموحاً بشرائها،و ستغادرالميناء بعد الحصول على الإمدادات الضرورية من المؤن .

البند العاشر :

أى سفينة تابعة للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية عندما تكون فى حالة حرب مع دولة أخرى، سوف يسمح لها أن ترسل أسلابها إلى موانئ الإيالة،و سوف ترحل بدون دفع أية رسوم على ذلك،و كل السفن التى تريد مؤناً او مثلجات سوف يسمح لها بشرائها بسعر السوق.

البند الحادى عشر :

سيكون مسموحاً لكل السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية التى ترسو فى موانئ الإيالة، بأن تحصل على الهدايا المعتادة من المؤن و المثلجات مجاناً،و أى فرد من رقيق هذه الإيالة سيهرب على متن السفن السالفة الذكر فسوف يتم إعادته مباشرة، و لن تقبل الأعذار إذا ما أراد الاختباء فيما بين الناس حتى لا يتم العثور عليه، أو أى مراوغة أخرى.

البند الثانى عشر :

لن يسمح لأى من رعايا الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية بعتق أى عبد ضد

رغبته حتى و لو كان شقيقه،و أجبرمالك العبد على بيعه ضد رغبته حتى لوكان شقيقه،إذا ما كان مالك العبد مجبراً على بيعه على خلاف رغبته فحسب، يجب أن تتم جميع الاتفاقات بقبول الأطراف المعنية،أى رعية أمريكية سيتم أسرها على سفينة العدو بواسطة زورق من هذه الإيالة وهو يحوز على جواز سفر صالح يوضح أنه من رعايا الولايات المتحدة، فسوف يتم إطلاق سراحه فوراً، وعلى العكس من ذلك الذين لا يحوزون على جوازات سفر فسوف يعتبرون هم وممتلكاتهم غنيمة مشروعة حيث ستعرف هذه الإيالة أصدقائها بجوازات سفرهم.

البند الثالث عشر :

أى رعايا الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية يتوفون داخل حدود هذه الإيالة،فلن يرث الداى و رعاياه ممتلكات المتوفى،لكنها ستكون تحت الإشراف المباشر للقنصل حتى تعد وفقاً للوصية التى إن لم تكن موجودة فإن المتعلقات ستوضع بين يدى شخص مؤتمن، حتى يطالب بها الشخص الذى له الحق فيها عندما يقدم حصراً بالممتلكات،و لن يقف الداى أو الديوان ضد أى وصية تظهر.

البند الرابع عشر :

لن تتعهد أية رعية للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية بشراء أية بضائع ضد رغبتها، لكن على العكس سيكون الشراء ممن هى تريد، و لن يكون قنصل الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية أوأية رعية أخرى مسئولة عن الديون المستحقة على أى فرد من بلده، حتى يكون قد قدم تعهداً مكتوباً بذلك من قبل،و سوف يحصل الداى على رسم كأجرة شحن لأية سفينة أمريكية ربما تكون فى الإيالة أو فى تركيا.

البند الخامس عشر :

سيقوم الداى بصفته الشخصية و لا أحد غيره بالفصل فى أى نزاعات أو شكايات قانونية، ربما تقع بين رعايا الإيالة ورعايا الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية، سيقوم القنصل بالفصل فى أى نزاعات ربما تقع بين رعايا الولايات المتحدة و ذلك فى الأحوال التى لا تتعارض مع قوانين الإيالة.

البندالسادس عشر :

ستتم معاقبة أية رعية للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية قتل أو اصاب أو

ضرب رعية بهذه الإيالة كالشخص التركى،و ليس بصورة أشد صرامة منـــه، وإذا هرب أى رعية للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية من أى طبقة من الـــسجن فلـــن يكون القنصل مسئولاً عنه .

البندالسابع عشر :

سيعطى تأمين لقنصل الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية على نفسه و علـــى منزله و سيملك حرية ممارسة شعائره الدينية فى منزله و لن يمنع الرقيـــق الـــذين على نفس الدين من الذهاب إلى منزل القنصل المذكور آنفاً فى أوقـــات الـــصلاة و ستكون لدى القنصل الحرية و الأمان الشخصى للسفرأينما هو يريد داخل الإيالة و عبر أى سفينة و يصطحب معه ترجماناً ووسيطاً.

البندالثامن عشر :

إذا نشبت الحرب بين الطرفين فإن قنصل الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية وكل رعايا الولايات المذكورة سيرحلون على متن سفينة بأنفسهم و ممتلكاتهم بدون مضايقة.

البندالتاسع عشر :

إذا قامت السفن الحربية التابعة للجزائر بأسر أى مركب يحمل رعايا تابعين للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية يحملون أوراقاً تثبت حقاً أنهم كذلك،فسوف يـــتم إطلاق سراحهم فوراً،و سفن الولايات المتحدة التى ستأسر أى سفن للدول التى فى حالة حرب معها و على متنها رعايا لهذه الإيالة فسوف تتم معاملتهم بنفس الطريقة.

البندالعشرين :

أية سفينة حربية تابعة للولايات المتحدة لأمريكا الشمالية ترسو فـــى مـــوانئ الإيالة سيقوم القنصل بإبلاغ الداى بوصولها و ستتم تحيتها بإطلاق إحدى و عشرين طلقة و تغادر بنفس الطريقة، و يقوم الداى بإرسال المواد الطازجة إلـــى الـــسفينة مجاناً كما هو معتاد.

البند الواحد و العشرين :

لن يدفع قنصل الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية رسماً على أى شئ يحملـــه من بلد خارجى لاستعماله فى منزله و اسرته.

البند الثانى و العشرين :

عندما تقع أية توترات بين رعايا الولايات المتحدة ورعايا هذه الإيالة أوعند حدوث أى خرق لأى مادة من مواد هذه المعاهدة فلن تعلن الحرب علــى الفــور، وسيتم التباحث حول كل الموضوعات بصورة منظمة و سيدفع الطــرف المعتــدى تعويضاً .

(فى ٢١ صفر ١٢١٠هــ الموافق ٥سبتمبر اتفق جوزيف دونالدسون من طرف الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية مع حسن باشا داى الجزائرعلــى الاحتفــاظ بالبنود الواردة فى هذه المعاهدة مصانة و لا تنتهك،ونحن و الداى و الديوان نتعهد بمراقبــة ذلــك،مع مراعــاة أن تــدفع الولايــات المتحــدة مبلــغ إثنــى عــشر ألف(١٢,٠,٠,٠)سكوين جزائرىسنوياً فى صورة ذخيرة بحرية تغطى المبلغ،ويقوم الداى بدفع المبلغ الزائد نقداً.و أية سفينة سيتم أسرها من تاريخ هذه المعاهدة للسلام و الصداقة سيتم تحريرها فوراًعند وصولها إلى الجزائر) .

الوزير حسن باشا

جوزيف دونالدسون

(ختم الجزائر وضع فى أسفل المعاهدة الأصلية باللغة العربية)

(*)U.S Treaties,Conventions International Acts, Protocols AndAgreements (1776-1909) PartI,Vol.I,pp.1-6

الملحق رقم(٢)
الترجمة العربية
للمعاهدة الجزائرية الأمريكية عام ١٨١٥(*)
(معاهدة السلام و الصداقة)

(أبرمت فى٣٠يونية و ٦يوليه١٨١٥م،وصدق الكونجرس على المعاهدة فى٢١ديسمبر ١٨١٥، و تم إعلانها فى٢٦ديسمبر١٨١٥).

البند الأول :

من تاريخ إبرام المعاهدة الحالية سيستتب السلام و الصداقة الراسخة والمنيعة و الشاملة بين رئيس و رعايا الولايات المتحدة الأمريكية من جانب، و داى إيالة الجزائر البربرية و أتباعه من جانب آخر، و على شروط الأمم الأولى بالرعاية، و إذا منح أى طرف أمة أخرى أى محاباة أو امتياز خاص فى الملاحة أو التجارة فسوف يصبح على الفورممنوحاً للطرف الآخر،أما إذا كان الامتياز الممنوح مشروطاً فسيكون من حق الأطراف المتعاقدة قبول أو رفض أى شروط .

البند الثانى:

إنه سيكون من المفهوم بوضوح بين الأطراف المتعاقدة أنه لن تكون هناك جزية، سواء كانت فى صورة هدايا كل عامين أو تحت أى شكل أو أسم آخر يطلبها الداى أو إيالة الجزائر من الولايات المتحدة الأمريكية تحت أى مبرر.

البند الثالث :

سوف يعمل داى الجزائر على نقل كل الرعايا الأمريكيين الموجودين الآن تحت سيادته، و البالغ عددهم عشرة أو أكثر أو أقل، مباشرة إلى الاسطول الأمريكى المتواجد خارج الجزائر، على أن يتم نقل كل رعايا داى الجزائر الموجودين تحت سيادة الولايات المتحدة، و يقدرون بنحو خمسمائة أو أكثر أو أقل، وفقاً لأعراف الأمم المتحضرة و لن تطالب الولايات المتحدة بفدية للعفو عن المسجونين الذين فى حوزتها.

البند الرابع :

سيدفع داى الجزائر تعويضا كاملاً إلى أية رعية تابعة للولايات المتحدة كانت السفن الجزائرية قد أسرتها أو احتجزتها، أو كانت ممن اجبروا على تسليم

ممتلكاتهم فى الجزائر، الأمر الذى كان يعد انتهاكاً للبند(٢٢) من معاهدة السلام والصداقة المبرمة بين الولايات المتحدة و داى الجزائر فى٥سبتمبر١٧٩٥،فقد اتفق عليها بين الأطراف المتعاقدة بدلاً من المذكورة آنفاً، كما سيقوم داى الجزائر فوراً بنقل كل كمية بالات القطن التى تركها القنصل العام الأخير للولايات المتحدة إلى أيدى القنصل العام الأمريكى المقيم فى الجزائر، وسيدفع ألف دولار أسبانى للقنصل المذكور آنفاً.

البند الخامس :

أى بضائع تابعة لأى دولة فى حالة حرب مع أحد الطرفين المتعاقدين، شحنت على متن سفن إلى الطرف الآخرتمر بحرية و بغير مضايقة، و لن تجرى محاولة أخذهم أو احتجازهم.

البند السادس :

يتم تحرير أى رعايا أو تابعين منتسبين لأى طرف وجدوا على متن سفينة مأسورة استولى عليها الطرف الآخر من دولة معادية بممتلكاتهم الشخصية، و لن يتم الاحتفاظ بأية رعية أمريكية فى الأسر أو الحجز تحت أى ذريعة،و كذلك ممتلكات أية رعية أمريكية وجدت على متن السفينة ربما تكون الجزائر فى حالة حرب معها، بعد إظهار قنصل الولايات المتحدة المقيم فى الجزائر مستنداً يحتوى على الأدلة الكافية التى تثبت الرعوية الأمريكية و الملكية الأمريكية.

البند السابع :

عند ملاقاة كل السفن الحربية التابعة لهذه الولاية لحاويات وسفن تجارية مملوكة لمواطنين من الولايات المتحدة الأمريكية سيتم السماح لشخصين فقط بزيارتها بالإضافة إلى المجدفين ؛ و يؤذن لهذين الشخصين بالذهاب على متن السفينة المذكورة دون الحاجة للحصول على إذن مغادرة من قائد السفينة المذكورة، حيث يقوم بمعاينة التأسيرة وعلى وجه السرعة يسمح للسفينة بالإستمرار ومتابعة رحلتها دون أى مضايقات أو إعتراض . وكذلك كل السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة عند ملاقاتها لأى سفينة حربية جزائرية ستقوم بمعاينة التأشيرة والتصريح لهذه السفينة الحاصلة عليه من قنصل الولايات المتحدة الأمريكية المقيم بهذه الولاية، فيُسمح لهذه السفينة بمتابعة رحلتها دون أى إعتراض، و لا يتم إصدار أى

تأشيرة لأى سفن فى فيماعدا تلك التى يمتلكها رعايا الولايات المتحدة بشكل مطلق.

البند الثامن :

أى رعية أو تابع من الطرفين المتعاقدين اشترى سفينة مسلوبة ادانه الطرف الآخر أو أى دولة أخرى،فسوف تكون شهادات الإدانة ووثيقة البيع تاشيرة كافية لأى سفينة لمدة ستة أشهر، وهى مقدار المسافة بين البلدين، على أن تعطى الوقت الكافى لتدبير تاشيرات السفر المناسبة.

البند التاسع :

سوف تبحر سفن أى طرف من الأطراف المتعاقدة إلى موانئ الطرف الآخر وتتلقى المواد والمؤن الآخرى المنعشة بسعر السوق،و إذا وقعت أى سفينة فى كارثة بحرية و أرادت إجراء عملية إصلاح ستكون لها الحرية فى إعادة شحن السفينة على متن أى سفينة أخرى دون دفع أية رسوم فى إدارة الجمارك.

البند العاشر:

إذا جنحت أى سفينة تابعة لأى طرف من الأطراف المتعاقدة على شاطئ الطرف الآخر، فسيتلقى طاقمها جميع أنواع الدعم والمساندة الممكنة، كما أنه سوف يتم السماح بإعادة شحن كل البضائع التى تم إنقاذها من حطام السفينة الغارقة أو الجانحة على متن أى سفينة أخرى دون دفع أى جمارك أو مكوس، ويتم حماية طاقمها و إسعافه حتى عودته إلى بلاده.

البند الحادى عشر :

إذا تعرضت سفينة أى طرف من الأطراف المتعاقدة لهجوم معاد على مدى رمية قذيفة مدفعية من حصون الطرف الآخر، سيتم حمايتها بأقصى درجة ممكنة،و إذا كانت فى الميناء فلن يتم الاستيلاء عليها أو مهاجمتها عندما تكون فى نطاق سلطة الطرف الآخر، و عندما يتم إيصالها إلى البحرفلن يكون مسموحاً للعدو بمطاردتها من نفس الميناء فى نطاق أربع و عشرين ساعة بعد رحيلها.

البند الثانى عشر :

تقوم التجارة بين الولايات المتحدة الأمريكية و إيالة الجزائر، و الضمانات المقدمة للتجار و ملاك السفن و رجال البحر، والحقوق المتبادلة لإقامة القناصل فى كل بلد و الامتيازات و الحصانات و الحقوق الممنوحة للدول ذات السيادة التى

تتمتع بها من خلال القناصل، جميعها على أساس الأمم الأولى بالرعاية.

البند الثالث عشر :

لن يكون قناصل الولايات المتحدة الأمريكية مسئولون عن ديون رعاياهم حتى يقدموا تعهدات مكتوبة مسبقاً لعمل ذلك.

البند الرابع عشر :

سيقوم القنصل بإبلاغ الداى بوصول السفينة او السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة التى ترسو أمام مدينة الجزائر، وسيتم تقديم التحية العسكرية لها وسوف تحصل على معاملة متساوية لنفس التى تحصل عليها الأمم الأولى بالرعاية،و إذا ما أعلن عن أسر أى مسيحيين فى الجزائر و ساروا لاجئين على متن السفن الحربية فلن يكون مطلوباً إعادتهم مرة أخرى، و لن يكون قنصل الولايات المتحدة و لا قادة السفن المذكورة آنفاً مطالبين بدفع أى شئ عن المسيحيين المذكورين آنفاً.

البند الخامس عشر :

لن تقف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ضد القوانين الخاصة بكل أمة من ناحية الدين الأمن،و لن تدخل الولايات السالفة الذكر فى أى حرب أو عمل عدوانى متعمد إلا للدفاع عن حقوقها فى أعالى البحار،و يعلن الطرفان المتعاقدان أنه لن يكون هناك سبباً دينياً يعوق التوافق القائم بين البلدين، و سيكون من حق القناصل و الوكلاء القنصليون لكلا البلدين إقامة شعائرهم الدينية الخاصة بهم فى منازلهم. ستكون للقناصل الحرية و الأمان الشخصى للسفرأينما أرادوا داخل أراضى الطرف الآخر براً و بحراً و من خلال أية سفينة، و ستكون لهم الحرية فى تعيين ترجماناً ووسيطاً.

البندالسادس عشر :

فى حالة وقوع أى انتهاك لأى بند من بنود هذه المعاهدة فلن يتم اللجوء إلى السلاح و لن تعلن الحرب تحت أى مبرر،و إذا فشل القنصل المقيم فى مكان وقوع النزاع فى حل المشكلة،فسوف تقدم حكومة هذا البلد شكوى مكتوبة إلى الحكومة الأخرى، على أن تتلقى الرد خلال ثلاثة أشهر،و لن يكون مسموحاً لأى طرف خلال هذه الفترة من القيام بأية أعمال عدوانية،و إذا لم تؤد الشكوى إلى حل

المشكلة و أصبحت الحرب واقعة لامحالة فسوف يسمح لقناصل و رعايا كلا الطرفين على التوالى بركوب السفن مع متعلقاتهم بدون مضايقة، و على متن السفينة أو السفن التى هم يعتقدون أنها مناسبة،مع إعطائهم وقتاً مناسباً لهذا الغرض.

البندالسابع عشر :

لن يصبح الأسرى الذين يقوم أى طرف بأسرهم إذا نشبت الحرب بين البلدين رقيقاً،و لن يجبروا على الأعمال الشاقة أو الاحتجاز، و اتفق على تبادل الأسرى خلال إثنى عشر شهراً من أسرهم بالكامل،و التبادل سيتم بواسطة طرف مستقل يكون مفوضاً خصيصاً لذلك بصورة قانونية من الطرفين.

البند الثامن عشر :

إذا قامت أى من البلدان البربرية أو القوى الأخرى التى فى حالة حرب مع الولايات المتحدة بأسر أى سفينة أمريكية و حملتها إلى أى من موانئ إيالة الجزائر،فلن يكون مسموحاً لهم ببيعها،لكنهم سيغادروا الميناء بعد الحصول على الإمدادات الضرورية من المؤن، لكن السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة ستكون لها الحرية فى التردد على موانئ الجزائر- بما تحمله من غنائم قد تكون غنمتها من أعدائها- للتزود بالإمدادات الضرورية، و ستبيع أى غنائم فى هذه الموانئ المذكورة آنفاً بدون دفع أى جمارك أو رسوم جمركية أخرى مفروضة على البضائع التجارية المستوردة كما هومعتاد .

البندالتاسع عشر :

سيقوم القنصل بالفصل فى أى نزاعات ربما تقع بين رعايا الولايات المتحدة أو أى أشخاص تحت حمايتهم، و على الحكومة الجزائرية أن تقدم المعونة و المساعدة التى يطلبها القنصل، وأية نزاعات ربما تقع بين رعايا الولايات المتحدة و رعايا أو أتباع أية دولة أخرى لها قنصل أو وكالة فى الجزائرسوف يقوم القناصل أو الوكلاء القنصليين الممثلين لكل دولة بحلها، و أية نزاعات أو شكاوى قانونية تكون بين رعايا الولايات المتحدة و رعايا إيالة الجزائر سيقوم الداى شخصياً - و لا أحد غيره- بالفصل فيها.

البند العشرين :

إذا قام أية رعية للولايات المتحدة بقتل أو أصابة أو ضرب أية رعية من الجزائر أو على العكس إذا قام أية رعية من الجزائر بقتل أو أصابة أو ضرب أية رعية من الولايات المتحدة فسوف يتم تنفيذ قانون البلد والقضاء بصورة متساوية وسيساعد القنصل فى المحاكمة، و ستتم معاقبة الرعية الأمريكية كالشخص التركى الذى يكون فى حالة مماثلة، و ليس بصورة أشد صرامة منه.و إذا هرب أى مجرم فلن يكون القنصل مسئولا عنه بأى صفة .

البند الواحد و العشرين :

لن يكون قنصل الولايات المتحدة الأمريكية مطالباً بدفع أى جمارك أو رسوم على أى شئ يحمله من بلد خارجى لاستعماله فى منزله و اسرته.

البند الثانى و العشرين :

لن يتدخل الداى و رعاياه فى ممتلكات أى شخص من رعايا الولايات المتحدة الأمريكية يتوفى داخل حدود إيالة الجزائر،وسيكون الأمر تحت الإشراف المباشر للقنصل لتنفيذ الوصية، أما إذا لم يكن هناك قنصلاً فستنقل الممتلكات إلى بعض الأشخاص الجديرين بالثقة، حتى يظهر الطرف الذى له الحق فى المطالبة بممتلكاته، بعد أن يقدم كشفاً بالممتلكات دون أن يعرقل الداى أو رعاياه تنفيذ أية وصية تظهر.

(أنا اصدق على ما سبق ليكون نسخة حقيقية لمعاهدة السلام التى تفاوض عليها القومادور ديكاتور وأنا مع داى الجزائر و التى وقع عليها داى هذه الإيالة فى ٣٠يونية١٨١٥ فوق ظهر سفينة الولايات المتحدة جيوريور فى ٦يولية١٨١٥).

و.م شالير

(*)U.S Treaties,Conventions International Acts,Protocols And Agreements (1776-1909) PartI,Vol.I,pp.6-11

الملحق رقم(٣)
الترجمة العربية
لتعديل المعاهدة الجزائرية الأمريكية فى عام ١٨١٦(*)
(معاهدة السلام و الصداقة)

(أبرمت فى٢٢ ديسمبر و٢٣ ديسمبر ١٨١٦م،وصدق عليها مجلس النواب فى١فبراير ١٨٢٢، و تم إعلانها فى١١فبراير ١٨٢٢)(**).

فى إطاررغبة كل من رئيس الولايات المتحدة و داى الجزائر التأكيد و المحافظة على السلام الثابت و الدائم و حسن التفاهم بين الدولتين،قاما بمراجعةمعاهدة السلام و الصداقة التى كانت قد أبرمت بين الدولتين بواسطة كل من ويليام شالير و القومادور ستبفن ديكاتور كمندوب فوق العادة من جانب الولايات المتحدة و صاحب السعادة عمر باشا داى الجزائر فى ٣٠يونية١٨١٥، و قد عين رئيس الولايات المتحدة –فيما بعد– بالإضافة إلى المندوب الفوض المذكور آنفاً ويليام شالير و إيزاك شاوينسى القائد فى رئاسة أركان جميع القوات البحرية للولايات المتحدة فى البحر المتوسط،مفوضين فوق العادة للتباحث مع صاحب السعادة داى الجزائرحول مراجعة المعاهدة المذكور آنفاً،و قد أبرموا ووقعوا البنود التالية:

البند الأول :

من تاريخ إبرام المعاهدة الحالية سيستتب السلام و الصداقة الراسخة والمنيعة و الشاملة بين رئيس و رعايا الولايات المتحدة الأمريكية من جانب، و داى إيالة الجزائر البربرية و أتباعه من جانب آخر، و على شروط الأمم الأولى بالرعاية، و إذا منح أى طرف أمة أخرى أى محاباة أو امتياز خاص فى الملاحة أو التجارة فسوف يصبح على الفورممنوحاً للطرف الآخر،أما إذا كان الامتياز الممنوح مشروطاً فسيكون من حق الأطراف المتعاقدة قبول أو رفض أى شروط .

البند الثانى:

إنه سيكون من المفهوم بوضوح بين الأطراف المتعاقدة أنه لن تكون هناك جزية، سواء كانت فى صورة هدايا كل عامين أو تحت أى شكل أو أسم آخر يطلبها الداى أو إيالة الجزائر من الولايات المتحدة الأمريكية تحت أى مبرر.

البند الثالث :

فيما يتعلق بالتبادل المشترك للأسرىو الرعايافسوف يتم تنفيذه كما ينبغى.

البند الرابع :

فيما يتعلق بنقل كمية من بالات القطن إلى القناصل فسوف يتم تنفيذه كما ينبغى.

البند الخامس :

إذا شحنت أية بضائع تابعة لأى دولة يكون أحد الطرفين المتعاقدين فى حالة حرب معها على متن سفن إلى الطرف الآخرفإنهم سيمروا بحرية و بغير مضايقة،و لن تجرى محاولة أخذهم أو احتجازهم.

البند السادس :

يتم تحرير أى رعايا أو تابعين منتسبين لأى طرف وجدوا على متن سفينة مأسورة استولى عليها الطرف الآخر من دولة معادية بممتلكاتهم الشخصية، و لن يتم الاحتفاظ بأية رعية أمريكية فى الأسر أو الحجز تحت أى ذريعة،و كذلك ممتلكات أية رعية أمريكية وجدت على متن السفينة ربما تكون الجزائر فى حالة حرب معها،بعد إظهار قنصل الولايات المتحدة المقيم فى الجزائر مستنداً يحتوى على الأدلة الكافية التى تثبت الرعوية الأمريكية و الملكية الأمريكية.

البند السابع :

عند ملاقاة كل السفن الحربية التابعة لهذه الولاية لحاويات وسفن تجارية مملوكة لمواطنين من الولايات المتحدة الأمريكية سيتم السماح لشخصين فقط بزيارتها بالإضافة إلى المجدفين ؛ و يؤذن لهذين الشخصين بالذهاب على متن السفينة المذكورة دون الحاجة للحصول على إذن مغادرة من قائد السفينة المذكورة، حيث يقوم بمعاينة التأسيرة وعلى وجه السرعة يسمح للسفينة بالإستمرار ومتابعة رحلتها دون أى مضايقات أو إعتراض . وكذلك كل السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة عند ملاقاتها لأى سفينة حربية جزائرية ستقوم بمعاينة التأشيرة والتصريح لهذه السفينة الحاصلة عليه من قنصل الولايات المتحدة الأمريكية المقيم بهذه الولاية، فيُسمح لهذه السفينة بمتابعة رحلتها دون أى إعتراض، و لا يتم إصدار أى تأشيرة لأى سفن فى فيماعدا تلك التى يمتلكها رعايا الولايات المتحدة بشكل مطلق.

البند الثامن :

أى رعية أو تابع من الطرفين المتعاقدين اشترى سفينة مسلوبة ادانه الطرف الآخر أو أى دولة أخرى،فسوف تكون شهادات الإدانة ووثيقة البيع تاشيرة كافية لأى سفينة لمدة ستة أشهر، وهى مقدار المسافة بين البلدين، على أن تعطى الوقت الكافى لتدبير تاشيرات السفر المناسبة.

البند التاسع :

سوف تبحر سفن أى طرف من الأطراف المتعاقدة إلى موانئ الطرف الآخر وتتلقى المواد والمؤن الآخرى المنعشة بسعر السوق،و إذا وقعت أى سفينة فى كارثة بحرية و أرادت إجراء عملية إصلاح ستكون لها الحرية فى إعادة شحن السفينة على متن أى سفينة أخرى دون دفع أية رسوم فى إدارة الجمارك.

البند العاشر :

إذا جنحت أى سفينة تابعة لأى طرف من الأطراف المتعاقدة على شاطئ الطرف الآخر، فسيتلقى طاقمها جميع أنواع الدعم والمساندة الممكنة، كما أنه سوف يتم السماح بإعادة شحن كل البضائع التى تم إنقاذها من حطام السفينة الغارقة أو الجانحة على متن أى سفينة أخرى دون دفع أى جمارك أو مكوس، ويتم حماية طاقمها و إسعافه حتى عودته إلى بلاده.

البند الحادى عشر :

إذا تعرضت سفينة أى طرف من الأطراف المتعاقدة لهجوم معاد على مدى رمية قذيفة مدفعية من حصون الطرف الآخر، سيتم حمايتها بأقصى درجة ممكنة،و إذا كانت فى الميناء فلن يتم الاستيلاء عليها أو مهاجمتها عندما تكون فى نطاق سلطة الطرف الآخر، و عندما يتم إيصالها إلى البحرفلن يكون مسموحاً للعدو بمطاردتها من نفس الميناء فى نطاق أربع و عشرين ساعة بعد رحيلها.

البند الثانى عشر :

تقوم التجارة بين الولايات المتحدة الأمريكية و إيالة الجزائر، و الضمانات المقدمة للتجار و ملاك السفن و رجال البحر، والحقوق المتبادلة لإقامة القناصل فى كل بلد و الامتيازات و الحصانات و الحقوق الممنوحة للدول ذات السيادة التى تتمتع بها من خلال القناصل، جميعها على أساس الأمم الأولى بالرعاية.

البند الثالث عشر :

لن يكون قناصل الولايات المتحدة الأمريكية مسئولون عن ديون رعاياهم حتى يقدموا تعهدات مكتوبة مسبقاً لعمل ذلك.

البند الرابع عشر :

سيقوم القنصل بإبلاغ الداى بوصول السفينة او السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة التى ترسو أمام مدينة الجزائر، وسيتم تقديم التحية العسكرية لها وسوف تحصل على معاملة متساوية لنفس التى تحصل عليها الأمم الأولى بالرعاية،و إذا ما أعلن عن أسر أى مسيحيين فى الجزائر و ساروا لاجئين على متن السفن الحربية فلن يكون مطلوباً إعادتهم مرة أخرى، و لن يكون قنصل الولايات المتحدة و لا قادة السفن المذكورة آنفاً مطالبين بدفع أى شئ عن المسيحيين المذكورين آنفاً.

البند الخامس عشر :

لن تقف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ضد القوانين الخاصة بكل أمة من ناحية الدين الأمن،و لن تدخل الولايات السالفة الذكر فى أى حرب أو عمل عدوانى متعمد إلا للدفاع عن حقوقها فى أعالى البحار،و يعلن الطرفان المتعاقدان أنه لن يكون هناك سبباً دينياً يعوق التوافق القائم بين البلدين، و سيكون من حق القناصل و الوكلاء القنصليون لكلا البلدين إقامة شعائرهم الدينية الخاصة بهم فى منازلهم. ستكون للقناصل الحرية و الأمان الشخصى للسفرأينما أرادوا داخل أراضى الطرف الآخر براً و بحراً و من خلال أية سفينة، و ستكون لهم الحرية فى تعيين ترجماناً ووسيطاً.

البندالسادس عشر :

فى حالة وقوع أى انتهاك لأى بند من بنود هذه المعاهدة فلن يتم اللجوء إلى السلاح و لن تعلن الحرب تحت أى مبرر،و إذا فشل القنصل المقيم فى مكان وقوع النزاع فى حل المشكلة،فسوف تقدم حكومة هذا البلد شكوى مكتوبة إلى الحكومة الأخرى، على أن تتلقى الرد خلال ثلاثة أشهر،و لن يكون مسموحاً لأى طرف خلال هذه الفترة من القيام بأية أعمال عدوانية،و 'إذا لم تؤد الشكوى إلى حل المشكلة و أصبحت الحرب واقعة لامحالة فسوف يسمح لقناصل و رعايا كلا الطرفين على التوالى بركوب السفن مع متعلقاتهم بدون مضايقة، و على متن السفينة أو السفن التى هم يعتقدون أنها مناسبة،مع إعطائهم وقتاً مناسباً لهذا الغرض.

البندالسابع عشر :

لن يصبح الأسرى الذين يقوم أى طرف بأسرهم إذا نشبت الحرب بين البلدين رقيقاً،و لن يجبروا على الأعمال الشاقة أو الاحتجاز، و اتفق على تبادل الأسرى خلال إثنى عشر شهراً من أسرهم بالكامل،و التبادل سيتم بواسطة طرف مستقل يكون مفوضاً خصيصاً لذلك بصورة قانونية من الطرفين.

البند الثامن عشر :

إذا قامت أى من البلدان البربرية أو القوى الأخرى التى فى حالة حرب مع الولايات المتحدة بأسر أى سفينة أمريكية و حملتها إلى أى من موانئ إيالة الجزائر، فلن يكون مسموحاً لهم ببيعها،لكنهم سيغادروا الميناء بعد الحصول على الإمدادات الضرورية من المؤن، لكن السفن الحربية التابعة للولايات المتحدة ستكون لها الحرية فى التردد على موانئ الجزائر- بما تحمله من غنائم قد تكون غنمتها من أعدائها- للتزود بالإمدادات الضرورية، و ستبيع أى غنائم فى هذه الموانئ المذكورة آنفاً بدون دفع أى جمارك أو رسوم جمركية أخرى مفروضة على البضائع التجارية المستوردة كما هومعتاد .

البند التاسع عشر :

سيقوم القنصل بالفصل فى أى نزاعات ربما تقع بين رعايا الولايات المتحدة أو أى أشخاص تحت حمايتهم، و على الحكومة الجزائرية أن تقدم المعونة و المساعدة التى يطلبها القنصل، وأية نزاعات ربما تقع بين رعايا الولايات المتحدة و رعايا أو أتباع أية دولة أخرى لها قنصل أو وكالة فى الجزائرسوف يقوم القناصل أو الوكلاء القنصليين الممثلين لكل دولة بحلها، و أية نزاعات أو شكاوى قانونية تكون بين رعايا الولايات المتحدة و رعايا إيالة الجزائر سيقوم الداى شخصياً - و لا أحد غيره- بالفصل فيها.

البند العشرين :

إذا قام أية رعية للولايات المتحدة بقتل أو أصابة أو ضرب أية رعية من الجزائر أو على العكس إذا قام أية رعية من الجزائر بقتل أو أصابة أو ضرب أية رعية من الولايات المتحدة فسوف يتم تنفيذ قانون البلد والقضاء بصورة متساوية وسيساعد القنصل فى المحاكمة، و ستتم معاقبة الرعية الأمريكية كالشخص التركى الذى يكون فى حالة مماثلة، و ليس بصورة أشد صرامة منه.و إذا هرب أى مجرم فلن يكون القنصل مسئولاً عنه بأى صفة .

البند الواحد و العشرين :

لن يكون قنصل الولايات المتحدة الأمريكية مطالباً بدفع أى جمارك أو رسوم على أى شئ يحمله من بلد خارجي لاستعماله فى منزله و اسرته.

البند الثانى و العشرين :

لن يتدخل الداى ورعاياه فى ممتلكات أى شخص من رعايا الولايات المتحدة الأمريكية يتوفى داخل حدود إيالة الجزائر،وسيكون الأمر تحت الإشراف المباشر للقنصل لتنفيذ الوصية، أما إذا لم يكن هناك قنصلاً فستنتقل الممتلكات إلى بعض الأشخاص الجديرين بالثقة، حتى يظهر الطرف الذى له الحق فى المطالبة بممتلكاته بعد أن يقدم كشفاً بالممتلكات دون أن يعرقل الداى أو رعاياه تنفيذ أية وصية تظهر.

بند إضافى و تفسيرى:

رغبة من الولايات المتحدة الأمريكية فى أن تقدم لداى الجزائر دليلاً على رغبتها فى الحفاظ على علاقات السلام و الصداقة بين القوتين، وعلى أساس الحرية الكاملة و من أجل إزالة أية عقبة قد تعترض سبيل العلاقات مع البلدان الأخرى، توافق على إلغاء البند الثامن عشرمن المعاهدة السابقة و الذى كان يعطى الولايات المتحدة ميزة فى موانئ الجزائر تفوق ما تحصل عليه الأمم

الأولى بالرعاية و التى لها معاهدات مع هذه الإيالة.

(تم فى قصر الحكومة فى الجزائر فى ٢٢ ديسمبر ١٨١٦/الموافق ٣صفر ١٢٣٢هـ).

(ختم) و.م شالير

(ختم) شاوينسى

(*)U.S Treaties,Conventions International Acts,Protocols And Agreements (1776-1909)PartI,Vol.I,pp.11-17

(**)جاء فى هامش المعاهدة ما يلى:"أصبحت الجزائر مقاطعة من فرنسا فى عام ١٨٣٠ وأصبحت المعاهدة مهملة" . أنظر : Ibid.p.11

المصادر و المراجع

أولاً : الوثائق :

1- George Washington Library :

George Washington Papers, Vol. 34.

2- Library of Congress:

-U.S Congress :Documents From the Continental Congress and the Constitutional (1774-1789).

-U.S Congress : Journals of the Continental Congress(1774-1789).

-U.S the executive Proceedings of the Senate Congress .

3- Department of State:

Protocols and Agreements (U.S Treaties, Conventions International Acts,Protocols And (1776 – 1909) Part 1, Vol. I ,New Yourk 1910.

4-Department of Navy:

- The Naval Monument,Containing Official

ثانياً : المراجع :

أ – العربية :

إبراهيم شحاته حسن (دكتور) :أطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة فى تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠ – ١٩٤٧)، منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٨١.

- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، ج ٢، المطبعة الأميرية، الطبعة الأولى، بولاق، القاهرة ١٣١٤ هـ .

- بوندا ريفسكى : الغرب ضد العالم الإسلامى، ترجمة إلياس شاهين، موسكو ١٩٨٥

– جرانت و تمبرلى : أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جـ ١، ترجمة بهاء فهمى، القاهرة ١٩٨٥

- دلندة الأرقش :مقدمات ووثائق فى تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، تونس ١٩٩٥
- رشاد الإمام(دكتور):سياسة حمودة باشا فى تونس١٧٨٢-١٨١٤،منشورات الجامعة التونسية، تونس ١٩٨٠.
- شوقى عطا الجمل (دكتور) وعبد الله عبد الرازق إبراهيم (دكتور) : تاريخ العالم العربى الحديث والمعاصر من الفتح العثمانى إلى الوقت الحاضر، القاهرة ١٩٨٩
- صلاح العقاد (دكتور) : المغرب العربى، دراسة فى تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصر، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٩٨٥.
- عبد العزيزمحمد الشناوى(دكتور):الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها،ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية،الطبعة الثانية١٩٨٦.
- على الصلابى(دكتور):الدولة العثمانية، عوامل النهوض و أسباب السقوط، دارالتوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية٢٠٠٤.

عمارجحيدر:آفاق ووثائق فى تاريخ ليبيا الحديث،الدار العربية للكتاب، طرابلس١٩٩١

- محمد أنيس (دكتور) و السيد رجب حراز (دكتور) : مدخل تاريخ الأمريكتين ، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٤ .
- محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى(١٥١٤ - ١٩١٤)القاهرة ١٩٧٧
- محمد فؤاد خليل(دكتور):الحملة الأمريكية على درنة(١٨٠١-١٨٠٥) مجلة علم النفس المعاصر و العلوم الإنسانية - جامعة المنيا ٢٠٠١.
- .... : الحرب الطرابلسية الأمريكية (١٨٠١ - ١٨٠٥)مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، جامعة المنيا، سلسلة الإصدارات الخاصة، المجلد ٣١ ، يناير ١٩٩٩.
- .... : المعاهدة العثمانية الأمريكية ١٨٣٠، مجلة المؤرخ المصرى، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد (٢٦) يناير ٢٠٠٣ .
- وليام شالر،مذكرات وليام شالر القنصل الأمريكى فى الجزائر(١٨١٦-١٨٢٤) ترجمة إسماعيل العربى،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر١٩٨٢.

ب-الأجنبية:

-Allen, Gardner W.:Our Navy and The Barbary Corsairs, Houghton Mifflin and Company 1905.

-Anderson, R. C. : Naval Wars in the Levant 1559 – 1853, Princton, 1952

- Barnby : The Prisoners of Algiers, An Account of The Forgotten American - Algerian War (1785 – 1797) New York 1976 .

- Bemis, Samuel : A Diplomatic History of the United States, New York, Third Edition, 1958.

- Bryson, Thomas : American Diplomatic Relations With the Middle East 1784 – 1975, New Jersy 1977.

- Gallagher : The United States and North Africa, Cambridge 1963 .

- Hall, Luella J.: the United States and Morocco 1776 – 1956, New Jersy 1971.

- Shavit, David : The United States in the Middle East, A historical dictionary, Greenwood Press,NewYourk1988.

-Thomson, Ann:Barbary and Emlightenment,European Attitudes towards the Magherb in 18th century, E.J Brill, New York, 1987.

-Wolf,John B.:The Barbary Coast,Algiers Under The Turks1500-1830,W.W.Norton and Company, NewYourk, London 1979.





Deux fausse portes provenant de Saqqara •

Hassan Nasr el-dine

Ces deux stèles fausses portes ont été retrouvées à Saqqara. L'une est conservée au Musée du Caire; tandis que l'autre est au magasin de Saqqara.

La stèle fausse porte d'Imm:

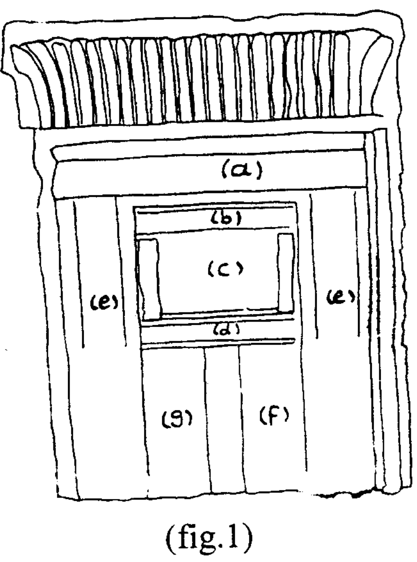
Cette fausse porte a été retrouvée à Saqqara, à l'ouest de la pyramide d'Ouanis[1].

Elle est conservée au Musée du Caire sous le No. CG 57168 (JE 36808). Elle mesure 1.05 m de haut et 0,74 m de large

Elle est fabriquée en calcaire. Elle est en bon état de conservation.

Cette stèle fausse porte présente une dénivellation de 2 cm entre les montants intérieurs et extérieurs. Elle est encadrée par un tore aplati dépourvu de décor et surmontée par une corniche à gorge ornée d'une rangée de palmes peintes et alternativement de couleur brun rouge, ocre rouge clair, vert et bleu noir.

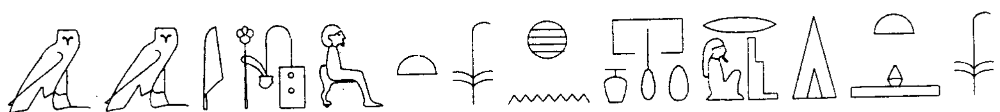
Le décor de la fausse porte se divise en plusieurs parties (fig. 1.)



(fig.1)

: l'architrave supérieur (a), un linteau supérieur inscrit de bandeau d'hiéroglyphes (b), un autre bandeau inscrit sur le linteau intérieur (c), le tableau central (d),un seconde linteau (e), deux paires de montants extérieures (f-g), deux paires de montants intérieures. Les inscriptions et les représentations sont gravées en creux.

(a) **L'architrave** : est gravée d'une ligne d'inscription consistant en une formule d'offrande au dieu Osiris :



ḏ-n(y)-sw.t-ḥtp Wsir pr.t-ḫrw t ḥ(n)ḳ.t n sš nsw ʾImm

"Fasse le roi que s'apaisent Osiris, de sorte qu'il accorde une offrande invocatoire (consistant en) pain et bière au scribe royal Imem".

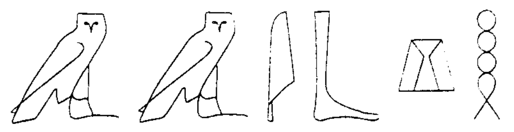
(b) **Un linteau supérieur** :



sš nsw ˁ3 mḏ3t ḫft-ḥr im3ḫw ʾImm

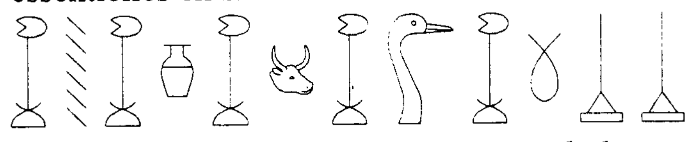
" Le scribe documentaliste du document royal qui est à la présence"

(c) **Un autre linteau** : l'inscription du linteau placé à mi-hauteur répète, comme à l'ordinaire le nom du propriétaire, mais donne un autre titre :



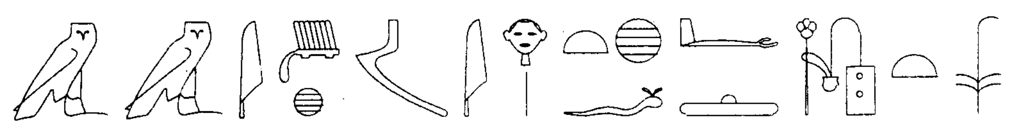
ẖry ḥbt nsw Ỉmm "le prêtre lecteur Imem". Il surmonte les deux montants Intérieurs.

(d) **Le tableau central** : Le tableau rectangulaire est flanqué de champs latéraux un peu larges. Il est en relief levé très léger. Il est vêtu d'un pagne court et coiffé d'une longue perruque sans mèche, dégageant les oreilles. Dans la main gauche, posée sur la poitrine , il tient un linge[2]. La droite est tendue vers la table d'offrandes placée devant lui. Il porte une scène de repas funéraire très sommairement sculptée. Le personnage est montré assis sur un siège aux pieds en forme de pattes de lion et à dossier bas recouvert d'un coussin. A gauche du pied sont figurés une aiguière et son bassin, à droite, un vase à bec et un vase fermé par un couvercle posés sur un support commun. Il tend la main droite vers la table d'offrandes chargée de pains qui sont évoqués de façon schématique par un simple rectangle. Au sommet quatre lignes d'hiéroglyphes résument les offrandes essentielles en faveur du défunt :



ḫꜣ t ḫꜣ ḥnḳt ḫꜣ kꜣw ḫꜣ ꜣpdw ḫꜣ sš, ḫꜣ mnḫt ḫꜣ .

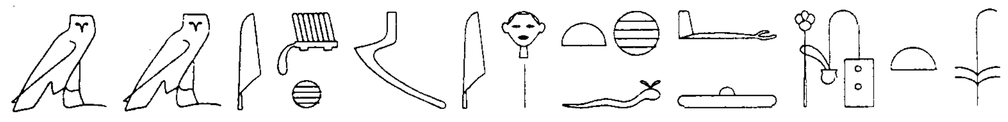
" mille pains, cruches de bière, mille de bœuf, différentes volailles, vases d'albâtre, pièce d'étoffes, mille". Au dessus du personnage, dans le tableau central, une ligne d'inscription :



sš nsw ꜥ3 mḏ3t ḫft-ḥr ỉmm

"Le scribe documentaliste du décret royal qui est à la présence".

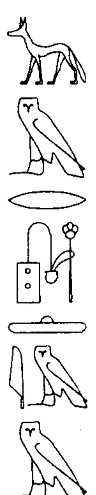
(e-f) **les deux montants extérieures** : sur le montant gauche, au registre supérieur, on voit les
titres suivants :



sš nsw ꜥ3 mḏ3t ḫft-ḥr ỉmm

. "Le scribe documentaliste du décret royal qui est à la présence "

Et sur le montant extérieure droite on lit:



s3b imy r sš(w) mḏ3t ỉmm

"chef des scribes documentalistes Imem".

Ils sont sculptés en léger retrait et portant chacun une image du personnage debout, vêtu d'un pagne à devanteau, tenant d'une main un sceptre aba et s'appuyant de l'autre sur une longue canne. Le personnage se dirige vers la niche, les mains étendant au long du

corps, et il porte la même perruque et le même collier.

(h-i) **les deux montants intérieures** : on trouve l'image du défunt, debout, longue perruque, dégageant les oreilles. Les deux mains au long du corps, ne tiennent rien. Toutes ces représentations se dirigent vers la niche étroite, surmontée d'un rouleau.

Commentaire :

Le nom du propriétaire " Imem" n'est pas attesté au *PN*. Mais, d'autre côté, il y a des certains noms de personnages s'appelant Memi. Par exemple, le propriétaire du mastaba situé au nord ouest de la pyramide de Teti, à Saqqara[3] . Le livre de *PN* en a cité plusieurs exemples[4] auxquels on ajoute d'autres exemplaires qui sont bien attesté à Saqqara: une partie de porte au nom de Memi[5]. Il pourrait appartenir au même personnage mentionné. Aussi on a le prince héréditaire Memi qui a laissé une partie d'obélisque inscrite à son nom à l'est de la pyramide de Pepi II, à Saqqara[6]. Le nom de Memi est toujours écrit par les lettres *m* puis *m* puis enfin la lettre *i*.

Cette fausse porte à la forme memphite classique typique à l'Ancien Empire[7]. Le *PM* la date de la V-VI Dyn[8]. Strudwick a divisé les fausse porte de la V Dynastie en deux types: A. Dans ce type, les montants sont inscrits en colonnes des titres. B. Dans celui-ci, un pair de montants est seulement inscrit des titres tandis que l'autre est inscrit par une formule[9]. Les fausses portes classique à l'époque de la VI Dynastie se divisent en deux types : l'un est la plus large et contient six montants, tandis que l'autre est plus petit et contient quatre montants[10]. Tous les deux types sont en commun à la nécropole memphite[11]. Notre fausse porte appartient, semble-t-il, au deuxième type.

La date proposée s'est fondée selon le type de la stèle[12]. Les texte

s'inscrivent dans la tradition de l'Ancien Empire, les formules d'offrande et les dieux qu'elle cite sont attestés de la fin de la Vème dynastie; la paléographie ne présente pas de caractéristiques de la Première Période Intermédiaire; quelques particularités sont à noter dans la liste résumée des offrandes: la position de la dernier 1000 à la ligne tout seul, et certain graphie : celle du nom d'Osiris.

car elle est relativement petite. Notre fausse porte a des éléments différents : elle n'a aucun inscriptions sur les montants intérieurs. On voit seulement le défunt, debout à chaque côté.

Sur le linteau supérieur s'inscrit la formule de *ḥtp di nsw* de manière classique. Mais on voit que le nom du dieu Osiris est écrit avec le déterminatif après les deux signes. Là, encore on voit seulement le dieu sans son titre fréquent *nb ḏdw* sur la plus part de fausse portes de Saqqara.

Le titre *sš nsw* : un titre relativement rare dans la nécropole memphite à l'Ancien Empire. Il est devenu plus rare sur les stèles provenant à cette nécropole, de cette époque. Dans son "Corpus", Daoud n'a pas cité aucun exemple de ce titre[13]. Un seul exemple se trouve à Giza du scribe royal Maa[14]. Il nous reste à noter que l'arrangement de signes du mot *nsw* est un peu inhabitué.

Il a l'épithète *im3ḫw* : un épithète répandu à l'Ancien Empire;il vient avec la prépostion *ḫr*, *n*[15]. Le nom d'un dieu ou d'un roi vient après la préposition[16].

Sur le montant droit, on voit un titre intéressant : *s3b imy r sšw mḏ3t* : "chefs des scribes documentalistes d'Etat". Ce titre se trouve depuis la V dynastie[17]. Le plus ancien exemplaire est celui du tombeau de *špsi* à Saaqqra[18]. Ce titre est rarement cité avec l'épithète *s3b*. On en 'a un autre exemple chez *K3-ʿpr*[19]. Chez *K3-ʿpr*, le tite imy r après le *s3b* n'existe pas. Parfois, on voit venir après le *s3b sḥḏ* et parfois imy r ou *ḫrp*[20]. D'autre côté, on a une autre forme de ce titre sans l'épithète *s3b*:

imy r sšw mḏꜣt. Ce dernier est plus fréquent[21]. Le mot *mḏꜣṯ* signifie: papyrus; archive; livre[22]. Le mot *mḏꜣt* là, apparaît en forme du singulier; tandis que le *Wb* a cité deux exemplaires de l'Ancien Empire en forme du pluriel dans les tombes de Kagemni et Ptahshepses[23]. Chaque département a son scribes documentalistes et ainsi leur chefs par exemple: *imy r sšw mḏꜣt ꜣḥwt* " chefs des scribes documentalistes des champs"; *imy r sšw mḏꜣt nṯr* "chefs des scribes du livre du dieu"; *imy r sšw mḏꜣt nt šnwt* "*direśteur* des scribes documentalistes du grenier"[24].

Notre personnage a porté un autre titre important; c'est le *sš mḏꜣt ꜥ n nsw n ḫft –ḥr.* On trouve souvent le mot *sš* vient bien avant le ꜥ et sans *n(y)* [25]. Ward a étudié ce titre et a cité les variantes du titre sans le mot *mḏꜣt.* Il a mentionné 25 exemples en total . Il veut le traduire en "scribe personnel des archives royales"[26]. En fait, le titre *sš ꜥw nw nswt ḫft ḥr* et ses variantes, est fréquent à la V et la VIème dynasties à Giza et à Saqqara[27]. Ce titre se trouve inscrit dans les tombes, souvent sur les fausse - portes. A Giza, on le voit inscrit sur la fausse porte de *snḏm- ib* qui est nommé *Inti,* daté de l'époque du roi Issesi[28]. Il a deux tombes à Giza: G 2370 et LG 10[29]. Dans la tombe d'Idou II[30]datée de la VI dynastie, Ity[31]et chez *Ny-sw ptḥ*[32]de la VI dynastie. Il est inscrit sur le montant droit de la porte; conservé actuellement au Musée du Caire no. JE 44973 [33]. Il est cité dans les tombes de Saqqara: Chez Hsesi et leur son *s* Sheshy et Ity [34]. Ce titre est inscrit sur la fausse porte, conservée au Musée du Caire CG 1413[35]. Pepy-seneb de la VI dynastie a porté ce titre, sur sa fausse- porte; conservée au Musée du Caire CG 1412[36]. Dans la tombe de *pḥ n wi kꜣi* au nord de Saqqara (LS 15), datée du milieu de la Vème dynastie[37], son fils porte ce titre.

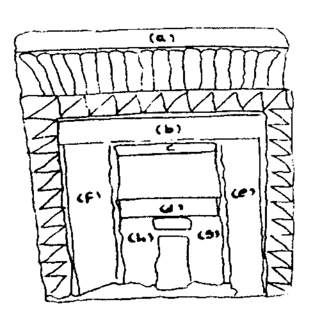
ḫry ḥbt[38]: on voit ce titre inscrit sur le linteau inférieur. Il était, peut êtr le responsable des rites journaliers dans l'établissement du culte[39]. Ce titre est bien connu des inscriptions des tombes et des temples

funéraires de l'Ancien Empire ou le porteur de ce titre a un rôle important dans les cérémonies du temple[40]. Le possesseur de ce titre est un directeur et lecteur des rites[41].

Cette belle stèle fausse porte colorée vient vraisemblablement de sa tombe située à Saqqara. Imem aurait fait carrière dans la court royale après avoir passé un peu du temps dans la direction des cérémonies dans le temple, comme *ḫry ḥb*. Ses fonctions sont liées à l'écriture. Il était d'abord "scribe royale", ensuite il est devenu "scribe privé royale des documents à la présence" et "chef des scribes documentalistes". C'est-à-dire, *Ἰmm* était le haut responsable des rapports ou des documents écrits. Il les présente au roi même.

La stèle fausse porte de Meryt

Cette stèle a été trouvé à Saqqara. Elle est actuellement conservé au magasin de l'inspectorat de Saqqara sous le numéro de 2275. Haut 52: Largeur: 30; fabriquée en calcaire.



(fig.2)

Sur le linteau Supérieur :



prt ḫrw n rḫt-nswt ḥm-nṯr Ḥw-tḥr imȝḫwt Mryt

htp di nsw n rḫt nswt ḥmt nṯr ḥwt ḥr Mryt

Sur le montant droit: *prt ḫrw n imȝḫwt Mryt*



Sur le montant gauche: *imȝḫwt* Mryt

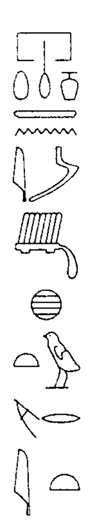


Sur le montant inférieur:



imȝḫwt Mryt

Au dessus du tableau central:



prt ḫrw n imȝḫwt Mryt

Sur l'architrave:

prt ḫrw n rḫyt nsw ḥmt nṯr ḥwt ḥr imȝḫwt Mryt

Sur le montant inférieur gauche:

rḫyt nsw Mryt



Sur le montant droit:.



rḫyt nswt?.Mryt

Commentaire général:

C'est une fausse porte de la prêtresse d'Hathor Meryt. Elle porte le titre

de *ḥmt -nṯr ḥwt -ḥr*. Ce titre est fréquent dans l'Ancien Empire et plus tard[42]. Ce titre est porté par des hommes et des femmes. Pour les hommes: *nfr sfḫ Ptḥ*[43] et *Tp m ʿnḫ*. On a deux personnes portant ce nom. L'un est le propriétaire du mastaba No. 75 D 10 chez Mariette. Il porte le titre du "chef des prêtres de Hathor".Il est contemporain du roi Ouanis[44]. L'autre est contemporain du roi Ouserkaf . Il ne porte pas ce titre mais il a porté des titres sacerdotaux et son épouse était porteuse de ce titre. Il est le propriétaire de la tombe No. 76 D 11[45]. Pour les femmes, ce titre est beaucoup attesté, soit à Saqqara ou soit à Giza ou ailleurs. A Giza, on voit la reine *bw nfr* le porte sur sa tombe[46]. Etant la fille du roi Shepseskaf ou son épouse(?),elle est la seule reine qui a porté ce titre jusqu'à la XI dynastie[47]. Dans la tombe de Wash Ptah, son épouse Wmtt kA a porté ce titre de la IV ou du début de la Vème dynastie[48]. On a 26 exemples des femmes portant le titre de *ḥm nṯr ḥt ḥr* à Saqqra et à Giza[49].

Notas :

•Je tiens à remercier Mme W. El-Sadeek, la directrice du Musée du Caire et le conservateur en chef M. el Halouagui.

1 Sur le cemitière d'ouanis à l'Ancien Empire, voir, A. Barsanti, *ASAE 3*, 1902, p. 187-90; J. Ph. Lauer, *Excavatins at Saqqara : La pyramide à degrés,* I, 5; III, 53; PM III/2, p. 613. Pour les stèles provenant de la nécropole de Saqqara, voir, K. Daoud, Corpus of inscriptions of the Herakleopolitan Period from the Memphite Necropolis, *BAR International Series 1459*, 2005, p. 18-137.

2Ch. Ziegler, *Catalogue de stèles, peinture et reliefs égyptiens de l'Ancien Empire et de la première Période Intermédiaire*, Paris, 1990, p. 84; elle a suivi :A. Felhig, 'Das sogenannte Taschentuch in den Ägyptischen Darstellungen des Alten Reiches ', *SAK 13*, 1986, 55-94.

3N. Kanawati, *Excavations at Saqqara, north-west of Teti,s Pyramid*, vol.1, Sydney, 1984, p. 26 et pl. 12; K. Daoud, Corpus of inscriptions of the Herakleopolitan Period from the Memphite Necropolis, *BAR International Series 1459*, 2005, 103 et 107.

4 *PN* I,149 , 18-19.

5 PM III/2, 542

6 PM III/2, 683.

;V. A. Ruch, Die Entwicklung der Grabsteinformen im Alten Reich, *ZÄS 58*, 1923, 101-24; S. Wiebach, Die altägyptische Scheintür, Morphologische Studien zur Entwicklung und Bedeutung der Hauptkultstelle in den privatgräbern des Alten Reiches, *HÄS* 1, 1981.

7 G. Haeny, Scheintür, *LÄ 5*, 563-74.

8 PM III/2, 652.

9N. Strudwick, Some Remarks on the disposition of texts in old Kingdom Tombs with particular reference to the False Door, *GM* 77, 1984, 35-49.

10 K.Daoud, *Hierakleopolis.*, 4

11 Pour des exemplaires de la nécropole de Saqqara, voir : K. Daoud, Hierakleopolis, 15sq. et pl.X-LXVIII

12 J. Vandier, *Manuel II,* 1954.

13 Daoud, *Hierakleopolis,* passim.

14 H.Junker, *Giza* VI, 98. pour ce titre à l'Ancien Empire, voir: D. Johnes, *An Index of Ancient Egyptian Titles, Epithets and phrases of the Old Kingdom, II, BAR International Series* 866(II), 2002, 861 (3148)

15 Pour ce titre, voir en dernier lieu, D. Johnes, *Index (I)*, 11(42)

16 Ibid., p. 11-43 (43-228)

17 D. Johnes, *Index*, 804 (2937); Piacentini, Scribes II, 692 et pl. 170.

18 ; N. Kanawait, Polygamy in the Old Kingdom of Egypt , *SAK* 4, 1976, 158 (15) .A. Mariette, *Les mastabas*, 207(13).

19H. G. Fischer, A Scribe of the Army in A Saqqara Mastaba of the fifth dynasty, *JNES 18*, 1959, 259 60 (6).

20 H. G. Fischer, A Scribe of Army, 260

21 Pour des exemples et références, voir D. Johnes, Index, I, p. 214 (796).

22 Gardiner, Eg. Grammer, 517, (Y1-2); Posener Krieger, Archive

23 *Wb* II, 188, 1; III, 480, 7.

24 D. Johnes, o.c. I, p. 214 -215 (797,800,802).

25 Brovarski, The Inscribed Material of the First Intermediate Period from Naga Ed Der, vol. I, Chicago, 1989, p. 287 (1), p. 292 (2), p. 294 (e-f). Pour une discussion plus détaillée, voir: W. A. Ward, Old Kingdom sS aS n nsw n xft-Hr,"personal scribe of royal records", and Middle Kingdom sS an nsw n xft-Hr, "scribe of the royal Tablet of the Court", *Or 51*, 1982, p. 382- 89

26 W. A. Ward, o.c., p. 384

27 D. Johnes, o.c., p. 839-40 (3063)

28 Junker, Giza VII, p. 246- 47 (Abb. 104 et Taf. 40 b)

29 PM III/2, p. 85 et 229

30 Junker., VIII, p. 90- 91 PM III/2, p. 165;

31 Ibid., p.124.

32 Ibid., p. 168 -169 (Abb. 88-9 et Taf. XXVII b)

33 PM III/2, p.168

34 PM III/2, p. 504.

35 Borchardt, Denkmäler I, p. Bl. 19, p. 7 -9

36 PM III/2, p. 736; L. Borchardt, Denkmäler I, p. 77- 8

37 PM III/2, p. 491-92 (D70)

38 Pour la lecture du titre de Xry Hbt, voir: Sethe, Mizellene, *ZÄS 70*, 1934, p. 134; Daoud, o.c., p. 103 et n. 1056.

39 LD II, 46 -47; Peck, o.c., p. 13, pl. II

40 Daoud, o.c., p. 103

41 A. M.Roth, '*Egyptian Phyles in the Old Kingdom*', Chicago, 1991, p. 84.

42 *Wb* V, 5, 11.
43 LD II, p. 94 e
44 PM III/2, p. 483
45 PM III/2, p. 483; Mariette, *Mastabas,* p. 196 201 et D 11; Borchardt, *Denkmäler II*, p. 28-30 (15640).
46 S. Hassan, *Giza III*, p. 176 et p. 193, fig. 156.
47 Troy, *Queenship,* p. 187 (B2/1)
48 PM III/1, p. 273; S. Hassan, *Giza II*, p. 9
49 B. L. Begelsbacher-Fischerm Untersuchungen zur Götterwelt des Alten Reichesm *OBO 37*, 1981, p. 53 et 73.





Journal Egyptian Historian



Studies & Researches In History & Civilization



Issued by the Department of History
Faculty of Arts - Cairo University

Volume 38 January 2011